مجلة التأصيل جامعة دنقلا

العدد الحادي عشر يناير ٢٠٢٦م
المجلد الثاني

هيئة التحرير

المشرف العام

أ.د. الوليد مصطفى إبراهيم موسى

رئيس التحرير

د. الأمين عثمان شعيب

نائب رئيس التحرير

د. صالحة سيد أحمد عبد الله

المحـــررون:

أ.د. أشرف إبراهيم عبد الله إبراهيم

د. عبد الله الطيب علي أحمد

د. محمد علي محمود الزين

د. أبو القاسم جمعة أحمد محمد

أ. أبو القاسم علي محمد عقيد

هيئة المستشارين

أ.د. عبد الحكيم حسن إبراهيم
أ.د. معاوية بابكر حسن المهدي
أ.د. كباشي حسين قسيمة إسماعيل
أ.د. الزهور حسن الماهل
أ.د. مهيد محمد المتوكل
أ.د. الطيب محمد المصطفى حياتي
أ.د. علي أحمد بابكر
أ.د. كمال الحاج الحسين عبد الرحمن
أ.د. كمال عبد الله المهلاوي
أ.د. قيس عبد الله إبراهيم الحاج
أ.د. أحمد محمد زين
د. أبو القاسم خليفة التهامي
د. رحاب عبد الرحمن الشريف
د. قاسم عمر أبو الخير
د. محمود محمد أحمد علي عثمان

قواعد النشر:

* تُعنى المجلة بنشر البحوث العلمية المقدَّمة إليها وفق رؤية تأصيلية.
* تقبل البحوث من كافة الباحثين داخل وخارج السودان.
* ألاَّ يكون البحث قد نشر أو قيد الإجراء للنشر في أية دورية علمية أخرى.
* ألاَّ تكون الورقة جزءً من رسالة جامعية أو كتاب منشور.
* يرسل البحث إلكترونياً على بريد المجلة بنوع خط Simplified Arabic بنط ١٤ بمسافة واحدة.
* يُقدم البحث مطبوعاً على ورق A4. على ملف وورد (٢٠٠٧).
* ألاَّ تزيد عدد الصفحات عن ٢٥ صفحة ولا تكون أقل من ١٢ صفحة، ويرفق مستخلصاً للبحث لا يزيد عن (٢٠٠ كلمة) باللغة العربية فقط، حيث يشتمل المستخلص على أهداف البحث وأهميته، ومشكلة البحث، والمنهج المتبع في البحث، والنتائج المتحصل عليها.
* مراعاة الجودة في الفكرة والأسلوب والمنهج والتوثيق العلمي والخلو من الأخطاء اللغوية والنحوية.
* تُوضع إحالات المراجع داخل النص على نمط جمعية علم النفس الأمريكية (APA) (ابن كثير، ٢٠٠٤م، ١٥٢) ومن ثم تأتي تفاصيل المراجع كالآتي:

- اسم العائلة، الاسم الأول، سنة النشر، عنوان الكتاب، دار النشر، مكان النشر.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ٢٠٠٤م، تفسير القرآن العظيم، مكتبة الصفاء، القاهرة.

- في حالة التوثيق من المجلات: اسم المؤلف، سنة النشر، ويُوضع عنوان المقال بين علامتي تنصيص، ثم اسم الدورية، المجلد أو العدد، بلد النشر، ثم ترتيب صفحات المقال داخل العدد.

حسن، صالح رمضان، ٢٠٠٢م، "الصحابي المجاهد، النعمان بن مقرن المزني"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد الرابع والعشرون، دبي، ص ص٢٣٠- ٢٤٨.

- بالنسبة للرسائل الجامعية: اسم الباحث، سنة النشر، عنوان الرسالة، نوع الرسالة (ماجستير - دكتوراه)، الجامعة المانحة للدرجة.

عبد الرازق، فائز أحمد، ٢٠٠٨م، فاعلية استخدام مسرح العرائس في تنمية بعض الجوانب الاجتماعية والأخلاقية، رسالة ماجستير منشورة، جامعة بور سعيد.

* تُعرض البحوث المقدَّمة للنشر في المجلة حال قبولها مبدئياً على محكمين من ذوي الاختصاص يتم اختيارهم بسريَّة تامة.
* للمجلة الحق في إجراء أي تعديلات شكلية تتناسب ورسالة المجلة.
* تعتذر المجلة عن النظر في البحوث المخالفة لقواعد النشر.
* تنقل حقوق طبع البحث ونشره إلى مجلة التأصيل جامعة دنقلا بعد إخطار صاحب البحث بقبول بحثه للنشر.
* الأفكار الواردة في المجلة تعبِّر عن رأي الباحثين وليس عن رأي المجلة.
* البحوث التي لا تنشر لا ترد لأصحابها.

* ترسل البحوث إلى رئيس تحرير المجلة على العنوان التالي: مجلة التأصيل جامعة دنقلا جمهورية السودان على البريد الإلكتروني الآتي: jruofd2018@uofd.edu.sd

أو الاتصال على التلفونات التالية: ٠٠٢٤٩١٢٣٣٢٣٢٦٤ - ٠٠٢٤٩٩١١٠٨٠٠٠١

محتويات العدد

الموضوع	الكاتب	صفحة
هيئة التجرير		ب
مستشارية التحرير		ج
قواعد النشر		د
محتويات العدد		و
كلمة العدد		ز
أحكام الأحداث في الفقه الاسلامي والقانون - دراسة فقهية مقارنة بالقانون السعودي	د. يوسف محمد البربر يوسف	١
قراءة تحليلية لطقوس ومراسم الانتقال في الحضارة الكوشية في ضوء الشواهد الأثرية	د. جمال جعفر عباس الحسن د. إسراء بابكر علي بابكر	١٤
تطور الفكر التاريخي في مكة المكرمة خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة -جدلية العلاقة بين الفقهاء والتاريخ	د. أحمد يحيى أمين كردي	٣٨
مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار النقود والعقود و أثرها الإيجابي على المالية	د. عبد الحميد أحمد محمد فقير	٥٦
الخطاب الصوفي في ديوان الصرصري "دراسة نقدية تحليلية"	د. سلوى عثمان أحمد محمد	٧٢
السجع في بديعيتي صفي الدين الحلي و ابن حجة الحموي دراسة بلاغية مقارنة	د. إبراهيم حسين يعقوب حسن	٩٣
غياب أنظمة إدارة الجودة وأثرها على مراقبة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفيات السودانية الخاصة "دراسة حالة مستشفى توب كير الخاص بمدينة الدويم خلال الفترة ٢٠٢٤-٢٠٢٥"	أمل الماحي الخليفة محمد د. محمد عامر أحمد محمد	١٠٨
آثر الحرب في السودان على تجديد اتفاقيات إعادة التامين بشركات التأمين السودانية (بالتطبيق على شركة السلامة للتأمين واعادة التامين المحدودة السودان ٢٠٢٤م)	د. وئام عبد الله أحمد عبد الرحمن د. محمد عبد العزيز الصافي	١٣٠
دراسة العلاقة بين تبنى السجلات الصحية الإلكترونى ورضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن	د. بدر علي عبد الله آل معاف	١٤٨
السلطان عبد الحميد الثاني وثيودور هرتزل (١٨٧٦-١٩٠٩م)	عبد اللطيف قيس عبد الله	١٦٢
الطبيعة القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية وحمايته "دراسة مقارنة"	د. بابكر صالح محمد المدني	١٧٦
التخطيط السياحي لأغراض تنمية سياحية بيئية مستدامة إقليم المحس شمال السودان نموذجاً	د. ياسر علي محمد تاي الله وآخرون	١٩٩
آرَاءُ أَبِي الفِدَاءِ الأَيُوبِي فِي أُصُولِ النَّحْوِ مِن خِلَالِ كِتَابِهِ: الكناش في فني النَّحْوِ والصَّرْفِ (دراسةٌ وصفيةٌ تحليليةٌ)	د. حمزة آدم يوسف حسن أ. سارة النور عبد الله عوض الباري	٢٢١
استخدام تحليل الانحدار لمعرفة أثر التضخم والإنفاق الحكومي على انخفاض سعر الصرف في السودان (1989- 2019م)	د. سيف الدين حسن عبيد إبراهيم د. عبد الخالق دينار عبد الله ابراهيم د. خالد رحمة الله خضر قناوي	٢٤٠

الجذور الإسلامية للنهضة العلمية الحديثة: قراءة نقدية في أثر العلماء المسلمين على تطور المعرفة الإنسانية	د. محمد حيدر الحبر الطيب	٢٦٢

كلمة العـــدد

قُرّاءنا الكرام..

نحمد الله إليكم أن وفقنا لإصدار هذا العدد الذي يقع في مجلدين من حجم ما درجنا على إعداده من الإصدارات السابقة وما ذلك إلا دلالة على إقبال الباحثين على النشر في هذه المجلة وذلك بفضل إسهامكم بالآراء السديدة والنقد القويم مما أسهم في إنضاج هذه التجربة في النشر والإخراج على نحوٍ مرضيٍ إلى درجة كبيرة.

يأتي هذا العدد حاوياً لعديد المجالات البحثية متطرقاً لمهمات الأمور فيها. فمن تلك المجالات البحثية التي جاءت فيها موضوعات هذا العدد؛ العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية والعلوم التربوية والإدارة والإحصاء والقانون والتاريخ.

ومما اشتمل عليه هذا العدد من الموضوعات في محور الدراسات الإسلامية تأتي دراسةُ وصفية تحليلية فيما أسماه الإمام الرازي بـ"النُّتف" في التفسير. و"إسهام العقيدة الإسلامية في صياغة القيم الدينية المشتركة بين الأمم". ومنهجية الإمام البيضاوي العلمية في كتابه "المنهاج" في أصول الفقه وأثره في فقه "المستجدات العصرية". وكذلك "أحكام الأحداث" دراسة قانونية فقهية مقارنة.

أما في الدراسات اللغوية تجدون بحوثاً متنوعةً بين النقد والوصف والتحليل، فمن ذلك بحثٌ حول كتاب "الكناش" في فني النحو والصرف لأديب عصره إسماعيل بن الأفضل الأيوبي المعروف بـ "صاحب حماة" وكتابه يتناول الظواهر النحوية والصرفية. وكذلك تطالعون بحثاً تحت عنوان "منهج الإمام الفراء في توجيه غريب الحديث". وفي العدد دراسة وصفية تحليلية للخطاب الصوفي في ديوان الإمام الصرصري. وفي العدد كذلك بحث في "بلاغة الانزياح" في القرآن الكريم بعاملي "الزمن" و"التقارب الدلالي"، ثم "الانزياح" اتجاه حداثي في النقد الأدبي الذي يأتي في إطار محاولة عصرية لدراسة التراث العربي. وكذلك "السجع" دراسة بلاغية في إنتاج الشاعرين صفي الدين الحلي وابن حجة الحموي.

وفي مجال التاريخ تطالعون بحوثاً في "طقوس الحضارة الكوشية" و"تطور التاريخ الفكري لمكة المكرمة" و" السلطان عبد الحميد الثاني وتيودور هرتزل" و"العلاقات السودانية السعودية. ١٩٧٠ -1969)

ومن الدراسات القانونية بهذا العدد تجدون دراسات حول "أثر الحرب في السودان في عقود التأمين"، وكذلك" الطبيعة القانونية لعقد الترخيص"، ثم "مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار النقود والعقود وأثرها الإيجابي على المالية".

وفي مجال الدراسات التربوية تأتي دراسة لـ "اتجاهات معلمي ومعلمات اللغة العربية .نحو استخدام الذكاء الاصطناعي في تعليم اللغة العربية" ودراسة حول "برنامج معرفي سلوكي لتعزيز مهارات التواصل لدى أسر مرضى الفصام" بمستشفيات ولاية الخرطوم. وكذلك "تصور مقترحٍ لتأصيل

منهج اللغة العربية للحلقة الأولى" للتعليم العام بالسودان، و"دور الإدارة الأهلية في الحد من آثار الأزمة السودانية وتعزيز استدامة الأمن" دراسة حالة في "محلية كبكابية".

ومن الدراسات الجامعة بين مجالات عدة تأتي دراسة في أثر غياب أنظمة الجودة في مراقبة المستشفيات وتبني السجلات الإلكترونية وأثره في رضا العاملين. ثم "غياب أنظمة إدارة الجودة وأثرها على مراقبة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفيات السودانية الخاصة" بين عامي ٢٠٢٤-٢٠٢٥م، وكذلك دراسة حول أثر تقدم المعلومات الإدارية في تطبيق الجودة الشاملة لتحقيق مميزات قياسية في قطاع المصارف السودانية. وكذلك بحث في "دور ميناء كوستي الجاف في التنمية الاقتصادية والاجتماعية بولاية النيل الأبيض في السودان بين عامي ٢٠١٠م و٢٠٢١م. ثم بحثاً تحت عنوان "أثر السياسات النقدية على التنمية الاقتصادية في السودان خلال الفترة ١٩٩٧م - ٢٠٢٣م". وكذلك "التخطيط السياحي لأغراض تنمية سياحية بيئية مستدامة - إقليم المحس بشمال السودان نموذجاً".

وفي مجال الدراسات الإحصائية تجدون "استخدام تحليل الانحدار في قياس أثر التضخم والإنفاق الحكومي في انخفاض سعر الصرف.

وفي المجال الصحي تجدون بحثاً في "أسباب وآثار انتشار مرض الملاريا بمدينة كوستي بولاية النيل الأبيض" في السودان.

القراء الكرام...

تنصب جل جهودنا في تجويد مخرجات هذه الأعداد بما تطمح إليه قرائحكم المشرئبة دوماً إلى مناهل المعرفة والتمحيص، ولن تؤتي هذه الجهود ثمارها بغير تلاقح العمل من جانبنا والنقد البنَّاء منكم، آملين أن تصلنا منكم الآراء النصوح والأفكار البنَّاءة والنقد المخلص فأنتم الشركاء الموثوقون في هذا العمل فعليكم الاعتماد في ذلك وعلى الله التِّكلان.

هيئة التحرير

أحكام الأحداث في الفقه الاسلامي والقانون ـ دراسة فقهية مقارنة بالقانون السعودي

د. يوسف محمد البرير يوسف(•)

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة لتحقيق وبيان مفهوم وأحكام الأحداث في الفقه الإسلامي والقانون العام. وتحليل أحكام الأحداث في الفقه الإسلامي ومقارنتها بالنظام السعودي (نظام الأحداث ولائحته التنفيذية). مع استعراض الأساليب الوقائية والعلاجية لانحراف الأحداث في المنظورين الفقهي والقانوني. تتمثل أهمية البحث في أنه يسهم في إثراء البحث الفقهي المقارن من خلال ربط المبادئ الشرعية التاريخية بالتشريعات القانونية الحديثة، وتسليط الضوء على التدرج في المسؤولية الجنائية المعتمد على النمو العقلي والجسدي. ويقدم رؤى نقدية وتطبيقية لتقييم وتطوير آليات التعامل مع الأحداث في القضاء السعودي، ويساعد في معالجة الثغرات بين النظرية الفقهية والتطبيق النظامي، مما يعزز التوازن بين الأصول الشرعية والمتطلبات القانونية المعاصرة. تكمن مشكلة البحث في ظاهرة انحراف الأحداث المتزايدة، وما يصاحبها من غياب للدراسات المقارنة المعمقة التي تربط بين النظرية الفقهية الإسلامية التأسيسية وأحكام النظام القانوني السعودي المعاصر. وسد هذه الفجوة البحثية من خلال توضيح مدى توافق التدابير الإصلاحية في النظام السعودي مع الأصول الفقهية التي تراعي التدرج في المسؤولية. اتبعت الدراسة المنهج المقارن الوصفي التحليلي كمنهج رئيس. وقد مكّن هذا المنهج من إجراء مقارنة متعمقة بين الأحكام التفصيلية في الفقه الإسلامي والنصوص النظامية السعودية، والتحليل النقدي لأوجه التوافق والاختلاف، واستخلاص النتائج المعمقة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة في معالجة قضايا الأحداث. وخلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها: يؤكد الفقه الإسلامي على مبدأ التدرج في تحمل المسؤولية الجنائية والمدنية بناءً على مراحل النمو (انعدام التمييز، التمييز الناقص، البلوغ)، وهو مبدأ تجسده التشريعات السعودية عبر تحديد فئات عمرية مختلفة (الطفل، الحدث، الفتى) لكل منها إجراءات خاصة.

مقدمة

تُعد حماية الأمن وصيانته من أهم المقاصد العليا للشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية على حد سواء. فالإسلام يؤكد على أهمية حفظ النفس والعرض والمال كضرورات أساسية، بينما تسعى القوانين الوضعية جاهدة لتحقيق الاستقرار المجتمعي. وتكمن خطورة التعدي على الأمن في تهديده للنسيج الاجتماعي وزعزعة الاستقرار، مما يؤدي إلى تفكك المجتمعات وانهيار منظومتها الأمنية. لذا وضعت الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية تشريعات صارمة لردع المعتدين وحماية أمن الأفراد

(•) أستاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الملك فيصل- المملكة العربية السعودية

والمجتمعات. ويُعد الحفاظ على الأمن مسؤولية مشتركة بين مؤسسات الدولة والمجتمع، حيث يجب تضافر الجهود لمواجهة أي تهديدات محتملة.

تميز الفقه الإسلامي بنظرة شمولية عميقة في تعامله مع قضايا الأحداث، حيث وضع أسساً راسخة لتحديد مفهوم الحدث وضوابط المسؤولية الجنائية المترتبة على تصرفاته. فقد قسّم الفقهاء مراحل الإنسان إلى ثلاث مراحل رئيسة: مرحلة انعدام التمييز، ومرحلة التمييز الناقص، ومرحلة التمييز الكامل (البلوغ). ولكل مرحلة أحكامها الخاصة من حيث المسؤولية الجنائية والمدنية. ففي مرحلة انعدام التمييز (الصبي غير المميز)، أجمع الفقهاء على رفع القلم عنه وعدم تحمله للمسؤولية الجنائية، استناداً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق". أما في مرحلة التمييز الناقص (الصبي المميز)، فقد فرق الفقهاء بين العقوبات البدنية والمالية، فأسقطوا عنه العقوبات البدنية كالحدود والقصاص، وأوجبوا عليه الضمان المالي في الأموال والممتلكات، مع إمكانية تأديبه تأديباً تربوياً. وأما في مرحلة البلوغ، فتترتب على الإنسان جميع التكاليف الشرعية ويتحمل المسؤولية الكاملة(السيوطي، ١٩٩٨م، ٢٩٣).

وقد تميزت نظرة الفقه الإسلامي للأحداث بمراعاة البعد التربوي والإصلاحي، بعيداً عن النظرة العقابية المحضة، حيث وضعت الشريعة تدابير وقائية وإصلاحية تهدف إلى حماية الحدث وتقويم سلوكه. كما أنها راعت التدرج في المسؤولية بحسب مراحل النمو العقلي والجسدي للحدث، مما يعكس عمق النظرة الإسلامية وشموليتها في هذا المجال(الدوسري، ١٩٩٨م، ١٧١).

أما في القانون السعودي، حيث يمثل نظام الأحداث في المملكة العربية السعودية امتداداً للنظرة الشرعية في التعامل مع قضايا الأحداث، مع مراعاة المستجدات والتطورات المعاصرة. فقد صدر نظام الأحداث بالمرسوم الملكي رقم (م/١١٣) وتاريخ ١٩/١١/١٤٣٩هـ، ليُشكل نقلة نوعية في التعامل مع قضايا الأحداث في المملكة.

ويتميز النظام السعودي للأحداث بتحديده الدقيق لمفهوم الحدث، حيث عرّفه بأنه "كل إنسان لم يتجاوز سن الثامنة عشرة"، كما قسم الأحداث إلى فئات عمرية مختلفة لكل منها أحكامها الخاصة. فميّز بين "الحدث" الذي تجاوز سن السابعة ولم يبلغ الخامسة عشرة، و"الفتى" الذي أتم الخامسة عشرة ولم يتجاوز الثامنة عشرة[١].

ومن أبرز ما يميز النظام السعودي تركيزه على الجانب الإصلاحي والتأهيلي في التعامل مع الأحداث، حيث أنشأ دور الملاحظة الاجتماعية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، وأوجد محاكم خاصة بالأحداث، ونص على تدابير بديلة للعقوبات السالبة للحرية مثل التوبيخ، والتسليم للأسرة أو لمن له الولاية، والإلحاق بدورات تدريبية مهنية، والإلزام بواجبات محددة، والإيداع في مؤسسات اجتماعية.

---

(١) المادة (٢) من نظام الأحداث بالمرسوم الملكي رقم (م/١١٣) وتاريخ ١٩/١١/١٤٣٩هـ

كما اهتم النظام بتأهيل الكوادر العاملة في مجال قضاء الأحداث وتدريبهم على التعامل مع هذه الفئة(آل سعود، ٢٠٢٠م، ٢٧٧).

ويعكس النظام السعودي التوازن بين الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية من جهة، ومواكبة التطورات المعاصرة في مجال عدالة الأحداث من جهة أخرى، مما يجعله نموذجاً فريداً يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

تكمن أهمية دراسة أحكام الأحداث في الفقه الاسلامي والقانون - دراسة فقهية مقارنة بالقانون السعودي، من خلال ارتباطها بتحقيق العدالة التربوية والاجتماعية، كما أن المقارنة مع القانون السعودي تكشف عن تطبيق مبادئ الشريعة في نظام الأحداث، مثل التركيز على التدابير الإصلاحية بدل العقوبات السالبة للحرية (كالتوبيخ أو التسليم للأسرة).

مشكلة الدراسة:

يشكل انحراف الأحداث ظاهرة معقدة ومتنامية تستدعي دراسة متعمقة وشاملة، تكشف عن الأسباب الجذرية المؤدية إلى هذا السلوك الانحرافي. فارتفاع معدلات جنوح الأحداث في المجتمعات المعاصرة يمثل تحدياً اجتماعياً وأمنياً خطيراً يتطلب فهماً دقيقاً وعميقاً للعوامل المؤثرة. وتأتي أهمية هذه الدراسة من ضرورة التعرف على الأسباب المعقدة التي تدفع الأحداث للانحراف، والبحث عن آليات وقائية وعلاجية فعالة تساهم في حماية المجتمع وإعادة تأهيل الأحداث.

تسعى دراسة "أحكام الأحداث في الفقه الإسلامي والقانون - دراسة فقهية مقارنة بالقانون السعودي" إلى سد الفجوة البحثية المتمثلة في غياب تحليل معمق يربط بين النظرية الفقهية الإسلامية وأحكام النظام السعودي المعاصر، حيث تبرز الحاجة إلى توضيح مدى توافق التدابير الإصلاحية الواردة في قانون الأحداث السعودي مع الأصول الفقهية التي تراعي التدرج في المسؤولية الجنائية بناءً على مراحل النمو العقلي والجسدي للحدث. ومن هنا جاءت هذه الدراسة للإجابة على التساؤل التالي: **ما أحكام الأحداث في الفقه الاسلامي والقانون - دراسة فقهية مقارنة بالقانون السعودي؟**

تساؤلات الدراسة:

من خلال سؤال الدراسة الرئيسي، والذي تتفرع عنه الأسئلة التالية:

١. ما مفهوم أحكام الأحداث في الفقه والقانون؟
٢. ما أحكام الأحداث في الفقه الاسلامي والقانون السعودي؟
٣. ما هي الأساليب الوقاية في انحراف الأحداث فقهاً وقانوناً؟

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية الدراسة في جانبها العلمي والعملي كما يلي:

أولاً: الأهمية العلمية للدراسة:

تكمن الأهمية العلمية لهذه الدراسة في كونها تُسهم في إثراء البحث الفقهي والقانوني المقارن من خلال استكشاف مفهوم الحدث في الفقه الإسلامي وربطه بالتشريعات القانونية الحديثة، مثل

النظام السعودي الذي يعتمد على تعريف الحدث بمن لم يتجاوز ١٨ عامًا. كما أنها تسلط الضوء على التدرج الفقهي في تحديد المسؤولية الجنائية بناءً على مراحل النمو العقلي والجسدي للحدث، مما يعمق فهم العلاقة بين الشريعة الإسلامية والمعايير الدولية لحقوق الطفل.

ثانياً: الأهمية العملية:

أما **الأهمية العملية** فتتجلى في تقديم رؤى قانونية وإصلاحية تسهم في تحسين التعامل مع الأحداث في القضاء السعودي، حيث تسعى الدراسة لتقييم مدى توافق التدابير الإصلاحية (مثل التوبيخ أو التسليم للأسرة) مع مقاصد الشريعة الإسلامية التي تركز على الإصلاح بدلاً من العقوبة، كما أن الدراسة تُساعد في معالجة الثغرات القانونية المتعلقة بتطبيق الأحكام الفقهية على الواقع العملي، مثل كيفية تعامل المحاكم مع الأحداث الذين يجمعون بين التمييز الناقص والكامل.

بالتالي، تُعزز هذه الدراسة الجهود الرامية إلى تحقيق التوازن بين الأصول الشرعية والمتطلبات القانونية المعاصرة في مجال حماية الأحداث وتأهيلهم.

أهداف الدراسة:

تسعى الدراسة لتحقيق ما يلي:

١. بيان مفهوم أحكام الأحداث في الفقه والقانون.
٢. بيان أحكام الأحداث في الفقه الاسلامي والقانون السعودي.
٣. التعرف على الأساليب الوقاية من انحراف الأحداث فقهاً وقانوناً؟

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج المقارن الوصفي التحليلي كمنهج أساسي لتحقيق أهدافها. واختيار هذا المنهج يستند إلى عدة اعتبارات علمية أهمها: قدرته على المقارنة المتعمقة بين الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية، وإمكانية التحليل الدقيق للنصوص والتشريعات. كما يسمح هذا المنهج بالكشف عن أوجه التشابه والاختلاف في معالجة قضية أحكام الأحداث، مع تقديم تحليل نقدي موضوعي يجمع بين الأصالة والمعاصرة. ويتميز المنهج المقارن بقدرته على استخلاص النتائج العلمية المعمقة التي تثري المعرفة في مجال دراسة قضايا الأحداث.

مصطلحات الدراسة:

أولاً: تعريف الأحكام:

الأحكام لغة:

الأحكام لغةً تُعرَّف بأنها: المنع والصرف، ومنه جاءت الكلمة بمعنى الإحكام أو القضاء، كما في قول الفيومي: "الأحكام: جمع حكم وهو لغة القضاء(الفيومي المقريْ، ١٩٨٧م، ٣٤٢).

اصطلاحاً:

أما اصطلاحًا، فالأحكام تُعرَّف بأنها :ما اقتضاه خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين من طلب أو تخيير أو وضع(المنياوي، د.ت، ٨١)، ويُقصد بها خطاب الله الموجه للمكلفين الذي يحدد كيفية

التعامل مع أفعالهم سواء بالاقتضاء (كالواجب) أو التخيير (كالمباح) أو الوضع (كالعقود) (المنياوي، د.ت، ٨١).

ثانياً: تعريف الأحداث:

يراد بالحدث في اللغة صغير السن، ويقال: الرجل الحدث أي الشاب، وقال الأزهري: " شاب حدث أي فتي السن"، ويقول ابن درستويه: "من الخطأ أن يقال حدث السن أو حديث السن، وإنما الحدث هو صفة الغلام فيقال هو حدث"(ابن منظور، ١٤١٤هـ، ٧٩٧؛ الزبيدي، د.ت، ٢٠٧-٢٠٨؛ مجمع اللغة العربية، ١٩٧٢م، ١٦٠).

اصطلاحاً:

عبر الفقهاء عن هذا المصطلح بلفظ (طفل) أو (صبي) ولم يستخدم لفظ (الحدث) عندهم، ولم يذكر في القرآن بهذا اللفظ إنما وردت خمسة ألفاظ مرادفة لهذا المعنى(الحافري، ٢٠٠٩م، ٤٠).

مفهوم أحكام الأحداث في الفقه والقانون

مفهوم أحكام الأحداث في الفقه والقانون يشير إلى مجموعة القواعد والإجراءات التي تنظم التعامل مع الأشخاص الذين لم يبلغوا سن الرشد القانوني، والذين يرتكبون أفعالًا مخالفة للقانون. يهدف هذا المفهوم إلى تحقيق التوازن بين حماية المجتمع وحماية حقوق الأحداث، مع الأخذ في الاعتبار خصوصية هذه الفئة العمرية وحاجتها إلى الرعاية والتأهيل.

أولاً: مفهوم الحدث في الفقه والقانون:

لغة: حدث، حداثة، أول العمر أو أول النشأة "يقال في حداثة سنه"، أو "أيام الحداثة والدراسة"(المعجم الوسيط، ١٩٧٢م، ٢٨٥).

ومفهوم الحدث من الناحية الزمنية يشير إلى العمر ما بين (٦ – ١٠) سنوات كحد أدنى وإلى عمر يتراوح ما بين ١٦ – ٢١ سنة في حده الأعلى وينظر إلى هذه الفترة من الناحية الاجتماعية على أنها مرحلة الطفولة والمراهقة(عبد الكريم، والمكي، ٢٠٠٩م، ١٩١).

والحدث في المفهوم الاجتماعي والنفسي هو الصغير من ولادته حتى يتم نضوجه الاجتماعي والنفسي وتتكامل لديه عناصر الرشد والتي تتمثل في القدرة على إدراك وفهم ماهية أفعاله ونتائجها مع توفر الإرادة لديه أي القدرة على توجيه نفسه إلى فعل معين أو امتناع عنه(يحيى، والنجار، د.ت، ٤٠).

ونجد أن المادة الأولى من اتفاقية حقوق الطفل عرفت الحدث مع تسميته بالطفل "كل إنسان لم يتجاوز (١٨) من عمره ما لم يبلغ سن الرشد قبل ذلك بموجب القانون المطبق على الطفل"[١].

ونصت في التعليق الوارد على هامش هذه القاعدة أن: من الجدير الإشارة أن الحدود العمرية ستتوقف على النظام القانوني في البلد المعني والقواعد تنص على ذلك بعبارة صريحة.

---

(١) المادة الأولى من اتفاقية حقوق الطفل ١٩٨٩م، اتفاقية نيويورك.

كما أن هذا التعليق حدد سن الحدث من (٧) إلى (١٨) سنة وأخذ بعين الاعتبار أن الصغير الذي لم يتم (٧) سنة من عمره غير مميز وبالتالي غير مسؤول جنائياً لفقدان أحد شرطيها وهو الإدراك.

أما المشرع السعودي فقد نص في المادة (١) من قانون حماية الطفل يقصد في مفهوم هذا القانون بما يأتي:

"**الطفل**: كل شخص لم يبلغ (١٨) سنة كاملة يفيد مصطلح حدث نفس المعنى"[١].

جاء هذا التعريف موافق لاتفاقية حقوق الطفل وما جاء في المادة الأولى منها وهو ما تعتمده كل المنظمات الدولية ومعظم الدول في العالم.

تحسب السن بالتقويم الميلادي، وسن الرشد (١٨) سنة كاملة ابتداءً من ساعة الميلاد إلى ساعة ارتكاب الجرم.

ثانياً: الحدث في الفقه الإسلامي :

إذا نظرنا إلى تعريف الحدث في الاصطلاح الشرعي عند الفقهاء نجد أنه هو المعنى نفسه الذي للحدث أو الصبي فيطلق فقهاء الشريعة الإسلامية تعبير الصبي على من لم يبلغ وقد درجوا على تسمية الأحداث بالصبيان والصغار(عبد الكريم، والمكي، ٢٠٠٩م، ١٩١).

عرف الفقهاء الصبي: هو صغير السن الذي لم يصل إلى مرحلة البلوغ(الحافري، ٢٠٠٩م، ٤٠).

ورد ذكر مفهوم الطفل في القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

مما سبق يلاحظ أن الفقهاء يطلقون لفظ الصبي على من لم يبلغ الحلم، وإن كان بعض الفقهاء قد عبروا عن الصغير الذي لم يبلغ بلفظ الحدث.

ثالثاً: مفهوم أحكام الأحداث في الفقه الإسلامي:

مفهوم أحكام الأحداث في الفقه الإسلامي يشير إلى الأحكام الشرعية المتعلقة بتصرفات الأشخاص الذين لم يبلغوا سن التكليف الكامل (البلوغ)، سواء كانوا في مرحلة انعدام التمييز أو التمييز الناقص(صباهي، ٢٠١١م، ١٥). ويُنظر إلى هذه الأحكام من زاوية المسؤولية الجنائية والمدنية، حيث يتم التفريق بين مراحل نمو الإنسان: الطفولة، مرحلة التمييز الناقص، ومرحلة البلوغ التي تُعتبر نقطة تحول نحو المسؤولية الكاملة(مصطفى، ٢٠١٦م، ٢١).

في الفقه الإسلامي، لا تترتب على الطفل الذي لم يبلغ التمييز أي مسؤولية جنائية أو مدنية، بينما يتحمل الطفل المميز بعض المسؤوليات المحدودة، مثل وجوب الأداء في العقود البسيطة دون الحاجة

---

(١) نظام حماية الطفل، الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/١٤) بتاريخ ٣ / ٢ / ١٤٣٦هـ.

إلى إذن الوالدين. أما بعد البلوغ، فيصبح الإنسان مسؤولاً بشكل كامل عن أفعاله، سواء كانت جنائية أو مدنية، ما لم يكن هناك عذر شرعي(صباهي، ٢٠١١م، ١٦).

كما أن الفقه الإسلامي ركز على الجانب الإصلاحي بدلًا من العقابي المحض في التعامل مع الأحداث، حيث وضع ضوابط لحمايتهم وتقويم سلوكهم بما يتناسب مع مراحل نموهم العقلية والنفسية.

أحكام الأحداث في الفقه الاسلامي والقانون السعودي

تُشير أحكام الأحداث في الفقه الإسلامي إلى مجموعة الأحكام الشرعية التي تنظم كيفية التعامل مع الأشخاص الذين لم يبلغوا سن التكليف الكامل (البلوغ)، سواء كانوا في مرحلة انعدام التمييز أو التمييز الناقص.

يتم تحديد المسؤولية الجنائية والمدنية للأحداث بناءً على مراحل نموهم العقلية والجسدية، حيث لا تترتب على الطفل الذي لم يبلغ التمييز أي مسؤولية جنائية أو مدنية، بينما يتحمل الطفل المميز بعض المسؤوليات البسيطة مثل صحة العقود البسيطة دون إذن وليه(الدوسري، ١٩٩٨م، ٥٣).

أما في القانون الوضعي، فإن أحكام الأحداث تُنظم من خلال تشريعات خاصة، مثل قوانين الأحداث التي تهدف إلى حمايتهم وإعادة تأهيلهم بدلاً من فرض عقوبات سالبة للحرية. وقد ركزت التشريعات الحديثة على إنشاء مؤسسات إصلاحية وتدابير بديلة مثل التوبيخ أو التسليم للأسرة، لضمان إعادة دمج الأحداث في المجتمع بشكل إيجابي[١].

ويمكن تحديد أحكام الأحداث في كل من الفقه الإسلامي والقانون من خلال ما يلي:

أولاً: تقسيم مراحل نمو الإنسان:

يتم تقسيم مراحل نمو الإنسان إلى ثلاث مراحل رئيسة(الشحات، ١٩٨٦م، ٣١١):

مرحلة انعدام التمييز: وهي المرحلة التي يكون فيها الطفل غير قادر على التمييز بين الخطأ والصواب، ولا تترتب على أفعاله أي مسؤولية جنائية أو مدنية.

مرحلة التمييز الناقص: وهي المرحلة التي يبدأ فيها الطفل بإظهار قدرة محدودة على التمييز، ويتحمل بعض المسؤوليات البسيطة مثل صحة العقود البسيطة دون الحاجة إلى إذن الوالدين ٤.

مرحلة البلوغ (التمييز الكامل) : وهي المرحلة التي يصبح فيها الشخص مكلفًا شرعًا، وتترتب على أفعاله المسؤولية الكاملة سواء كانت جنائية أو مدنية.

ثانياً: أسس تحديد المسؤولية الجنائية للأحداث:

تُحدد المسؤولية الجنائية للأحداث بناءً على معايير شرعية، منها[٢]:

١- البلوغ: وهو الشرط الأساسي لتحمل المسؤولية الجنائية الكاملة، ويُعرف بالسن أو بعلامات أخرى مثل الاحتلام للذكور أو الحيض للإناث.

---

(١) نظام الأحداث السعودي، الصادر بالمرسوم ملكي رقم م/١١٣ بتاريخ ١٩/١١/١٤٣٩ هـ

(٢) ينظر: قانون الأحداث الأردني رقم (٣٢) لعام ٢٠١٤م.

٢- **العقل:** حيث لا تترتب المسؤولية الجنائية على من فقد عقله أو كان غير مدرك لأفعاله.

٣- **الإكراه:** إذا كان الفعل نتيجة إكراه أو ضغط، فإن المسؤولية الجنائية تسقط أو تخفف.

ثالثاً: التدرج في المسؤولية الجنائية:

ركّز الفقه الإسلامي على التدرج في تحمل المسؤولية الجنائية بناءً على مراحل النمو العقلي والجسدي للأحداث(المراغي، ٢٠١٨م، ٢٨):

١. **في مرحلة انعدام التمييز:** لا تترتب على أفعال الطفل أي مسؤولية جنائية أو مدنية، لأنها تُعتبر أفعالًا غير مقصودة.
٢. **في مرحلة التمييز الناقص:** يتحمل الطفل بعض المسؤوليات المحدودة، مثل وجوب الأداء في العقود البسيطة، ولكن لا تُفرض عليه عقوبات جنائية.
٣. **في مرحلة البلوغ :** يتحمل الشخص المسؤولية الكاملة عن أفعاله، سواء كانت جنائية أو مدنية، ما لم يكن هناك عذر شرعي مثل الجنون أو الإكراه.

رابعاً: الجانب الإصلاحي في التعامل مع الأحداث:

يتميز الفقه الإسلامي بنهجه الإصلاحي والتربوي في التعامل مع الأحداث، حيث يركز على حمايتهم وإصلاح سلوكهم بدلاً من فرض العقوبات القاسية. ومن الأمثلة على ذلك(المراغي، ٢٠١٨م، ٢٩):

١. الإصلاح الاجتماعي : يُشجع الفقه الإسلامي على إعادة تأهيل الأحداث من خلال التوجيه والإرشاد، وتجنب العقوبات السالبة للحرية إلا في الحالات الضرورية.
٢. التدابير الوقائية : وضع الفقه الإسلامي تدابير وقائية لحماية الأحداث من الانحراف، مثل تعزيز التربية الدينية والأخلاقية، وتشجيع الأسرة على دورها في تربية الأبناء.

خامساً: أحكام الأحداث في الجرائم الجنائية:

في الجرائم الجنائية، يتم التعامل مع الأحداث وفقًا لمعايير خاصة تراعي طبيعتهم النفسية والعقلية(اللامي، والوائلي، ٢٠٢٤م، ٢٨):

الجرائم البسيطة: يُعامل الحدث برفق، وقد تُكتفى بتوجيه توبيخ أو تأنيب.

الجرائم الكبرى: إذا ارتكب الحدث جريمة كبرى بعد بلوغه سن التمييز الكامل، فإنه يتحمل المسؤولية الجنائية، ولكن قد تُخفف العقوبة بناءً على عمره وظروفه.

سادساً: أحكام الأحداث في الجرائم المدنية:

في الجرائم المدنية، يتم التعامل مع الأحداث وفقًا لنوع العقد أو الفعل(اللامي، والوائلي، ٢٠٢٤م، ٣٠).

العقود البسيطة: يجوز للحدث المميز الدخول في عقود بسيطة دون إذن وليه.

العقود المعقدة: يتطلب الأمر إذن الولي أو القاضي لضمان حماية حقوق الحدث.

سابعاً: مقارنة مع النظام السعودي:

يتميز تعامل النظام السعودي مع الأحداث وفقاً لنظام الأحداث بعدة سمات رئيسية تهدف إلى حماية حقوقهم وإعادة تأهيلهم، مع التركيز على الجانب الإصلاحي بدلاً من العقابي. ومن أبرز هذه السمات[١]:

١. **تحديد سن الحدث**: عرّف النظام السعودي الحدث بأنه "كل ذكر أو أنثى أتم السابعة ولم يتم الثامنة عشرة من عمره". هذا التعريف ينسجم مع المعايير الدولية لحقوق الطفل ويتيح تصنيف الأشخاص ضمن فئة الأحداث لتوفير حماية خاصة لهم.
٢. **إجراءات قانونية مخصصة للأحداث**: تُجرى محاكمة الحدث أمام المحكمة بحضور ولي أمره أو من يقوم مقامه، وإذا تعذر ذلك، يتم حضور مندوب من الدار. كما يُمنح الحدث الحق في الاستعانة بمحامٍ للدفاع عنه، مما يعكس احترام حقوقه القانونية.
٣. **التدابير البديلة للعقوبات السالبة للحرية**: ركز النظام السعودي على استخدام تدابير إصلاحية بديلة للحبس، مثل التوبيخ، التسليم للأسرة، الإلحاق بدورات تدريبية مهنية، أو الإيداع في مؤسسات اجتماعية. هذه التدابير تهدف إلى إعادة تأهيل الحدث ودمجه في المجتمع بشكل إيجابي.
٤. **إنشاء مؤسسات متخصصة**: تم إنشاء دور الملاحظة الاجتماعية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية لاستقبال الأحداث الذين يحتاجون إلى تأهيل وتوجيه. هذه المؤسسات تعمل على توفير بيئة مناسبة لإصلاح سلوك الحدث بعيدًا عن السجون.
٥. **مراعاة خصوصية الحدث**: نص النظام السعودي على ضرورة الحفاظ على خصوصية الأحداث أثناء إجراءات التقاضي، بما في ذلك ضبط بلاغاتهم وسماع شهاداتهم في أماكن مناسبة وبوجود ولي أمرهم أو من ينوب عنه.
٦. **التدرج في المسؤولية الجنائية**: يراعي النظام السعودي مراحل النمو العقلية والجسدية للأحداث، حيث لا تُفرض عقوبات جنائية على الأطفال دون سن التمييز الكامل، بينما يتم تخفيف العقوبات أو استبدالها بتدابير إصلاحية للأطفال في مرحلة التمييز الناقص.
٧. **الالتزام بالمبادئ الشرعية والثقافية**: جاء النظام السعودي متوافقًا مع روح الشريعة الإسلامية، التي تشدد على العدل والإصلاح، مع مراعاة القيم الثقافية والاجتماعية للمجتمع السعودي.

أساليب الوقاية من انحراف الأحداث فقهاً وقانوناً

تسعى المملكة العربية السعودية لبناء مجتمع خالٍ من الجرائم والانحرافات التي تمس الأخلاق والدين؛ لذلك فرضت قوانين وعقوبات لمن سعى في خراب هذا البناء، ولاسيما المراهقين والأحداث،

---

(١) المادة (٢) من نظام الأحداث بالمرسوم الملكي رقم (م/١١٣) وتاريخ ١٤٣٩/١١/١٩هـ.

فهذه المرحلة العمرية التي يمر بها هؤلاء لا تمنع من فرض عقوبات عليهم؛ تردعهم عن هذه الانحرافات.

وفيما يتعلق بالجانب التنظيمي، وفي إطار حماية الأبناء من الانحراف ومحاولة تقويمهم وضعت المملكة العربية السعودية منظومة متكاملة لرعاية الأحداث من خلال سلسلة من الأنظمة والتشريعات المتقدمة. حيث أصدرت نظام حماية الطفل الذي يضمن حقوق الأطفال ويحميهم من كافة أشكال الإساءة والإهمال. كما أنشأت مراكز متخصصة للرعاية الاجتماعية والنفسية للأحداث، تهدف إلى توفير الدعم الشامل لهم. وأكدت التشريعات السعودية على أهمية التأهيل والتربية بدلاً من العقاب التقليدي، مع التركيز على إعادة دمج الأحداث في المجتمع. وعملت على توفير برامج التعليم والتدريب المهني للأحداث لضمان مستقبلهم(١).

كما حددت الأنظمة السعودية عقوبات خاصة للأحداث المخالفين للقانون تراعي خصوصية المرحلة العمرية وظروفها. فقد وضعت نظام التدابير المؤسسية للأحداث الذي يميز بين التدابير التأديبية والتربوية والعقابية وفقاً لخطورة الجريمة وعمر الحدث. وحددت سن المسؤولية الجزائية بما يتناسب مع النمو النفسي والعقلي للأحداث. كما نصت على إنشاء محاكم متخصصة للأحداث تراعي الظروف الخاصة لكل حالة. وأكدت على سرية الإجراءات القانونية لحماية الحدث من الوصم الاجتماعي. وركزت على برامج التأهيل والإصلاح بدلاً من العقوبات التقليدية السالبة للحرية(٢).

أما الفقه الإسلامي، فيؤكد على أهمية التربية الدينية والأخلاقية كأساس وقائي رئيسي لحماية الأحداث من الانحراف. فالتربية السليمة تغرس القيم الروحية والأخلاقية التي تحصن الفرد من الوقوع في الجريمة، وتعزز الوازع الديني الداخلي. وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على دور التربية في بناء شخصية متوازنة، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. ويؤكد الفقهاء على ضرورة الرعاية الشاملة للأحداث من خلال التوجيه والإرشاد المستمر. كما يعتبر الحفاظ على البيئة الأسرية السليمة من أهم الوسائل الوقائية، حيث تلعب الأسرة دوراً محورياً في تنشئة الأبناء التنشئة السليمة(ابن القيم، ١٩٩١م، ٣-١١).

كما يركز الفقه الإسلامي على أهمية التأديب والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة كوسيلة وقائية فعالة لمنع انحراف الأحداث. فالشريعة الإسلامية تدعو إلى استخدام أساليب التربية الإيجابية التي تعتمد على الحوار والنصح بدلاً من العقاب القاسي. ويؤكد العلماء على أهمية فهم نفسية الحدث وظروفه المحيطة، والتعامل معه بما يتناسب مع مرحلته العمرية. وقد حث النبي محمد ﷺ على الرفق بالأطفال والتعامل معهم بالحب والرحمة، ويعتبر توفير القدوة الحسنة من أهم الأساليب الوقائية في التربية الإسلامية، حيث يتأثر الأحداث بسلوك من حولهم(النووي، ١٩٩٨م، ٣٢٨).

---

(١) نظام حماية الطفل، الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/١٤) بتاريخ ٣ / ٢ / ١٤٣٦هـ.

(٢) نظام الأحداث الصادر بالمرسوم الملكي رقم م/١١٣ بتاريخ ١٩/١١/١٤٣٩ هـ

ويهتم الفقه الإسلامي بالوقاية من خلال تحقيق التكافل الاجتماعي ورعاية الأحداث اقتصادياً واجتماعياً. فالشريعة الإسلامية تولي اهتماماً كبيراً بمعالجة الأسباب الجذرية للانحراف، مثل الفقر والجهل والتفكك الأسري. وتؤكد على ضرورة توفير فرص التعليم والتأهيل للأحداث، وكفالة حقوقهم الأساسية. ويعتبر نظام الزكاة والصدقات من الآليات المهمة لدعم الأسر المحتاجة ورعاية الأيتام والمحرومين. كما يدعو الإسلام إلى إيجاد فرص عمل وتدريب للشباب لحمايتهم من الانحراف. ويؤكد الفقهاء على أهمية المجتمع في توفير شبكة أمان اجتماعي للأحداث(الغزالي، د.ت، ٢، ٦٠).

الخاتمة

أكدت الدراسة الحالية على أهمية التكامل بين الفقه الإسلامي والنظام السعودي في التعامل مع الأحداث، مع التركيز على الجانب الإصلاحي والوقائي. كما تبرز الحاجة إلى تطوير الأنظمة والبرامج التي تهدف إلى حماية الأحداث وإعادة تأهيلهم، بما يتماشى مع المبادئ الشرعية والمعايير الدولية.

ومن أبرز نتائج هذه الدراسة:

١. **التدرج في تحمل المسؤولية الجنائية والمدنية:** أظهرت الدراسة أن الفقه الإسلامي يعتمد على التدرج في تحمل المسؤولية بناءً على مراحل النمو العقلي والجسدي للأحداث، حيث لا تترتب مسؤولية جنائية أو مدنية على الطفل غير المميز، بينما يتحمل الطفل المميز بعض المسؤوليات البسيطة.

٢. **الجانب الإصلاحي في التعامل مع الأحداث**: الفقه الإسلامي ركز على الجانب الإصلاحي بدلاً من العقابي المحض، حيث يتم تعزيز التربية والإرشاد لحماية الأحداث وإصلاح سلوكهم.

٣. **مراعاة خصوصية الأحداث**: النظام السعودي يشدد على ضرورة الحفاظ على خصوصية الأحداث أثناء إجراءات التقاضي، بما في ذلك ضبط البلاغات وسماع الشهادات في أماكن مناسبة وبوجود ولي الأمر أو من ينوب عنه.

٤. **تو افق النظام السعودي مع المعايير الدولية**: النظام السعودي يحدد سن الحدث بين السابعة والثامنة عشرة، وهو ما يتماشى مع اتفاقية حقوق الطفل التي تُعتبر سن ١٨ هو سن الرشد القانوني.

٥. **التدابير الوقائية والتأهيلية**: التشريعات السعودية تركز على برامج التأهيل والإصلاح بدلاً من العقوبات السالبة للحرية، مع توفير برامج التعليم والتدريب المهني للأحداث لضمان مستقبلهم.

٦. **التكامل بين الفقه الإسلامي والنظام السعودي**: النظام السعودي يستمد مبادئه من الفقه الإسلامي، حيث يعتمد على قواعد شرعية مثل البلوغ والعقل والإكراه لتحديد المسؤولية الجنائية.

توصيات الدراسة:

من خلال النتائج التي توصلت إليها الدراسة، نوصي بما يلي:

١. **تعزيز الجانب الإصلاحي**: يجب التركيز بشكل أكبر على البرامج الإصلاحية والتأهيلية للأحداث بدلاً من اللجوء إلى العقوبات السالبة للحرية، بما يتماشى مع روح الشريعة الإسلامية والنظام السعودي.

٢. **تطوير مؤسسات الرعاية الاجتماعية**: ينبغي تطوير دور الملاحظة الاجتماعية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية لتوفير بيئة أكثر ملاءمة لإصلاح سلوك الأحداث وإعادة دمجهم في المجتمع.

٣. **رفع مستوى الوعي المجتمعي**: يجب تنظيم حملات توعية مجتمعية حول أهمية التربية الدينية والأخلاقية كوسيلة وقائية رئيسية لحماية الأحداث من الانحراف.

٤. **تشديد الرقابة على البيئة الأسرية**: يجب تعزيز دور الأسرة في تنشئة الأبناء التنشئة السليمة، مع تقديم الدعم الحكومي للأسر المحتاجة لتجنب التفكك الأسري الذي قد يؤدي إلى انحراف الأحداث.

٥. **مراجعة القوانين بشكل دوري**: يُوصى بمراجعة نظام الأحداث السعودي بشكل دوري لضمان توافقه مع المستجدات الاجتماعية والثقافية، مع مراعاة الالتزام بالمبادئ الشرعية.

٦. **تعزيز التعاون بين الجهات المعنية**: يجب تعزيز التعاون بين الجهات الحكومية والمؤسسات الاجتماعية والدينية لضمان توفير شبكة أمان اجتماعي شاملة للأحداث.

المصادر والمراجع

١. ابن القيم، ١٤١١هـ، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١.

٢. ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، (١٤١٤هـ) لسان العرب، دار صادر، بيروت.

٣. آل مسعود، علي يحيى(٢٠٢٠)، الرعاية الاجتماعية للأحداث الجانحين في المملكة العربية السعودية في ضوء رؤية المملكة ٢٠٣٠م، المجلة العلمية، كلية التربية، جامعة أسيوط، المجلد (٣٦)، العدد (١٠).

٤. الحافري، شيخة،٢٠٠٩م، جرائم الأحداث الجانحين والمشردين، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، دبي.

٥. الدوسري، محمد بنيان وآخرون، ١٩٩٨م، التدابير الوقائية والاحترازية للحدث في قانون الأحداث القطري والفقه الإسلامي: دراسة تحليلي.

٦. الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، د.ت، تاج العروس، ج٥، دار الهداية،

٧. السيوطي، جلال الدين، ١٩٩٨م، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، دار الكتب العلمية.

٨. الشحات، جندي محمد، ١٩٨٦م، جرائم الأحداث في الشريعة الإسلامية: مقارناً بقانون الأحداث، دار الفكر العربي.
٩. صباهي، محمد ربيع، ٢٠١١م. جرائم الأحداث في الشريعة الإسلامية: المشكلة والعلاج، دراسة فقهية مقارنة، دار النوادر، بيروت.
١٠. عبد الكريم، محمد، والمكي، أحمد (٢٠٠٩)، جرائم الأحداث وطرق معالجتها في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية.
١١. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (د.ت)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
١٢. الفيومي المقريْ، أحمد بن محمد بن علي،١٩٨٧م، المصباح المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، مادة حكم.
١٣. اللامي، مصطفى، والوائلي، ضرغام (٢٠٢٤) سرقة الأحداث والآثار المترتبة عليها دراسة في الفقه الإسلامي والقانون العراقي، كلية آداب الكوفة.
١٤. مجمع اللغة العربية بالقاهرة(١٩٧٢م) المعجم الوسيط، دار الدعوة، ط٢.
١٥. مجمع اللغة العربية، د.ت، المعجم الوسيط، دار الدعوة.
١٦. المراغي، سارة محمد (٢٠١٨) جرائم الأحداث: أسبابها وسبل معالجتها في ضوء الفقه الإسلامي والقانون القطري، رسالة ماجستير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر.
١٧. مصطفى، زمزم عبد اللطيف أحمد (٢٠١٦)، حوادث السير والأحكام المترتبة عليها، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق، العدد (٦).
١٨. المنياوي، أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف، د.ت، الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، المكتبة الشاملة، مصر.
١٩. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف،١٤١٩هـ، رياض الصالحين، المحقق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣.
٢٠. يحي، محمد، والنجار، قاسم، د.ت، حقوق الطفل بين النص القانوني والواقع وأثرها على جنوح الأحداث، منشورات حلب الحقوقية.

الأنظمة والقو انين والاتفاقيات:

١. قانون الأحداث الأردني رقم (٣٢) لعام ٢٠١٤م .
٢. اتفاقية حقوق الطفل ١٩٨٩م، اتفاقية نيويورك.
٣. نظام الأحداث السعودي، الصادر بالمرسوم ملكي رقم م/١١٣ بتاريخ ١٩/١١/١٤٣٩ هـ
٤. نظام الأحداث بالمرسوم الملكي رقم (م/١١٣) وتاريخ ١٩/١١/١٤٣٩هـ.
٥. نظام حماية الطفل، الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/١٤) بتاريخ ٣ / ٢ / ١٤٣٦هـ.

قراءة تحليلية لطقوس ومراسم الانتقال في الحضارة الكوشية في ضوء الشواهد الأثرية

د. جمال جعفر عباس الحسن(•)

د. إسراء بابكر علي بابكر(•)

المستخلص:

يتناول هذا البحث طقوس ومراسم الانتقال في الحضارة الكوشية خلال الفترة من القرن الثامن قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادي، بوصفها منظومة طقسية ورمزية تعكس التصور الكوني والديني والاجتماعي للإنسان الكوشي. يسلط البحث الضوء على طقوس ومراسم الميلاد، البلوغ والنُضج، الزواج، التتويج، والموت، باعتبارها مراحل مفصلية في دورة الحياة، تدار وفق نسق من الرموز والمعتقدات التي تعزز فكرة التجدد والخلود. يسلط البحث الضوء كيف أعادت كوش صياغة الموروثات المصرية في قالب أفريقي أصيل، حافظ على الهوية الروحية المستقلة للمجتمع الكوشي، مع توظيف رموز مثل آمون، إيزيس، وموائد القرابين، في سياقات دينية وسياسية واجتماعية متشابكة. تعتمد الدراسة على شواهد أثرية ونقوش ومواد جنائزية، لتوضيح كيف جسدت هذه الطقوس والمراسم العلاقة بين الإنسان والكون، والملك والمعبود، في إطار فلسفي يؤكد أن الموت ليس نهاية، بل عبور نحو الأبدية. وتخلص الدراسة إلى أن طقوس ومراسم الانتقالية في كوش لا تمثل مجرد شعائر، بل تعكس رؤية وجودية متكاملة، تسهم في فهم الذات الحضارية للسودان القديم، وتبرز دوره كمركز فكري وروحي في تشكيل التصورات الإنسانية المبكرة حول الحياة والخلود.

الكلمات الدليلية: مراسم الانتقال، الحضارة الكوشية، الممارسات الجنائزية.

مقدمة:

تُعد طقوس ومراسم الانتقال[١] من المفاتيح الجوهرية لفهم البنيات الثقافية والدينية في المجتمعات القديمة، وتشكل ما تعرف في الدراسات الأنثروبولوجية "بطقوس الانتقال"، وهي مجموعة من الممارسات الطقسية الرمزية التي تواكب تحولات الإنسان عبر مراحل حياته، من الولادة حتى الوفاة. ورغم وفرة الدراسات والأبحاث الأكاديمية التي تناولت حضارة كوش (القرن الثامن قبل الميلاد - القرن الرابع الميلادي)، فإن معظمها انصب على الجوانب السياسية، والدينية، والمعمارية، في حين لم تحظ الأبعاد التي تتعلق بالمراسيم والشعائر الرمزية بالقدر ذاته من الاهتمام.

تتناول هذه الدراسة الطقوس والمراسم الكوشية بالاستناد إلى الأدلة والشواهد الأثرية المتاحة، بوصفها مظاهر رمزية للتصور الكوشي للحياة والموت والحساب والتحول الاجتماعي. وقد أسفرت

(•) أستاذ مشارك، برنامج الآثار، قسم العلوم الاجتماعية/ كلية الفنون والعلوم الإنسانية - جامعة جازان

(•) مفتش بإدارة السياحة، محلية مروي/ المجلس الأعلى للسياحة بالولاية الشمالية - السودان

(١) طقوس وممارسات رمزية تُرافق التحول من مرحلة حياتية أو اجتماعية إلى أخرى، وتُعبّر عن نهاية وضع سابق وبداية وضع جديد،

الاكتشافات الأثرية التي أُجريت في السودان منذ مطلع القرن العشرين، ولا سيما في المواقع المنسوبة إلى حضارة كوش، مثل نبتة ومروي وغيرها من مواقع تقع في الشمال أو الوسط، إلى الكشف عن مؤشرات وآثار مادية متعددة يمكن تفسيرها باعتبارها طقوس ومراسم وممارسات مرتبطة بمحطات الحياة الأساسية: الميلاد، الختان والنُضج، والزواج، والتتويج، والوفاة، والدفن. وقد تم توثيق هذه النتائج في مواقع الاستيطان والمقابر المنتشرة في شمال السودان ووسطه.

مشكلة البحث:

على الرغم من كثافة الدراسات والأبحاث الأثرية التي تناولت حضارة كوش، فإن معظمها تركز على الجوانب السياسية، والدينية، والمعمارية، والفنية، بينما ظل البُعد الرمزي، المتمثل في تحليل الطقوس والمراسم الانتقالية التي تعكس مراحل الحياة الكوشية، محدوداً ولم يخضع إلى معالجة تحليلية منهجية. ومن هنا تنبع مشكلة هذه الدراسة، التي تستند حول السؤال الآتي: كيف تسلط الضوء الاكتشافات الأثرية في حضارة كوش طقوس ومراسم الانتقال المرتبطة بالحياة والموت والتحول الاجتماعي.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة من سعيها إلى إبراز البُعد الإنساني والحضاري الذي لم يحظ بالاهتمام الكافي في البحوث والدراسات الأثرية المتعلقة بحضارة كوش. فمن خلال تناول مراسم الانتقالية بوصفها مدخلاً لفهم البنيات الرمزية والاجتماعية للحياة الكوشية، يسهم البحث في إعادة بناء التصورات الكوشية حول الحياة والموت والسلطة، ضمن إطار تحليلي متكامل يربط بين المادي والروحي. كما يسلط الضوء على الكيفية التي تتمثل بها هذه التصورات في الممارسات الطقسية والاحتفالية.

علاوةً على ذلك، تسهم هذه الدراسة في تعزيز التكامل بين المنهجية الأثرية والتحليل التاريخي في دراسة المجتمعات القديمة، من خلال تفسير الأدلة المادية ضمن سياقاتها الزمنية والسياسية. كما تثري مجال الدراسات المقارنة بإضافة مواد علمية جديدة تتيح تقييماً أكثر توازناً للتجربة الكوشية، بالمقارنة مع نظيراتها في وادي النيل وأفريقيا القديمة.

أهداف البحث:

١) تحديد طبيعة طقوس ومراسم الانتقال ومراحلها في المجتمع الكوشي.
٢) تحليل الأدلة الأثرية المرتبطة بهذه الطقوس، بما في ذلك الرسوم، النقوش، الأدوات، والتماثيل، والمدافن.
٣) الكشف عن الدلائل الرمزية والاجتماعية الملازمة لهذه المراسم.
٤) إعادة بناء تصور شامل للنظرة الكوشية للعالم، فيما يتعلق برحلة الحياة من الولادة إلى الوفاة.

أسئلة البحث:

١) ما الخصائص العامة لمراسم الانتقال في الحضارة الكوشية؟

٢) ما الأدلة الأثرية التي توثّق مرتسم الميلاد، والبلوغ، والزواج، والتتويج، والوفاة؟
٣) ما الدلائل الرمزية التي تتضمنها هذه المراسم فيما يتعلق بالهوية الكوشية ونظم العادات والمعتقدات؟

فرضيات البحث:

تستند هذه الدراسة إلى فرضية مضمونها أن طقوس ومراسم الانتقال في الحضارة الكوشية شكلت نظاماً رمزياً يعبّر عن رؤية كونية للحياة والموت. وتشير المكتشفات الأثرية، ولا سيما النقوش الملكية ومواقع الدفن، التسلسل الطقسي الذي يبدأ بالولادة وينتهي بالبعث، بما يعكس تصوراً متماسكاً لمراحل الوجود الإنساني. كما تفترض الدراسة وجود استمرارية فكرية ودينية بين الممارسات المصرية والكوشية، إلى جانب ظهور خصائص ومراسم محلية تجسد تفاعلاً ثقافياً بشكل متغير.

وعلاوةً على ذلك، تُعد دراسة هذه المراسم مدخلاً لفهم البنيات الاجتماعية والسياسية في حضارة كوش، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق برمزية الملكية الإلهية ودورها في تأكيد الشرعية على السلطة وتشكيل الهوية الحضارية.

منهجية البحث:

تعتمد هذه الدراسة على منهجين رئيسيين: المنهج التحليلي والمنهج التاريخي. يُعنى المنهج التحليلي بفحص الشواهد الأثرية المرتبطة بطقوس ومراسم الانتقال في حضارة كوش، مثل الرسوم والنقوش واللقى والأدوات والتماثيل والمدافن. ويسهم هذا المنهج في تفسير الدلالات الرمزية والاجتماعية الكامنة في هذه الأدلة المادية من خلال تحليل عناصرها ومقارنتها في سياقاتها الأثرية.

أما المنهج التاريخي فيُستخدم لتتبع تطور هذه الطقوس والمراسم عبر العصرين النبتي والمروي (من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي)، مع إبراز التغيرات التي طرأت على الممارسات والرموز والعقائد المرتبطة بها ضمن سياقاتها الزمنية والسياسية.

ويتيح التكامل بين المنهجين التحليلي والتاريخي فهماً أكثر شمولاً لاستمرارية طقوس ومراسم الانتقال وتحولاتها، وربطها بما شهده المجتمع الكوشي من تطورات تاريخية وثقافية.

الإطار المفاهيمي لطقوس ومراسم الانتقال وبنائها الرمزي:

تُعد طقوس ومراسم الانتقال من المفاهيم المحورية في الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، وقد أسس لهذا المفهوم عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي أرنولد فان جينيب (Arnold Van Gennep) في عمله الرائد بعنوان: " طقوس الانتقال" (Les Rites de Passage, 1966)، الذي لا يزال يُعد مرجعاً أساسياً لفهم العلاقة بين الممارسات الطقسية والبنيات الاجتماعية. صنف فان جينيب هذه الطقوس إلى ثلاث مراحل متعاقبة: الانفصال، والانتقال، والاندماج، مؤكداً أن هذه المراحل لا تقتصر على كونها ممارسات دينية، بل تشكل في جوهرها نظاماً رمزياً يجسد البنية الروحية والاجتماعية لمجتمعٍ معيّن (Gennep, 1966: 1).

يشير فان جينيب أيضاً إلى أن الطقوس المصاحبة لدورة حياة الإنسان، من الولادة إلى الوفاة، تجسد محطات انتقالية بين حالتين اجتماعيتين ووجوديتين متمايزتين. ويوضح ذلك من خلال مثال المرأة

الحامل، التي تمر بحالة انفصال مؤقت، تتوج بمراسم استقبال عند الولادة، تليها مرحلة إعادة اندماج في المجتمع عبر تسمية المولود الجديد وبدء عملية التنشئة الاجتماعية. ويوضح أيضاً أن هذه المراحل تتكشف عبر ثلاث محطات زمنية محددة: مرحلة تمهيدية، ومرحلة انتقالية، ومرحلة ختامية، تشكل مجتمعة البنية الزمنية لكل فعل طقسي. ومن حيث التصنيف، يقسم فان جينيب الطقوس إلى فئات متعددة، من بينها: الطقوس الدينية، والطقوس السحرية، وطقوس الانتقال، والطقوس الاحتفالية. وتنقسم الطقوس الدينية، بحسب تصنيفه لها، إلى طقوس حية ومتجددة، سواء كانت فردية أو جماعية، وطقوس ديناميكية ترتبط بالطوطم والأرواح والمعتقدات السحرية. وتصنف هذه الأخيرة بدورها إلى طقوس ثابتة، وأخرى موجهة، وأخرى مباشرة أو غير مباشرة (Gennep, 1966: 3-4).

يكشف التصنيف السابق أن الطقوس تؤدي وظيفة الوسيط الرمزي بين الإنسان والعالم الميتافيزيقي. فعلى سبيل المثال، لا يُعد التمثال الإلهي غاية في ذاته، بل يمثل رمزاً يجسد الألوهية في العالم المادي، بما يتيح للإنسان التفاعل مع ما يتجاوز الإدراك العقلي المباشر، من خلال وساطة رمزية (Hooke, 1953: 57-58). ومن ثم لا يوجه المتعبد عبادته نحو المادة الحجرية، بل نحو المعنى الميتافيزيقي الذي يجسده التمثال.

تقوم الطقوس السحرية على الإيمان بوجود قوة خفية تتخلل مظاهر الكون كافة، وهي قوة محايدة وغير شخصية، لا تنبع من معبود أو كائن روحي محدد. ووفقاً لبعض الباحثين، تُعد هذه الطقوس من أقدم أشكال المعتقدات الدينية، إذ تهدف إلى التأثير في هذه القوة وتوجيهها نحو غايات محددة. وقد جسد المصريون القدماء هذا التصور من خلال إيمانهم بقدرة الكهنة على التحكم في القوى الطبيعية، وشفاء الأمراض، وطرد الأرواح الشريرة باستخدام التعاويذ والأسماء السحرية. وفي أساطيرهم، لم يتمكن حتى المعبود رع من هزيمة الثعبان أبو فيس (أبيب) إلا بمساعدة الطقوس المعبدية التي يؤديها الكهنة، والتي منحته القوة السحرية اللازمة للحفاظ على انتظام الدورة الشمسية (Budge, 1985: 11–12).

وفي سياقٍ أخر تعرف طقوس الانتقال أيضاً بأنها تحولات من وضع اجتماعي أو ديني إلى آخر، وغالباً ما ترتبط بتغيرات بيولوجية أو مكانية في حياة الفرد (بوهاها، ٢٠٠٩: ٣١). وهي جزء لا يتجزأ من أنظمة المعتقدات، إذ تشكل المعتقدات، وفقاً إلى أبو الحمام (٢٠٠٧: ٧٠)، إطاراً فكرياً تتجسد من خلاله القيم الرمزية للمجتمع، وتستمد قوتها من التبجيل الجماعي والاحترام المجتمعي، ما يمنحها طابعاً رمزياً يميزها عن الممارسات اليومية الاعتيادية.

كما أنها تُعد ممارسات تؤدى لإحياء ذكرى تحول نوعي في حياة الأفراد أو الجماعات، سواء أكان التحول بيولوجياً (كالولادة، والختان، والبلوغ، والزواج، والوفاة) أم اجتماعياً (كالانضمام إلى جماعة دينية، أو تولي منصب، أو أداء فريضة حج). وتكمن أهميتها في ترسيخ حدود رمزية بين الأوضاع الاجتماعية المختلفة، بما يمنح الشرعية والاعتراف بالوضع الجديد الذي بلغه الفرد. وفقاً للحواشي (٢٠١٠: ١٥-٤٣)، فإن كل انتقال من حالة إلى أخرى يستلزم التزامات اجتماعية ومشروعية رمزية،

تمنح من خلال أداء رمزي يتضمن دلالات سحرية وسلطوية. وتجسد هذه العناصر مكانة الفرد ضمن البنية الاجتماعية، كما تحدد الحقوق والامتيازات الجديدة المرتبطة بوضعه المستجد.

الحضارة الكوشية (القرن الثامن قبل الميلاد - القرن الرابع الميلادي):

تعد الحضارة الكوشية من أبرز الحضارات التي نشأت في وسط وادي النيل، وقد امتد إرثها الثقافي من القرن الثامن قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادي. وشهدت هذه الحضارة مرحلتين رئيسيتين هما: العصر النبتي، والعصر المروي. نشأت مرحلة نبتة الحضارية (٧٥٠–٣١٠ ق.م) في منطقة جبل البركل، قرب مدينة كريمة الحالية بشمال السودان، عقب انحسار النفوذ المصري جنوب الشلال الثاني (Trigger, 1965: 139). وغدت نبتة مركزاً دينياً وسياسياً بالغ الأهمية، حيث اتخذ ملوكها معبد آمون في جبل البركل موقعاً لتتويجهم الشرعي (Kendall, 2002: 6).

من أبرز حكام هذه المرحلة الملوك كاشتا، وبعانخي، وتهارقا، الذين تمكنوا من توحيد وادي النيل تحت سلطتهم، في ما عرف بالأسرة الخامسة والعشرين التي حكمت مصر وكوش معاً (Arkell, 1955: 115). وقد تميز العصر النبتي بازدهار معماري وديني ملحوظ، انعكس في بناء المعابد وتكريس المراسم الملكية. غير أن العاصمة نُقلت لاحقاً جنوباً إلى مروي، عقب الغزو المصري لنبتة في عهد الملك الكوشي أسبلتا، نحو عام ٥٩١ قبل الميلاد (Leclant, 1965: 288).

شهدت مرحلة مروي الحضارية (٣١٠ ق.م – ٣٥٠ م) صعود مملكة قوية اتخذت من مدينة مروي في وسط السودان، الواقعة بين الشلالين الخامس والسادس، عاصمة لها. وقد تطورت مروي لتصبح مركزاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً متقدماً (Arkell, 1955, op. cit. 146). وتميزت هذه المرحلة بازدهار ملحوظ في العمارة والفنون وصناعة الحديد، إلى جانب تطوير الخط المروي، الذي يعد من أقدم الأبجديات في إفريقيا (Shinnie, 1967: 13). كما اشتهرت مروي بأنشاء القصور الملكية والمعابد الضخمة، وعلى رأسها معبد آمون الكبير، فضلاً عن الحمام الملكي المعروف باسم "الحمام الروماني" (Torok, 1997: 20). وظلت مروي مقراً للسلطة حتى تراجعها في القرن الرابع الميلادي، نتيجة للتحولات السياسية والتجارية في المنطقة، ما يمثل نهاية واحدة من أعظم الحضارات الإفريقية في وادي النيل.

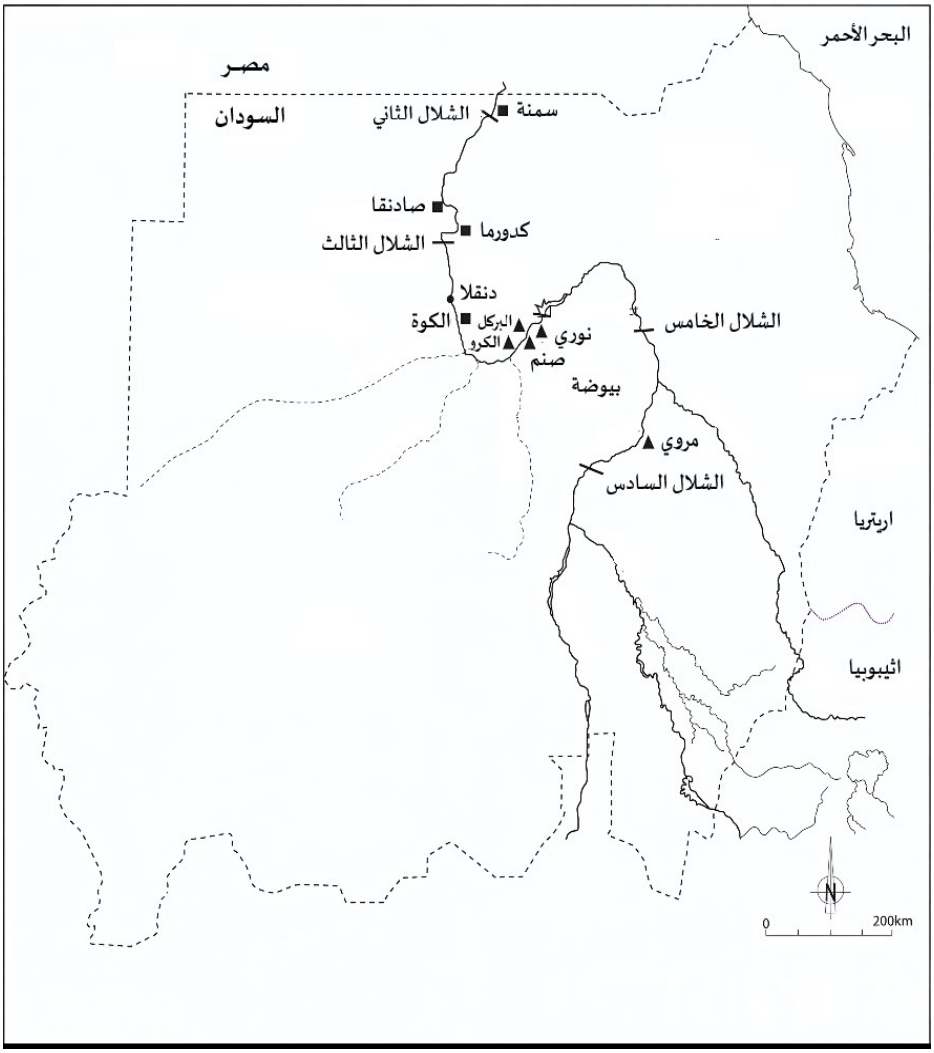

خريطة رقم (١): مملكة كوش: نبتة ومروي

طقوس الانتقال في مملكة كوش (نبتة ومروي):

شكلت الطقوس والمراسم الانتقالية عنصراً مهماً في النسيج الديني والاجتماعي للدولة والمجتمع في الحضارة الكوشية. وقد عبّرت الممارسات المرتبطة بالحمل والولادة، والختان والبلوغ، والزواج، والموت والدفن، عن رؤية كوشية شاملة لدورة الحياة الإنسانية. وضمن هذا التصور، لم يُنظر إلى الموت بوصفه نهاية، بل كمرحلة انتقال إلى عالم آخر، وهو ما تجسده رموز البعث في المعتقدات الدينية الكوشية.

أولاً: طقوس ومراسم الحمل والولادة:

تجسد مراسم الحمل والولادة أبعاداً دينية واجتماعية تعكس تداخل المعتقدات المحلية في حضارة كوش مع مفاهيم مصر القديمة حول الخصوبة، والأمومة، والملكية الإلهية. ومن أبرز الأدلة الأثرية

التي تسلط الضوء على هذه الطقوس تماثيل المعبودة باستيت (Bastet)، معبودة الإحسان وحامية المواليد الجدد، والتي اكتشفت في عدد من المدافن العائدة إلى العصرين النبتي والمروي في موقع الكوة. وقد استخدمت هذه التماثيل لحماية النساء الحوامل وأطفالهن، بما يشير إلى حضور طقسي ورمزي فاعل في الممارسات المرتبطة بالولادة (Welsby, 2004: 157).

كُشف كذلك على تماثيل أخرى ترتبط بالحماية والخصوبة، من بينها تماثيل للمعبود بس (Bes)، وتمثال للمعبودة سخمت (Sekhmet) في موقع نوري، فضلاً عن تمثال للمعبودة تاورت (Taweret)، التي صورت على هيئة لبؤة ذات ثديين مترهلين وبطن بارز. وقد اكُتشف أحد تماثيل تاورت داخل هرم الملك أنلامني في موقع نوري، وهو محفوظ حالياً في متحف بوسطن، وكان يستخدم كتميمة لحماية النساء الحوامل (Lacovara, 2008: 9). كما ارتبطت المعبودة حقت (Heqet)، زوجة المعبود خنوم (Khnum)، والمصورة على هيئة ضفدع، بمساعدة النساء أثناء الولادة، وهو ما يتضح من الرسوم التوضيحية التي عثر عليها على وعاء من موقع فرس (Evana, 2010: 109).

كما اكُتشف تمثال يصور معبودة برأس لبؤة أو قطة ترضع طفلاً، يعتقد أنه الملك تهارقا، وقد نقش عليه عبارة "حبيبة باستت" (كندال، ١٩٩٦: ٦٩). وتظهر المعبودة إيزيس (Isis)، زوجة أوزريس (Osiris) وأم حورس (Horus)، في مقدمة المعبودات التي ترمز إلى الأمومة والخصوبة والقوة (Shinnie, 1967, op. cit. 145). وقد انتشرت تماثيلها على نطاق واسع خلال العصر النبتي، ومن أبرزها تمثال الفاينس الذي عُثر عليه في موقع النقعة، ويصور حورس وهو يرضعها جالساً على حجرها (Wildung, 2004: 183).

تكشف مفاهيم الولادة الملكية في السودان القديم عن ارتباط وثيق بالمعتقدات المصرية القديمة، ولا سيما مفهوم الولادة الإلهية للملوك. فبينما اعتبر المصريون أن الولادة الملكية حدث أزلي وقع قبل خلق الكون ذاته (ابراهيم، ٢٠١٢: ٢)، قدم ملوك كوش في نبتة رؤيتهم الخاصة التي تمحورت حول الجبل المقدس "جبل البركل"، بوصفه مهداً أصيلاً للمعبودات، ومن ثم للملوك. وقد اعتبر هؤلاء الحكام أنفسهم أبناءً للمعبودين شو (Shu) وتفنوت (Tefnut)، وتجسيداً لبعث أوزريس، بما يضفي على شرعيتهم طابعاً ميتافيزيقياً متجذراً في رمزية المكان والنسل الإلهي.

وفقاً للتقاليد النبتية، وصل المعبود شو، في بحثه عن قرص الشمس (عين رع) المفقود، جنوباً إلى الجبل المقدس، حيث ولدت معبودات مثل تفنوت وحتحور (Hathor) وموت (Mut). وقد صور ملوك نبتة، ومن بينهم الملك تهارقا، وهم يرتدون تاج شو ذي الريشتين، في تجسيد رمزي لعقيدة الولادة الإلهية. وانعكست هذه العقيدة في تصميم المعابد، ومنها المعبد المشيّد على هيئة رحم تحت نتوء صخري يشبه أفعى الكوبرا الصاعدة، بما يجسد رمزية الولادة الملكية المقدسة (كندال، ١٩٩٦: ٢٦–٦٣).

خلال العصر المروي، حرص الملوك على تأكيد نسبهم الإلهي من خلال ألقاب مثل "ابن آمون" أو "ابن الشمس"، وأحياناً بالإشارة إلى أمهاتهم بوصفهن "بنات الشمس" (هنتزا، ١٩٩٦: ٣٧). ويصور نقش على خاتم فضي محفوظ في متحف برلين المعبودة أميسيمي (Amesemi)، زوجة المعبود أبادماك

(المعبود المحلي الأسد في مروي)، وهي ترضع طفلاً يعتقد أنه شخصية ملكية (هنتزا، ٢٠٠٥: ٨٨، ٩١). كما يظهر نقش آخر المعبود آمون في هيئة كبش يقف أمام ملكة ترتدي رمز المعبودة إيزيس على رأسها، بينما يجسد جسدها الملكة العقرب سيلكت (Sileket) (سيدة الحياة)، وتحمل على فخذها الطفل الملكي المتوج بثعبان الكوبرا. ويفسر هذا المشهد بوصفه تجسيداً للميلاد الإلهي للملك من خلال اتحاد آمون بالأم الملكية، وهو مفهوم جوهري في إعداد الملوك لاعتلاء العرش، ويوازي التصورات المصرية القديمة التي تسند إلى آمون دوراً خالقاً للملك المستقبلي عبر اتحاده بالأم الأرضية (المرجع السابق، ٩٥-٩٧).

ثانياً: طقوس ومراسم البلوغ والنضج:

يبدو أن تربية أبناء العائلة المالكة حظيت باهتمام كبير في السودان القديم، كما يتضح من الشواهد الأثرية. تكشف النقوش، والرسوم الجدارية من نبتة ومروي عن حضور واضح لأبناء الملوك في الطقوس والمراسم الدينية والمناسبات الملكية. وتصور الأحجار التي أعاد تيموثي كندال تجميعها في بقايا المعبد رقم ٩٠٠، الذي شيّد بتكليف من الملك بعانخي في جبل البركل، مشهداً لملك بكامل زينته الملكية برفقة أميره الشاب (Kendall, 2014: 668). وبالمثل، يظهر نقش آخر للملك أركاماني ابنه الأمير أريكا على الواجهة الأمامية لمعبد الأسد في موقع المصورات الصفراء (Torok, 2014: 625)، إلى جانب تمثال لملكة مروية بكامل زيّها الملكي، ترتدي تاجها ويرافقها ابنها الأمير (Torok, 2014: 627). وتشير هذه المشاهد إلى أداء مراسم تتضمّن تقديم القرابين، وتلاوة الصلوات للمعبودات، واستحضار الحماية الإلهية للأبناء، بما يعكس أهمية هذه المراسم في ترسيخ استمرارية السلالة الملكية.

كانت المدافن الملكية في مواقع مثل الكرو ونوري ومروي غنية بالتمائم والتعاويذ المستخدمة لدرء الحسد والعين الشريرة وجلب الحظ السعيد، ما يعكس استمرار ممارسات شائعة في فترات سابقة من تاريخ السودان (Dunham, 1950; 1955; 1957). وتشير المصادر النصية إلى وجود مراسم محددة تتعلق بالتربية والنضج، من بينها ما ورد في لوحة النصر الخاصة بالملك بعانخي، حيث يبرز سلوكه النبيل في الامتناع عن معاقبة أمراء "آكلي السمك" المهزومين، في إشارة إلى ضبط النفس الملكي وتكريس القيم الأخلاقية في سياق التنشئة السياسية (آدامز، ٢٠٠٥: ٢٥١).

يرجح أن وصف "آكلي السمك" بالنجاسة يرتبط بأسطورة أوزريس، التي تروي أن المعبود ست، بعد قتله لأخيه أوزريس، ألقى بجسده في النيل، حيث التهمت الأسماك عضوه التناسلي، ما أدى إلى ربط تناول السمك بالنجاسة ونذير الشؤم في المعتقدات الدينية. ومن هذا السياق، يستنتج أن ممارسة الختان كانت شائعة في العصر النبتي. ويشير سترابو إلى أن السكان كانوا يشوهون العضو الذكري، ويمارسون ختان الإناث على الطريقة اليهودية، بينما يذكر أن سكان الكهوف كانوا يجرون الختان وفقاً للعادات المصرية القديمة (Strabo, 1932).

يُعد تنظيم السباقات جزءاً من طقوس ومراسم الانتقال لدى العديد من القبائل، إلا أن الختان يتضح بوصفه الحدث المحوري في هذه الاحتفالات. وقد أدت المعابد دوراً مركزياً في إقامتها، حيث

كانت تقدم القرابين إعلاناً عن نقاء الشخص المختون وانتقاله إلى مرحلة جديدة من الحياة. وبين أفراد العائلة المالكة، اتسمت هذه الطقوس بمستوى أعلى من التفصيل والاحتفاء مقارنةً بعامة الناس، إذ شملت ولائم عامة وخاصة، وذبح الحيوانات لإطعام الحشود، وأجواء احتفالية مفعمة بالرقص والغناء والطبول، فضلاً عن مواكب تمر عبر المدينة وصولاً إلى النهر، تتقدمها ترانيم جماعية تدعو بصحة الملك أو الأمير وطول عمره. ومن المرجح أن تكون هذه المناسبات قد شملت أيضاً تنظيم سباقات أو مسابقات رياضية. ويشير سترابو، في روايته عن ديمتريوس ومعابد كونون، إلى تنظيم مسابقات للأولاد (البشير، ٢٠٠٨: ١٢٢). كما تظهر الأدلة الأثرية أن سكان السودان القديم مارسوا المصارعة لأغراض متعددة منذ أقدم العصور (Carroll, 1988: 3-7).

شكلت كذلك الشِلوخ (علامات ندبية على الخدين، وأحياناً تمتد لتشمل الجباه)، إلى جانب كونها معياراً للجمال، رمزاً مميزاً للهوية القبلية في السودان القديم والحديث، كما تُعد أحد العادات المرتبطة بدورة حياة الإنسان. وتشير السجلات الأثرية إلى أن هذه الممارسة كانت معروفة منذ العصور القديمة، حيث تم توثيق أنماط زخرفية متعددة، من بينها التصاميم الأفقية والقطرية والهلالية، ما يعكس تنوع الدلالات الرمزية والاجتماعية المرتبطة بها. حيث يظهر نقش الملكة أماني شاخيتي المحفوظ في المتحف البريطاني، الملكة واقفة إلى جانب المعبودة أميسيمي، زوجة المعبود أبادماك، بثلاثة خطوط جانبية متموجة على وجهها، ما يشير إلى رمزية الشِلوخ في السياق الملكي والديني (Pasquali, 2014: 585). كما صورت الملكة نفسها على الجدار الداخلي للهرم رقم ٦ في المقبرة الشمالية بالبجراوية، وهي تحمل علامات ندب على خدها الأيسر (Torok, 2014, op. cit. 628). وتتكرر هذه العلامات في مشاهد أخرى، منها وعاء برونزي من مروي يظهر أسداً يلتهم شخصية تحمل ندوباً واضحة على الخدين (الزكي، ١٩٨٣: ٦٠)، وتماثيل "با" المروية التي تحمل ندوباً على الجهة (Torok, 2014, op. cit. 630)، فضلاً عن التوابيت المكتشفة في النوبة السفلى من العصر المروي، والتي تصور وجوهاً تحمل ندوباً أفقية على كلا الجانبين (Elnur, 1956: 86). وتشير هذه الشواهد إلى أن الشِلوخ لم تكن مجرد زينة، بل ممارسة تعبر عن الهوية، والنضج، والانتماء، وربما الحماية الروحية.

ثالثاً: المجتمع وطقوس ومراسم الزواج:

١- بنية المجتمع النبتي: تقدم المدافن المكتشفة في موقع صنم أبو دوم صورة واضحة لطبيعة المجتمع السوداني خلال العصر النبتي، حيث كشفت عن وجود عناصر أجنبية إلى جانب السكان الأصليين الذين حافظوا على تقاليدهم المحلية، دون تأثر كبير بالتمصير الذي رافق فترات الاحتلال. كما أظهرت هذه المدافن وجود مجموعة ثالثة من السكان الذين مزجوا بين العادات المصرية والمحلية في توليفة ثقافية متميزة، تعكس دينامية التفاعل الحضاري في تلك المرحلة (آدامز، ٢٠٠٥: ٢٧٣).

يبدو أن المجتمع النبتي اتسم بتركيب اجتماعي معقد وتنوّع عرقي ملحوظ، حيث توزعت طبقاته على ثلاثة مستويات رئيسية:

- **الطبقة العامة:** وتشمل العمال، والحرفيين، والأفراد العاملين في المهن البسيطة.

- **الطبقة الوسطى البرجوازية**: وتضم صغار المسؤولين، والتجار، والمزارعين.
- **الطبقة العليا الأرستقراطية**: ممثلةً بالملك وأفراد العائلة المالكة، والكهنة، والقادة العسكريين، وغيرهم من أصحاب الثروة والامتيازات، الذين تمتعوا بنمط حياة أكثر فخامة ورقياً (المرجع السابق، ٢٧٤).

ونظراً لهذا التنوع الاجتماعي، تباينت الطقوس والممارسات بين الطبقات وفقاً لخلفياتها العرقية ومكانتها الاجتماعية، ما يشير إلى وجود أنماط وممارسات متعددة تعكس التفاعل بين المحلي والمستورد، وبين الرسمي والشعبي، في سياق الحياة اليومية والمناسبات الانتقالية.

٢- الزواج في العصر النبتي: اعتبر النبتيون الزواج رباطاً مقدساً، متأصلاً في المبادئ الأخلاقية التي سادت المجتمع السوداني القديم. ويتضمن نص منسوب إلى الأمير خاليوت، ابن الملك بعانخي "أمير كانياد"، نقش على لوحة تذكارية أعاد الملك أسبلتا تسجيلها لاحقاً، تعليماً أخلاقياً ينص على أنه "لا يجوز للرجل أن يضاجع امرأةً متزوجة" (Eide, 2000: 271).

وقد تبنى ملوك نبتة العقيدة المصرية القائلة بولادة الملك الإلهية، وبناءً عليه، اعتبر الزواج الملكي فعلاً مقدساً. وانتشر تعدد الزوجات على نطاق واسع، كما ظهر زواج الأشقاء كوسيلة للحفاظ على نقاء الدم الملكي وضمان استمرارية السلالة (البشير، ٢٠٠٥: ١٧٢). ويفسر بعض الباحثين هذه الممارسة بوصفها امتداداً لتقاليد مصرية قديمة، حيث تنتقل السلطة إلى الابنة الكبرى في حال كان شقيقها قاصراً، ما يستلزم زواجها منه لضمان بقاء السلطة داخل الأسرة الحاكمة (تونسي، ٢٠٠٨: ١١).

تشير المصادر إلى أن زوجة الملك ألارا، كاساقا (Kasaqa)، أنجبت ابنة تدعى تابيري (Tabiry)، التي تزوجت لاحقاً من الملك بعانخي (البشير، ٢٠٠٥: ٤٢). كما تذكر النصوص أن الملك كاشتا أنجب ثلاث أميرات، من بينهن بيكاسر (Pekasher)، التي تزوجت هي وشقيقتاها آبار (Abar) وخنسا (Khensa) من الملك بعانخي، في نمط زواج يعزز الروابط الأسرية داخل السلالة الحاكمة (المرجع السابق ٤٣-٤٤). وإلى جانب هذه الزيجات الداخلية، تشير الأدلة إلى وجود تحالفات زوجية مع عائلات أجنبية، من أبرزها زواج أحد ملوك كوش بملكة ليبية عرفت بلقب "سيدة التيمحو"، وهي العلاقة التي شكلت أساس فرضية رايزنر القائلة بأن سلالة نبتة ربما كانت ذات أصول ليبية (Reisner, 1923: 14).

حملت زوجات الملوك لقب "الزوجة الملكية العظيمة"، ومن أبرزهن الملكة تابيري، التي صورت في مقبرتها بالكرو وهي تقدم الصلوات والتبجيل للإلهتين إيزيس وأوزريس، في مشهد يجسد مكانتها الطقسية والدينية (كندال، ١٩٩٦: ٦٥). وإلى جانب الزوجات الرسميات، اتخذ الملوك أيضاً محظيات، وقد تم اكتشاف مقابرهن في مقبرة الكرو، حيث تنسب المقبرتان رقم ٥٢ و٥٥ إلى محظيات الملك بعانخي، ما يشير إلى الاعتراف الرسمي بمكانتهن داخل النظام الملكي (كندال، ١٩٩٦م، ٦٦).

٣- طقوس ومراسم الزواج النبتي: نظراً لاعتبار ميلاد الملك حدثاً إلهياً، اكتسبت طقوس ومراسم الزواج الملكي بُعداً مقدساً، حيث كان كهنة آمون يؤدون مراسم الزواج المقدس ضمن سياق طقسي يعكس شرعية الملك وسلالته. وتشير الأدلة الأثرية من المدافن وأثاثها الجنائزي الفاخر إلى أن الملوك

كانوا يغدقون على زوجاتهم بالهدايا والممتلكات في مناسبات الزواج، ما يبرز مكانة الزوجة الملكية ضمن النظام الرمزي والسياسي. إذ تصور الرسوم المصورة أزواجاً مقدسة مثل شو وتفنوت، وإيزيس وأوزريس، وآمون وموت، بوصفهم رموزاً للوحدة الإلهية التي تظهر في الزواج الملكي. وكان الملك والملكة يقفان أمام هذه المعبودات لتقديم الصلوات والقرابين تضرعاً للذرية المباركة، يلي ذلك موكب احتفالي يحمل فيه الزوجان الملكيان على محفة احتفالية لتحية الشعب، ثم يقام احتفال رسمي في القصر (كندال، ١٩٩٦: ٦٤–٧٠).

وقد تداخلت المعتقدات الدينية مع المخاوف من الأرواح الشريرة والحسد، ما أدى إلى استخدام تمائم واقية مثل عين حورس (أوجات)، والتي اكتشفت في المدافن الملكية، ومنها مقبرة الملك شباكا، حيث ظهرت كقلائد مصنوعة من الخرز والفضة (كندال، ١٩٩٦، ٨٨). وفي مقبرة الملكة تابيري، عثر على تميمة تصور معبودة مجنحة عارية محاطة بثعبانين مقدسين (متحف جامعة هارفارد)، بينما احتوت مقبرة نفروكاكاشتا (Neferukakashta)، الزوجة الثانوية للملك بعانخي، على تمثال يعرف باسم "مجمع المعبودات"، يجمع بين رموز متعددة للقوة والحماية (كندال، ١٩٩٦، ٦٦).

استخدمت التمائم في طقوس انتقال متعددة، سواء كانت دينية أو سحرية، كما ظهرت ضمن مراسم دورة الحياة، بما في ذلك الزواج بين عامة الناس. ويرجح أن بعض حفلات الزفاف كانت تقام داخل حرم المعابد، في إطار طقسي يكسو العلاقة الزوجية طابعاً مقدساً. أما مواكب الزفاف الشعبية، فقد اتسمت بأجواء احتفالية مفعمة بالرقص والغناء وحمل أغراض الزفاف، ضمن مراسم جماعية تعبر عن الفرح والتمسك بالتقاليد المحلية (تونسي، ٢٠٠٨: ١٨). وتظهر هذه الممارسات تداخلاً بين البُعد الرمزي والديني للزواج، وبين التعبير الاجتماعي عن الانتماء والهوية.

٤- تجهيز وتزيين العروسين: اهتمت المجتمعات السودانية القديمة بالزينة والديكور، امتدت لتشمل البشر والحيوانات على حد سواء، في سياق رمزي يعبر عن الجمال والهوية والانتقال. وقد استخدمت مواد متنوعة في صناعة القلائد، والأساور، والأقراط، ودبابيس الشعر، وحلي الكاحل (الخلخال)، إلى جانب المساحيق الملونة لتزيين العيون والجسم. ولعبت المنتجات الحيوانية دوراً محورياً في هذه الممارسات، حيث استخدم الحليب والشحم في تحضير العطور ودهن الجسم (ألفريد، ١٩٩١: ١٤٥).

اهتم النبتيون بتصفيف الشعر واستخدام الشعر المستعار، الذي كان يصنع من ذيول الزرافات والماعز (الفريد، ١٩٩١، ٦٣). وقد عُثر على ملاقط لإزالة الشعر في هرم الملك أسبلتا، ما يشير إلى ممارسات تجميلية دقيقة ضمن الطقوس الملكية (Reisner, 1918: 79). واحتوت المدافن الملكية في موقع الكرو على كميات كبيرة من المجوهرات، بما في ذلك الخواتم والأقراط، ما يسلط الضوء مكانة الزينة في الحياة الشعائرية والجنائزية (كندال، ١٩٩٦: ٦٧-٦٨). وكان البخور عنصراً أساسياً في هذه الممارسات، كما يتضح من مبخرة خزفية وجدت في المقبرة رقم ١١٢ بموقع سمنة، ما يؤكد استخدامه في الاحتفالات الشعائرية (كندال، ١٩٩٦، ٦٧).

٥- الزواج في العصر المروي: امتد العصر المروي عبر مساحة جغرافية شاسعة جنوباً، ما أدى إلى امتزاج ثقافات وقبائل متنوعة شكلت تركيبة المجتمع المروي. ويشير سترابو إلى تنوع سكان مروي،

متناولاً بعض عاداتهم الغذائية والاجتماعية، ومسلطاً الضوء على احترامهم للزواج وتحريم انتهاك حرمة زوجة الحاكم (البشير، ٢٠٠٥: ١٢٣-١٢٤؛ آدامز، ٢٠٠٥: ٣٠٧).

ويبدو أن سكان النوبة السفلى خلال العصر المروي تفاعلوا مع البطالمة، وأن الزواج كان يعقد في سن مبكرة لكل من الذكور والإناث، ما يعكس نمطاً اجتماعياً متأثراً بالعوامل الإقليمية (تونسي، ٢٠٠٨: ٧). وتشير الحفريات التي أجراها رايزنر إلى أن الملوك المرويين اتخذوا العديد من الزوجات والخادمات، وقد تم التضحية ببعضهن في المدافن الملكية لخدمة الملك في الحياة الآخرة، باستثناء الملكات من ذوات الدم الملكي، ما يسلط الضوء على التمايز الشعائري والرمزي بين الزوجات الرسميات والمرافقات (Reisner, 1918, 20).

من أبرز القطع الأثرية المكتشفة في مقبرة الملكة أماني شاخيتي خاتم ذهبي يصور الملك والملكة جالسين على سرير خشبي (عنقريب) يتبادلان طفلاً صغيراً، في مشهد يجسد رمزية الزواج الإلهي والإرث الملكي (Torok, 2010: 168) (هنتزا، ٢٠٠٥: ٩٧). وتعكس الأدلة الأثرية دور الموسيقى والرقص في طقوس الزواج، حيث يظهر رجال يعزفون على الطبول والعصي والأبواق على إناء خزفي من مروي، ما يشير إلى الطابع الاحتفالي والجماعي لهذه المناسبات (Autissier, 2010: 206–207).

وفي مدينة مروي الملكية، اكتشفت حمامات بخار (دخان) بجوار الحمام الروماني، استخدمتها نساء العائلة المالكة ضمن عادات التطهير المرتبطة بالزواج، ما يعكس البُعد الجسدي والروحي لهذه الممارسات (Ahmed & Welsby, 2010, 254). وتوضح هذه الشواهد تداخلاً بين الفن والممارسة، وبين الجسد والسلطة، في سياق يكرس شرعية الزواج الملكي وامتداده الرمزي عبر الأجيال.

رابعاً: طقوس ومراسم التتويج كرمز للسلطة والتجديد:

كان تتويج الملوك في الحضارة الكوشية من أهم الاحتفالات الوطنية والدينية، إذ جسد مفهوماً عميقاً للشرعية الإلهية وتجديد السلطة. لم يكن الملك الكوشي يُنظر إليه كمجرد حاكم دنيوي، بل كشخصية اختارها المعبود آمون، موكل إليه نشر الرخاء والرفاهية بين شعبه، والحفاظ على النظام الكوني وفقاً للمشيئة الإلهية. تضمنت مراسم التتويج سلسلة من المراسم ذات أبعاد دينية، واجتماعية، وفلسفية، مما يعزز الاعتقاد بأن السلطة تمنح من الأب المقدس إلى ابنه الأرضي الملك.

١- مشاهد التتويج الملكي (رمزية السلطة والشرعية): تكشف الأدلة والشواهد الأثرية عن تكرار مشاهد التتويج في النقوش الجدارية ونقوش المعابد، ما يسلط الضوء على مركزية هذا الممارسة في ترسيخ الشرعية الملكية. ففي لوحة الملك بعانخي بجبل البركل، داخل معبد آمون الكبير، يصور الملك واقفاً أمام المعبود آمون، الذي يظهر برأس كبش يعلوه قرص شمسي، وإلى جانبه المعبودتان موت وخونسو (Khonsu)، بينما يرتدي الملك التاج المزدوج، رمز اتحاد مصر والسودان (Pompei, 2014: 591).

وفي لوحة الملك ناستاسن المحفوظة في المتحف المصري ببرلين، يصور الملك وهو يقدم الولاء لآمون نبتة وآمون طيبة، بحضور الملكة الأم بلخا (Palkha) وزوجته سخماخ (Sekhemakh)، في مشهد يبرز الدور المحوري للنساء الملكيات، ولا سيما الملكة الأم، في إتمام مراسم التتويج وتكريس الشرعية

السياسية والدينية. كما تشير نصوص الملك ناستاسن إلى أن احتفال التتويج كان يقام في توقيت محدد، هو اليوم الأخير من الشهر الرابع من الفيضان، وهو توقيت يتزامن مع عيد الأوبت المقدس (Opet Festival) في شهر كيهك (Khoiak). ويرمز هذا العيد إلى الزواج الإلهي بين آمون وموت، حيث كانت المواكب تسير من الكرنك إلى الأقصر احتفالاً بتجديد الخلق، في طقس يكرس شرعية الملك بوصفه ابناً للمعبود آمون، ويضفي على التتويج بعداً كونياً وروحياً (Pompei, 2014: 592).

٢- الملكة الأم ودورها في تأكيد الشرعية الملكية: شكل حضور الملكة الأم عنصراً مهماً في إتمام طقوس ومراسم التتويج، إذ كانت تناط بها مسؤولية طلب الإذن الإلهي لابنها باعتلاء العرش. وتشير النقوش إلى أن التتويج الذي يجرى دون مشاركتها يُعد غير مكتمل من الناحية الاحتفالية (Pompei, 2014: 592). ويسجل الملك تهارقا، في لوحته التذكارية في موقع الكوة، أنه دعا والدته لحضور مراسم تتويجه، في مشهد يحاكي حضور المعبودة إيزيس لتتويج ابنها حورس، ما يعكس البعد الرمزي والديني لهذا الدور (شريف، ١٩٨٥: ٣٠٤).

وقد بُني معبد مخصص لعبادة الملكة الأم في موقع الكوة، حيث لُقبت بـ "أم الملك وأخت الملك، السيدة النبيلة، سيدة الشمال والجنوب"، وهي ألقاب تجسد مكانتها في المراسيم وفي الجوانب السياسية. وترتبط صورها في معابد المصورات والنقعة والمعبد الكبير بجبل البركل ارتباطاً مباشراً بمعبودات الخصوبة والأمومة مثل إيزيس وموت، ما يؤكد دورها الرمزي بوصفها "الأم الشرعية للملك الإلهي"، وضامنةً لاستمرارية السلطة ضمن الإطار الديني والملكي (Pompei,2014:593).

٣- رمزية التتويج ومظاهره الأثرية: صورت النقوش الكوشية لحظة التتويج بوصفها مظهراً مقدساً يكرس شرعية الملك ضمن منظومة دينية وسياسية متكاملة. ففي معبد المصورات الصفراء، العائد إلى القرن الثالث قبل الميلاد، تظهر إحدى القاعات ذات الأعمدة مشهداً يهدي فيه حورس وتحوت (Thoth) وإيزيس التاج الأحمر لملك، في تجسيد رمزي لاتحاد السلطة الأرضية والإرادة الإلهية (Pompei, 2014: 593). وتظهر مشاهد مماثلة في الأيقونات المروية، مثل ختم الملكة أماني شاخيتي، الذي يروي تتويجها وحصولها على الشرعية الإلهية من آمون.

ويصور نقش واضح من معبد آمون في مروي الملكة أماني شاخيتي وهي تقدم القرابين لآمون وموت، وتتلقى التاج الملكي بوصفه رمزاً للموافقة الإلهية. وفي معبد موقع الحصا، تظهر لوحة من القيشاني المعبود آمون برأس كبش وهو يضع تاجاً قمرياً على رأس الملك، في دلالة على تجدد النور والحياة (Pompei, 2014: 593-594). وتتكرر هذه المشاهد في معابد دكة والنقعة، حيث يصور تتويج الملوك أركاماني، وناتكاماني، وأماني تيري على يد حورس، وموت، وإيزيس، وتحوت، ما يعكس استمرارية الممارسة وتكريسها عبر الأجيال (Torok, 1987: 71).

٤- الاختيار الإلهي والمراسم المصاحبة للتتويج الملكي: النقوش الكوشية تسلط الضوء على أن اختيار الملك كان يتم بإرادة المعبود آمون، في مراسم تكرس شرعية الحكم بوصفها تفويضاً إلهياً. ففي نقش تتويج الملك أسبلتا، يروى كيف اجتمع الكهنة وكبار المسؤولين بعد وفاة الملك أنلامني، وتوجهوا إلى معبد آمون في جبل البركل طلباً للتوجيه الإلهي. وعندما قدم المرشحون أمام المعبود، لم يختر

آمون سوى أسبلتا، فأعلن رئيس الكهنة: "هذا ملككم، محبوب آمون" (Eide et al., 1994: 239–240).

ثم دخل الملك قدس الأقداس منفرداً، حيث منحه آمون التاج والصولجان، معلناً: "سيبقى هذا التاج على رأسك ما دام آمون ملكاً عليك". خرج الملك مشبعاً بروح رع، وتلقى تهاني الحاضرين وسط احتفالات موسيقية ومواكب مهيبة، في مشهد يجسد لحظة التجلي الإلهي والانتقال الرمزي للسلطة (Eide et al., 1994: 242-243).

٥- الرحلة المقدسة إلى معابد آمون: شكلت الرحلة المقدسة إلى معابد آمون شرطاً أساسياً لإتمام مراسم التتويج الملكي، حيث كان على الملك أن يزور المعابد الرئيسة في مواقع جبل البركل، والكوة، وصنم، لتأكيد شرعيته ونيل رموز الملكية. وقد وصف الملكان ناستاسن وحارسيوتيف هذه الرحلات في نقوشهما، مشيرين إلى رؤى إلهية استدعتهما إلى آمون نبتة، حيث جرى التتويج بحضور الكهنة والملكة الأم، وسط مواكب احتفالية وموسيقى مقدسة تكرس لحظة التجلي الإلهي (Kolk, 2005: 41–46).

كما حرص الملوك على زيارة معبد آمون في موقع أرقو (بينوبس)، حيث صور المعبود آمون على هيئة كبش رابض يرتدي التاج الشمسي، في طقس رمزي يجسد تجدد السلطة ووحدة العرشين، ويكرس ارتباط الملك بالإرادة الإلهية عبر الفضاء المقدس (هنتزا، ٢٠٠٥: ٧٤).

خامساً: طقوس ومراسم الموت والبعث والخلود:

احتلت الممارسات الجنائزية في حضارة كوش مكانةً مركزية ضمن الممارسات الدينية، إذ جسدت المفهوم الكوشي للحياة والموت والبعث بوصفها دورة مقدسة تتجاوز الفناء. وقد صورت رحلة المتوفى الأبدية في خمس مراحل متتابعة، تبدأ بانتقال طقسي ورمزي من الشرق، عالم الأحياء، إلى الغرب، عالم الأموات، برفقة المعبود رع وتحت حماية كهنة ماعت، في طقس يجسد العبور الكوني. تلي ذلك مرحلة البعث والتطهير في "بيت التطهير"، حيث يعاد تشكيل الجسد روحانياً استعداداً للخلود، ثم تقام طقوس ومراسم "فتح الفم"، وهي من أهم الممارسات الجنائزية، وتستخدم فيها شفرة ذهبية، مثل تلك التي عثر عليها في مقبرة الملك سنكامانيسكين، بهدف تمكين المتوفى من النطق والتغذية في العالم الآخر (كندال، ١٩٩٦: ٧٨). وبعد إتمام هذه المراسم، توضع المومياء في المدفن، حيث تستقبل في الحياة الآخرة بوصفها كائناً متجدداً (Pischikova, 2009: 24).

١- الروح (با) والتوأم الروحي (كا): مفاهيم الخلود في العقيدة الكوشية: اعتنق الكوشيون التصور الطيبي المصري للحياة الآخرة، مؤمنين بأن الروح (با) تغادر الجسد عند الموت على هيئة طائر مجنح برأس إنسان، في صورة تجسد القدرة على الحركة بين العوالم. وقد استلزم هذا الاعتقاد الحفاظ على الجسد سليماً، ليتمكن الروح من العودة إليه، ما يفسر العناية الفائقة بعمليات التحنيط والتطهير. حيث تشير المصادر النصية إلى أن هذه المفاهيم كانت تهدف إلى حماية الملك من القوى الشريرة وضمان عبوره الآمن إلى السماء، حيث يتحد مع التوأم الروحي (كا)، في لحظة تجسد اكتمال الكيان

الروحي واستحقاق الخلود (علام، ٢٠٠٠: ٥٢٣-٥٢٤). وتوضح هذه العقيدة تداخلاً بين الرمزية الجنائزية والشرعية الملكية، بوصف الملك كائناً إلهياً يبعث في العالم الآخر.

تأثرت المعتقدات الكوشية بأسطورة أوزريس، التي تروي مقتله المأساوي على يد ست وقيامته اللاحقة بفضل المراسم السحرية التي أجرتها إيزيس. وقد شكلت هذه الرواية نموذجاً قدسياً للكهنة الكوشيين في إحياء ملوكهم ومنحهم الخلود، متبعين ترانيم إيزيس بوصفها وسيلة لإعادة الروح إلى الجسد وتكريس البعث (Budge, 1998: 174).

وخلال العصر المروي، تم تمثيل الروح (با) بصيغة مؤنثة أو مذكرة، تبعاً لجنس المتوفى، وقد عثر على تماثيل تصور (البا) وهي تحمل ندوباً رأسية مميزة على الجبهة، في دلالة رمزية على الهوية الروحية. أما (الكا)، فقد اعتبرت الروح الحارسة التي خلقها المعبود خنوم إلى جانب الإنسان من الطين، لتسبقه إلى العالم الآخر وترافقه فيه، بوصفها تجسيداً للحماية والخدمة الأبدية (هنتزا، ٢٠٠٥: ١٤؛ أبو بكر، ١٩٨٥: ٧٨).

٢- طقوس التحنيط ومراسم تجهيز الجثمان: بعد الإعلان الرسمي عن وفاة الملك، يهتم الكهنة مسؤولية الجثمان، وينقل إلى المعابد الجنائزية المخصصة لهذا الغرض. وهناك، تبدأ إجراءات التحنيط، بهدف تجهيز الجثمان للحياة الأبدية. إعادة جامعة ميشيغان الامريكية اكتشاف معبد Ku1500 في موقع الكرو عام ٢٠١٤م، الذي استُخدم كمستودع للجثث التي تنتظر التحنيط (Emberling & Williams, 2015).

كما تصور الرسوم من مقبرة الملك تانوت أماني في موقع الكرو، إلى جانب والدته الملكة كلهات (Qalhat)، الملك على هيئة أوزريس راقداً في سلام، يتلقى نفس الحياة من ابنه حورس، بينما تظهر الملكة على سريرها الجنائزي (Dunham, 1955, op. cit. 61-63). احتوت المقابر الملكية على جرار كانوبية لحفظ الأعضاء الداخلية، كما هو الحال في مدافن الملوك بعانخي، وشباكا، وتانوت أماني، وغيرهم. وفي مقابر نوري، كانت هذه الأواني تصنع على شكل رؤوس أبناء حورس الأربعة، حابي، ودواموتف، وقبح سنواف، وإمستي (Dunham, 1955, 123).

شهد العصر المروي تراجعاً في استخدام الجرار الكانوبية، مع بقاء المبدأ الأساسي لتحنيط الأعضاء الداخلية، حيث كانت تُلف بالكتان وتوضع بجانب تماثيل رمزية لأبناء حورس، بوصفهم حماة الجسد في العالم الآخر (الناضوري، ١٩٨٥: ١٦٢؛ مهران، ١٩٨٩: ٤٥).

وكانت عملية التحنيط تتم عبر مراحل دقيقة، تبدأ بتطهير الجثة باستخدام النطرون، ثم لفها بأقمشة من الجبس والكتان، وتزيينها بقناع جنائزي ذهبي يجسد ملامح المتوفى. وضع جعران على شكل قلب (ib) على الصدر، كرمز للتجديد ودرع ضد الفناء، وقد نقش عليه نص من الفصل ٣٠ من كتاب الموتى، يحث القلب على عدم الشهادة ضد صاحبه أثناء المحاكمة الأخروية (رينولد، ٢٠٠١: ١٠٨).

يستخرج الدماغ من الأنف، وتغطى أصابع اليدين والقدمين بالذهب، في طقس يجسد التقديس والحماية. ثم يوضع الجسد داخل توابيت مزخرفة بالذهب أو الجرانيت، كما هو الحال في مقابر

الملكين أنلامني وأسبلتا، ما يعكس البعد الملكي والرمزي للخلود (Dunham, 1955, op. cit. 127–226).

٣- **الروح والحساب الإلهي في العقيدة الكوشية:** على غرار العقيدة المصرية القديمة، آمن الكوشيون بمبدأ الحساب بعد الوفاة، حيث توزن الروح في محكمة دينية يرأسها أوزريس، ويحكم عليها وفقاً للعدل والحق الذي تمثله المعبودة ماعت. ويصور أنوبيس مشرفاً على الميزان، بينما يدون تحوت النتيجة، في طقس يجسد لحظة الفصل بين الخلود والفناء (كندال، ١٩٩٦: ٤٣–٤٤).

فإذا تساوت كفتا الميزان، نال المتوفى الخلود، وإذا رجحت كفة القلب على ريشة ماعت، أُلقيت الروح في جسد الوحش وسجنت في مملكة ست، في عقوبة تجسد الفوضى والنبذ. وقد نقشت مشاهد الحساب في قبر الملك تانوت أماني ووالدته كلهات، حيث يظهر الملك برفقة أبناء حورس، في مشهد يكرس الحماية الإلهية ويبرز البعد الطقسي المقدس للعدالة الأخروية (Dunham, 1950, op. cit. 51–50).

عند صدور الحكم الإلهي، يتحول المتوفى إلى "آخ"، أي روح مضيئة، ويجسد الملوك في صورة كائنات إلهية، تظهر في هيئة الشمس، أو حورس رع، أو أوزريس، في ممارسة تكرس الخلود والارتقاء الروحي (يويوت، ١٩٨٥: ٧٨). ويعد اختفاء الشمس رمزاً للموت، بينما تجسد عودتها عند الفجر لحظة البعث، في محاكاة لقيامة أوزريس وارتفاع مياه الفيضان، ما يعكس العلاقة بين الظواهر الكونية والدورة المقدسة للحياة والموت (يويوت، ١٩٨٥: ١١٩-١٢٦).

٤- **التماثيل الجنائزية (الشبتي - رمزية الخدمة والولاء الأبدي):** تميزت ممارسات الدفن في نبتة بوجود تماثيل الشبتي، التي حلت محل القرابين البشرية، وأُعدت لخدمة الملك في الحياة الآخرة. وقد صنعت هذه التماثيل بأشكال ذكورية وأنثوية، تجسد الخدم والجنود والعمال، كما هو موثق في مقبرتي تهارقا وسنكامانيسكين (Dunham, 1955, op. cit. 198; Balanda, 2014: 655–658).

وفي نبتة، صنعت معظم تماثيل الشبتي من الفيانس، وقد عثر على قوالب لصناعتها في معبد صنم، ما يشير إلى وجود ورش متخصصة في إنتاجها. وضعت هذه التماثيل على طول جدران حجرات الدفن أو حول التوابيت، في مشاهد تجسد الحماية والولاء الأبديين، وتكرس استمرار الخدمة في العالم الآخر ضمن منظومة مقدسة متكاملة (Dunham, 1950, op. cit. 67).

٥- **موائد القرابين ومراسم القربان في الجنائز الكوشية:** شكلت موائد القرابين عنصراً مهماً في المراسم الجنائزية الكوشية، حيث كانت توضع عادةً على الجانب الشرقي من القبر، في دلالة رمزية على شروق الشمس وتجدد الحياة. وغالباً ما تصور هذه المشاهد المعبودين تفنوت وأنوبيس وهما يسكبان الماء والعسل على المذبح، في إعادة تمثيل قدسي لبعث أوزريس، ما يكرس مفهوم القيامة والخلود (هنتزا، ١٩٩٦: ٨٥).

وقد عُثر على أمثلة لهذه الموائد في جزيرة صاي، وموقعي صادنقا، ونوري، حيث تظهر النقوش المعبودين إيزيس وأوزريس وهما يؤديان مراسم القربان، في مشهد يجسد الحماية الإلهية واستمرارية

الروح. ونقشت أسماء وألقاب المتوفى على هذه الموائد، ما يسلط الضوء على البعد الشخصي والمقدس للهوية الأخروية (رينولد، ٢٠٠١: ١١٤–١١٥) (Dunham, 1955, op. cit. 64).

٦- طقوس كسر الأواني الفخارية (إطلاق الروح وتجسيد البعث): مثلت طقوس كسر الأواني الفخارية المرحلة الختامية في مراسم الجنازة الكوشية، حيث كانت تجرى قبيل إغلاق المدفن بوصفها فعلاً رمزياً يُطلق روح المتوفى نحو العالم الآخر. وقد عثر على أدلة لهذه الممارسة في مقبرتي الكرو ونوري، حيث حطّمت عمداً أواني تحمل صوراً لأوزريس ومشاهد تبجيل، في طقس يجسد نهاية الحياة الأرضية وبداية المسار الأخروي (Dunham, 1950, op. cit. 22; Dunham, 1955, op. cit. 114)).

وفي موقع صادنقا، عُثر على كأس زجاجي مكسور عمداً يحمل نقشاً يونانياً يقول: "اشرب، وستحيا"، في إشارة رمزية إلى البعث الأبدي، ما يبرز تداخل الرمزية المحلية مع التأثيرات الهلنستية في التعبير عن الخلود (رينولد، ٢٠٠١: ١١٩).

٧- الولائم الجنائزية (طقوس ومراسم التقديس واستمرارية الذكرى): عقب طقوس ومراسم الدفن، كانت تقام ولائم جنائزية تعرف بولائم التقديس، تجمع أفراد الأسرة والكهنة في طقس يكرس إحياء ذكرى المتوفى والدعاء له بالخلود. وقد كشفت الاكتشافات الأثرية في مقابر الكدادة ونبتة ومروي عن أدوات وأكواب وكؤوس مخصصة لهذه الولائم، بالإضافة إلى ملاعق جنائزية مزخرفة بزخارف لرؤوس أبقار وأهلة وأقراص قمرية، وهي رموز ترتبط بالإلهة إيزيس، وتجسد مفاهيم الخصوبة والبعث والحماية الروحية (إدوارد، ١٩٩٦: ٤٤؛ رينولدز، ٢٠٠١: ١٢٠–١٢١). تعكس هذه الطقوس والمراسم البعد الجماعي للجنائز الكوشية، حيث يعاد تأكيد الروابط الأسرية والروحية، ويكرس حضور المتوفى في الذاكرة الطقسية للمجتمع.

سادساً: عناصر الطبيعة ورمزيتها في طقوس ومراسم الانتقال:

شكلت عناصر الطبيعة منذ فجر التاريخ، محوراً أساسياً في تشكيل الوعي الإنساني تجاه الكون ومفهوم الوجود. وقد واجه الإنسان قوى الطبيعة برهبة وسعى للتكيف معها عبر طقوس وممارسات رمزية تجسد الحاجة إلى الحماية والخصوبة والخلود. ومع مرور الزمن، تحولت هذه القوى إلى رموز دينية مقدسة، تجسد العلاقة بين الإنسان والعالم الإلهي. وفي السياق الكوشي، يُعد النيل من أكثر الرموز الطبيعية في وادي النيل، إذ مثل ظاهرة مزدوجة لسكانه: واهباً للحياة عبر فيضانه، ومهدداً لها في أوقات الغمر. وقد منحته هذه الثنائية مكانة مقدسة لدى المصريين القدماء، الذين جسدوه في هيئة المعبود حابي، سيد الفيضان ومصدر الخصوبة والبعث. وقد ورثت مملكة كوش هذا التصور، فظل النيل رمزاً محورياً في مراسم الانتقال، يجسد الممر بين عالمي الأحياء والأموات، وعلامةً على التحول والتجدد المستمر. كما حملت أشجار النخيل قيمة رمزية كبيرة في المعتقدات الجنائزية، تعود جذورها إلى فترة كرمة. وقد عثر على صور لسعف النخيل في مقبرة الأمير جحوتي حتب خلال عصر الدولة الحديثة، ما يشير إلى استمرارية هذا الرمز عبر العصور. ويرتبط وجود سعف النخيل بأفكار الحياة الأبدية والخصوبة والبعث، وكان يقدم للموتى في المدافن ليستنشقوا "رائحة الحياة"، تماماً

كما يقدم رمز العنخ، مفتاح الحياة الأبدية، في طقس يكرس استمرارية الروح وحمايتها (أبو بكر، ١٩٨٥: ٧٦).

ازدادت الإشارات إلى رمزية النخيل خلال العصر النبتي، لا سيما في السياق المراسمي والجنائزي، حيث اكتسب سعف النخيل دلالة متعاظمة على البركة والبعث والحياة الأبدية. ففي مقبرة الملك تانوت أماني ووالدته قلهات، يصور سعف النخيل في مشاهد احتفالية تُكرس رمزية الخلود (Dunham, 1950, op. cit. ppxx).

كما تظهر النقوش مشاهد لأفراد يحملون سعف النخيل بأيديهم اليسرى على الجدار الجنوبي في مقبرة الأمير أريكاكاماني، وبأياديهم اليمنى على الجدار الشمالي، في إشارة طقسية تجسد التبادل الرمزي بين عالمي الأحياء والأموات، وتكرس النخيل بوصفه وسيطاً بين الوجودين. وفي نقوش آمون في النقعة، تظهر صور الأشجار وأغصان النخيل في سياقات طقسية مقدسة، ما يسلط الضوء على حضور النبات كعنصر مقدس في طقوس ومراسم الانتقال (Gasmelseed, 2004: 282).

وقد استمر تصوير أشجار النخيل طوال العصر المروي في المدافن والمعابد، لتصبح رمزاً ثابتاً في الفن الديني والجنائزي. كانت أغصان النخيل تقدم للمتوفى في مشاهد التجديد والبعث، على غرار رمز العنخ، في طقس يكرس استمرارية الحياة الروحية. وهكذا، في الثقافة الكوشية، تحولت شجرة النخيل إلى رمز موحد بين الحياة والموت، وجسر بين الأرض والسماء، وبين الفناء والخلود، في تجسيد بصري لعقيدة البعث والاتحاد الكوني (Gasmelseed, 2004: 283).

المناقشة:

كشفت الأدلة والشواهد الأثرية والنصوص الدينية في حضارة كوش أن طقوس ومراسم الانتقال لم تكن أحداثاً معزولة، بل شكّلت جزءاً من منظومة فكرية متكاملة تعبّر عن رؤية كونية تدرِك الحياة والموت كمرحلتين متداخلتين ضمن دورة مستمرة من الخلق والتجدد. وقد تجسدت هذه الفلسفة في سلسلة من الممارسات الرمزية التي عبّرت عن فهم الكوشيين للعلاقة بين الإنسان والكون والمعبود، حيث ينظر إلى الفرد بوصفه جزءاً من نسيج كوني يخضع لقوانين التحول والبعث، ويتحد مع القوى الإلهية عبر الشعائر والموت الرمزي. وتُظهر هذه المراسم قدرة استثنائية على دمج الرمزي بالوظيفي، والروحي بالسياسي، في إطار يكرّس الخلود بوصفه امتداداً للشرعية والانسجام الكوني.

أكدت طقوس الحمل والولادة في مملكة كوش، كما يتضح في تماثيل معبودات مثل إيزيس وباستت وحقت، على قدسية الخلق والدور الوقائي للأمومة، بوصفها فعلاً إلهياً يُكرس الحياة ويجسد الحماية. وقد كشفت هذه الممارسات عن تفاعل ديناميكي بين المعتقدات المصرية القديمة والتقاليد الكوشية المحلية، ما أدى إلى بلورة رؤية كوشية متميّزة، غنية بالدلالات الروحية والرمزية.

وفي هذا السياق، اكتسبت الولادة الملكية بُعداً لاهوتياً، يجسد الظهور الإلهي للملك، ويكرس شرعيته المستمدة من الإله آمون أو إله الشمس رع. وهكذا، لم تكن الولادة فعلاً بيولوجياً فحسب، بل طقساً تأسيسياً يعيد إنتاج النظام الكوني، ويضفي على الملك صفة إلهية تبرر سلطته وتكرس ارتباطه بالعالم العلوي.

مثلت طقوس ومراسم الانتقال والتلقين مراحل حاسمة في الانتقال من الطفولة إلى النضج الاجتماعي والروحي، حيث تشير الأدلة الأيقونية والمادية إلى أن ممارسات مثل الختان، وتطبيق طقوس التضحية، والاحتفالات الجماعية، كانت بمثابة ولادة رمزية جديدة تعيد تعريف الهوية والانتماء داخل النسيج الطبقي للمجتمع الكوشي. وقد جسدت هذه الطقوس تحولاً رمزياً من الفرد إلى الجماعة، ومن الإنسان إلى المقدس، في إطار يكرس التماهي مع القيم الدينية والمؤسسية.

أما الزواج، فقد حمل في السياق الكوشي أبعاداً دينية وسياسية، حيث اعتبرت الاتحادات الملكية بين الملوك والملكات تحالفات مقدسة تجسد الانسجام الكوني والتجدد. وقد عبرت النقوش والقطع الأثرية عن هذا البُعد الاحتفالي، من المجوهرات والعطور والملابس إلى الآلات الموسيقية والقرابين، في مشاهد تكرس الخصوبة، واستمرارية السلالة، والبركة الإلهية، بوصفها عناصر تأسيسية للشرعية الملكية والانسجام الكوني.

مثّل التتويج ذروة النظام الطقسي الكوشي، بوصفه رمزاً للتجدد الكوني والتفويض الإلهي الممنوح للملك لحكم الأرض. وتكشف مشاهد التتويج في معابد نبتة ومروي عن مفهوم لاهوتي للملكية، حيث يصور الملك تجسيداً للإرادة الإلهية، في شعيرة يكرس شرعيتها بوصفها وسيطاً بين السماء والأرض.

ويُعد دور المعبود آمون والملكة الأم محورياً في منح الشرعية والبركة، ما يبرز الترابط العميق بين الدين والسياسة في الفكر الكوشي، حيث تستمد السلطة من القوى الإلهية وتكرس عبر الرمزية. ولم تكن الرحلات الملكية إلى جبل البركل ومعابد الكوة ونبتة مجرد مراسم تتويج، بل كانت إعادة تمثيل رمزية للرابطة بين السماء والأرض، تجسد الاتحاد الكوني وتجدد النظام الإلهي عبر حضور الملك في الفضاء المقدس.

عكست الطقوس والمراسم الجنائزية في مملكة كوش تفاعلاً عميقاً بين المعتقدات المصرية القديمة والتقاليد الكوشية المحلية، مجسدةً المفهوم الكوشي للحياة الآخرة بوصفها استمراراً للوجود الأرضي في صورة أنقى وأكثر روحانية. وقد مثلت ممارسات مثل التحنيط، والتماثيل الجنائزية (الشبتي)، والجرار الكانوبية، وموائد القرابين، وسعف النخيل، رموزاً مقدسة للبعث والتجديد، تُكرّس فهماً خاصاً للموت كمرحلة انتقالية نحو الخلود، حيث يعاد خلق الفرد على صورة أوزريس، رمز البعث الأبدي.

وبالنظر إلى هذه الطقوس مجتمعةً، يتضح نظام فكري موحد يعكس رؤية كونية دورية، تفهم فيها الحياة البشرية ضمن إطار إلهي تحكمه دورة من الولادة والموت والتجدد. وهكذا، مثّلت طقوس الانتقال في كوش تعبيراً مركباً عن الفلسفة الدينية والسياسية والاجتماعية للمجتمع، حيث يجسد الخلود جوهر الوجود الإنساني، ويُكرس الاتصال الأبدي بين الإلهي والملكي والإنساني، في منظومة تعيد إنتاج النظام الكوني عبر الرمزية المقدسة.

الاستنتاجات:

تشير دراسة طقوس ومراسم الانتقال في حضارة كوش إلى منظومة فكرية متكاملة تتجاوز الطابع الاحتفالي، لتعبّر عن رؤية كونية ودينية واجتماعية شاملة، تُدرِك الحياة والموت كحلقتين متداخلتين

في دورة وجودية قائمة على مفاهيم التجدد والاستمرارية. وقد أعاد الكوشيون، من خلال تحليل الشواهد الأثرية والنقوش والتماثيل، تأويل التقاليد المصرية بما يتوافق مع خصوصيتهم الثقافية، مما انعكس في بلورة مراسم انتقالية متميزة، تجسدت فيها معبودات مثل إيزيس وآمون وبس وحقت بوصفها رموزاً ذات وظيفة مزدوجة: خالقة وحامية، تُكرّس البعد الروحي والسياسي للشرعية. وفي هذا السياق، برز جبل البركل كمركز عقائدي لطقوس ومراسم الولادة والتتويج، يُجسد المصدر الأسطوري للتجدد الإلهي، ويُعيد إنتاج النظام الكوني من خلال الرمز والشعيرة، بما يعكس فلسفة وجودية تؤسس لفهم كوشي للخلود والسلطة والاتصال الأبدي بين الإنسان والمطلق.

تكشف الطقوس المرتبطة بالزواج والتتويج في مملكة كوش عن اندماج عميق بين السلطة السياسية والشرعية الدينية، حيث يُنظر إلى الملك بوصفه ابناً للمعبودات، ويتخذ التتويج طابعاً دينياً يجسد اتحاد السماء والأرض وتجدد دورة الخلق الإلهية. وفي المقابل، عكست الطقوس الجنائزية مفاهيم الاستمرارية والبعث، من خلال ممارسات التحنيط، وتقديم القرابين، واستخدام تماثيل الشبتي، التي مثّلت رموزاً لتحول المتوفى إلى كائن أبدي تحت حماية المعبودات. ومن خلال هذه المراسم، تبرز دراسة الانتقال في كوش فهماً معمقاً لبنية النظام الديني والسياسي والاجتماعي، وتُظهر تفاعلاً إبداعياً مع التراث المصري القديم ضمن إطار ثقافي مستقل. وقد جسدت هذه المنظومة رؤية وجودية ترى في الإنسان جزءاً من دورة أبدية من الخلق والتجدد، في نظام رمزي يُكرس الاتصال الأبدي بين الإلهي والملكي والإنساني.

الخاتمة:

عليه تُختتم هذه الدراسة بالتأكيد على أن الطقوس والمراسم الانتقالية في حضارة كوش لم تكن مجرد ممارسات شعائرية، بل مثّلت منظومة فكرية متكاملة تعكس رؤية الإنسان الكوشي للوجود، وتجسد تفاعله العميق مع مفاهيم الخلق والبعث والخلود. ومن خلال تحليل الرموز والممارسات، يتضح أن كوش قدمت نموذجاً حضارياً فريداً يجمع بين الأصالة الأفريقية والتفاعل الإبداعي مع التراث المصري، مما يجعل دراسة هذه المراسم مدخلاً لفهم الهوية الروحية والثقافية للسودان القديم، ومساهمته في صياغة الفكر الإنساني المبكر.

أولاً: المصادروالمراجع العربية:

- آدمز، وليام (٢٠٠٥م)، *النوبة رواق أفريقيا*، ترجمة محمد التجاني محجوب، مطبعة الفاطمية أخوان القاهرة
- أبو الحمام، عزام (٢٠٠٧م)، *الفولكلور التراث الشعبي الموضوعات*، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن.
- أبوبكر، عبد المنعم (١٩٨٥م)، "مصر الفرعونية "، في *تاريخ افريقيا العام*، المجلد الثاني، جين أفريك، ص ٧٠-١٠٢، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو).

- إبراهيم، عبد الستار (٢٠١٢م)، "مفهوم حمل وميلاد الملك في نصوص الأهرام" في *مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب*، العدد ١٣، ص١-٢٠، القاهرة.
- البشير، ع. أ (2005) ، *تاريخ السودان القديم: النوبة من عصور ما قبل التاريخ حتى عام ١٥٠٠ م*. دار جامعة الخرطوم للنشر.
- الحواشي، منصف (٢٠١٠م)، "الطقوس وجبروت الاداء: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول"، في *مجلة إنسانيات الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية*، العدد ٤٩، ص ١٥-٤٣.
- الزاكي، عمر حاج (١٩٨٣م)، *الاله آمون في مملكة مروي (٧٥٠ ق م- ٣٥٠م)*، مطبوعات كلية الدراسات العليا جامعة الخرطوم.
- الناضوري، ج (1985)، "تراث مصر الفرعونية" في *تاريخ أفريقيا العام*، المجلد الثاني، جين أفريك، ص ١٢٧–١٨٢، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو).
- بوهاها، عبد الرحيم (٢٠٠٩م)، *طقوس العبور في الاسلام: دراسة في المصادر الفقهية*، دار الانتشار العربي، بيروت.
- بودج، والاس (١٩٩٨م)، الآلهة المصرية، ترجمة محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- تونسي، هدي محمد (٢٠٠٨م)، *الزواج والطلاق في مصر القديمة*، القاهرة.
- رينولد، جاك (٢٠٠١م)، *السودان ممالك على النيل*، ترجمة صلاح محمد احمد، الخرطوم.
- شريف، نجم الدين محمد (١٩٨٥م)، "النوبة قبل نباتا" في *تاريخ افريقيا* العام المجلد الثاني، ص٢٤٧-٢٨٠، جين افريك، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو).
- علام، محمد عبد الهادي (2000)، *الديانة المصرية القديمة: عقائدها وطقوسها*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كندال، تيموثي (١٩٩٦م)، "ملوك الجبل المقدس: نباتا وأسرة الكوشيين"، في *معرض السودان ممالك على النيل*، اشراف ديبرتيشفيلدوينغ، ترجمة بدر الدين عردوكي، ١٩٩٦-١٩٩٨م، باريس، ص ٥٨-٧٠.
- لوكاس، الفريد (١٩٩١م)، *المواد والصناعات عند قدماء المصريين*، مكتبة القاهرة .
- مهران، محمد بيومي (١٩٨٩م)، *الحضارات المصرية القديمة*، ج١، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية.
- هنتزا، كارل (١٩٩٦م)، "مملكتا نبتة ومروي"، في *معرض السودان ممالك على النيل*، اشراف ديبرتيشفيلدوينغ، ترجمة بدر الدين عردوكي ١٩٩٦-١٩٩٨م ، باريس، ص ٧٢-٨٣.
- هنتزا، كارل (٢٠٠٥م)، *ذهب مروي*، ترجمة وتقديم وتعليق صلاح عمر الصادق، دار عزة للنشر والتوزيع. الخرطوم.

- يويوت، ج (١٩٨٥م)، "مصر الفرعونية المجتمع والاقتصاد والثقافة" في *تاريخ أفريقيا العام*، المجلد الثاني، ص ص١٠٣- ١٢٦. جين افريك، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو).

المصادر والمراجع غير العربية:

- Ahmed, S., & Welsby, D. (2010). *The archaeological sites of the Island of Meroe: Nomination file.* Khartoum: National Corporation for Antiquities and Museums, World Heritage Centre.
- Arkell, A. J. (1955). *A history of the Sudan from the earliest times to 1821.* London: The Athlone Press.
- Autissier, A. S. (2010). Les instruments de musique dans l'art méroïtique. In M. Baud (Ed.), *Meroe: Un empire sur le Nil,* (pp. 206–213). Paris: Louvre Éditions.
- Balanda, B. (2014). Protecting the mummy: A reinterpretation of shabtis in Napatan funerary customs. In J. R. Anderson & D. A. Welsby (Eds.), *The Fourth Cataract and Beyond: Proceedings of the 12th International Conference for Nubian Studies* (pp. 655–662). Peeters.
- Budge, E. A. W. (1985). *Egyptian magic.* London.
- Bunbaugh, S. (2009). *Meroitic worship of Isis as seen through the graffiti of the Dodecaschoenus* (Doctoral dissertation). University of Chicago, Illinois.
- Carman, J. B. (2003). *Flesh and bone: The C-Group burial in the Nile Valley,* Part 1. The University of Michigan Press.
- Carroll, S. T. (1988). Wrestling in ancient Nubia. *Journal of Sport History,* 15 (2), 121–137.
- Dunham, D. (1950). *The royal cemeteries of Kush: El Kurru.* Cambridge: Harvard University.
- Dunham, D. (1955). *The royal cemeteries of Kush: Nuri.* Cambridge: Harvard University.
- Dunham, D. (1957). *The royal cemeteries of Kush: Al Bajrawiya.* Cambridge: Harvard University.
- Edwards, D. N. (1996). *The archaeology of the Meroitic State: New perspectives on its social and political organization.* BAR Publishing.
- Eide, T. (Ed.). (2000). *Fontes Historiae Nubiorum: Textual sources for the history of the Middle Nile region between the eighth century BC and the sixth century AD* (Vol. 4). Bergen: Klassisk Institutt, Universitetet i Bergen.
- Eide, T., Hägg, T., Pierce, R. H., & Török, L. (Eds.). (1994). *Fontes Historiae Nubiorum: Textual sources for the history of the Middle Nile region between the eighth century B.C. and the sixth century A.D.* (Vol. 1). Bergen: University of Bergen.
- Elnur, S. (1956). Two Meroitic pottery coffins from Argin in Halfa District. In *Kush,* Vol. IV, (pp. 86–88). Edited by Vercoutter.
- Emberling, G., & Williams, B. (2015). The early Kushite levels at El-Kurru and the late Napatan mortuary temple (Ku. 1500). In W. Godlewski & A. Łajtar (Eds.), *Between the Cataracts: Proceedings of the 14th International Conference for Nubian Studies* (pp. 513–524). Polish Centre of Mediterranean Archaeology, University of Warsaw.
- Evana, M. (2010). Une double tradition céramique. In M. Baud (Ed.), *Meroe: Un empire sur le Nil* (pp. 105–113). Paris: Louvre Éditions.
- Francigny, V. (2010). La statue-BA. In M. Baud (Ed.), *Méroé: Un empire sur le Nil* (pp. 259–261). Paris: Louvre Éditions.

- Gasmelseed, A. A. (2004). The significance of the palm leaf in Meroitic religious scenes. In T. Kendall (Ed.), *Nubian Studies: Proceedings of the Ninth Conference of the International Society for Nubian Studies* (pp. 282–285). Boston.
- Kendall, T. (2002). Napatan temples: A case study from Gebel Barkal. Paper presented at the *10th International Conference for Nubian Studies,* Rome, January 9–14.
- Kendall, T. (2014). Reused relief blocks of Piankhy from B 900: Toward a decipherment of the Osiris cult at Jebel Barkal. In *The Fourth Cataract and Beyond: Proceedings of the 12th International Conference for Nubian Studies* (pp. 663–686). London: The British Museum.
- Kolk, M. (2005). Rituals and ceremonies in Sudan: From cultural heritage to theater. In *Proceedings of the International Conference on Rituals and Ceremonies as Theatrical Performance – Intercultural Theater: "East Meets West"* (No. 3).
- Leclant, J. (1965). *Egypt in Nubia.* London: Hutchinson Co. Ltd.
- Pasquali, G. (2014). The plaques of Queen Amanishakheto: Amesemi and Apedemak. In J. R. Baines et al. (Eds.), *Shedet: The Journal of the Association for the Study of Ancient Egypt* Vol. 1, (pp. 585–599).
- Pischikova, E. (2009). Early Kushite tombs of South Asasif. *British Museum Studies in Ancient Egypt and Sudan,* 12, (pp. 11–30).
- Pompei, I. (2014). Delivery of Nubian royal insignia: The crowns. In J. R. Anderson & D. A. Welsby (Eds.), *The Fourth Cataract and Beyond: Proceedings of the 12th International Conference for Nubian Studies* (pp. 591–599). Peeters.
- Reisner, G. A. (1918). Outline of the ancient history of the Sudan. Part 1: Early trading caravans 4000–2000 BC. In *S.N.R.,* Vol. 1, pp. 3–15. Edited by Crowfoot.
- Reisner, G. A. (1923). The pyramid of Meroe & Candaces of Ethiopia. *Museum of Fine Arts Bulletin,* 21(124), April.
- Shinnie, P. (1967). *Meroe: A civilization of the Sudan.* New York: Frederick Praeger.
- Strabo. (1932). *The Geography* (Vol. VIII, Book XVII, trans. Horace L. Jones). Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Torok, L. (2014). Quality, style, and Nubian-ness: Prolegomena to the history of Meroitic sculpture. In J. R. Anderson & D. A. Welsby (Eds.), *The Fourth Cataract and Beyond: Proceedings of the 12th International Conference for Nubian Studies* (pp. 621–634). Peeters.
- Török, L. (1987). *The royal crowns of Kush: A study in Middle Nile Valley regalia and iconography in the 1st millennia BC and AD.* BAR.
- Török, L. (1997). *The Kingdom of Kush: Handbook of the Napatan-Meroitic Civilization.* Leiden-New York-Cologne.
- Török, L. (2010a). *La royauté méroïtique.* Milan: Officina Libraria.
- Török, L. (2010b). La royauté méroïtique. In M. Baud (Ed.), *Méroé: Un empire sur le Nil* (pp. 163–186). Paris: Louvre Éditions.
- Trigger, B. G. (1965). *History and settlement in the Lower Nubia.* New York: Yale University Publications.
- Van Gennep, A. (1966). *The rites of passage* (M. B. Vizedom & G. L. Caffee, Trans.; S. T. Kimball, Intro.). University of Chicago Press.
- Welsby, W. (2004). Kawa. In *Sudan: Ancient Treasures* (pp. 148–157). London: British Museum Press.

- Wildung, D. (2004). Kushite religion: Aspects of the Berlin excavation at Naga. In D. A. Welsby (Ed.), *Sudan: Ancient Treasures* (pp. 173–185). London: British Museum Press.

تطور الفكر التاريخي في مكة المكرمة خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة ـ جدلية العلاقة بين الفقهاء والتاريخ

د. أحمد يحيى أمين كردي(•)

المستخلص:

فضّل المولىﷻ مَكَّة الْمُكَرَّمَة على سائر بقاع الأرض؛ فهي مهبط الوحي ومنبع الرسالة فكانت تزخر برجال العلم والمعرفة في كل فن من فنون الفكر الإسلامي. وقد قسمتُ هذه الدراسة إلى أربعة مباحث. الأول: يتناول أشهر مؤرخي القصص ودورهم في حفظ الروايات الشفوية المتعلقة بتاريخ البيت الحرام. والثاني: مؤرخو البلدان الذين سجلوا تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة؛ ومن أشهرهم: الْأَزْرَقِيُّ، والفاكهيُّ، والجَنَدِيُّ، والخُزَاعِيُّ، والعَدنِيُّ؛ ومنهجهم في الكتابة التاريخية. والثالث: يتناول الأحداث والوقائع والمشاهدات المتعلقة بتاريخ البيت الحرام. ويهدف البحث إلى تسليط الضوء على أشهر المؤرخين المكيين وأثرهم في تطور الفكر التاريخي في العالم الإسلامي. وترجع أهمية البحث إلى إبراز إسهامات المؤرخين المكيين في تسجيل الأحداث العامة في مكة المكرمة. إشكالية البحث: إن دراسة تطور الفكر التاريخي تعد من الدراسات الشاقة؛ فهي تحتاج إلى التحقيق والتدقيق في جمع المادة العلمية، بالإضافة إلى أن المصادر التاريخية لا تتحدث عن هؤلاء المؤرخين إلا ضمن الحديث عن مجرى الأحداث العامة في الدولة الإسلامية. وقد طبقت المنهج التاريخي الوصفي فتم جمع المعلومات التاريخية من بطون المصادر العربية وتم تحليل هذه المعلومات تحليلًا علميًا. ومن أهم نتائج البحث: إن المؤرخين المكيين نجحوا في تدوين وحفظ المادة التاريخية المتعلقة بتاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة والبيت الحرام من الضياع مما جعلها منهلًا عذبًا يرتوي منه طلاب التاريخ والحضارة الإسلامية منذ عصرهم حتى الآن.

المقدمة:

إن الحج أحد أركان الإسلام، وأهم شعائره الكبرى؛ لأنه يجمع بين العبادة الروحية والبدنية، لذا فهو ركن الإسلام الأعظم. فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال، ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الضلال. قال تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران : ٩٦ .٩٧]. ولذلك تجد قلوب المسلمين تهفو لزيارة الأماكن المقدسة في كل عام، وذلك استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيمﷺ في قوله: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم : ٣٧ - ٤٠]، ولقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ

(•) أستاذ التاريخ المساعد. قسم البحوث الإدارية والإنسانية. معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة. جامعة أم القرى. المملكة العربية السعودية.

الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ* وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦ .٢٧].

ولقد فضّل المولىﷻ مَكَّة الْمُكَرَّمَة على سائر بقاع الأرض؛ فهي مهبط الوحي ومنبع الرسالة، وكانت . وما زالت .تزخر برجال العلم والمعرفة في كل فن من فنون الفكر الإسلامي؛ مما جعلها مركزًا من مراكز الثقافة، وحلقة من حلقات الاتصال بين المشرق والمغرب الإسلامِيين، لذا فقد وصل أثرها إلى كافة الأمصار الإسلامية، فهرع طلاب العلم إليها من كل حدب وصوب يرتوون من نبعها الصافي ويأخذون عن علمائها في كل مجال من مجالات الفكر الإنساني.

ولا غرابة في ذلك؛ فمَكَّة الْمُكَرَّمَة لها مكانة خاصة في قلوب مَن زارها، أو وطئت أقدامه تراب أرضها، فينعم بالعيش في كنفها، ويشعر بالراحة مع أهلها، فيأنس بهم ويقيم معهم وينشر علمه . الذى ربما تعلمه من علمائها - بين أهله، فتطير شهرته في الآفاق، وتقبل عليه الدنيا.

وفي الحقيقة، لقد تبوأ الحرم المكي الشريف مكانة عظيمة في قلوب المسلمين قديمًا وحديثًا، بل فضّل بعضهم سكنى البلد الحرام، وكان على رأس هؤلاء . وفي مقدمتهم . الرَحَّالة والمؤرخون؛ الذين أخذوا يسجلون ما وقع من أحداث خلال تلك الزيارات، فكانت كتاباتهم زادًا لطلاب العلم من بعدهم للوقوف على تاريخ البلد الأمين، ومن ثم معرفة التطورات التي لحقت به على مر العصور والأعوام.

المدخل الجغرافي:

أطلق الجغرافيون العرب اسم الحجاز على الجبال الحاجزة بين الأرض العالية(نجد) وبين الساحل الواطئ(تهامة)، فهو إذن الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير (المقدسي، ١٩٩١م،٦٧). لكن اسم الحجاز في العرف يشمل تهامة أيضًا، وقد عد بعض العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز (اليعقوبي، ١٨٩١م، ٢١٨). ويصل طول الحجاز من الشمال إلى الجنوب حوالي ٧٠٠ ميلًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٣٥٠ ميلًا. وتعد جبال السراة العمود الفقري لشبه جزيرة العرب(الشريف، دت،٢١).

وبعض قمم هذه الجبال الحجازية مرتفعة وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذي يرتفع ٢,٣٠٠م عن سطح البحر. وجبل وتر، وجبل شيبان. وتنخفض هذه السلاسل عند دنوها من مكة فتكون القمم في أوطأ ارتفاع لها، ثم تعود بعد ذلك للعلو، فتصل في اليمن إلى مستوى عال حيث تتساقط الثلوج على قممها(الإصطخري،٢٠٠٤م، ٢٥). ومن جبال الحجاز: الجبال الواقعة في منطقة الطائف ومكة والمدينة، وجبال الطائف يبلغ علوها ستمائة متر، وجبل كَرَا في الطريق بين مكة والطائف ويبلغ علوه مائتي مترٍ. وجبل رضوى بين المدينة وينبع ويرتفع إلى مائتي متر.

وأما مَكَّة الْمُكَرَّمَة، فهي تقع في واد على شكل سهل منبسط محاط بجبال ذات شعاب تحيط بالوادي إحاطة كاملة. وقد أغنت على مر الزمن عن بناء سور لحماية المدينة. فمن الممكن للقافلة التي تنزل في هذه البقعة أن تتحصن في هذه الشعاب بواسطة حراسها، كما يوجد بها بئر يستقي منه المسافر وهو بئر زمزم. وبمكة وجد البيت الحرام الذي عاصر أولية هذه المدينة بل إنه -كما تقول بعض الروايات-

هو أول بناء فيها، وقد أكسبها حرمة وقدسية وجعلها مهوى أفئدة العرب جميعًا، الأمر الذي ضمن لها التفوق على غيرها من مدن الحجاز.

فالكعبة التي بناها نبي الله إبراهيم عليه السلام بناء مربع الشكل تقريبًا، يبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر مترًا، وعرض جداريه الشمالي والجنوبي نحو عشرة أمتار، والشرقي والغربي اثنا عشر مترًا. ويقع باب الكعبة في الجدار الشرقي، وفى الطرف الجنوبي منه يقع الحجر الأسود، وهي منذ بنائها مثابة للناس وأمنًا، كما أخبر بذلك الله تعالى في القرآن الكريم(الأزرقي،٢٠٠٣م،٢٩).

المدخل التاريخي:

كان بجانب الحركة الدينية . التي ظهرت في أعقاب الفتح الإسلامي . للبلاد الإسلامية، حركة تعني بتدوين أحداث التاريخ، وتسلك في منهجها مسلك المُحَدِّثين. فقد كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف في البداية إلى دراسة سيرة النَّبِيّ ﷺ وأعمال الصحابة رضي الله عنهم والجماعة الإسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد. وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف أولًا عن طبيعة علم الحديث، اللهم إلا في هدف كل منهما، ونوع الروايات التي يعنى بها، فالمُحَدِّثون يعنون بالروايات التي تقرر مبادئ فقهية. بينما يعني المؤرخون بالروايات التي تتجه إلى سرد الحوادث. وحسبنا دليلٌ على اشتراك العِلْمَيْن في المصادر والمنهج؛ أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذي سبقه، وأن المتن في كل رواية كان مسبوقًا بالسند أو الإسناد. ولذلك نرى أن منهم مَن تخصص في التاريخ إلى جانب دراسته في الحديث أو الفقه.

وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نميز بين أربعة أنواع من الروايات التاريخية، التي ظهرت خلال تلك المرحلة، وهي: فن القصص، ومؤرخو البلدان، والتاريخ السياسي، وتاريخ علم الرجال. ولا يعني ذلك انفصال المادة العلمية بين الأقسام الأربعة انفصالًا تامًا كما هو معروف حاليًا. ولكنه يعد بداية لهذا النوع من الكتابات التاريخية التي ظهرت فيما بعد. هذا، وقد اشتغل المؤرخون المكيون بهذه الألوان الأربعة من الكتابة التاريخية. وكان أقدم هذه الألوان في الظهور، هو فن القصص.

مؤرخو القصص:

استحدث القصص في صدر الإسلام، وصورة هذا القصص أن يجلس القاص في مسجد، وحوله الناس، فيذكرهم بالله ﷻ ويقص عليهم حكاياتٍ وأحاديثَ وقصصًا عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك، لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب. قال الليث بن سعد: هما قصصان؛ قصص العامة وقصص الخاصة. فأما قصص العامة، فهو: الذي يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم، فذاك مكروه لمن فعله ولمن سمعه. وأما قصص الخاصة، فهو: الذي جعله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حين ولى رجلاً على القصص، فإذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله ﷻ ، وحمده ومجَّده، وصلى على النَّبِيّ ﷺ ودعا للخليفة ولأهل بيته ولحشمه ولجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة. ولقد ارتفع شأن القصص حتى أصبح عملاً رسميًا، يُعَهد به إلى رجال رسميين، يُعطون عليه أجرًا. ومع هؤلاء القصاصين الذين يقصون على العامة لا العلماء، والذين

يروون الأخبار بهدف العبرة والعظة وليس الحقيقة، كان من الصعب فصل التاريخ عن القصة الخرافية والخوارق والملاحم والتنبؤ. ومع تواضع هذه المنابع وقلة قيمتها التاريخية فإن أهم عنصر تاريخي فيها وهو روايات تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة في الإسلام، قد حُفِظ ضمنها(شكر، ١٩٨٣م، ١٤٧).

ومن أشهر مَن اشتغل بهذا اللون من ألوان الكتابة التاريخية، سعيد بن حسان المَخْزُومِيُّ المَكِّيُّ(الذهبي،١٩٩٣م،٥٧). من سادات التابعين، وروى عن: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عُمَر بن الخطاب، وغيرهما. ورَوَى عَنه: إِبْرَاهِيم بن نَافِع الصائغ، ونافع بن عُمَر الجمحي، وغيرهما. وكَانَ قَلِيل الحَدِيثِ، ومع ذلك فقد حظي بثقة علماء الجرح والتعديل. وقد حفظت لنا مصادرنا التاريخية كثيرًا من مروياته التاريخية التي تتعلق بتاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة قبل الإسلام (الفاكهي، ١٩٩٤م، ٢٨٢) ، ومنها حادثة الفيل؛ فقد روى بسنده عن أم كرز الخزاعية، قالت:" رأيتُ الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل حمرًا مختمة كأنها جزع ظفار"(المقريزي، ١٩٩٩م، ٧٩). كما تحدث عن طبوغرافية المدينة، وتناول أحداثًا أخرى تتعلق بحياة الرسولﷺ في مَكَّة الْمُكَرَّمَة قبل البعثة(الصفدي،٢٠٠٠م، ١٣٠).

وتوفيّ بمَكَّة الْمُكَرَّمَة سنة[١٦٠هـ/٧٧٦م] في خلافة المهدي العباسي[١٥٨ - ١٦٩ هـ/٧٧٤ - ٧٨٥م].

ومنهم: أحمد بن ميسرة المَكِّيُّ. ولد في مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وأخذ عن علمائها، وفي مقدمتهم: عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وزِيَاد بن سعد، وغيرهما. وروى عَنهُ: سُرَيج بن النُّعْمَان، ومُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الصَّنْعَانِيّ، وكان من أبرز تلامذته على الإطلاق أبو الوليد الأزرقي، مؤلف تاريخ مَكَّة . سيأتي الحديث عنه بعد قليل ـ وإن كان أحمد بن ميسرة،" لَيْسَ بِالْمَعْرُوفِ إِلَّا فِي وَاحِد حَدِيث" عند المُحَدِّثين . كما يقول ابن عدي ـ، إلا أنه كان من أبرز الرواة عند مؤرخي مَكَّة الْمُكَرَّمَة وعلى رأسهم الأزرقي، فقد روى عنه كثيرًا في كتابه، وكلها روايات يغلب عليها القصص وهي متعلقة بتاريخ بيت الله الحرام في الجاهلية، وحياة النَّبِيِّﷺ في مَكَّة الْمُكَرَّمَة قبل البعثة. ومما يؤسف له أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا سنة وفاته، ولكنه من خلال تاريخ وفاة تلميذه الأزرقي [٢٥٠هـ / ٨٦٥م] قد عاش في ظل الخلافة العباسية في عصر الخليفة المتوكل على الله [٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م](الفاسي،١٩٨٦م،١٢٠).

ومن القصاصين المكيين؛ سليم بن مُسلم الجُمَحيُّ الْمَكِّيُّ، من أهل مَكَّة الْمُكَرَّمَة. ورَوَى عَنْ: النَّضر بن عربي، ويونس بن يزيد الأَيْلِيّ، وموسى بن عُبَيْدة، وَسَعِيد بن بشير، وغيرهم. وروى عَنْهُ مُحَمَّد بن أبان، ومخلد بن مَالِك، ويحيى بن حكيم المقوم، ومحمد بن مِهران الجمّال، ويعقوب بن كاسب، وجعفر بن مِهْران، والمسيّب بن واضح، ومحمد بن بحر البصريّ، وغيرهم. وإن كان بعض علماء الجرح والتعديل قد ضعف رواياته، إلا إن المصادر قد حفظت لنا شيئًا من مروياته التاريخية، كلها تدور حول تاريخ بيت الله الحرام في الجاهلية؛ وهي قصص يغلب عليها الطابع الأسطوري والخرافي. وتاريخ مكة المكرمة في الإسلام؛ وهي قصص يغلب عليها التهويل والمبالغة. ويبدو أن سليم كان من المغمورين، فلم تذكر لنا المصادر التاريخية سنة وفاته على وجه الدقة، وإن رجح الذهبي وفاته في الفترة بين سنتي[١٩١ . ٢٠٠هـ/ ٨٠٧ . ٨١٥م]، وعلى ذلك فإنه عاش معظم حياته في عصر الخليفة المأمون العباسي[١٩٨ - ٢١٨ هـ/٨١٣ - ٨٣٣ م](ابن ماكولا،١٩٩٠م،٣٣٠).

وكان آخر هؤلاء القصاصين، بشر بن السَّرِيّ الأَفْوَهُ البَصْرِيَّ، الوَاعِظَ، الزَّاهِدَ، العَابِد، نَزِيْلَ مَكَّة الْمُكَرَّمَة. بدأ حياته مُحَدِّثًا فسَمِعَ: مِسْعَرَ بَن كِدَامٍ، وَحَمَّادَ بن سَلَمَةَ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، وَزَائِدَةَ بن قُدَامَةَ، وَمَالِك بن أنس، وغيرهم. وحَدَّثَ عَنْهُ: أَحْمَد بن حَنْبَلٍ، وَعَلِيُّ بن المَدِيْنِيّ، وَأَبُو حَفْصٍ الفَلاَّسُ، وَجَمَاعَةٌ سِوَاهُم. وقد أثنى كثير من العلماء على علمه وخُلقه، فقَال أَحْمَد بن حَنْبَل:" كَانَ مُتْقِنًا لِلْحَدِيْثِ عَجَبًا"!. وقد حفظت لنا مصادرنا التاريخية نوعًا من القصص التاريخي الذي كان يُحدِّث به في الحرم المكي، وكلها تتعلق بتاريخ بيت الله الحرام منذ قديم الزمان، وأن سَفِينَةِ نُوحٍ عليه السلام كانت تطَوَف بِالْبَيْت الحرام زَمَنَ الْغَرَق، وما جاء في أسماء الكعبة، ولم سميت بهذا الاسم ..... إلخ هذا القصص الذي يستهوي بعض الناس ويأخذ بمسامعهم. ومما تجدر الإشارة إليه، أن بعض العلماء اتهمه باعتناق مذهب الجهمية، فقَالَ الحُمَيْدِيُّ:" كَانَ جَهْمِيًّا، لاَ يَحِلُّ أَنْ يُكتَبَ حَدِيْثُهُ"؛ ودليله على ذلك أن بِشْرَ بنَ السَّرِيّ سَأَل حَمَّادَ بنَ زَيْدٍ عَنْ حَدِيْثِ: (يَنْزِلُ رَبُّنَا...) أَيَتَحَوَّلُ؟ فَسَكَتَ، ثُمَّ قَالَ: هُوَ فِي مَكَانِهِ، يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: تَكَلَّمَ بِشْرٌ بِشَيْءٍ بِمَكَّة الْمُكَرَّمَة، فَوَثَبَ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ، فَذَلَّ بِمَكَّة حَتَّى جَاءَ، فَجَلَسَ إِلَيْنَا مِمَّا أَصَابَه مِنَ الذُّلّ. وَكَانَ سفيان الثَّوْرِيُّ يَسْتَثْقِلُهُ؛ لأَنَّهُ سَأَلَ سُفْيَانَ عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِيْنَ، فَقَالَ: مَا أَنْتَ وَذَا يَا صَبِيُّ؟ وقد مال إلى هذا الرأي أحد الباحثين المعاصرين، واتهمه بالزندقة والميل إلى السلطة، فقال:" وظهر في المعتزلة الجهمية رجال كان لهم أثر بارز في انتشار أفكارهم وذيوعها بين الخاصة والعامة، فكان منهم المناظرون الخصمون والمؤلفون، بل ووصلوا إلى أخذ السلطة، واستجلاب الخلفاء إلى مبادئهم، كما سبق. ومن رجالهم المشاهير: بشر بن السري". ولكن . والحق يقال: . إن كل ما قيل في حق الرجل لا يعدو أن تكون أسئلة كانت تجول في صدره، وربما سمعها من أحد علماء المعتزلة والذين كان لهم الانتشار الأوسع في ظل خلافة المأمون [١٩٨ - ٢١٨ هـ/٨١٣ - ٨٣٣ م]، ولكي يشفي صدره فقد سألها إلى شيوخه. ومع كل ذلك فقد تاب الرجل عن هذا الفكر، فصرح أحد المؤرخين: " إن حَدِيْثُهُ حُجَّةٌ، وَصَحَّ أَنَّهُ رَجَعَ عَنِ التَّجَهُّمِ". وتُوُفِّيَ بمَكَّة الْمُكَرَّمَة سَنَةَ[١٩٥هـ/٨١٠م](ابن تغري بردي، ٢٠٠٧م،١٤٨).

مؤرخو البلدان:

هذا هو النوع الثاني من الكتابة التاريخية التي ظهرت في مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وكان الداعي الأكبر في ظهورها، هو تطور علم التاريخ، فظهر ما يُعرف بالتاريخ العام للمسلمين، والذي يعتني بما وقع من أحداث تاريخية في الدولة الإسلامية. وإلى جانب هذا اللون من الكتابة التاريخية ظهر لون جديد يختصّ بتدوين تاريخ المدن الإسلامية، وهذا الصنف كثير جدًّا، فقل بلدة من البلدان الإسلامية إلّا ولها تاريخ؛ مثل: مَكَّة الْمُكَرَّمَة والمدينة المنورة وبَغْدَادَ والْبَصْرَة والْكوفَة وخُرَاسَانَ وبِلَاد مَا وَرَاء النَّهْر ومَرْو ونَيْسَابُور وهَرَاةَ والرَيّ وهَمَذَان وبُخَارَى وأَصْبَهَان، وغيرها. وقد ظهرت هذه الْمُصَنّفات منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. يقول أحد المؤرخين:" ينبغي لطالب الحديث ومَن عني به، أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله، وتفهمه وضبطه حتى يعلم صحيحه وسقيمه، ويعرف أهل التحديث به وأحوالهم معرفة تامة إذا كان في بلده علم وعلماء قديمًا وحديثًا، ثم يشتغل

بعد بحديث البلدان والرحلة فيه"(البغدادي،٢٠٠١م، ٦). وهذا الصنف من الكتابة التاريخية عظيم الفائدة، غزير المادة؛ لأنّ صاحبه يحاول الاستيعاب، فيوجد في ذلك من التراجم والمواد ما لا يكون له في التواريخ العامة؛ لأنّ مؤلف تاريخ البلد يغلب أن يكون من أهله فهو أدرى بأحواله من غيره، وكثير من أهل تلك البلدة هم شيوخه وأقرانه، جالسهم وسبر أحوالهم كما يجب، فإذا أخبر عنهم أخبر عن مشاهدة وخبرة وتحقيق، وبذلك يعظُم الوثوق بما يحكيه، ويؤمَن الغلط فيما يرويه.

وعلى كل حال، فإنه إلى جانب حركة التدوين التاريخي للدولة الإسلامية، ظهرت حركة أخرى تهتم بتاريخ المدن الإسلامية، وعلى الرغم من محلية هذه الكتب واختصاصها إلا أنها لم تكن ذات فكر تاريخي مستقل ولكنها تكوّن جزءًا أساسيًا من الفكر التاريخي الإسلامي الأوسع وجانبًا من جوانبه، كما أنها كانت مؤثرة فيه ومتأثرة به.

أولًا: الْأَزْرَقِيُّ ومنهجه في كتابه " تاريخ مَكَّة":

توجت المدرسة التاريخية في مَكَّة الْمُكَرَّمَة بظهور المؤرخ العظيم الذي استطاع أن يُدَون تاريخ هذه المدينة منذ أقدم العصور، إنه: أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْوَلِيد الْأَزْرَقِيّ. من أهل مَكَّة الْمُكَرَّمَة، نشأ في جوار بيت الله الحرام، وحُبب إليه علما الحديث والفقه، فأما الأول: فقد روى عَن أئمة الحرم المكي من أمثال: دَاوُد بن عبد الرَّحْمَن الْعَطَّار، وَسفيان بْن عُيَيْنَة، وإِبْرَاهِيم بْن سعد الزُّهْرِيّ، وإبراهيم بن محمد بن أَبي يحيى الأَسلميّ، وحسان بْن إِبْرَاهِيم الكرماني، وحماد بْن شعيب الحماني الكوفي، وداود بْن عَبْد الرَّحْمَنِ العطار المكي، وغيرهم. ورَوَى عَنه: البخاري، وأَحْمَد بْن إسحاق بْن عيسى الأهوازي، وأَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَنِ القرشي المخزومي، وأَبُو علي الحسين بْن عَبد اللَّهِ بْن شاكر السَمَرْقَنْدي، وحنبل بْن إسحاق بْن حنبل الشيباني، وسعد بْن عَبد اللَّهِ بْن عبد الحكم المِصْرِي، وغيرهم. وأما العلم الثاني:(أعني علم الفقه): فقد تتلمذ على الإمام الشافعي أثناء مجاورته في الحرم المكي. وإن غلب عليه علم التاريخ. قال أَبُو حَاتِم الرازي، وابن حبان، وغيرهما: هو " ثقة"(ابن كثير:٢٠٠٢م،١١٥).

أما عن بداية تدوين تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، فقد كان العلماء الذين عنوا بكتابة سيرة الرسولﷺ أول مَن عنى أيضًا بتاريخ المدائن؛ فقد دفعتهم العناية بتحقيق السيرة إلى تاريخ المدينتين المقدستين: مَكَّة الْمُكَرَّمَة والمدينة المنورة. في وصف مشاهدهما. وجرى على منوالهم المتأخرون الذين اهتموا بجمع الأخبار عن سائر المدن، مضيفين إلى ذلك ما عرفوا من أخبار المدن القديمة. ومن الطبيعي أن يحتل تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة عامة وتاريخ بيت الله الحرام خاصة، مكان الصدارة بين مدن شبه الجزيرة العربية في كتابات المؤرخين. ولكنني لا أعرف عن بدايات التأليف في تاريخ مَكَّة - وخاصة المؤلفات التي أفاد منها اللاحقون- سوى مؤلف في تاريخ مَكَّة للحسن بن يسار البصري[ت:١١٠هـ/٧٢٨م]، الذي كتب رسالة عن "فضائل مَكَّة المشرفة" كانت فيما بعد أحد المصادر الرئيسة لمؤرخي مَكَّة الْمُكَرَّمَة. وكتاب" أخبار مَكَّة"، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد [ت:٢٠٧هـ/٨٢٣م] ، وهو أقدم كتاب أُلف في تاريخ هذه المدينة. وللأسف لم يصل إلينا في صورته الحقيقية، وإن أفاد منه الْأَزْرَقِيّ كثيرًا في كتابه. وكتاب" أخبار مَكَّة"، لعثمان بن عمرو بن ساج القرشي[ت: ١٨٠هـ/ ٧٩٦م] ، وللأسف مفقود هو الآخر ، ولم

يصلنا منه سوى نُتفٍ في تاريخ الْأَزْرَقِيّ والفاكهي. ثم جاء الوليد الْأَزْرَقِيّ فكتب في "أخبار مَكَّة" وقد استقى كثيرًا من معلوماته الواردة في كتابه عن عبد الله بن عباس وتلاميذه، حيث كان لديهم معلومات وفيرة عن مَكَّة الْمُكَرَّمَة وهو أقدم كتاب وصل إلينا في تاريخ هذه المدينة. وقد جمع فيه الأخبار المأثورة عن تاريخ مَكَّة القديم الحافل بالأساطير، وعن تاريخ هذه المدينة في عصر النَّبِيّﷺ والخلفاء الراشدين(السخاوي، ٢٤٨،١٩٩٣).

وقراءة متأنية في هذا الكتاب يتضح لنا، أن الْأَزْرَقِيّ كان مولعًا بمعرفة الأخبار التاريخية وروايتها، كما أن اسمه يظهر كمصدر للمعلومات عن تاريخ مَكَّة القديم، وكذلك فيما يتعلق بتاريخها الإسلامي وما صاحبه من أحداث. فقد قدَّم في كتابه «أخبار مَكَّة» معلومات وافرة عن مَكَّة الْمُكَرَّمَة وبشكل مفصل، والوظائف المتعلقة بالكعبة والبيت الحرام؛ مثل: السقاية، والرفادة، والسدانة، وغيرها من الوظائف الموزعة على بطون قريش وأفخاذها. أضف إلى ذلك، فإن الْأَزْرَقِيّ قد وضّح بشكل كبير الإدارة المالية لمكَّة الْمُكَرَّمَة المتمثلة بالإيلاف والتجارة والأسواق وأوقاتها وإدارتها، وأورد إشارات عن إدارة مَكَّة الْمُكَرَّمَة العسكرية المتمثلة بوجود بعض الوظائف المتعلقة بذلك، مثل: «القبة والأعنة» و «القيادة واللواء»، وينفرد هذا المصدر بأنه يعدّ من أقدم المصادر التي وضعت في تواريخ المدن. وقد استغرق ثلاثة أرباع كتابه ذكر قصص كانت قد نمت في الجاهلية حول حرم مَكَّة الْمُكَرَّمَة ووصف الشعائر ذات الصلة بالمدينة المقدسة. أما الرُبع الباقي فيبحث في الأماكن المقدسة الأخرى من مَكَّة الْمُكَرَّمَة بالإضافة إلى الحديث عن رسول اللهﷺ ومعاصريه من المكيين، وعن خطط مَكَّة وأطرافها. وقد رتب الْأَزْرَقِيّ كتابه على أربعين بابًا أَلَمَّ فيها بجميع ما يتصل بتاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة من قريب أو بعيد منذ الجاهلية حتى عصره، وذكر تاريخ المسجد الحرام وبنائه وعمارته في مختلف العصور، متحدثًا عن الملامح الجغرافية والتاريخية، والسياسية والاجتماعية للجزيرة العربية في شتى العصور، مع تنويهه بفضائل الكعبة والأعمال المتعلقة بها، والمواضع المباركة في مَكَّة الْمُكَرَّمَة وحرمها، كالمدارس والربط وغير ذلك، مضيفًا إلى ذلك كله ما وصل إلى علمه من أخبار ولاة مَكَّة في الإسلام على سبيل الإجمال، محررًا ذرع الكعبة والمسجد الحرام، جامعًا لأشتات من الفوائد والأحداث التاريخية. أما أسانيده فهي موثوقة بشكل كبير فيما يتعلق بأخبار مَكَّة الْمُكَرَّمَة بعد الرسالة، وهو يأخذ أخباره عن محمد بن شهاب الزهري[ت: ١٢٤هـ/٧٤٢م] ومحمد بن إسحاق[ت: ١٥١هـ/٧٦٨م]، أما ما يتعلق بأخبار مَكَّة قبل الرسالة، فهي ليست بنفس درجة الأخبار الأخرى، وكثير منها يوردها من غير إسناد(الهيلة،١٩٩٤م،١٥).

وقد ظل الْأَزْرَقِيّ ينشر علمه بين طلاب الحرم المكي، حتى تُوفي بمَكَّة الْمُكَرَّمَة في عام [٢٥٠هـ/٨٦٥م] . على أرجح الآراء . في عصر الخليفة المتوكل على الله العباسي [٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م]، ودفن في تلك المدينة التي أحبها ودوّن تاريخها.

صفوة القول: أن أهمية كتاب" تاريخ مكة" التاريخية؛ ترجع إلى استقصائه واستيعابه وجمعه، لشتى الأخبار التي تتعلق بمَكَّة الْمُكَرَّمَة منذ أقدم العصور حتى عصر المؤلف وقد دوّن وجمع ما لم يجمعه كل من سبقه.

ثانيًا: الفاكهي ومنهجه في كتاب " تاريخ مَكَّة":

أما المؤرخ الثاني من مؤرخي تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، فهو: عبد الله بن محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي. نشأ في جوار بيت الله الحرام، واشتغل بعلم الحديث في صغره، ومن ثم فقد دخل علم التاريخ من باب المُحَدِّثين وليس من باب القصاصين. فحدَّث عن: أبي يحيى بن أبي ميسرة، وعن أبيه محَمَّد بن إسحاق، وغيرهم. وروى عنه: أبو الحسن الدَّارقُطْنِي في "سننه"، وأبو عبد الله الحاكم في "مستدركه"، وأبو القاسم بن مروان، وأبو محَمَّد بن النحاس، وأبو الحسن بن بشران، وعبد الله بن يوسف، وأبو الحسن بن إسحاق البزاز، وغيرهم. وعلى ما يبدو أن الفاكهي كان حيًّا وفى بواكير شبابه في أثناء تولي عبد الرحمن بن يزيد بن محمد بن حنظلة بن محمد منصب القضاء في مَكَّة الْمُكَرَّمَة ذلك المنصب الذي تركه في سنة[٢٣٨هـ/٨٥٢م]، أو قبلها بقليل؛ وعلى ذلك فربما يكون مولده حوالي سنة[٢٢٥هـ/٨٣٩م] ويتفق هذا مع حقيقة أن بعض شيوخه قد وافتهم المنية في أوائل سنة[٢٤٠هـ/٨٥٤م] تقريبًا. وكان الفاكهي على صلة بعلماء مَكَّة الْمُكَرَّمَة المرموقين. وقد أَتَمَّ تأليف تاريخه فيما بين سنة[٢٧٢ .٢٧٥هـ/٨٨٥-٨٨٩م] وقد ذكر هو نفسه التاريخ الأول[٢٧٢هـ/٨٨٥م]، أما التاريخ الآخر[٢٧٥ هـ/٨٨٩م] فقد شهد وفاة عبد العزيز بن عبد اللَّه الهاشمي؛ الذى يشار إليه في كتاب الفاكهي على أنه لا يزال حيًّا؛ أو إذا كانت الفقرات المستشهد بها تشير إلى رجال شتى في سنة[٢٧٩هـ/٨٩٢م] على أبعد تقدير. ويُشار إلى مؤلف الفاكهي باسم "أخبار مَكَّة" أو باسم "تاريخ مَكَّة"، ولكن ابن النديم يسميه "كتاب مَكَّة وأخبارها في الجاهلية والإسلام"(النديم،١٩٩٧م، ١٥٩). وكان حجم الكتاب .فيما يبدو .أكبر من ضعفي حجم كتاب "تاريخ مَكَّة" للأزرقي. وهو يشارك كتاب الأزرقي في الترتيب، وفى المادة بدرجة كبيرة، ولكنه لابد أن يعد إنجازًا علميًا مستقلًا بذاته. وتثبت الأسانيد أن الفاكهي قد جمع مادة كتابه بنفسه إلا أن المعطيات والأوصاف التاريخية لسمات فن المعمار، وما أشبه التي لم يقدم لها أسانيد تتفق مع ما أورده الأزرقي حرفيًا، ولذلك، ربما تكون قد نقلت من كتابه دون الاعتراف بذلك. وحقيقة أن الفاكهي لا يذكر الأزرقي، بل يبدو أنه يخفى الإشارة إلى أُسرته، وقد يكون هناك بعض العداوة الشخصية بينه وبين الأزارقة ومَن يميلون إليهم، وربما لأن الأزارقة قد أبوا أن يأذنوا له باستخدام المادة التي في حوزتهم.

وعلى أية حال، فقد وصل إلينا الكتاب وهو يحمل عنوان:" أخبار مَكَّة في قديم الدهر وحديثه"، وقد روى فيه عن: ابن أبي عمر العدني، وبكر بن خلف المكي، وحسين بن حسن المروزي، وغيرهم(الفاسي،١٩٨٦م،١٠٩). والكتاب حسن جدًا لكثرة ما فيه من الفوائد النفيسة وفيه غنية عن كتاب الأزرقي .سابق الذكر . وكتاب الأزرقي لا يغنى عنه؛ لأنه ذكر فيه أشياء كثيرة حسنة مفيدة جدًا لم يذكرها الأزرقي. وأفاد في المعنى الذي ذكره الأزرقي أشياء كثيرة، لم يفدها الأول. وقد رتب الفاكهي كتابه ترتيبا شيقًا، وتحدث فيه عن مَكَّة الْمُكَرَّمَة وحرمها، والآثار المروية فيها، ووصف الكعبة

وعمارتها، ومصلى الرسولﷺ في الكعبة، وثواب دخول الكعبة المعظمة وفضائلها، والآيات المتعلقة بها، وأخبار الحجر الأسود والملتزم والأماكن الشريفة بمَكَّة الْمُكَرَّمَة ومقام إبراهيم وحجر إسماعيل، وتكلم عن توسعة المسجد الحرام وعمارته ووصف عمده وعقوده وشرفاته وقناديله وأبوابه ومنابره، وتحدث . كذلك . في الكتاب عن أخبار زمزم والأماكن التي لها تعلق بالمناسك، وما بني بمَكَّة الْمُكَرَّمَة من المدارس والربط والسقايات والآبار والعيون، وتحدث عن أخبار مَكَّة الْمُكَرَّمَة في الجاهلية، وعلى عهد إبراهيم وإسماعيل . عليهما السلام ،. وذكر أسماء أولاد إسماعيل، وولاية ذرية معد بن عدنان على مَكَّة الْمُكَرَّمَة وولاية جرهم وخزاعة وقريش، مستقصيًا أخبار قريش بمَكَّة الْمُكَرَّمَة في الجاهلية، متوسعًا في أخبار بني قصي ومآثرهم في الجاهلية، وأجواد قريش وحكامهم في الجاهلية، ثم يذكر فتح مَكَّة الْمُكَرَّمَة وولاتها في الإسلام وأخبارها بعد الرسولﷺ، ويتحدث في الباب الأربعين عن الأصنام التي كانت حول مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وأخبار أسواق مَكَّة الْمُكَرَّمَة في الجاهلية والإسلام، وبذلك ينتهي هذا الكتاب القيم. ولقد جمع الفاكهي في كتابه بين التاريخ العلمي الرصين لمَكَّة الْمُكَرَّمَة وأسمائها وفضلها وشيء من أخبار الكعبة المشرفة وفضائلها، ثم أشياء عن المسجد الحرام وزمزم وبعض المدارس والسقايات والبرك والآبار والعيون .... إلخ. ففي هذا المقام . إذن . كان التأصيل التاريخي لمَكَّة الْمُكَرَّمَة بكل ما بها من أماكن تاريخية وجغرافية يؤكد براعة صاحبه الفاكهي في ذلك(رزونثال،٢٠٠٢م،٤٠٢). ونحن نعلم أن ثَمَّة رابطة بين علم التاريخ وعلم الجغرافيا ولكن الجمع بينهما - في تأصيل علمي - لا يقوم به إلا متمكن باحث جوال عارف عالِم، وقد اجتمعت هذه الصفات في مؤلف كتاب" أخبار مَكَّة"، فإذا ما ضم إلى علمي التاريخ والجغرافيا: التراجم لعرفنا مدى الجهد البارع المضني الذي بذله المؤلف ليخرج كتابه بهذه الصفة، فهو كتاب تاريخ، وهو كتاب جغرافيا، وهو كتاب طبقات، وهو كتاب تراجم، ولا نبالغ عندما نقول: إن الكتاب يعد بمثابة " دائرة معارف " متكاملة عن مَكَّة الْمُكَرَّمَة زادها الله تشريفًا وتعظيمًا. ولأن التاريخ دورة مستمرة لا تنفصل -حتى لو انفصلت العصور التاريخية للحياة -ولا ينتهي التاريخ إلا إذا انتهت الحياة نفسها، ومن ثم فإن الكتاب فوق أنه جمع -كما قلنا - بين التاريخ والجغرافيا إلا أنه أورد في كتابه المزيد من علوم الدين الحنيف، خاصة وأن موضوع الكتاب هو مَكَّة الْمُكَرَّمَة العاصمة الروحية للمسلمين والمسلمات في مشارق الأرض ومغاربها، ولأن مَكَّة الْمُكَرَّمَة هي قلب الحياة البشرية وما يرتبط بمَكَّة الْمُكَرَّمَة إنما هو يرتبط بحياة المسلم في كل زمان ومكان(سزكين، ١٩٩١م، ٢٠٧،).

ومن الإنصاف أن نقول: إن الفاكهي، قد جمع علم التاريخ لمَكَّة الْمُكَرَّمَة كمدينة عظيمة وربط معها جغرافيتها، ثم علم التراجم الذاتية لأعيانها. وتم هذا كله في رابطة لا تنفصم عُراها مع كافة علوم الدين الحنيف من فقه وشريعة وغير ذلك. والكتاب . إذا . يعد موسوعة كبرى علمية تاريخية لمَكَّة الْمُكَرَّمَة من ناحية التاريخ والجغرافيا والتراجم والفقه والشريعة. والمؤلِّف استكمل بمؤلفه هذا ما بدأه عمدة مؤرخي البلد الحرام، أبو الوليد الأزرقي . سابق الذكر . فجاء الكتاب جامعًا لمؤلفات السابقين مضافًا إليه ما شاهده المؤلف مسجلًا على الرخام والأحجار والأخشاب، بالإضافة إلى ما

تلقاه من الأخبار عن الثقات وما قام به من زيادات وتآليف وإضافات مما لم يذكره المؤرخون السابقون الذين توفوا قبله(حموده،١٤٣٣هـ،٣١٣). وأما تاريخ وفاته، فما اهتدينا إلى ذلك على وجه التحديد، إلا أنه كان حيًّا في سنة[٢٧٢هـ/٨٨٥م]؛ لأنه ذكر فيها قضية تتعلق بالمسجد الحرام(السيوطي،١٩٦٩م،١٦٣).

ثالثًا: أَبُو سَعِيْدٍ الجَنَدِي وكتابه:" فضائل مَكَّة الْمُكَرَّمَة":

في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، تضخمت المادة العلمية عند المؤرخين المسلمين، وبدأ يظهر في العالم الإسلامي ما صار يعرف بالمناظرة التاريخية بين المدن الإسلامية، بسبب المنافسة الشديدة بين تلك المدن. وقد قعت تلك المفاضلة بين مدينتي البصرة والكوفة، وعندما تأسست بغداد دخلت هي الأخرى في تلك المفاضلة، كما وقعت المنافسة بين الفسطاط والقطائع في مصر، وحتى المدينتين المقدستين؛ مَكَّة الْمُكَرَّمَة والمدينة المنورة لم يسلما من تلك المفاضلة. فقد انبرى أهل كل مدينة يذكرون فضائل مدينتهم وتاريخها والآثار الموجودة فيها وأشهر رجالاتها .... إلخ. وكانت مَكَّة الْمُكَرَّمَة من أقدم المدن الإسلامية التي بدأ المؤرخون المسلمون يكتبون ويصنفون في فضائلها؛ ومن أشهر المؤرخين المسلمين الذين صنفوا في هذا اللون من ألوان الكتابة التاريخية، المفضل بن محمد بن إبراهيم الشَّعْبِيُّ الجَنَدي(السمعاني،١٩٨٨م،٣٥١) ؛ نسبة إلى بطن من بطون قبيلة المعافر اليمنية.

ونشأ في أُسرة علمية؛ فجده الأعلى الفقيه الشهير عَامر بن شرَاحِيل الشّعبِيّ، رَأس تَابِعِيّ الْكُوفَة. وحفظ القرآن الكريم في صغره وجَوَّدَهُ على شيوخ الحرم المكي فقَدْ رَوَى القرَاءاتِ عَنْ طَائِفَةٍ كَالبَزّي، وَغَيْرِهِ. ثم برع في علم الحديث فحَدَّثَ عَنِ: الصَّامِتِ بنِ مُعَاذٍ الجندِي، وَمُحَمَّدِ بنِ أَبِي عُمَرَ العَدَنِيّ، وَإِبْرَاهِيْمَ بنِ مُحَمَّدٍ الشَّافِعِيّ، وَأَبِي حُمَة مُحَمَّدِ بنِ يُوْسُفَ، وَسَلَمَةَ بنِ شَبِيْبٍ، وغيرهم. ثم اشتهر بالعلم، فكانت تعقد له حَلْقَة علمية بِالمَسْجَد الحَرَام. وقد أَخَذَ عَنْهُ كثير من طلاب العلم، من أمثال: أَبي بَكْرٍ بنِ مُجَاهد، وَعَبْدِ الوَاحِد بنِ أَبِي هَاشِم، وأَبي القَاسِمِ الطَّبَرَانِيّ، وأَبي حَاتِمٍ البُسْتِيّ، وأَبي بَكْرٍ بنِ المُقْرِئ، وأَبي جَعْفَرٍ العُقَيْلِيّ، وَآخَرينَ. وكان معدودًا في الحفاظ والثقات، وَقد أثنى عليه أحد المؤرخين، بقوله: هو" من الْأَئِمَّة الثِّقَات الْمَشْهُورين من التَّابِعين وَأَبْنَائِهِمْ مِمَّن يجمع حَدِيثهمْ للْحِفْظ والمذاكرة"(الجندي،١٩٩٥م،١٤٨).

ومن أشهر مُصَنَّفاته كتاب:" فَضَائِل الْمَدِينَة المنورة"، وكتاب:" فَضَائِل مَكَّة الْمُكَرَّمَة"، ولا بأس أن أُلقي مزيدًا من الضوء حول الكتاب الأخير فهو موضوع بحثنا. ومما يزيد من أهمية الكتاب أنه يحتوي على أحاديث وآثار، وإن كانت ليست بالكثيرة، لكن الأهمية ترجع لكونه يرويها إليك بالسند؛ لمعرفة السقيم من الصحيح، والمؤلَّف من الرواة لكتاب السُنَّن لأبي قرة موسى بن طارق الجندي، وقد أسند من طريق أبي قرة عدة أحاديث وآثار قد أشرفت على ثلث أحاديث كتاب الجندي هذا، وقد روى . أيضًا . من طريق عثمان بن ساج صاحب" أخبار مَكَّة" بضعة آثار. وقد استفاد جماعة من الأئمة والعلماء الكبار من النقل عن كتاب الجندي هذا، وهو أمر يبرز لنا أهمية الكتاب، ومنهم: ياقوت الحموي[٥٧٤ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٨ - ١٢٢٩ م] نقل في كتابه:" معجم البلدان" حديثًا واحدًا بسنده ومتنه، ونقل أبو عبد الله الزركشي[٧٤٥ - ٧٩٤ هـ / ١٣٤٤ - ١٣٩٢ م] في "إعلام الساجد" حديثين،

ونقل زين الدين العراقي[٧٢٥ - ٨٠٦ هـ/١٣٢٥ - ١٤٠٤ م] في "تخريج أحاديث الإحياء" حديثين، ونقل ابن ناصر الدين الدمشقي[٧٧ - ٨٤٢ هـ /١٣٧٥ - ١٤٣٨ م] في كتابه "جامع الآثار" خمسة أحاديث، ونقل ابن الملقن[٧٢٣ - ٨٠٤ هـ / ١٣٢٣ - ١٤٠١ م] في كتابه "التوضيح" سبعة أحاديث، ونقل أبو البقاء الدميري [٧٤٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٤١ - ١٤٠٥ م] في "النجم الوهاج في شرح المنهاج" حديثًا واحدًا، ونقل الفاسي[٧٧٥ - ٨٣٢ هـ / ١٣٧٣ - ١٤٢٩ م] في كتابه: "شفاء الغرام" تسعة أحاديث، ونقل بدر الدين العيني[٧٦٢ - ٨٥٥ هـ / ١٣٦١ - ١٤٥١ م] في كتابه: "عمدة القاري" حديثًا واحدًا، ونقل السيوطي[٨٤٩ - ٩١١ هـ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م] في كتابه: "الدر المنثور" سبعة وثلاثين حديثًا، وفي كتاب "الحبائك" حديثين، ونقل السخاوي[٨٣١.٩٠٢ هـ/ ١٤٢٧.١٤٩٧ م] في "المقاصد الحسنة" حديثين، ونقل الصالحي[ت: ٩٢٤هـ/١٥١٨م] في "سبل الهدى والرشاد" حديثين، ونقل الصباغ[ت: ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م] في "تحصيل المرام" حديثًا واحدًا. وهذا يثبت لنا أن الكتاب ظل مصدرًا أصيلًا لعلماء الأمة الإسلامية في الحصول على المعلومات التاريخية المتعلقة بفضائل مَكَّة الْمُكَرَّمَة منذ وضعه المؤلف في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتى القرن الخامس عشر الهجري/الحادي والعشرين الميلادي. وإلى جانب تلك المُصَنَّفات المهمة، فقد حفظت لنا مصادرنا التاريخية كثيرًا من المرويات التاريخية عن الجندي تدور حول تاريخ وفضائل مَكَّة الْمُكَرَّمَة.

وأخيرًا، ظل الجَنَدي معلمًا في بلد الله الحرم حتى تُوُفِّي سنة [٣٠٨هـ/٩٢٠م]، في خلافة المقتدر بالله العباسي[٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ -٩٣٢م]، ودُفِنَ بمَكَّة الْمُكَرَّمَة (الزركلي، ١٩٨٠ م،٢٨٠).

رابعًا: الخُزَاعِيُّ ومنهجه في الكتابة التاريخية:

ومن أشهر المؤرخين في مكة المكرمة: إسحاق بن أحمد بن إسحاق بن نافع الخزاعي المَكِّيُّ. أخذ العلم عن محمد بن المؤمل العدوي[ت: ٣١٠هـ /٩٢٢م]، والمفضل بن محمد الجَنَدي . سابق الذكر . [ت: ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م] ، وعمُّه الإمام المقرئ إسحاق بن نافع الخزاعي[ت: ٣٠٨هـ/٩٢٠م]، وإسحاق بن أحمد القطان[ت: ٣١٥هـ/٩٢٧م]، والحارث بن أبي أسامة[ت: ٢٨٢هـ/٨٩٥م]، وغيرهم. وعقد الخُزَاعِيُّ حلقة علمية في بيت الله الحرام، وشاع ذكره في أمصار العالم الإسلامي، فأقبل عليه طلاب العلم من المشرق والمغرب ينهلون منه ويأخذون عنه، فكان من أشهرهم، الإمام الخطابي[٣١٩ - ٣٨٨ هـ/ ٩٣١ - ٩٩٨ م]، وأحمد بن موفق بن نمر الأموي القرطبي [ت: ٣٩٦هـ/١٠٠٥م] ، ومحمد بن أحمد بن خليل بن فرج القرطبي [ت: ٤٠٦هـ /١٠١٥م]، وخَلاد بن منصور بن سَمَلتون البَزَّاز القرطبي [ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م]، وعبد الرّحمن بن أحمد بن محمد بن أبي عُمَر البَكْريّ البَزّاز القرطبي [ت:٣٧٠هـ/٩٨٠م]، ومحمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مُفَرّج القرطبي [ت:٣٨٠هـ/٩٩٠م]، وسعيد بن محمد بن سيّد أبيه بن يعقوب الأموي القرطبي [ت: ٣٩٧هـ /١٠٠٦م]، وغيرهم. وقراءة متأنية في قائمة تلاميذ الخزاعي، نجدهم من أقصى بلاد المشرق الإسلامي[بُست بإقليم خراسان] حتى مغربه، وإن كان أكثرهم من الأندلس[قرطبة]. وهذا يثبت أن شهرة الإمام قد طبقت الآفاق.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة قد احتل المكانة الأولى في الفكر التاريخي عند الخُزَاعِيّ، فقد كتب حاشيتين على كتاب "تاريخ مَكَّة" للأزرقي، تتعلقان بزيادة دار الندوة، وزيادة باب إبراهيم،

وكتاب" فضائل البيت الحرام ودخوله والطواف به والصّلاة في مسجده"، وكتاب «فضائل الكعبة»، وغيرها. ولم يكتفِ الخزاعي بالتأليف من المصادر التاريخية المتاحة بين يديه، بل كان ينتقل إلى مكان الحادث، ويشاهد ذلك بنفسه، فقد ذكر المؤرخون: أنه كان فيمَن دخل الكعبة، وشاهد الحجر الأسود فيها، عندما عمل له الحجبة طوقًا يشد به، بعد إتيان القرامطة به إلى مَكَّة الْمُكَرَّمَة، في سنة[٣٤٠هـ/٩٥١م]، وكان رده في موضعه، يوم النحر من سنة[٣٣٩هـ/٩٥٠م](الخميس، د.ت، ٣٥١)، قال الخزاعيّ:" دخلتُ الكعبة فيمن دخلها فتأمّلتُ الحجر الأسود -وهو مقلوع- فإذا السواد في رأسه فقط، وسائره أبيض، وكان طوله، فيما حزرتُ قدر عظم الذراع"(السيوطي،١٩٦٩م،٢٨٧). يضاف إلى ذلك، أن المصادر التاريخية قد حفظت لنا كثيرًا من مروياته التاريخية، المتعلقة بتاريخ البيت العتيق في الجاهلية والإسلام، والزيادات التي لحقت بالحرم المكي، وفضل ماء زمزم(الضياء،٢٠٠٤م، ١٢٧) ... إلخ. وقد ظل الخزاعي مؤرخًا ومعلمًا في بيت الله الحرام، حتى توفي بِمَكَّة الْمُكَرَّمَة .التي أحبها ودوَّن تاريخها .في سنة [٣٠٨هـ/٩٦١م].

خامسًا: العَدنِي ومنهجه في الكتابة التاريخية:

ومن المؤرخين المكيين في عصر الدولة العباسية، المغيرة بن عمرو بن الوليد العَدنِي المكي. ولد ونشأ في جوار بيت الله الحرام، وطلب علم الحديث حتى صار بارعًا فيه، ثم حُبب إليه علم التاريخ فكان من أبرز شيوخه أبو سعيد المفضّل الْجَنَدي المؤرخ .سابق الذكر .وغيره. وعقدت له حلقة بجوار البيت العتيق، فكان من أبرز تلامذته؛ عبد الرحمن بن الحسن المكّي الشّافعي، وعمر بن الخضر الثمانيني، وإسماعيل بن إبراهيم النصرآباذي، وغيرهم(الفاسي،١٩٨٦، ١١٣). وقد حفظت لنا المصادر التاريخية كثيرًا من مروياته التاريخية، معظمها متعلق بفضائل مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وفضل المجاورة في بيت الله الحرام، وتاريخ الحرم المكي .... إلخ. وتوفي بمَكَّة الْمُكَرَّمَة سنة[٣٧٢هـ/٩٨٢م]، في خلافة الطائع لله العباسي [٣٦٣ - ٣٨١هـ/ ٩٧٤ -٩٩١م].

هذا، ولم .ولن .ينقطع التأليف في تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة والبيت الحرام على مر الزمان، فقد استمر المؤرخون المسلمون يدونون تاريخ المدينة المقدسة، فكان من أبرز تلك المؤلفات: تاريخ مَكَّة: لأبي الفرج عبد الرحمن بن أبي حاتم. وفضائل مَكَّة: للحافظ الضياء المقدسي. وتفضيل مَكَّة: لأبي عبد الله محمد ابن قيَّم الجوزية. وفضائل مَكَّة: لرَزين بن معاوية السرقسطي، لخصه من تاريخ مَكَّة للأزرقي. وزُبْدَة الأعمال وخُلاَصة الأفعال: لسعد الله بن عمر الإسفراييني، ألفه سنة[٧٦٢هـ/١٣٦٠م] وهو في فضائل مَكَّة والمدينة. ونُزْهَة الورى في ذكر أم القُرَى: لمحمد بن محمود بن النجار البغدادي. والتشويق إلى زيارة البيت العتيق: لمحمد بن المحب الطبري المكي الشافعي. ومُثير الغرام إلى البلد الحرام: لأبي عبد الله محمد بن علي الزَبيدي، المعروف بابن المؤذن. وزَهْرَة الخُزَام في فضائل البيت الحرام: لإبراهيم بن علي بن المرتضى الحسني الزَبيدي [ت: ٨٢٢هـ/١٤١٩م]. وتاريخ مَكَّة: لزيد بن هاشم بن علي بن المُرْتضى الحَسَني [ت: ٦٧٦هـ/١٢٧٧م]. ومُثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن: لابن الجوزي. ومَكَّة: لأبي سعيد بن الأَعْرابَي. ومَكَّة: لعبد الرحمن بن أبي عبد الله بن مَنْده. ومُهَيج الغَرَام إلى البلد الحَرَام: للمجد الفيروزآبادي. وإثارة الحَجُون إلى زيارة الحَجُون: لنفس المُؤلِف. وشفاء الغرام

بأخبار البلد الحرام: لتقي الفاسي. وتُحْفَة الكرام: لنفس المُؤَلِف. والعقد الثمين في تاريخ البلد الأَمين: لنفس المُؤَلِف. وولاة مَكَّة في الجاهلية والإسلام: لنفس المُؤَلِف. والشَرَف الأعلى في ذكر مقبرة باب المُعْلى: للجمال الشَيبي؛ محمد بن علي بن محمد [ت:٨٣٧هـ/١٤٣٣م]. والدُر الكمين بذيل العِقْد الثمين: لنجم بن فهد. واتحاف الورى بأخبار أم القرى: لنفس المُؤَلِف، وغيرها(خلف،٢٠١٧م، ١٠).

مؤرخو التاريخ السياسي:

أما النوع الثالث من أنواع الكتابة التاريخية، فهو ما نستطيع أن نطلق عليه " التاريخ السياسي"، وإن كان علم التاريخ خلال هذه المرحلة لا يخلو من خيال وأساطير في وصف مَكَّة الْمُكَرَّمَة وأخبار أهلها في عصورها القديمة. ولذلك يجد الناظر في المصادر العربية لتاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، والتي تناولت ما قبل الفتح وما بعده؛ صنفين من الأخبار قد يمتزجان، ولكن يختلف أحدهما عن الآخر في الطبيعة والمنهج. الأول: يدخل في باب العجائب والأساطير، ومعظمه حكايات عن أحوال مَكَّة الْمُكَرَّمَة وأخبار ملوكها وأهلها في أزمنة ما قبل الفتح الإسلامي. الثاني: أحداث ووقائع ومشاهدات، وأكثرها يتناول تاريخ البيت الحرام منذ دخول النَّبِيﷺ مَكَّة الْمُكَرَّمَة(شاكر، ١٩٨٣م،١٧٦).

وقد عالج المؤرخون المكيون هذا اللون من ألوان الكتابة التاريخية، ويأتي في مقدمتهم: عبد الله بن زُرارة بن مصعب بن شيبة بن جُبير بن شيبة بن عثمان المكي. ولد في مَكَّة الْمُكَرَّمَة، ونشأ في جوار بيت الله الحرام، لأُسرة علمية فأبوه وجده، كانا أحد رواة الحديث، وقد روى عنهما وعن عمة أبيه صفية بنت شيبة، وطلق بن حبيب، وعبيد بن محمد بن الحارث، وأبي حبيب يعلى بن منية، وغيرهم. وسمع منه وروى عنه ابنه زُرَارَةُ، وحفيده عبد الله بن زُرَارَةَ، وغيرهما. هذه البيئة العلمية قد أثرت في عبد الله، فنشأ محبًّا للعلم، ومقبلًا عليه، وعقد حلقته العلمية في جوار بيت الله الحرام، فكان أشهر مَن روى عنه: أحمد بن محمد بن الأزرقي، ويوسف بن محمد بن إبراهيم العطار المكيين، وغيرهما). وإن كانت المصادر التاريخية لم تمدنا بالمعلومات الكافية عنه، إلا أنها حفظت لنا مجموعة كبيرة من مروياته التاريخية، معظمها يتعلق بالتاريخ السياسي لمَكَّة الْمُكَرَّمَة(الأزرقي،٢٠٠٣م، ٤٠٥) ، مع التركيز على أعمال ولاتها منذ فجر الإسلام حتى عصر الدولة العباسية. ومما يؤسف له أننا لم نعثر على تاريخ وفاته، ولكن عن طريق الاستقراء التاريخي، ربما يمكننا القول: إنه عاش في ظل الدولة العباسية وبالتحدي في عصر الخليفة المتوكل على الله [٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م] أو قبله بقليل، لأن تلميذه الْأَزْرَقِيّ[ت: ٢٥٠هـ/٨٦٥م] .كما سبقت الإشارة .كان يعيش في نفس الفترة الزمنية. وعلى أية حال، فقد دفن عبد الله بمَكَّة الْمُكَرَّمَة؛ تلكم المدينة التي أحبها وسجل كثيرًا من تاريخها السياسي.

ومن المؤرخين المكيين المغمورين: مُسَافِع بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن شيبة المكي. والذي لم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن حياته العلمية، غير أنها حفظت لنا بعض مروياته التاريخية المتعلقة بالإصلاحات التي قام بها الخليفة أبو جعفر المنصور [١٣٧ - ١٥٨ هـ/٧٥٣ - ٧٧٤ م] في بيت الله الحرم، والثورة التي قام بها محمد بن جعفر بن علي بن أبي طالب في مَكَّة الْمُكَرَّمَة(الفاكهي، ١٩٩٤م، ٢٠٥).

وأما آخر المؤرخين المكيين المغمورين: عبد الله بن شعيب بن شيبة بن جبير بن شيبة المكي. والذي لم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عنه، غير أنها حفظت لنا بعض مروياته التاريخية المتعلقة بالإصلاحات التي قام بها الخليفة المهدي العباسي[١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤- ٧٨٥ م] في الحرم المكي(ياقوت، ١٩٩٧م، ١٦٤) ، ويبدو أنه كان يعيش خلال تلك الفترة.

مؤرخو تاريخ علم الرجال:

إلى جانب عناية المؤرخين المسلمين بكتابة التاريخ السياسي للدولة الإسلامية، فقد ظهر . أيضًا . ما يعرف بتاريخ علم الرجال، أو علم الجرح والتعديل. فمما خص اللهﷻ به هذه الأمة الإسلامية ظهور علم الإسناد؛ وهو يعني نقل الثقة، عن الثقة حتى يبلغ به النَّبِيِّﷺ. وهذه الخَصيْصة انفردت بها هذه الأمة، وامتازت بها عن غيرها من الأمم. فقد روى الخطيب البغدادي، عن محمد بن حاتم بن المظفر أنه قال: " إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبياؤهم وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات ... "(البغدادي، ب. ت، ٤٠). وقد أدرك المسلمون منذ الصدر الأول أهمية الإسناد، وقَدَّروا هذه النعمة حق قدرها فعملوا على العناية بالأسانيد، والتزام الرواية بها، وذمِّ مَن يتساهل بها أو يفرِّط فيها، فعظم النفع بها، وأثمرت تلك العناية ثمارًا يانعة.

وكما بذل المُحَدِّثون جهودًا عظيمة في جمع الأحاديث وحفظها، وتدوينها، وتأليف الكتب المسندة بأنواعها المتعددة، فقد بذل المؤرخون جهودًا عظيمة في البحث عن أحوال الرجال الذين رووا تلك الأحاديث، والتفتيش عنهم، وسؤال أهل العلم عنهم، والسفر إلى البلدان لمشافهتهم والتعرف عليهم. فمما تجدر الإشارة إليه، أن من مظاهر اهتمام المُحَدِّثين بالكلام في الرواة، أنهم كانوا يروونه كما يروون الأحاديث، ولم تظهر مُصَنَّفات مستقلة في الجرح والتعديل إلا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، ثم تتابعت المُصَنَّفات بعد ذلك. وقد سلك المؤرخون فيها أساليب متعددة، فمنهم مَن أفرد الضعفاء، ومنهم مَن أفرد الثقات، ومنهم مَن جمع بين الثقات والضعفاء(العمري، د.ت، ١٠٠).

ولسنا . هنا . بصدد استيعاب تلك الكتب، ولكننا نقتصر على المطبوع منها في كتب الضعفاء، وهي: كتاب الضعفاء الصغير، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري[ت :٢٥٦ هـ/٨٧٠م]. وكتاب أحوال الرجال، لأبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني[ت:٢٥٩هـ/ ٨٧٣م]. وكتاب أسامي الضعفاء ومَن تُكلِّم فيهم من المُحَدِّثين، لأبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي [ت:٢٦٤هـ/٨٧٧م] . وكتاب الضعفاء والمتروكون، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي [ت:٣٠٣هـ/٩١٥م]. وكتاب الضُّعَفَاء، لأبي جعفر محمد بن عمرو العُقيلي [ت:٣٢٢هـ/٩٣٤م]، وهو موضوع حديثنا بشيء من التفصيل.

الإمام العُقَيْلِيُّ ومنهجه في كتاب" الضُّعَفَاء":

إنه: الإِمَامُ، الحَافِظُ، النَّاقِد؛ محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العُقَيْلِيُّ الحِجَازِيُّ. هذه النسبة إلى عقيل بن كعب بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر، فهو . إذًا . عربي أصيل، ولد ونشأ بالحجاز في جوار بيت الله الحرام، وسَمِعَ مِنْ: جده لأمه يزيد بن محمد العُقَيْلِيّ، ومحمد بن إسماعيل الصَّائغ، وإسحاق بن إبراهيم الدَّبَرِيّ، ومحمد بن إسماعيل التِّرْمِذِيّ، وغيرهم كثير. وحدَّث عنه: أبو الحسن بن نافع الخُزاعي، ومحمد بن إبراهيم بن المقرئ، ويوسف بن أحمد بن الدَّخيل، وغيرهم. وكانت له رحلة علمية طوّف فيها معظم أنحاء العالم الإسلامي، وقد حظي بثناء العلماء عليه. وقال الفاسي:" العُقَيْلِيُّ ثِقَةٌ، جليلُ القَدْرِ، عَالِمٌ بِالحَدِيْثِ، مُقَدَّم فِي الحِفْظِ". وكانت له كثير من المُصَنَّفات(كحالة، د.ت، ٩٨) ، من أشهرها: كتاب:" الجرح وَالتَّعْدِيل"، وكتاب: "الضُّعَفَاء الْكَبِير"، وكتاب «الصحابة»، وهو من الكتب التي اعتمد عليها ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب»، حين قال في المقدمة: «اعتمدتُ في هذا الكتاب على الأقوال المشهورة عند أهل العلم بالسير، وأهل العلم بالأثر والأنساب، وعلى التواريخ المعروفة التي عليها عوّل العلماء في معرفة أيام الإسلام وسير أهله، ... ومن كتاب أبي جعفر العقيلي محمد بن عمرو بن موسى المكي في الصحابة، أجازه لي عبد الله بن محمد بن يوسف أبو الوليد، عن أبي يعقوب يوسف بن أحمد الصيدلاني المكي، عن العقيلي». وكتاب" أسماء الضعفاء من رواة الحديث ومَن نُسب إلى الكذب ووضع الحديث"، وكتاب «الضعفاء والمتروكين»، وغيرها. ونظرًا لأهمية هذا الكتاب، فلا بأس أن نلقي بعض الضوء عليه:

لقد أوضح الإمام العُقَيْلِيّ بجلاء موضوع كتابه في العنوان الذي ذكره له فقال: «الضعفاء؛ ممن نُسب إلى الكذب ووضع الحديث، ومَن غلب على حديثه الوهم، ومَن يَهِم في بعض حديثه، ومجهولٌ روى ما لا يتابع عليه، وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها، وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة، مؤلف على حروف المعجم»(نصيرة،٢٠٠٦م،٥٥). وإذا انتقلنا إلى نقطة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، ألا وهي: منهج الإمام العُقَيْلِيّ في كتابه «الضعفاء»: فقد افتتح الإمام كتابه بمقدمة قصيرة نوعًا ما، إذا ما قورنت بمقدمة قرينه ابن عدي في كتابه" الجرح والتعديل"، تناولت مسائل شتى من أصول علم الحديث، مأثورة عمن سلفه من أئمة هذا الشأن، نشير إليها إجمالًا، ومنها: وجوب التوقي في رواية الحديث عن النَّبِيّﷺ وترك الرواية عن المتهمين والمجاهيل. ومَن يؤخذ عنه العلم ومَن تترك الرواية عنه. والرواية عن أهل البدع. وخطورة الكذب، وأثره في نفوس الكذابين. وأسباب الكذب (المهانة، من ينسبون إلى الخير - إما وهمًا أو تعبدًا، الزندقة)، وبعض الوسائل الكاشفة للكذابين (النسيان . التاريخ). والكلام في الرجال مطلوب شرعًا، وليس هو من الغيبة المحرمة.

وهذا قليل من كثير مما يقال عن كتابه القيم " الضعفاء"، ولا غرابة في ذلك فقد كتبه في ظل البيت العتيق. وقد توفي العُقَيْلِيّ بمَكَّة الْمُكَرَّمَة سنة [٣٢٢هـ/٩٣٤م](الصفدي،٢٠٠٠م، ٢٠٤) ، في خلافة القاهر بالله العباسي[٣٢٠ - ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ -٩٣٤م].

الخاتمة وأهم نتائج البحث:

وقد توصل البحث إلى بعض النتائج المهمة، أُجملها فيما يلي:

أولًا: إن المؤرخين المكيين، قد شاركوا في حركة التدوين التاريخي التي ظهرت في العالم الإسلامي، والتي لم تقتصر على لون واحد من ألوان الكتابة التاريخية، بل شاركوا في أربعة أقسام من أقسام الكتابة التاريخية؛ وهي: فن القصص، وتاريخ البلدان، والتاريخ السياسي، وتاريخ علم الرجال.

ثانيًا: إن فن القصص قد بدأ على استحياء في البلد الحرام، وقد شارك المكيون في هذا اللون من ألوان الكتابة التاريخية، وإن غلب عليهم ما كان يسود في العالم الإسلامي حينذاك من القصص والحكايات الغربية التي تستهوي مسامع الناس، وإن احتل تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة والبيت الحرام في الجاهلية المكانة الأولى في ذلك.

ثالثًا: إن مؤرخي البلدان قد احتلوا المركز الأول في حركة التدوين التاريخي التي ظهرت في مَكَّة الْمُكَرَّمَة في جوار بيت الله الحرام، فقد برز فيهم أربعة من أكابر المؤرخين في العالم الإسلامي دوّنوا تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة وبيت الله الحرام منذ أقدم العصور حتى زمانهم، وبذلك حفظوا هذه المعلومات من الضياع. وقد جاءت كتاباتهم في أسلوب سلس يغلب عليه الطابع التاريخي، وقد نجح بعضهم في التخلص من أسلوب المُحَدِّثين، وصار أقرب إلى أسلوب المؤرخين.

رابعًا: إن المؤرخين المكيين، لم يكتفوا بعقد حلقات العلم في جوار بيت الله الحرام، بل أضافوا إلى ذلك كتابة المُصَنَّفات العلمية في تاريخ المدينة المقدسة، والكعبة المشرفة، مما صار منهلًا عذبًا يرتوي منه طلاب التاريخ والحضارة الإسلامية منذ عصرهم وحتى الآن. والحمد لله أن هذه المُصَنَّفات العلمية قد وصلت إلينا، وقام فريق من جهابذة العلماء بتحقيقها وإخراجها في ثوب علمي يليق بها. وإن كانت هذه المصادر تحتاج إلى بذل مزيد من الجهد من قِبل شباب الباحثين في حقل الدراسات التاريخية والحضارة الإسلامية عامة وتاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة والبيت الحرام خاصة، لتقديم دراسات علمية جادة حول مناهج هؤلاء المؤرخين.

خامسًا: إن المؤرخين المكيين قد أسهموا بدور بارز في تطور تاريخ علم الرجال، وظهر من بين جنبات الحرم المكي، أشهر كتاب في علم الجراح والتعديل، ألا وهو كتاب "الضعفاء" للعُقيلي، والذي نسج على منواله كثير من المؤرخين الذين جاءوا من بعده.

سادسًا . وأخيرًا : إن كان للمؤرخين المكيين، السبق في حفظ وتدوين تاريخ مَكَّة الْمُكَرَّمَة، وحازوا قصب السبق في ذلك، إلا أن إسهاماتهم .والحق يقال: .في التاريخ السياسي كانت أقل بكثير من باقي الميادين التاريخية الأخرى، فمعظم مَن اشتغل بهذا اللون من ألوان الكتابة التاريخية، كانوا من المغمورين الذين لم تحفظ لنا كتب التاريخ سنة وفاة كثير منهم. ولكن يكفيهم شرفًا حفظ المادة التاريخية المتعلقة بمَكَّة الْمُكَرَّمَة والبيت الحرام من الضياع.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر العربية:

١. الأزرقي، محمد بن عبد الله. (٢٠٠٣). أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (ع. م. دهيش، تحقيق). مكتبة الأسدي، مكة المكرمة.

٢. بامخرمة، الطيب بن عبد الله. (٢٠٠٨). قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (ب. ج. مكري، خ. زواري، تحقيق). دار المنهاج، جدة.

٣. الجَندي، المفضل بن محمد. (٢٠١٩). فضائل مكة (أ. ع. جودة محمد، تحقيق). دار ابن الجوزي، الرياض.

٤. الجُنْدي، محمد بن يوسف. (١٩٩٥). السلوك في طبقات العلماء والملوك (م. ب. ع. الأكوع الحوالي، تحقيق). مكتبة الإرشاد، صنعاء.

٥. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (١٩٩٥). مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن (م. م. هـ. الذهبي، تحقيق). دار الحديث، القاهرة.

٦. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. (١٩٤١). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مكتبة المثنى، بغداد.

٧. ابن حبان، محمد بن حاتم. (١٩٧٥). الثقات (س. ش. أحمد، تحقيق). دار الفكر، بيروت.

٨. ابن حجر، أحمد بن علي. (١٩٨٦). لسان الميزان. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٩. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد. (٢٠٠١). تاريخ بغداد (ب. ع. معروف، تحقيق). دار الغرب الإسلامي، بيروت.

١٠. الذهبي، شمس الدين محمد. (١٩٩٣). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (ع. س. تدمري، تحقيق). دار الكتاب الإسلامي، بيروت.

١١. السخاوي، علي بن أحمد. (١٩٨٣). الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (أ. ص. العلي، ترجمة). مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٢. ابن الضياء، محمد بن أحمد. (٢٠٠٤). تاريخ مكة المشرفة (ع. إبراهيم، أ. نصر، تحقيق). دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣. العُقيلي، محمد بن عمرو. (١٩٨٤). الضعفاء الكبير (ع. م. قلعجي، تحقيق). دار المكتبة العلمية، بيروت.

١٤. الفاسي، محمد بن أحمد. (١٩٨٦). العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (م. ح. الفقي، تحقيق). مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٦. الفاكهي، محمد بن إسحاق. (١٩٩٤). أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه (ع. م. دهيش، تحقيق). دار خضر، بيروت.

١٧. ابن فهد، محمد بن محمد. (بدون تاريخ). إتحاف الورى بأخبار أم القرى (ف. م. شلتوت، تحقيق). مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٨. ابن النديم، محمد بن إسحاق. (١٩٩٧). الفهرست (إ. رمضان، تحقيق). دار المعرفة، بيروت.

ثانيًا: المراجع العربية:

١. البغدادي، إسماعيل. (١٩٥٥). هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. وكالة المعارف، إستانبول.

٢. بلوط، علي الرضا قره. (٢٠٠١). معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم. دار العقبة، قيصري، تركيا.

٣. الحبشي، عبد الله محمد. (٢٠٠٤). مصادر الفكر الإسلامي في اليمن. المجمع الثقافي، أبو ظبي.

٤. خلف، محمود محمد. (٢٠١٧). رسالة في فضائل سيدنا عبد الله بن عباس وفضائل الطائف. دار الكتب العلمية، بيروت.

٥. الزركلي، خير الدين. (١٩٨٠). الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء (ط. ٥). دار العلم للملايين، بيروت.

٦. الشريف، أحمد إبراهيم. (بدون تاريخ). مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم. دار الفكر العربي، القاهرة.

٧. عواجي، غالب بن علي. (٢٠٠١). فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها (ط. ٤). المكتبة العصرية الذهبية، جدة.

٨. كحالة، عمر رضا. (بدون تاريخ). معجم المؤلفين . تراجم مصنفي الكتب العربية. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩. كرمي، أحمد عجاج. (٢٠٠٧). الإدارة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. دار السلام، القاهرة.

١٠. مجموعة من الباحثين. (٢٠١٣). آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني. دار عالم الفوائد، بيروت.

١١. مصطفى، شاكر. (١٩٨٣). التاريخ العربي والمؤرخون. دار العلم للملايين، بيروت.

١٢. نصيرة، مختار. (٢٠٠٦). منهج أبي جعفر العقيلي في جرح الرجال من خلال كتابه الضعفاء الكبير. دار الضياء، القاهرة.

١٣. الهيلة، محمد الحبيب. (١٩٩٤). التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة.

مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار النقود والعقود وأثرها الإيجابي على المالية الرقمية

د. عبد الحميد أحمد محمد فقير(•)

المستخلص:

يهدف البحث إلى بيان مرونة الفقه الإسلامي وتقبله لكل المستجدات في مجال النقود والعقود المالية التي صاحبت الطفرة الكبيرة في وسائل الاتصال والاستخدام الواسع لشبكة الإنترنت. وتتجلى إشكالية البحث في توضيح ماهية مرونة الفقه الإسلامي وأهم معالمها، وتطبيقها على أحكام النقود ووسائل الدفع الرقمية، والعقود الإلكترونية. ويسلك البحث المنهج الوصفي التحليلي والاستقرائي المقارن. ومن أبرز النتائج التي توصل إليها أن اعتبار النقود والعقود في الفقه الإسلامي لم يتقيد بأشكال وصور محددة، إنما اعتني بالمقاصد والمعاني وعلل الأحكام. ولذلك لم يقف عاجزاً ولا حاجزاً أمام التطور الإلكتروني الهائل في أشكال النقود ووسائل التعاقد. وأن الضوابط التي وضعها الفقهاء المتقدمون لاعتبار النقود تطابقت تماماً مع ما تقرر في علم الاقتصاد والمالية المعاصر.

الكلمات المفتاحية: مرونة الفقه الإسلامي - العقود الإلكترونية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء المبعوث رحمة للعالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وضع الشريعة صالحة وخالدة لهداية الناس إلى يوم الدين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله حث على الفقه والاجتهاد في بيان أحكام الدين. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،

فقد أثر اكتشاف شبكة الإنترنت تأثيراً بالغاً في مختلف مجالات الحياة. ومن أبرز المجالات التي أثر فيها مجال المال والاقتصاد، فظهرت أشكالٌ من النقود ووسائل الدفع الرقمية والمتاجر والسلع والعقود الإلكترونية.

والفقه الإسلامي بما أودعه الله فيه من خصائص الربانية والعالمية والثبات والمرونة لم يقف عاجزاً أو حاجزاً أمام هذه التطورات الهائلة. وفي هذا البحث نتلمس معالم المرونة التي أودعها الله في شريعته وأثرها الإيجابي على مستجدات النقود والعقود الرقمية.

مشكلة البحث:

يسعى البحث للإجابة على التساؤلات الآتية:

١. ما هو مفهوم مرونة الفقه الإسلامي وما هي معالمه؟
٢. ما هو أثر التطور الإلكتروني في اشكال النقود ووسائل الدفع؟ وكيف استوعبها الفقه الإسلامي بمرونته؟

(•) أستاذ مشارك بكلية الشريعة والقانون جامعة ام درمان الإسلامية

٣. ما هو التكييف الفقهي لصور التعاقد عن طريق الوسائط الإلكترونية؟

أهداف البحث:

١. إبراز معالم مرونة الفقه الإسلامي، وإعجاز الشريعة في مواكبة مستجدات العصر مع ثبات أحكامها وقيمها.
٢. بيان أثر مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار النقود ووسائل الدفع الإلكترونية.
٣. بيان أثر مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار التعاقد التجاري بالوسائط الإلكترونية.

الدراسات السابقة:

تناول عدد من العلماء والباحثين موضوع مرونة الفقه الإسلامي ومن أبرزهم فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر الأسبق، في كتابه مرونة الفقه الإسلامي، أصدر (٢٠٠٥) وتناول فيه تاريخ التشريع والفقه الإسلامي ومعالم مرونته، ولم يكن من أهدافه الكلام عن المالية الرقمية. أما الدراسات حول المعاملات والنقود الرقمية فهي أكثر من أن تحصر، غير أنها لم تربط – فيما اطلعت عليه - بمرونة الفقه الإسلامي.

منهج البحث:

سلك البحث المنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي واستخدم اسلوب المقارنة في المسائل الفقهية التي لها صلة بعلم الاقتصاد.

مفهوم مرونة الفقه الإسلامي ومعالمه

مفهوم مرونة الفقه الإسلامي وحكمته:

١- مفهوم مرونة الفقه الإسلامي:

المرونة في اللغة مصدر مرن يمرن مرانة ومرونة، وهو لين في صلابة، ومَرِن على الشيء يمرن مرونة ومرانة: تعوده واستمر فيه. ومرنته عليه دربته. والمرن: الأديم الملّين المدلوك (ابن منظور، ١٤١٤، ٤٣/١٣). ومرنت يد فلان على العمل: تعودته ومهرت فيه (مجمع اللغة العربية، د.ت، ٨٦٥).

وأما في الاصطلاح فقد استخدم العلماء المعاصرون مصطلح مرونة الشريعة أو الفقه الإسلامي باعتبارها واحدة من الخصائص التي ميز الله بها الشريعة الإسلامية، ولم يضعوا لها تعريفاً محدداً – فيما اطلعت عليه – ولكنهم بينوا مدلولها غاية البيان، ومن ذلك قول شيخ الأزهر السابق العلامة جاد الحق علي جاد الحق في تفسير معنى مرونة الشريعة الإسلامية: "فصلت ما لا يتغير وأجملت ما يتغير ضرورة لخلود هذه الشريعة ودوامها" (جاد الحق، ٢٠٠٥، ٩٩). وقال العلامة يوسف القرضاوي رحمه الله "إن الشارع الحكيم لم يرد أن يجعل نصوصه لوائح تنظيمية، وإنما أرادها منارات هادية لمن أراد السير، لهذا اهتم بالنص على المبادئ والأهداف ولم يُعن بالنص على الوسيلة والأسلوب، إلا في أحوال خاصة لحكم وأسباب هامة، وذلك ليدع الفرصة لعقول البشر ويفسح الطريق لاجتهاد الانسان المسلم ليختار لنفسه الوسيلة والصورة الملائمة لحاله وزمنه وأوضاعه" (القرضاوي، ١٩٩٣، ١٦٠).

ومن هذه النصوص وأمثالها يمكن تعريف مصطلح مرونة الشريعة أو الفقه الإسلامي بأنه:

(خاصية اودعها الله تعالى في مصادر التشريع أكسبها سعة يتمكن بها المجتهدون في كل عصر من استنباط احكام مستجدات الحياة واستيعاب تطور وسائلها، وفقاً لعلل الأحكام ومقاصد الشريعة والمصالح المرسلة).

وبناءً على هذا المفهوم فان الكلام على خاصية مرونة الفقه وإعمالها في الواقع ينبغي أن يكون مصحوبا بالضوابط الآتية:

أ- اتصاف الشريعة بالمرونة دلت عليه الادلة الشريعة وقرر العلماء المتقدمون مضمونها ومعناها وليست مجرد رأي ارتآه العلماء المفكرون المعاصرون.

٢- أن المرونة مودعة في مصادر التشريع، ولذلك يجب أن تبنى كل قضية يعمل فيها بمرونة الفقه على دليل خاص كالقياس على علة معينة، أو عام كمقاصد الشرعية، أو دليل كلي كقواعد الفقه وضوابطه.

٣- حكمة مرونة الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي:

ختم الله تعالى الأديان والشرائع بالرسالة المحمدية وجعلها للناس كافة، فكانت الشريعة الإسلامية موجهة للناس في جميع ما يستقبلون من الزمان وحيثما كانوا. ولا ريب أن أساليب الحياة وأعراف الناس تتغير وتتجدد بتعاقب الزمان وتغير المكان، ولذلك جمعت هذه الشريعة المباركة بين الثبات والمرونة في أحكامها حتى يبقى هذا الدين بأصالته وثباته مستوعباً لمستجدات العصور. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "الأحكام نوعان: نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقررة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغير ولا اجتهاد يخالف ما وُضع له. والنوع الثاني ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشرع ينوع فيها بحسب المصلحة" (ابن القيم، إغاثة، د.ت ٢/٣٣٠).

وقال الأستاذ سيد قطب رحمه الله في معرض حديثه عن خاصية الثبات والمرونة في الشريعة الإسلامية: "خاصية الثبات لا تقتضي تجميد حركة الفكر والحياة، ولكن يقتضي السماح لها بالحركة – بل دفعها للحركة – ولكن داخل هذا الإطار الثابت، وحول هذا المحور الثابت" (قطب، د.ت ٧٥).

معالم مرونة الفقه الإسلامي:

اكتسب الفقه الإسلامي مرونته من المرونة التي أودعها الله تعالى في الشريعة الإسلامية، ويمكن ابراز تلك المرونة في ثلاثة معالم:

الأول: المرونة في منهج التشريع

الثاني: المرونة في مصادر التشريع

الثالث: المرونة في قواعد الفقه.

أ- المرونة في منهج التشريع:

لا يمكن للبشر أن يحيطوا بالمنهج الرباني في تشريع الأحكام، ولكن نذكر بعضاً مما ظهر للعلماء من ذلك المنهج الحكيم:

أ- النص على أحكام بعض الأشياء دون بعضها

إلى هذا المنهج أشار النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "إنّ الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها" (الدار قطني، ٢٠٠١، ٤٧٢٨/١٠٤).

وهذا المجال الذي سكت الله تعالى عنه ولم ينص على أحكامه هو من أسباب مرونة الشريعة والفقه حيث يعمل فيه المجتهدون إما بقاعدة الاستصحاب التي تدل غالباً على الإباحة، وإما بكليات الشريعة ومقاصدها، وإما بالقياس، وإما بالمصالح المرسلة التي تتجدد وتظهر، وإما بالعُرف الذي يتغير كثير منه بتغير الزمان والمكان (ابن رجب، ٢٠٠٨، ٦٣٦). وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن النهي عن السؤال والبحث عما سكت الله تعالى عنه كان مخصوصاً بزمان النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون السؤال سبباً للتضييق فيه والتحديد أو الإيجاب أو التحريم (ابن رجب، ٢٠٠٨، ٦٣٥. القرضاوي، ١٩٩٣، ١٤٠).

ب- الجمع بين الإجمال والتفصيل في تشريع الأحكام:

من المنهج الرباني في التشريع الجمع بين الإجمال والتفصيل في تقرير الأحكام. وقد جاء التفصيل في ثوابت الأحكام التي لا تتأثر بتطور الوسائل وتجدد الوقائع كالعقائد والشرائع التعبدية والأخلاق والحلال والحرام والحدود ، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الشاطبي في معرض رده على من استشكل معنى قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}(٣/٥) وقوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} (٨٩/١٦) فقال رحمه الله: " إن قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} إن اعتبر فيها الجزئيات من المسائل والنوازل فهو كما أوردتم، ولكن المراد كلياتها فلم يبق للدين قاعدة يحتاج إليها في الضروريات أو في الحاجيات أو التكميليات إلا وقد بينت غاية البيان، نعم يبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولاً إلى نظر المجتهد..." إلى أن قال: "فإنما المراد الكمال بحسب ما يحتاج إليه من القواعد الكلية التي يجري فيها ما لا ينحصر من النوازل" (الشاطبي، د.ت ٥٩٩/١).

وفي ذات المعنى قال الشيخ جاد الحق علي جاد الحق وهو يشرح معنى مرونة الشريعة الإسلامية حيث فصلت ما لا يتغير، وأجملت ما يتغير ضرورةً لخلود هذه الشريعة ودوامها وعمومها" (جاد الحق، ٢٠٠٥، ٩٢).

ج- مشروعية الاجتهاد:

مشروعية الاجتهاد في بيان أحكام المستجدات والوقائع هو المنهج المكمل للمنهجين السابقين، وقد تبين من النصوص والنفول السابقة، إن ما سكت الشارع الحكيم عن النص عليه أو أجمله هو محل السعة والمرونة، ليقوم المجتهدون باستنباط أحكامه مراعين في ذلك تغير الأعراف وتطور الوسائل وتبدل الأحوال وتجدد المصالح.

ومشروعية الاجتهاد ثابتة بالإجماع (ابو جيب، د.ت ٤٦/١) ، ودل عليها قوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}(٥٩/٤) أي ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله وبالنظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته، وهذا هو الاستنباط الذي ورد أيضاً في قوله تعالى: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}(٨٣/٤) قال القرطبي رحمه الله في تفسيرها: "والاستنباط في اللغة الاستخراج، وهو يدل على الاجتهاد إذا عدم النص والإجماع".

١- المرونة في مصادر التشريع:

من المعلوم أن للشريعة الإسلامية مصدر رئيس هو الوحي بشقيه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإضافة إلى مصادر تبعيته تعتبر وسائل للاجتهاد، منها القياس والأخذ بالمصلحة المرسلة والاستصحاب والاستحسان والعرف وسد الذرائع وغيرها، ونتناول هنا ثلاثاً منها على سبيل المثال لبيان أثرها في مرونة الفقه الإسلامي.

أ. **القياس:**

يعد القياس من أوسع الأدلة التي يبنى عليها الاجتهاد فيما لا نص فيه. ويتجلى أثره في مرونة الفقه في كون المجتهد لا يقف حائراً أمام النوازل التي تتجدد بتطور الوسائل، ويواكب كل ما يبدعه الناس في أساليب معاشهم لأنه يربط الأحكام بالعلل، فحيثما وجدت العلة وجد الحكم وأن اختلفت الأشكال والوسائل. والقياس هو مقتضى العقل والعدل والفطرة السليمة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ابن تيمية، قياس، ١٩٨٧، ١٤) والامام محمد أبو زهرة (أبو زهرة، ١٩٥٨، ٢١٩) وبالقياس استوعب الفقه الإسلامي كل التطورات التي حدثت في مجال النقود والعقود، ونفذ إلى علل الأحكام في هذه المستجدات ولم يتجمد على الأشكال والصور الموروثة كما سيأتي بيانه في المبحثين التاليين.

ب. العمل بالمصلحة المرسلة:

ويقصد به العمل بما يصلح شأن الناس في الدين أو الدنيا فيما لم يرد به نص خاص يأمر به أو ينهى عنه، وغايته المحافظة على مقصود الشارع سبحانه وتعالى بجلب المصالح ودرء المفاسد. والتحقيق أن الأخذ به حاصل في جميع المذاهب متى توفرت شروطه وإن اختلفوا في تسميته، فبعضهم يسميه بالمصلحة المرسلة وبعضهم يسميه الاستصلاح أو الاستدلال أو الأخذ بالعموم (أبو زهرة، ١٩٥٨، ٢٧٧).

وللأخذ بالمصلحة المرسلة أثرها البالغ في مرونة الفقه الإسلامي وسعته، وعليه بنيت أحكام كثير من الحوادث والمستجدات النافعة التي يسرت حياة الناس وساهمت في تنظيم شئونهم وسياستهم، من عهد الخلفاء الراشدين وإلى يومنا هذا كعمل الدواوين الحكومية واتخاذ التاريخ (خلاف، ١٩٦٦، ٨٥) ومما يناسب موضوع البحث أن تأسيس المجامع الفقهية والمؤسسات المالية الإسلامية هو من أمثلة ما بنيَّ على المصالح المرسلة.

ج. العرف:

وهو ما تعارفه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك (خلاف، ١٩٦٦، ٨١). وقد أحال الله تعالى على العرف في عدد من المسائل منها قوله تعالى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} (٢٣٣/٢)، فتحديد نوع النفقة ومقدارها تابعٌ للعرف (القرطبي، ١٩٥٢، ١٦٣/٣).

واعتبار العرف الذي لا يخالف الشرع من عوامل مرونة الفقه الإسلامي في فروعه المختلفة ولا سيما المعاملات المالية.

ومن أمثلة الأحكام التي بنيت على العرف في عصرنا الحاضر جواز الاعتياض عن حق الابتكار والتأليف والعلامات التجارية (الجيزاني، ٢٠٠٨، ١٢٩/٣)، وكذلك اعتبار النقود من عناصره عرف الناس وقبولهم كما سيأتي.

٢- المرونة في قواعد الفقه:

واكتفي في هذا المقام بذكر قاعدتين على سبيل التمثيل.

أ. قاعدة الضرر يزال:

وهي من القواعد الفقهية الكبرى، وتسند إلي قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا ضرر ولا ضرار) (ابن ماجة، د.ت، ٢٣٤١/١٦). وتعتبر هذه القاعدة من عوامل مرونة الفقه الإسلامي حيث أنها يُبنى عليها المنع من كل تصرف يؤدي إلى ضرر محض أو ضرر زائد على النفع المتحصل منه، وإن دلّ دليل بظاهره بخلاف مقتضى القاعدة. ومثال ذلك مسألة التسعير، دلّ ظاهر الحديث: (إنّ الله هو المسعر القابض الباسط الرازق. وإني أرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة) (أبو داؤود، ٢٠٠٠، ١٣١٤/٢). على المنع منه وبه تمسك الجمهور، بينما أجاز المالكية وبعض فقهاء المذاهب الأخرى إلى مشروعية التسعير رفعاً للضرر إذا كان الغلاء ناتجاً عن جشع أو احتكار، وحملوا الحديث على الغلاء المبرر بندرة السلعة أو ارتفاع تكلفة انتاجها وما أشبهه ذلك من الأسباب، فإن التسعير في تلك الحال يكون ظلماً، أما التسعير في حال الاحتكار والتعسف فلا يكون ظلماً بل هو من إزالة الضرر (ابن العربي، د.ت، ٥٤/٦).

ب. قاعد تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان:

وهي قاعدة فقهية ثابتة نص عليها جماعة من اعلام العلماء كالقرافي (القرافي، ١٩٩٥، ٢١٨) وابن القيم وغيرها. وهذه القاعدة لا تعني أنّ الأحكام تتغير حقيقة، بل المقصود أن الفتوى في المسألة قد تتغير من مكان أو زمان أو حال لآخر إذا تغير العرف المقترن بها أو تغير مناط المصلحة فيها، أو تغيرت علة الحكم أو نحو ذلك (ابن القيم، ١٩٩١، ١١/٣).

ومن تطبيقات هذه القاعدة في فقه المال اعتبار القبض الحكمي بتسجيل المبلغ في حساب العميل في عملية الصرف عن طريق البنوك كما سيأتي بيانه.

مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار النقود

مفهوم النقود وخصائصها في علم الاقتصاد والفقه الإسلامي:

١- تعريف النقود وتطورها:

النقود في اللغة جمع نقد والنقد خلاف النسيئة، وهو المال الحاضر، والانتقاد والتنقد: إعطاء المال، ونقد الدراهم تميزها (ابن منظور، ١٤١٤، ٤٢٥/٣) وفي اللغة المعاصرة هي العملة الورقية أو المعدنية الخاصة بكل قطر (مجمع اللغة العربية، د.ت، ٤٣٩/١). وفي الاصطلاح الفقهي هي: (الذهب والفضة وما في حكمها من العملات الورقية المتداولة) (الغرياني، ٢٠١٥، ٢٢١/٢). وفي الاصطلاح الاقتصادي: (كل شيء يتمتع بقبول عام كوسيط للمبادلات ويقوم بوظيفة مقياس ومخزن القيم) (هيكل، ١٩٨٠، ٥٥٨).

وقد تطورت النقود عبر التاريخ من نقود سلعية كالقمح مثلاً إلى نقود معدنية مضروبة من الذهب والفضة، إلى نقود ورقية مغطاة بالذهب والفضة، إلى نقود رسمية مغطاة بعموم ثروة البلد من ذهب وعملات حرة ومنتجات واحتياطات اقتصادية (المسير، ١٩٩٠، ٥٦). ثم ظهرت النقود الالكترونية والرقمية تعمل جنباً إلى جنب مع النقود الورقية والمعدنية.

٢- وظائف النقود وخصائصها عند علماء الاقتصاد:

ذكر علماء الاقتصاد أربع وظائف للنقود وهي:

- أنها وسيط في المبادلات المالية.
- أنها معيار لقيم السلع والخدمات.
- أنها مستودع للثروة ومخزن للقيم.
- أنها معيار للمدفوعات المؤجلة.

ولكي تقوم بهذه الوظائف لابد أن تتوفر بها ثلاث خصائص هي:

- القبول العالم في المجتمع الذي تسود فيه.
- ثبات القيمة ولو نسبياً حتى تكون معياراً لقيم السلع والخدمات.
- خصائص فنية في مادتها وهي سهولة التداول وكونها غير قابلة للتقليد، وليست سهلة التلف (المسير، ١٩٩٠، ١٢).

٣- وظائف النقود وخصائصها في الفقه الإسلامي:

إن مما يزيد اعتزازنا واعجابنا بفقائنا الكرام أنهم ذكروا جميع وظائف وخصائص النقود قبل أن يتبلور علم الاقتصاد في صورته المعاصرة وهذه بعض النقول الدالة على ذلك:

أ- قال الإمام مالك رحمه الله: (ولو أن الناس أجازوا الجلود بينهم في البيع والشراء حتى يكون لها سكة وعين، لكرهت أن تباع بالذهب والورق نظرة) (الأصبحي، د.ت، ٩٠/٣).

فهذا النص أشار إلى أن العبرة في النقود ليس مادتها، وانما خصائها ووظائفها. فقوله "اجازوا" تدل على خاصية القبول العام، وقوله في "البيع والشراء" تدل على وظيفة الوسيط في التبادل والمعيار للقيم، وقوله "حتى يكون لها سكة وعين" تدل على الخصائص الفنية للنقود، وبما أن الجلود كانت

بمنزلة الورق في ذلك الزمان فيمكن أن نقرر بأن الإمام مالك رحمه الله هو أول من تكلم في قياس النقود الورقية على الذهب والفضة في الأحكام.

ب-أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد تكلم عن حقيقة وخصائص النقود ووظائفها بعبارات واسعة المعنى تستوعب جميع تطوراتها بما في ذلك العملات الرقمية التي ظهرت في هذا العصر، قال رحمه الله: "وأما الدراهم والدنانير فما يعرف لها حد طبعي، ولا شرعي، بل مرجعه الى العادة والاصطلاح، وذلك لأنه في الأصل لا يتعلق المقصود به، بل بالغرض أن يكون معياراً لما يتعاملون به، والدراهم والدنانير لا تقصد لنفسها بل هي وسيلة الى التعامل بها ولهذا كانت أثماناً" (ابن تيمية، ١٤٠٤، ٤٧/٢٠).

ج- وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله عن نعمة خلق النقود: "فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة – يعني السلع المختلفة – إلى متوسط بينهما يحكم فيها بالعدل فيعرف في كل واحدة رتبته ومنزلته، حتى اذا تقررت المنازل وترتبت الرتب، علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق الله الدنانير والدراهم متوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما" (الغزالي، ٢٠٠٦، ٢٦٠١/٤) فهذا النص ذكر فيه رحمه الله وظيفتين للنقود: كونهما وسيط للتبادل وكونهما معيار للقيم، ثم ذكر بعد ذلك الوظيفة الثالثة للنقود وهي كونها مخزن للقيم ومستودع للثروة في قوله "ونسبتهما الى سائر الأموال نسبة واحدة ومن ملكهما فكأنما ملك كل شيء" (الغزالي، ٢٠٠٦، ٢٦٠٢/٤). ونلاحظ أن الامام الغزالي رحمه الله ذكر الوظائف الثلاثة للنقود كما ذكر من خصائصها ضمناً خاصية القبول العام وخاصية ثبات القيمة.

د- وقال الإمام ابن القيم رحمه الله "إن الدراهم والدنانير اثمان المبيعات والثمن هو المعيار الذي يعرف به تقويم الأموال" ثم قال "فالأثمان لا تقصد لعينها بل يُقصد التوصل بها الى السلع" (ابن القيم، ١٣٨٨، ١٥٦/٢) (وقال في موضع اخر "بل الواجب أن تكون النقود رؤوس أموال يتجر بها ولا يتجر فيها" (ابن القيم، ١٩٨٥، ٢٤٩). فدلت هذه النصوص على التوالي على ان النقود معيار للقيم ووسيط في التبادل ومستودع للثروة.

تطبيق مرونة الفقه الإسلامي على النقود الرقمية:

ظهر أثر التقدم التكنلوجي وتطور شبكة الانترنت بوضوح في مجال النقود، وتجلى ذلك في ظهور النقود الرقمية ووسائل الدفع الالكترونية.

أولا: **النقود الرقمية:**

النقود الرقمية السائدة تنقسم الى نوعين من حيث الجهة التي تصدرها وتعتمدها:

١/١/١/ (النوع الأول) النقود الإلكترونية: وهي عبارة عن وحدات نقدية تستخدم في التجارة الإلكترونية ولها مكافئ من النقود التقليدية، وتصدرها مؤسسات مالية وتضمن تحويلها الى نقود عادية وهي معترف بها قانوناً (الجهيني، ٢٠٠٦، ١٠). وهي تصدر في ثلاثة صور:

أ/ النقود الشبكية، وتسمى أيضا بالنقود السائلة الرقمية، وهي عبارة عن قيم مالية مدفوعة مسبقاً يتم تخزينها في الحواسيب الشخصية للعملاء، ويتم التعامل بها عبر برامج مدمجة في الحاسب الآلي، وتنقل عبر شبكة الانترنت المفتوحة، وتستخدم في الوحدات المالية الكبيرة.

ب/ حافظة النقود الإلكترونية، وهي عبارة عن بطاقة، ممغنطة، تخزن فيها النقود الإلكترونية، ويتعامل بها التجار ومقدمي الخدمات عن طريق الجهاز الإلكتروني القارئ، وتستخدم غالباً في مبالغ مالية صغيرة، وهي وان كانت شبيهة ببطاقات الصراف الآلي إلا انها تختلف عنها حيث المخزن فيها عبارة عن وحدات مالية إلكترونية بينما بطاقات الصراف الآلي وبطاقات الائتمان يخزن فيها العملات العادية في شكل ارقام تعبر عنها.

ج/ الوسيلة المختلطة، وهي عبارة عن وحدات نقدية قابلة للنقل عبر الشبكة بالحواسيب وللتعامل بها عبر الأجهزة القارئة.

التكييف الفقهي للنقود الإلكترونية:

لم تجد هذه النقود الالكترونية أي اعتراض من العلماء والمجامع الفقهية، بل صدرت فتاوى تؤكد مشروعيتها حيث أنها تحمل كل خصائص النقود المعتبرة سابقة الذكر وتؤدي وظيفتها، إلا أن الخلاف وقع في تكييفها الفقهي الى أقوال وأشهرها وأفواها ثلاثة:

الأول: أنها سند دين حال: ويستند هذا الرأي الى أن العميل يدفع للمصدر مبلغا من العملات الورقية مقابل الحصول على هذه الوحدات النقدية الالكترونية، ويلتزم المصدر برد المبلغ للتاجر الذي تعامل معه العميل أو العميل نفسه عند الطلب، ويسترد منه الجملة الإلكترونية ويلغيها فيما يعرف بعملية التدمير. فالرد للعميل عبارة عن رد للمديونية، والرد للتجار عبارة عن حوالة تمت برضا الأطراف الثلاثة المحيل والمحال والمحال عليه.

وقد اعترض على هذا التكييف بأن سند الدين إذا تلف يبقى الحق في ذمة المدين وليس الأمر كذلك إذا تلفت النقود الالكترونية بيد العميل أو التاجر.

ومن جهة أخرى فإن المدين يبرأ من الدين بإبراء الدائن له، وليس الأمر كذلك إذا ابرأ العميل المصدر بعد استخدام النقد الالكتروني مع التاجر (القحطاني، ٢٠٠٨، ٥٤٧).

الرأي الثاني: أنها نقود مستقلة: ويستند هذا الرأي بأن الوحدات النقدية الالكترونية تؤدي جميع وظائف النقود وتتمتع بخصائصها سابقة الذكر.

واعترض على هذا التكييف بأنها لا تحظى بالقبول العام كوسيط للتبادل لأن القبول بها اختياري وبالتالي لا ينطبق عليها صفة النقد المستقل.

الرأي الثالث: أنها وسيلة لدفع النقود وليست نقودا في ذاتها: ويستند هذا الرأي الى أن النقود الالكترونية تعتمد في تقديرها على العملات الورقية المعروفة، وتمثل حقاً بها قابل للتحويل والنقل إلكترونياً، ويلتزم المصدر برد قيمتها عند الطلب.

ويبدو أن هذا الاختلاف في التكييف راجع إلى حداثة هذه النقود. وأنها في مرحلة اشبه بمرحلة تطور النقود من النقود الذهبية إلى النقود الورقية التي كانت تحمل قيمة الذهب على وجه الحقيقة، وكانت

قابلة للصرف بالذهب، ثم تطورت إلى أن أصبحت مستقلة ولا يلزم مصدرها قانوناً برد قيمتها من الذهب، وبالفعل بدأت بعض الدول تسن القوانين التي تنظم التعامل بالعملة الإلكترونية وتعطيها صفة الالزام القانوني والقبول العام كما هو الشأن في دولة سنغافورة (العقابي، ٢٠٠٨، ٨١).

وعلى كلٍ فإن الفقه الإسلامي المعاصر قد تقبل التعامل بالوحدات النقدية الإلكترونية الصادرة من جهات مصرح بها قانوناً وضامنة لها، وهذا من الأثر الإيجابي لمرونة الفقه الإسلامي الذي ينظر إلى حقائق الأمور وجواهرها دون التقيد بأشكالها، ويفسح المجال واسعاً لتطور وسائل الحياة، وتيسير المعاملات، مالم تشتمل المعاملة على اضرار أو ظلم أو غرر أو غش.

٢/ النقود الافتراضية (البتكوين وأشباهها):

عرفت العملة الافتراضية بأنها: (تمثيل رقمي للقيمة ليس صادراً عن مصرف مركزي ولا عن سلطة عامة، ولا هو مرتبط بعملة حكومية، ولكنه مقبول عند بعض الجهات الطبيعية والقانونية وسيلة للدفع، ويمكن نقله أو تخزينه أو المتاجرة به رقمياً) (ويكبيديا).

وتختلف العملة الافتراضية عن العملة الإلكترونية التي سبق ذكرها في الآتي:

أ/ أنها لا تصدر عن البنوك المركزية أو المؤسسات الخاصة الخاضعة لسيادة الدولة.

ب/ أنها غير مربوطة في قيمتها بعملة معينة.

ج/ يتم تداولها خارج رقابة الجهات المالية الحكومية.

وهنالك كثيرٌ من أنواع العملات الإلكترونية تزيد على الألف وأشهرها البتكوين والاثريوم.

وقد أفتت كثير من الجهات الرسمية والعلمية بحرمة التعامل بها وعدم اعتبارها نقوداً منها:

أ/ دار الإفتاء المصرية (موقع قناة الجزيرة).

ب/ الاتحاد العالمي لعماء المسلمين (الموقع الرسمي للاتحاد)

وقد استندت هذه الفتاوى الى ان هذه العملة لا تصدر من جهات معترف بها وليس لها ضامن. كما أنها تشتمل على غرر في قيمتها بسبب المضاربة في أسعارها فهي في صعود ونزول حاد يبلغ الفرق فيه آلاف الدولارات في فترة وجيزة وهذا أمر غير معهود في النقود، كما أنها لا تحظى بالقبول العام ولو في بلد واحد. كما أن التعامل بها خارج مراقبة الأنظمة المالية الحكومية يجعلها عرضة للمعاملات المشبوهة كعمليات غسل الأموال (الموقع الرسمي لاتحاد علماء المسلمين).

ثالثا: وسائل الدفع الإلكترونية:

وتشمل بطاقات الإئتمان وبطاقات الصراف الآلي والتطبيقات البنكية على الهواتف المحمولة، وتشترك جميعا في أنها لا تعتبر نقوداً مستقلة وإنما هي صيغة رقمية الكترونية تعبر عن النقود العادية.

أ- بطاقات الصراف الآلي والتطبيقات البنكية على الهواتف المحمولة: وتشتركان في كونهما مربوطتان بحساب بنكي خاص وتمكن صاحبها من التصرف في حسابه بالسحب والدفع دون اللجوء إلى البنك، وقد جرى التعامل بها من غير نكير أو توقف وإنما نهت الفتاوى الصادرة بشأنهما على أمرين:

١/ أن الدفع والأخذ بهما يأخذ حكم القبض الفعلي في المعاملات.

٢/ أنه يقع فيها ربا الفضل في حالة مبادلتها مفاضلة بنفس العملة التي تحملها. ويستثنى من ذلك استخدامها في ارسال مبلغ من طرف الى اخر بعملية مكونة من ثلاثة أطراف أحدهم مرسل والثاني مستقبل والثالث وسيط هو صاحب التطبيق ويحق له ان يقتطع من المبلغ المرسل بواسطته نسبة ضئيلة هي أجرة التحويل، وكذلك يجوز لمصدر التطبيق الحسم مقابل كل عملية باعتبارها أجرة استخدام الأجهزة المركزية والتطبيق (موقع النيلين).

٢/٣/ بطاقات الائتمان: وهي نوعان:

أ/ بطاقة الائتمان غير المغطاة:

وهو مستند يعطيه المصدر للعميل بناءاً على عقد يمكنه من شراء السلع والخدمات ممن يعتمد المستند، ويتولى بموجبه المصدر دفع قيمة الخدمات والسلع عن العميل ويقوم العميل بالسداد حسب الاتفاق.

وقد أفتت المجامع الفقهية بحرمة هذا النوع إذا كان فيه شرط السداد بزيادة نسبة مئوية عن التأخر عن السداد في فترة السماح باعتبار ان ذلك يعتبر قرض بفائدة ربوية (الجيزاني، ٢٠٠٨، ٢٠٦/٣).

ب/ بطاقة الائتمان المغطاة:

وهي تصدر إذا دفع العميل قيمتها مسبقا أو كان له حساب لديها. وهي جائزة. ويستفيد المصدر من رسوم اصدار البطاقة ومن أخذ عمولة من بائع السلع والخدمات بشرط أن يبيع لحملة البطاقات كما يبيع لغيرهم أو بسعر أقل، كما يجب أن تخلو من الفوائد الربوية في حال تجاوز العميل لسقف الغطاء.

وهكذا يتبين لنا أن الفقه الإسلامي قد استوعب جميع تطورات النقود الرقمية بإعمال القياس والعرف والمصلحة المرسلة والنظر إلى علل الأحكام دون أشكالها وصورها، ولم تمنع من ذلك إلا ما اشتمل على ربا أو غرر أو ضرر (الجيزاني، ٢٠٠٨، ٢٠٩/٣).

مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار العقود الالكترونية

معالم مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار العقود

يمكننا استجلاء بعض معالم مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار العقود من خلال القواعد الفقهية الآتية:

١/ الأصل في العقود الإباحة:

وقد ذكر هذه القاعدة جمع من العلماء، وهو مذهب جمهور الفقهاء، المالكية (ابن رشد، ١٣٢٥، ١٢٨/٢)، والشافعية (الشافعي، ١٣٢١، ٢/٣)، والحنابلة (ابن تيمية، فتاوي ١٣٨٢، ٣٢٩/٣).

ومن أدلة هذه القاعدة قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}(١/٥) ومعنى القاعدة أن الشريعة الإسلامية لا تقيد الناس بصور العقود المأثورة، بل كل عقد استحدث الأصل فيه الصحة حتى يدل دليل على المنع منه (الندوي، ١٩٩٩، ٢٨٢/١). وهذا يكسب الفقه الإسلامي مرونة في إقرار كل عقد مستحدث ما دام قائماً على العدل وتحقيق المصالح.

وبهذا تتسع دائرة المعاملات المشروعة، دون حجر بناءً على ذلك صحت عقود التأمين التعاوني والتأمين الاجتماعي (الجيزاني، ٢٠٠٨، ٢٦٦/٣) وغيرها من أنواع العقود التي لم تكن معهودة.

٢/ قاعدة تصح العقود بكل ما دلّ على مقصودها من قول أو فعل:

ومضمون القاعدة أنه لا حجر على الناس في صيغة التعاقد، فلا يشترط لها ألفاظ محددة، وبهذه القاعدة أخذ جمهور الفقهاء، وعليه عمل المسلمين في مختلف الأمصار فيصح التعاقد بكل لفظ يدل عليه في البيوع والإيجارات بل حتى بغير لفظ كما في التعاقد بالكتابة أو بمجرد المناولة كما في بيع المعاطاة (الندوي، ١٩٩٩، ١١٢/١). ومن تطبيقاتها المعاصرة استئجار سيارات النقل العامة بمجرد الركوب ودفع القيمة المعلومة. وبموجب هذا القاعدة صحت العقود الإلكترونية واعتبر بعضها مجلس عقد واحد مع تباعد المتعاقدين كما سيأتي بيانه في المطلب التالي.

٣/ قاعدة المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً:

وتتجلى أهمية هذه القاعدة في أن بعض العقود قد تخلوا من استيفاء الشروط لجميع جوانب المعقود عليه فيرجع في ذلك إلى العُرف. وقيمة العرف في المعاملات تنبع من أن الناس قد صارت لهم خبرة ومعلومات على حسب العادة المستمرة والتكرار عند المختصين بالمجال المعني (الندوي، ١٩٩٩، ١٩٥/١).

ولما كانت معظم العقود الإلكترونية تتم بين متباعدين كان لهذه القاعدة أهمية كبرى في المواصفات التي لم ينص عليها في العقد فيكون الفيصل في تحديدها هو عرف أهل الاختصاص.

تطبيق مرونة الفقه الإسلامي على العقود الإلكترونية:

يقصد بالعقود الإلكترونية (التعاقد على المنافع والأعيان عبر الوسائط الإلكترونية كلياً أو جزئياً) (فرج، ٢٠١٢، ١٤). والمقصود بالعقد الإلكتروني الكلي أن تكون وسيلة التعاقد الكترونية، ويكون محل العقد من السلع أو المنافع الإلكترونية كشراء الكتب الإلكترونية أو استخدام التطبيقات والاشتراك فيها بأجرة.

ونتناول مرونة الفقه الإسلامي في اعتبار العقد الإلكتروني في ثلاثة عناصر:

١/ صيغة العقد الإلكتروني

٢/ مجلس العقد الإلكتروني

٣/ قبض العوض في العقد الإلكتروني

١/ صيغة العقد الالكتروني:

بناءً على ما سبق في قاعدة (صحة العقود بكل ما دل على مقصودها من قول أو فعل) وبناءً على إجازة جمهور الفقهاء للتعاقد بالكتابة، الحنفية (العيني، ١٩٩٨، ١٦/٧)، والمالكية (الدسوقي، د.ت، ٣/٣)، والحنابلة (البهوتي، ١٤٢٣، ٣٧٨/٢)، أجازت المجامع الفقهية المعاصرة التعاقد بالوسائط الالكترونية وفصلوا فيها احكام الإيجاب والقبول على الوجه الآتي:

١/ يتم التعبير عن الايجاب والقبول في العقود المبرمة بالأنترنت بكل ما يدل على رضا الطرفين.

٢/ إذا وجهت الرسالة الالكترونية عبر الموقع على الشبكة او عبر البريد الالكتروني والمتعلقة بالعقد المزمع ابرامه بحيث تتضمن جميع الحقوق والالتزامات، دون ان يكون لمرسلها الحق في رفض التعاقد في حالة قبول الطرف الآخر، فإن هذه الرسالة تعد ايجاباً.

٣/ أذا وُجهت الرسالة الالكترونية عبر الموقع على الشبكة او على البريد الالكتروني دون بيان جميع الحقوق والالتزامات، او كان مرسلها أو ناشرها على الموقع قد اشترط حقه في رفض التعاقد وإن قبل الطرف الآخر، فإن هذه الرسالة تعد إعلاناً أو دعوة للتعاقد وتحتاج إلى تجديد إيجاب وقبول.

٤/ يعتبر الضغط على مفتاح (أو ايقونة) القبول عند ابرام العقد على الموقع قبولاً صحيحاً شرعا إذا كان نظام الموقع لا يشترط تأكيد القبول. وان كان يشترط تأكيده بأي طريقة يحددها الموقع، فإن القبول لا يقع إلا بصدور ذلك التأكيد (المعايير الشرعية، ٢٠١٥، ٩٩٢).

٢/ مجلس العقد الالكتروني:

جاء في المعايير الشرعية للمؤسسات المالية الإسلامية في المعيار (٣٨) ما نصه:

"١/٤ – إبرام العقد باستخدام المحادثة الصوتية، أو المحادثة بالصوت والصورة بين المتعاقدين عبر الانترنت يأخذ أحكام التعاقد بين حاضرين، وعليه فإنه تسري عليه جميع أحكام التعاقد بين حاضرين كاشتراط اتحاد المجلس وعدم صدور ما يدل على إعراض أحد المتعاقدين والموالاة بين الإيجاب والقبول حسب العرف وما إلى ذلك من أحكام.

١/١/٤ مجلس العقد في هذه الحالة هو زمن الاتصال بين المتعاقدين ما دام الكلام في شأن العقد، فإذا انتهى الاتصال أو انقطع، أو انتقل المتعاقدان لموضوع آخر لا صلة له بموضوع الاتصال انتهى المجلس، إلا إذا كان الانقطاع يسيراً عرفاً.

٢/٤ إبرام العقد باستخدام المحادثة الكتابية أو البريد الالكتروني أو عبر الموقع على الشبكة يأخذ أحكام التعاقد بين الغائبين مثل التعاقد عن طريق الرسالة." (المعاير الشرعية، ٢٠١٥، ٩٩٢)

وكذلك ورد تصنيف مجلس العقد الالكتروني الى تعاقد بين حاضرين وغائبين حسب الوسيط المستعمل في قرارات مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ومجمع الفقه الإسلامي بالهند (الجيزاني، ٢٠٠٨، ١٠٥).

٣/ قبض العوضين في العقد الالكتروني

لا يختلف قبض السلع في العقود الالكترونية عنها في العقود العادية، غير أن القبض فيها غالباً ما يتم عن طريق وكلاء أو متعهدي توصيل، وتكون أجرة التوصيل متضمنة في الثمن أو على المشتري حسب العقد. أما قبض الثمن فيكون عن طريق التحويل عبر التطبيقات البنكية أو المالية المختلفة سوآءا كانت نقوداً ورقية أو الكترونية.

ويعتبر نزول المبلغ في حساب التاجر قبضا حكميا ينزل منزلة القبض الحقيقي كما ورد في قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة برقم (٦/٤/٥٣) (الجيزاني، ٢٠٠٨، ٩٨).

وقد خصصت فتاوى المجامع الفقهية مسألتين بالنص عليهما في أحكام قبض العوض في التجارة الالكترونية، وهما:

أ/ إذا كان محل العقد سلعة أو خدمة الكترونية فيتحقق القبض فيها بقيام المشتري بتنزيل البرامج أو البيانات التي تمكنه من الحصول على الخدمة أو السلعة الالكترونية المقصودة.

ب/ أن يتحقق المتعاقدان من حصول القبض الفوري في مجلس العقد إذا كان محل العقد مما يشترط فيه التقابض في المجلس كبيع العملات بعضها ببعض، أو بذهب أو فضة، تجنبا لوقوع الربا (المعايير الشرعية، ٢٠١٥، ٩٩٥).

وهكذا نرى أن الفقه الإسلامي قد استوعب مستجدات المالية الرقمية في مجال النقود والعقود بمرونته مع المحافظة على ثباته وأصالته.

الخاتمة

أولاً: النتائج:

١. مرونة الشريعة الإسلامية من رحمة الله بعباده؛ لأنها الرسالة الخاتمة العامة للناس في كل عصر ومكان، فأودع الله تعالى فيها من السعة ما يستوعب تغيرات الأحوال وتطورات الوسائل ومستجدات الحوادث.
٢. مرونة الفقه الإسلامي هي فرع عن ربانية الشريعة وثباتها ومرونتها، وقد تجلت في منهجية التشريع ومصادر الفقه وقواعده.
٣. من عوامل المرونة في منهجية التشريع الإسلامي ترك النص على بعض الأمور، وإجمال بعض الأحكام، ومشروعية الاجتهاد في استنباط احكام مالم ينص عليه الشرع، وتفصيل ما أجمل بما يوافق متغيرات الحياة في كل عصر.
٤. أكتسب الفقه الإسلامي مرونته أيضاً من الأخذ بالقياس والمصالح المرسلة واعتبار العرف لا يخالف الشرع، وإعمال القواعد الكلية كقاعدة لا ضرر ولا ضرار، وقاعدة الأصل في العقود الإباحة.
٥. في القواعد التي وضعها الفقهاء المتقدمون لأحكام النقود والعقود ما يستوعب كل التطورات التي حدثت في هذين المجالين بما في ذلك الطور الإلكتروني للنقود ووسائل الدفع والتعاقد.
٦. تطابق ما ذكره الفقهاء المتقدمون عن خصائص النقود ووظائفها مع ما تقرر في علم الاقتصاد المعاصر.
٧. تجلى الأثر الإيجابي لمرونة الفقه الإسلامي على المالية الرقمية باعتبارها من مصالح الحياة ووسائل تيسيرها ومن تبدل الأعراف في المعاملات بما لا يخالف الشرع.
٨. أقرت الفتاوي الفقيه المعاصرة التعامل بالنقود ووسائل الدفع الإلكترونية، ما عدا العملة الافتراضية لاشتمالها على الغرر الفاحش وعدم اكتمال عناصر اعتبار النقود فيها.
٩. أقرت الفتاوى الفقهية المعاصرة أيضاً أنماط التجارة الإلكترونية بالضوابط الشرعية المعهودة في عقود المعاملات المالية.

ثانياً: التوصيات:

١. أوصي بعمل دراسات متعمقة في المقارنة بين علم الفقه وعلم الاقتصاد بناءً على ما وجدت عرضاً في هذه الدراسة من سبق للفقهاء المتقدمين في تقرير كثير من النظريات والمعارف الاقتصادية.
٢. أوصي بعمل دراسات مشتركة تشمل أهل تخصصات مختلفة حول العملة الإفتراضية وبعض أنواع بطاقات الائتمان، نظراً لما حولها من شبهات واستفهامات كبيرة حول مصدرها وأهدافها.
٣. أوصي بإضافة فقه الأموال والعقود الالكترونية الي مقررات فقه المعاملات بالمعاهد والكليات الشرعية.

المصادروالمراجع:

١. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. (د.ت) تحفة الأحوزي. بيروت: دار الكتاب العربي
(٢٣) ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (١٩٩١) أعلام الموقعين. ١١/٣. بيروت دار الكتب العلمية.
٢. ابن القيم، محمد ابن ابي بكر. (١٩٨٥) الطرق الحكمية. جدة: دار المدني.
٣. ابن القيم، محمد ابن ابي بكر. (١٩٩١) إعلام الموقعين. بيروت: دار الكتب العلمية.
٤. ابن القيم، محمد بن ابي بكر. (د.ت) إغاثة اللهفان. بيروت: دار المعرفة
٥. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (١٤٠٤) مجموع الفتاوى، مكة، مكتبة النهضة الحديثة.
٦. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (١٩٨٧) رسالتان في معنى القياس. عمان: دار الفكر.
٧. ابن رجب، عبد الرحمن بن شهاب (٢٠٠٨) جامع العلوم والحكم. بيروت: دار ابن كثير.
٨. ابن رشد، محمد بن أحمد. (١٣٢٥هـ) المقدمات. مصر: مطبعة السعادة
٩. ابن ماجة، محمد بن يزيد. (د.ت) سنن ابن ماجة. بيروت: المكتبة العلمية.
١٠. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤) لسان العرب. بيروت: دار صادر.
١١. أبو جيب، سعدي. موسوعة الإجماع (د.ت) دمشق: دار العربية.
١٢. أبو داود، سليمان بن الاشعث. (٢٠٠٠) سنن أبي داود. الرياض: دار السلام للنشر.
١٣. أبو زهرة، محمد. (١٩٥٨) أصول الفقه. القاهرة: دار الفكر العربي.
١٤. الأصبحي، مالك بن أنس (د.ت) المدونة الكبرى، بيروت، دار الفكر
١٥. البهوتي، منصور بن يونس (١٤٢٣هـ) الرياض: عالم الكتب.
١٦. جاد الحق، جاد الحق علي (٢٠٠٥) مرونة الفقه الإسلامي. القاهرة: دار الفاروق.
١٧. الجهيني، منير ومحمود محمد (٢٠٠٦) النقود الالكترونية، الإسكندرية، دار الفكر الجامعي.
١٨. الجيزاني، محمد بن حسين. (٢٠٠٨) فقه النوازل. الدمام: دار ابن الجوزي.
١٩. خلاف، عبد الوهاب. (١٩٦٦) أصول الفقه. القاهرة: دار الفكر العربي.
٢٠. الدار قطني، علي بن عمر. (٢٠٠١) سنن الدار قطني حديث. بيروت: دار المعرفة.

٢١. الدسوقي، محمد بن أحمد. (د.ت) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير. مصر: دار احياء الكتب العربية.
٢٢. الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (د.ت) الاعتصام، القاهرة: المكتبة التوفيقية.
٢٣. الشافعي، محمد بن ادريس (١٣٢١ هـ) بولاق : المطبعة الأميرية.
٢٤. العقابي، باسم وآخرون. (٢٠٠٨) النقود الإلكترونية ودورها في الوفاء بالالتزامات. مجلة أهل البيت عدد ٦. كربلاء: جامعة أهل البيت.
٢٥. العيني، محمود ابن احمد (١٩٩٠) البناية في شرح الهداية، بيروت: دار الفكر.
٢٦. الغرياني، صادق عبد الرحمن. (٢٠١٥) مدونة الفقه المالكي وأدلته. بيروت: دار ابن حزم.
٢٧. الغزالي، أبو حامد (٢٠٠٦) إحياء علوم الدين. دمشق: دار الفكر.
٢٨. فرج، عبد العزيز (٢٠١٢) التعاقد بالوسائل المعاصرة، مجلة كلية الشريعة والقانون الدحقلية.
٢٩. القحطاني، سارة متلع. (٢٠٠٨) النقود الالكترونية حكمها الشرعي وآثارها الاقتصادية. الكويت: جامعة الكويت.
٣٠. القرافي، احمد بن ادريس. (١٩٩٥) الإحكام في تميز الفتاوي عن الأحكام. بيروت: دار البشائر الإسلامية.
٣١. القرضاوي، يوسف. (١٩٩٣) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. بيروت: مؤسسة الرسالة.
٣٢. القرطبي، محمد بن أحمد. (١٩٥٢) الجامع لأحكام القرآن. دمشق: دار الشام للتراث.
٣٣. قطب، سيد. (د.ت) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. بيروت: دار الشروق.
٣٤. مجمع اللغة العربية. (د.ت) المعجم الوسيط. الإسكندرية: دار الدعوة.
٣٥. المسير، محمد زكي. (١٩٩٠) اقتصاديات النقود. بيروت: دار النهضة العربية.
٣٦. الندوي، علي أحمد. (١٩٩٩) موسوعة القواعد الفقهية الحاكمة للمعاملات المالية. الكويت: عالم المعرفة
٣٧. هيكل، عبد العزيز فهمي، (١٩٨٠) معجم المصطلحات الاقتصادية. بيروت: دار النهضة العربية.
٣٨. هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية. (٢٠١٥) المعايير الشرعية، الرياض: دار الميمان.

المو اقع الإلكترونية:

١. موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، استرجاع ٢٠٢٣/١/٢٧
٢. موقع قناة الجزيرة ، استرجاع ٢٠٢٣/١/٢٧
٣. موقع الموسوعة الحرة، استرجاع ٢٠٢٣/١/٢٧.
٤. موقع النيلين الاخباري ، استرجاع ٢٠٢٣/١/٢٩

الخطاب الصوفي في ديوان الصرصري "دراسة نقدية تحليلية"

د. سلوى عثمان أحمد محمد(*)

المستخلص:

يتناول هذا البحث الحطاب الصوفي والذي يعدأحد أهم مظاهر التجربة الروحية والفكرية في الشعر العربي لا سيما عند واحد من أهم الشعراء في العصر العباسي ألا وهو (الصرصري). يهدف البحث إلى الكشف عن مفهوم التصوف وأصوله الفكرية المتعددة، مع التركيز على الجذر الإسلامي للتجربة الصوفية و تحليل الخطاب الصوفي في شعر الصرصري من حيث الدلالات الرمزية والتعبيرية و تحديد العلاقة بين التجربة الصوفية والسياق الديني والاجتماعي في زمن الشاعر وتتمثل أهمية البحث في أنه يسعى إلى تقديم رؤية جديدة للصرصري بوصفه شاعرًا صوفيًّا عبّر عن روح العصر كما يكشف البحث عن .العباسي المتأخر، الذي شهد تداخلاً بين المعرفة الدينية والتجارب الفلسفية أصول التصوف ومصادره الفكرية .وتكمن مشكلة البحث في الكشف عن طبيعة الخطاب الصوفي وقد اعتمد البحث..في ديوان الصرصري، الذي عُرف بتجربته الزهدية والدينية المنهج الوصفي التحليلي لدراسة النصوص الشعرية، مع توظيف المقاربة السيميائية للكشف عن الرموز الصوفية، والمنهج التاريخي المقارن وخلصت الدراسة إلى أن الخطاب .لتتبع أصول التصوف الفكرية والفلسفية الصوفي عند الصرصري يقوم على ثلاثة محاور أساسية وهي : التوحيد بوصفه أساس التجربة الصوفية ومصدر إشراقها والزهد والسلوك باعتبارهما طريقًا إلى الصفاء الروحي والانفصال عن المادي والرمز الصوفي كوسيلة فنية للتعبير عن المعاني الباطنية والمعرفة الذوقية.

كلمات مفتاحية: الخطاب، التصوف، الصرصري. الرمز الصوفي

مقدمة:

يُعد التصوف الإسلامي من أبرز الظواهر الفكرية والروحية التي أثرت في الثقافة العربية الإسلامية، إذ مثّل توجهاً نحو الباطن الروحي للإنسان، وسعياً إلى الاتصال بالمطلق الإلهي من خلال الزهد والذكر والمحبة. وقد كان لهذا الاتجاه أثر عميق في الأدب العربي، خصوصاً في الشعر الذي وجد في التجربة الصوفية مصدر الهام فني وروحي معاً.

ومن بين الشعراء الذين تجلّى فيهم هذا الخطاب الصوفي الشاعر عبد الله بن محمد الصرصري (ت ٦٥٦هـ)، الزاهد وأحد أعلام المديح النبوي في العصر العباسي المتأخر، فقد عبر في شعره عن تجربة وجدانية عميقة تمزج بين الزهد والمحبة النبوية، وتستمد روحها من القرآن الكريم والسنة النبوية، مما يجعل ديوانه وثيقة فنية تعبر عن أصالة التصوف الإسلامي في مضمونه وشكله. ينطلق هذا البحث من إشكالية أساسية مفادها:

(*) أستاذ الأدب والنقد المشارك - كلية الآداب - جامعة النيلين

كيف عبر الصرصري في ديوانه عن الخطاب الصوفي؟ وما هي أبرز مظاهره الدلالي ة والفنية التي تؤكد أصالة التصوف الإسلامي في شعره؟

وللإجابة على هذه الإشكالية قسم البحث إلى محاور رئيسة:

١/ مفهوم التصوف واشتقاقه اللغوي، مع مناقشة الآراء التي تربطه بالأصول المسيحية واليونانية وإثبات أن جوهره أساسي أصيل.

٢/ أصول الخطاب الصوفي في الفكر الإسلامي وعلاقته بالزهد والعبادة والتقوى.

٣/ تحليل نماذج مختارة من شعر الصرصري للكشف عن ملامح الخطاب الصوفي فيها من حيث الموضوع والرمز والصورة والإيقاع.

وتكمن أهمية هذا البحث في أنه يسعى إلى إبراز الطابع الروحي الأصيل للتصوف في الأدب العربي، من خلال شاعر جمع بين الالتزام الديني والعمق الوجداني، مما يجعل شعره مرآة صادقة للتجربة الصوفية الإسلامية في بعدها الإنساني والفني.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف العلمية والأدبية من أبرزها:

١ – تحليل الخطاب الصوفي في ديوان الصرصري من حيث المضمون الديني والبعد الروحي والجمالي.

٢ – إبراز أصالة التصوف الإسلامي في فكر الصرصري، وتوضيح الفرق بين التأثر الثقافي والتجذر الإيماني في تجربته الشعرية.

٣ – الكشف عن القيم الفنية والجمالية وكيفية توظيفه للرمز، والصورة، والإيقاع في شعر الصرصري لخدمة الفكرة الصوفية.

٤ – تتبع جذور المفاهيم الصوفية في الديوان وربطها بالمصادر الشرعية من قرآن وسنة.

٥ – إثبات أن الشعر الصوفي عند الصرصري لم يكن انحرافاً فكراً أو تأثراً بأصول أجنبية، بل امتداداً لروح الإسلام ومفهوم المحبة الإلهية النقية.

منهج البحث:

١/ المنهج الوصفي التحليلي: اتبع هذا البحث القائم على تحليل النصوص الشعرية في ضوء المفاهيم الصوفية والمرجعيات الإسلامية، وقد اعتمد الباحث على:

المنهج التاريخي: لتتبع نشأة التصوف وأصوله الفكرية، مع مقارنة الآراء حول اشتقاق الاسم ومصادره المحتملة (المسيحية، اليونانية، الإسلامية).

المنهج التحليلي الفني: لتحليل بنية الخطاب الصوفي في شعر الصرصري من خلال عناصر اللغة، والصورة، والرمز، والإيقاع.

المنهج الدلالي والسيميائي: للكشف عن المعاني العميقة التي تنطوي عليها الرموز الصوفية في الديوان.

وقد جمعت المادة العلمية من ديوان الصرصري، تحقيق الدكتور مخيمر صالح إضافة إلى المراجع الصوفية التي تضئ جوانب التجربة الروحية والفنية في شعره والبلاغية.

مفهوم التصوف:

اشتقاق الاسم:

اختلف مؤرخو الأدب والفلسفة في وجه اشتقاق كلمة "صوفية" ووضعوا لذلك نظريات كثيرة قام الدليل على نقض أكثرها، ولم يسلم أقلها من التشكيك، وفي ما يلي استعراض موجز لهذه الوجوه:

١/ ذهب قوم إلى أنه من "الصُوفانة" وهي بقلة زغباء (ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٣) قصيرة، ونُسبوا إليها لاجتزائهم (لاكتفائهم) بنبات الصحراء، وهذا غلط، لأنهم لو نُسبوا إليها لقيل للواحد منهم صوفاني.(ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٣، الزبيدي، ١٣٠٦هـ/١٣٠٧هـ، ١٧٠)

٢/ وزعم آخرون أنه مشتق من "الصف الأول" انتساباً إلى أولئك الذين كانوا يحافظون على الصلوات في جميع أوقاتها ويأتون مبكرين إلى المساجد ليتمكنوا من الجلوس في الصف الأول، وقد رووا أن أبا مالك بشر بن الحسن لزم الصلاة في الصف الأول خمسين سنة وسمي من أجل ذلك "الصفي"(الزبيدي، ١٣٠٦هـ/١٣٠٧هـ، ١٦٧. Enc. Isl, 681) وأظن أن هذا خطأ أيضاً.

٣/ وقال غيرهم: بل هي "صوفي" بالبناء للمجهول من "صافي"، ولا ريب في أن ثمة جناساً شبه تام بين صوفي وصوفي في حال الوقف عليهما كليهما. ولعل اكتشاف هذه الصلة قديمة قدم شيوع هذا الاسم أي قبل تمام القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي. (ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٣) إلا ابن خلدون يرى مع القشيري أن رجوع الصوفية إلى الصفاء بعيد من جهة الاشتقاق اللغوي. (ابن خلدون، ١٩٠٣م، ٤٦٧)

٤/ واقترح بعضهم أن يكون الاسم مشتقاً من "صوفة القِفا" وهي الشعرات النابتة في مؤخرة (مؤخر القفا)، كان الصوفي عُطف به إلى الحق وصرف عن الخلق. (ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٣)

٥/ ورأى غير هؤلاء أن الاسم مشتق من "صوفة"، رأى المتصوفة أن أول من انفرد بخدمة الله عند بيته الحرام رجل كان يقال له صوفة، واسمه الغوث بن مر ابن ادّ. فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله. أما سبب تسمية الغوث بن مر "صوفة" فراجع إلى أن أمه نذرته لله وعلقت في رأسه قطعة صوف، أو أنها نذرته لله ثم جعلته ربيطاً للكعبة، وأنها مرت به في يوم شديد الحر فوجدته قد سقط واسترخى، فقالت: ما صار ابني إلا صوفة. (ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧١-١٧٢. الزبيدي، ١٦٩)

٦/ وساق بعض الرواة "اسم صوفة" سياقة مختلفة، قالوا: كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية، ثم أن كلمتي صوفة وصوفان تطلقان على كل من ولي أمر البيت الحرام شيئاً من غير أهله تطوعاً منه، أو قام بشيء من أمر المناسك. (ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٢)

٧/ وذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصُفة. والصفة هذه بهو واسع طويل السمك (أي عالي السقف). أما أهل الصفة أنفسهم فقد جاء ذكرهم في الحديث الشريف وهم نحو تسعين نفراً من فقراء المهاجرين – وهم المسلمون الأولون من أهل مكة الذين هاجروا من مكة إلى المدينة – وممن لم يكن منهم منزل يسكنه، كانوا يبيتون في مسجد رسول الله (ﷺ) وكان يُقلون تارة ويُكثرون تارة – أي

يغنون ويفتقرون. وقال السهروردي في عوارف المعارف (١: ٢٠٤): كانوا نحواً من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر فجمعوا أنفسهم في المسجد.

وحياة أهل الصفة هؤلاء كانت شديدة الشبه بحياة المتصوفين لملازمة الفقر والانقطاع إلى الله، كانوا يعيشون في الصفة لا يفكرون بأمر دنياهم، وكان الموسرون من المسلمين يوصلون ما استطاعوا من خير.. وروى عن أبي ذر الغفاري قوله: كنت من أهل الصفة، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله، فيأمر كل رجل (موسر من أصحابه) فينصرف برجل (منا)، فيبقي من بقي من أهل الصفة عشرة أو اقل فيؤثرنا النبي بعشائه فنتعشى. فإذا فرغنا قال لنا رسول الله: ناموا في المسجد. (ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٢-١٧٣. الزبيدي، ١٣٠٦هـ/١٣٠٧هـ، ١٦٦-١٦٧. السهروردي، ٢٠٥-٢٠٦)

على أن ابن الجوزي يقول أن نسبة الصوفية إلى أهل الصفة خطأ لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفي. (ابن خلدون، ١٩٠٣م، ١٦٧) ولكن الزمخشري يجد لذلك تخريجاً فيقول: قيل مكان الصُفية الصوفية بقلب إحدى الفاءين واواً للتخفيف. (الزمخشري، ١٣٤١هـ/١٩٢٢م، ٣٢)

٨/ وأحب بعض الغربيين أن تكون كلمة "صوفية" العربية مأخوذة من كلمة "سوفيا" اليونانية (وسوفيا: الحكمة). على أن المستشرق تيودور نولدكه رد هذا الزعم إذ لاحظ السيغما (السين اليونانية) تقلب عند التعريب سيناً لا صاداً (فروخ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ٢٢) فنحن نقول في "فيلوسوفيا" فلسفة لا فلصفة. (فروخ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ٢٢)

٩/ ولعل أكثر ما اطمأن إليه مؤرخو الفلسفة الإسلامية من الشرقيين والغربيين أن كلمة "تصوف" مشتقة من "الصوف" الذي هو لباس العباد وأهل الصوامع(ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٣) على أن ابن الجوزي عد ذلك محتملاً، وإن كان قد قَبِل اشتقاق "الصوفية" من "صوفة القفا".(ابن الجوزي، ١٩٢٨م، ١٧٣) وأنكر ابن خلدون اشتقاق الاسم من الصوف ضرورة وجارى القشيري في ذلك لأن المتصوفة لم يختصوا بلبس الصوف دون غيرهم. ثم أنه عقّب على ذلك بقوله: والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنّه من الصوف – وهم في الغالب مختصون بلبسه – فلما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. (ابن خلدون، ١٩٠٣م، ٤٦٧) وكذلك يرى السراج الطوسي أنهم نسبوا إلى "الصوف" لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين. (الطوسي، ١٩١٤م، ٢١)

ويرى الكلاباذي أن يفسر هذه الأسماء تفسيراً رمزياً، فاسم الصوفية مشتق عنده من الصف الأول؛ ذلك لأن الصوفية "في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتقاء هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه".(الكلاباذي، ١٣٠٥٢هـ/١٩٣٣م، ٥) وأما اشتقاق اسمهم من "الصُفّة" فلأن صفاتهم تشبه صفات أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول (ﷺ). فباشتقاق الاسم من الصفة نكون قد عبّرنا عن أسرار الصوفية وبواطنهم (الكلاباذي، ١٩٣٣م، ٥-٧) وباشتقاقه من الصوف تكون قد دللنا على ظاهر أحوالهم. (الكلاباذي، ١٩٣٣م، ٥)

مصادر الصوفية:

إن الحديث عن مصادر الصوفية مثله مثل الحديث عن مصادر أي حركة أخرى، فهو أمر صعب؛ لأن البحث عن مصادر كل وجه من وجوه النشاط الإنساني في مظهره الروحي يجب أن يرقى في الحقيقة إلى مبدأ الوجود الإنساني نفسه ومصادر التصوف الإسلامي إسلامية لاشك في ذلك؛ لأن التصوف الإسلامي نشأ في بيئة إسلامية؛ ولكن بما أن أي حركة لا تكون خالية من المؤثرات الأجنبية فإن التصوف كذلك لم يكن خالصاً من عناصر ليست من جنس الإسلام "وقد اقتضى وجودها في التصوف الإسلامي أن كثيرين من المتصوفة، كانوا غير عرب فحملوا معهم إلى الإسلام تخيلات غريبة ورياضات شاذة، واعتقادات متفرقة دخل أكثرها فيما بعد في التصوف الإسلامي.. ولكنها لم تكن الأساس الذي قام عليه التصوف الإسلامي، ولا أنها دخلت في التصوف مرة واحدة، ولكنها تسربت إلى المتصوفين شيئاً بعد شئ في أزمة متطاولة.."(فروخ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م،٢٧-٢٨)

ويمكن أن نذكر أهم مصادر التصوف من العناصر الأخرى:

١/ المصدر المسيحي:

إن الزهد نفسه إسلامي، ولكن الإيغال في التبتل كاعتزال العالم والانقطاع عن التناسل وقهر الجسد بالتقشف أمر تشرك المسيحية فيه الهندوكية. وليس هنالك بأساً أبداً في أن يكون الزهاد المسلمون قد تأثروا بالرهبان النصارى بعض التأثر فإن القرآن الكريم يمدح النصارى الأولين مدحاً طيباً(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (المائدة، ٨٢). (الكلاباذي، ١٣٠٥٢هـ/١٩٣٣م، ٥)

ولقد أشار نيكلسون (Mystics, 1914, 111-112) إلى هذا العنصر إشارة نشرحها فيما يلي:

أ/ حينما يزعم بعضهم (La Syrie, 1921, 178) أن متصوفة الإسلام قلدوا الرهبان النصارى فيجب أن نفهم من ذلك أنهم شركوهم في رفض الدنيا وفي التقشف وفي ترك الناس إلا قليلاً وفي التعبد، وتلك كلها شائعة في زهد الأمم جميعها، ثم أن المتصوفة المسلمين خالفوا الرهبان في الزواج وامتهان الأعمال والتظاهر أحياناً بإتيان المعاصي وبسعة الصدر في قبول أشكال الأديان المختلفة كقول محي الدين بن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دان
فقد صادر قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان وديرٌ لرهبان
وبيت لنيران وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّي توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني

وليس هذا التساهل من النصرانية في شيء. أضف إلى ذلك كله أن المتصوفين الذين قلدوا النصارى كانوا لدى رفاقهم موضعاً للذم. (الطوسي، ١٩١٤م، ٤١٥) إن هذا يدل على شيء من الأثر في بعض المتصوفين ولكنه ليس عنصراً في التصوف نفسه، لأنه كان مكروهاً.

ب/ وزعم قوم أن "الحب" في التصوف الإسلامي مأخوذ من "الحب المسيحي"، وهذا مردود بنقد أدلتهم. يزعمون أن عنصر الحب مفقود في القرآن الكريم ولكنهم مخطئون. لقد جاء في القرآن الكريم: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران، ٣١) وقال أيضاً: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة، ٥٤) وجاء فيه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) (البقرة، ١٦٥) فعنصر "الحب" إذن موجود في القرآن الكريم والدين الإسلامي، والمتصوف المسلم لا يحتاج إلى أخذه من النصرانية.

والحب قاصر عندهم على الأقنوم الثاني من الثالث يتعبد فيه متصوفهم لصفات المسيح ويحب أن يتقلب في آلامه، أما في الإسلام فإنه "طريق" يدّعي الصوفي أنه يحصل به على الاتحاد مع الله أو الفناء في ذات الله، وعلى ذلك قول ابن الفارض:

وإذا اكتفى غيري بطيف خياله فأنا الذي بوصاله لا اكتفى

ج/ أما ما ينسب إلى المسيح عليه السلام عندهم من حياة صوفية فلا يمكن أن نقبله في هذا الموضوع، أنه تقشف وزهد لا تصوف، وإذا أيقنا مع جميع المتصوفة في جميع الأمم أن غايتهم القصوى إنما هي الاتصال بالله فإننا لا نرى منطبقاً على المسيح، لأنهم يعتقدون أن المسيح هو الله، وهذا يمنع الاتصال كما يفهمه الصوفية المسلمون. والإنصاف في شأن الإنجيل أنه يحث على الهرب من الدنيا في سبيل ملكوت الله المقبل. فالمسيح إذن ليس متصوفاً ولكنه هارب من تكاليف الحياة وحاث على الهرب منها. ولابد من الإشارة إلى أن النصرانية لا تشجع الإفراط في "الأحوال" الصوفية. (فروخ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ٣٠)

د/ وحينما يشير متصوفة المسلمين إلى قبول الآراء النصرانية أو إلى آراء الإنجيل فإنهم يشيرون إليها على أنها صورة مخصوصة.

يعتقد المسلمون أن عيسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل نزل عليه نفسه الإنجيل كما نزلت التوراة على موسى والقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم. والمعروف اليوم أن الأناجيل الأربعة التي أقرتها الكنيسة وقبلتها قد كتبها تلاميذ المسيح بعد ارتفاعه بزمن يتراوح بين سبع سنوات وأربعين سنة. وهكذا نجد خلافاً بين ما قبلته الكنيسة وبين ما يقبله المسلمون. ولقد أشار السراج الطوسي إلى ذلك على وجه الحصر فقال: وقد غلطت جماعة من البغداديين في قولهم أنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤدي إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام. (الطوسي، ١٩١٤م، ٤٣٣. السهروردي، ٢٤٢)

فالخلاصة إذن أن التصوف الإسلامي لم يستمد من النصرانية شيئاً ما ولكنه تشارك معها في أمور عامة في الديانات كلها.

٢/ المصدر اليوناني:

على أنه من المحتمل أن يكون المسلمون قد تأثروا بالاتجاه الفلسفي الذي ساد العقل اليوناني. بدأ التصوف الإسلامي بداية دينية فكان إسلامياً محضاً. ثم أن المتصوفة تطلبوا اطمئناناً عقلياً وتأويلاً فلسفياً لما يعتريهم من "الأحوال" فوجدوا ما أرادوه في الفلسفة اليونانية وفي التفكير الهندي، تسرب إليهم عن طرق مختلفة، واليك أهم ما استقوه من الفلسفة اليونانية مباشرة أو غير مباشرة:

أ/ لعل أقدم من يصح الاستشهاد به في هذا المقام فيثاغورس (القرن السادس ق. ب) فلقد كان له اتجاه صوفي مع تقشف عُرف به. وكان له رأي في اتصال النفس بالملأ الأعلى ذكره ابن أبي أصيبعه، هو: "أن فوق عالم الطبيعة عالماً روحانياً نورانياً لا يدرك العقل حسنه وبهائه، وأن النفس الذكية تشتاق إليه. وأن كل إنسان أحسن تقويم نفسه بالتبرؤ من العجب والتجبر والريا والحسد وغيرها من الشهوات الجسدانية فقد صار أهلاً أن يلحق بالعالم الروحاني ويطلع على ما شاء من الحكمة الأزلية، وأن الأشياء الملذة للنفس تأتيه حينئذ إرسالاً كالألحان الموسيقية إلى حاسة السمع فلا يحتاج إلى أن يتكلف لها طلباً." (ابن أبي أصيبعه، ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، ٣٧. الشهرستاني، ١٣١١هـ، ١٧٣)

ب/ وقد ساعد التفلسف الصوفي رأي كزانوفانس (٥٧٠ – ٤٨٠ ق. م) وكان يرى أن الله هو النظام الأزلي للعالم؛ بل يرى الله نفسه هو العالم. ولم يكن الله عنده روحاً فقط ؛ بل جارى قومه اليونان في اعتقادهم "المادي" من أن الله هو هذه الطبيعة الحية المفكرة. فهو إذن "شمولي" يرى الله غير متناه، بمعنى أنه ليس ثمة ما عداه. (فروخ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ٣١)

ج/ أما أفلاطون (ت ٣٤٧ ق. م) فيجب أن نتكلف إيجاد صلة بينه وبين التصوف. أن اعتقاده "بالنفس الكلية" أو "نفس الكل" وكذلك تعليله اتصال النفس (العاقلة) بالجسد ثم أخذه بفكرة التناسخ – كما كان يرى الهنود – أمور كلها توهم شبهاً بين آرائه وبين آراء المتصوفة. وإذا تدبرنا رأيه في النفس خاصة وأن لنفس كانت قبل اتصالها بالجسد في عالم الصور المطلقة "في الملأ الأعلى" – في الله – ثم أنها هبطت إلى هذه العالم، وأنها تعرف الأمور الموجودة هنا عن طريق "تذكرها" ما رأت في الملأ الأعلى، إذا علمنا هذا كله زاد توهمنا للشبه بين فلسفة أفلاطون وبين التصوف. (Thilly, 1924, 67. Ueberweg, 1928, 335)

د/ ولا شك في أن الرجوع بالتصوف إلى أرسطو (٣٨٤–٣٢٢ ق. م) أقرب إلى الحقيقة من الرجوع به إلى أفلاطون: أن الله عند أرسطو هو السبب الغائي الذي ينجذب إليه العالم بالضرورة طلباً للكمال، وأن جميع ما في العالم من حياة: من نبات أو بهيم أو إنسان تتوق إلى تحقيق ذاتها بسببه، وكل شئ ممكن الوجود متحقق فيه، أنه منزه عن كل ألم أو عاطفة وعن كل رغبة أو حاجة – بالمعنى الذي نعرفه بين البشر -، أنه كل ما يتوق الفيلسوف أن يكون. (Thilly, 1924, 89; Ueberweg, 1928, 383; Fuller, 1938, 150-2. Enc. Isl. IV 684 b. c.) وهذا ما يود الصوفي أن يكون خليقاً به، "بالجذب" الذي يمكنه من تحقيق ذاته في الله من الاتصال به.

هـ/ وفي المذهب الاسكندراني (الأفلاطونية الجديدة) مصدر يمكن أن ترجع إليه بعض ألوان الصوفية. أن أشهر رجال هذا المذهب الفلسفي الذين شهدوا الحياة بين عام ١٢٥ و٤٨٥ بعد الميلاد قد حاولوا

أن يوجدوا فلسفة مسيحية على أسس الفلسفة اليونانية، والأفلاطونية منها على الأخص. والحقيقة أن أهل هذا المذهب استخدموا كل ما وجدوه عند فلاسفة اليونان لنصرة الديانة النصرانية، وقد نظم هذا المذهب رجل منهم اسمو فلوطن (٢٠٤ – ٢٦٩م).

يرى أهل هذا المذهب أن الله هو الأول والآخر، منه يصدر كل شئ، وأن الاتصال بالله والفناء فيه هو الهدف الحقيقي لجهودنا وسعينا. أنه الواحد الذي يشمل كل شئ، أنه غير متناه، أنه العلة الأولى التي لا علة لها، منه يصدر كل شئ ويفيض. أن الله منزه عن كل صفة نريد أن نصفه بها، أنه أسمى من الجمال الحقيقة والخير والشعور والإرادة لأن هذه جميعها منه. ومع أن العالم منه فإنه لم يخلقه – تعالى الله عن قولهم – أنه لو خلقه لكن ذلك يقتضيه شعوراً وإرادة. أن العالم فيض من الله. فهو الينبوع الذي تتدفق منه المياه من غير أن ينفذ والشمس التي يشع منها النور من غير أن تنقص.

ويأتي فلوطن إلى "النفس الإنسانية" فيرى فيها رأي أفلاطون من أنها كانت أولاً في الملأ الأعلى ثم هبطت وأصبحت أيضاً خاضعة للتناسخ في البشر والبهائم والنبات. إلا أن هذه النفس في حياتها الأرضية تحاول الاتجاه من عالم الحس إلى الله والرجوع إليه. وهذا لرجوع ممكن في أثناء الحياة الدنيا وإن كان نادراً، وكي تستطيع النفس أن تبلغ هذه المنزلة يجب عليها أن تتحرر من شهوات الحياة، وأن تدمن التأمل في الله، ثم أن تدخل في حال من الذهول فيتم لها الاتصال بالعالة الأولى – بالله، فتخسر حينئذ وجودها الجزئي وشعورها الشخصي وتشعر بالسعادة والاطمئنان لأنها أصبحت مع الله شيئاً واحداً. ويذكرون أن فلوطن بلغ هذه المرتبة – الاتصال – أربع مرات على الأقل. (Thilly, 1924, 126; Ueberweg, 1928, 608; Enc. R. E. 1926, 86. Goldz, 1928, 154)

ولا شك في وجود العنصر الصوفي في فلسفة فلوطن وأتباعه. ولكن ما علاقة ذلك بالتصوف الإسلامي؟

يتفق فلوطن ومتصوفو الإسلام في "رياضة النفس" للاتصال بالله وفي اشتراط الذهول لحدوث ذلك، ويتفقون أيضاً في النظرة الشمولية. وربما جاز لنا أن نقول إنهم اتفقوا في نظرهم إلى الفيض والإشراق والمعرفة والسكر. ولكن هنالك أموراً كثيرة افترقوا فيها.

إن متصوفي الإسلام لا يقرون فلوطن على قبول الوثنية التي تلقاها أتباعه، والتي أخذتها فيما بعد النصارى، ولا فيما اخترعه أتباعه من الخرافات المبنية على الوثنية، ويخالفونه أيضاً في قبوله تعدد الآلهة. وكذلك يخالفونه في قبول نظرية التناسخ وهي التي بني عليها التصوف الهندي: ويفترق متصوفة الإسلام عن فلوطن في فهم "الاتصال"، فهو عند فلوطن كما عند الهنود سلبي غير شخصي، بينما هو في الإسلام ايجابي شخصي.

ثم أن التصوف الذي قبله فلوطن وأتباعه يخالف التصوف المسيحي أيضاً، بل لعل الخلاف بينهما شديد بالغ أكثر مما نتخيل، ذلك لأن العقل اليوناني – والعقل الغربي عموماً – كثير الميل عن هذه "الأحوال" الروحية، بل هو ينفر منها. (Enc. R. E. 1926, 316)

أما وقد أيقنا إلا أن التصوف الإسلامي يخالف التصوف النصراني المحض، وأن هذين يخالفان التصوف كما ترآءى لفلوطن وأتباعه، فقد بقي علينا لن نعرف من أين يأتي الشبه بين هذه الأنواع الثلاثة من التصوف. والجواب على ذلك موجز فيما يلي:

أن التصوف شرقي لا غربي، وآسيوي لا اوروبي، وليس لنا مفر من القول بأن النصرانية وفلوطن والمسلمين قد استمدوا جميعهم من مصدر واحد أو مصادر متفرقة، ثم تبنوا بعدئذ ما راقهم: لقد استمدوا جميعاً من الشرق. ولا تستغرب ذلك فإن النصرانية لما وردت على الصين (القرن الثامن للميلاد) نظر إليها الصينيون عليها "دين بوذي" محور، وأما أفلاطون فكان همه مزج الفلسفة اليونانية بالدين الشرقي.

ويرد نيكلسون على الذين يريدون أن يبالغوا في أثر المصدر اليوناني في تطور التصوف في الإسلام فيقول: أن المصدر الهيليني (اليوناني المتأخر) ليس المصدر الأوحد ولا المصدر الأشد بروزاً في تطور التصوف. ولكن يظهر أن ناحية الحب الإلهي في التصوف الإسلامي راجعة إلى "نظر" يوناني. (فروخ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، ٣٤)

الدراسة التطبيقية

الخطاب الصوفي في ديوان الصرصري*

يُعدُّ ديوان **محمد بن عبد الله الصرصري** من أبرز النماذج الشعرية في المديح النبوي والصوفي في العصر العباسي، إذ يجمع بين حرارة الإيمان وصدق التجربة الروحية. وتقوم هذه الدراسة التطبيقية على تحليل نماذج مختارة من شعره للكشف عن ملامح **الخطاب الصوفي** من حيث البنية اللغوية والدلالية والرمزية، وذلك من خلال تتبّع **تجلّيات المحبة الإلهية، والفناء، والزهد، والاقتداء النبوي** في شعره. وتهدف الدراسة إلى بيان كيف تحوّل المديح في ديوان الصرصري من مجرّد مدحٍ لفظي إلى **تجربة وجدانية عميقة** تعبّر عن تفاعل الشاعر مع المعنى الإلهي، وتكشف عن **البنية الصوفية للغة الشعرية** في بعدها الروحي والفني، مما يجعل شعره حلقةً واصلة بين التصوف العباسي الأول والنزعات الروحية في الشعر الإسلامي اللاحق.

تقوم النماذج الشعرية المختارة من **ديوان الصرصري** بدورٍ تمثيليٍّ لطبيعة الخطاب الصوفي في شعره، إذ تعكس تجربةً وجدانيةً خالصة تتجه نحو **تزكية النفس والتوجّه إلى الله تعالى** عبر المحبة والذكر والاقتداء بالنبي (ﷺ)

* الصرصري هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الصرصري الحنبلي (توفي سنة٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م قرب بغداد واشتهر بورعه)، شاعر وعالم فقيه من أواخر العصر العباسي، ولد في بلدة الصرصر وكان من أبرز شعراء المديح النبوي والتصوف وزهده وغزارة علمه في زمانه جمع في شعره بين الالتزام الديني والصدق الوجداني، وتميز أسلوبه بالعفة والصفاء اللغوي، وكثرة الاستشهاد بالقرآن والسنة، ومن أشهر مؤلفاته ديوان الصرصري الذي حققه الدكتور مخيمر صالح مخيمر، ويعد من أهم مصادر الشعر الصوفي في القرن السابع الهجري. انظر: ديوان الصرصري، تحقيق مخيمر صالح مخيمر، دار البصائر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

ويأتي هذا التحليل في إطارٍ يروم الكشف عن **البنية الدلالية والرمزية** للنصوص، وذلك بتتبّع العلامات الصوفية التي تتكرّر في شعر الصرصري كرموزٍ للصفاء الروحي والفناء في المحبوب الإلهي.

وتسعى القراءة التطبيقية إلى إظهار كيف تتكوّن في هذه النصوص **لغة روحية خاصة** تتجاوز المعنى الظاهر إلى **فضاء التأمل والوجد**، وتعبّر عن رؤيةٍ إنسانيةٍ ترى في التصوف سبيلًا للسمو الأخلاقي والاتحاد بالمعنى الإلهي.

النّص الأول: يقول الصرصري: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٢٧٩)

تواضع لرب العرش علّك تُرفع لقد فاز عبد للمهيمن يخضع
وداو بذكر الله قلبك إنه لأعلى دواء للقلوب وأنفع
وخذ من تقى الرحمن أمناً وعُدّةً ليوم به غير التقى مروّع
وبالسنة المثلى فكن متمسكاً فتلك طريق للسلامة مهيع
هي العروة الوثقى وحجة مقتد نبُّت بها أسباب من هو مبدع

ملامح الخطاب الصوفي في الأبيات:

النص يحمل حضوراً واضحاً للصوفي من خلال عناصره الأساسية، أبرزها:

١/ التواضع والخضوع لله:

قول الشاعر: "تواضع لرب العرش علّك تُرفع" و"لقد فاز عبد للمهيمن يخضع" يعكس مركزية الخضوع والعبودية، وهما أساسان في التجربة الصوفية.

٢/ الذكر كطريق للشفاء الروحي:

قوله: "وداو بذكر الله قلبك" يبرز مفهوم الذكر كوسيلة للتطهير والارتقاء، وهو ركن أصيل في الممارسة الصوفية

٣/ التقوى كزاد للسير إلى الله:

"وخذ من تقى الرحمن أمناً وعُدّةً" يشير إلى مفهوم "السير والسلوك" القائم على المجاهدة والتقوى.

٤/ الطريق والمنهج الروحي:

"وبالسنة المثلى فكن متمسكاً" "فهي العروة الوثقى" يربط بين السلوك الصوفي والاقتداء بالسنة. باعتبارها سبيل النجاة

الخلاصة: الأبيات تمزج بين التزكية، السلوك، الذكر، والتواضع وكلها مرتكزات صوفية واضحة

النص الثاني: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٥١)

خذ للحجاز إذا مررت بركبه منّي تحيّة مخلص في حبّه
واسأله هل حيّا مرابعه الحيا وكسا الربيع شعابه من عشبه
واستمل من خير الصبالاخ الهوى ما صحّ من إسناده عن هضبه
فلنشر أنفاس النسيم عبارةٌ في رمزها معنىً يلذ لقلبه
يغريه مسراها بأيام الحمى إذ كان منشأ عرفها من تربه

ولعمرهـــا لـــولا تـــذكر عهـــده فيهـــا لمـــا عبـــث النســـيم بلبـــه
هـــل لـــي إلـــى لـــيلات مجتمـــع المنـــى بمنـــىً رجـــوعٌ اســـتلذ بقربـــه
ويضـــمني وبنـــي الـــوداد بجـــوّه ســـربال وصـــل لا أراع بســـلبه
حلـــو الجنـــى فيـــه الأمـــان لمـــن جنـــى وبـــه الكرامـــة والرضـــا لمحبـــه

ملامح الخطاب الصوفي في الأبيات:

١/ الحنين إلى الأماكن المقدّسة

تعكس شوق السالك إلى مواضع تجليات القرب الإلهي الإشارة إلى الحجاز، الربوع، منى.

٢/ الرمزية الروحية:

مثل قوله: "أنفاس النسيم عبارةٌ**" فالنسيم هنا رمز للنفحات الإلهية التي توقظ القلب**

٣/ تقديس الذاكرة الروحية:

"أيام الحمى" و"عهده فيها" الأبيات تعود إلى دلالة على مراحل صفاء روحي عاشها الشاعر

٤/ طلب الوصل والامان:

"**سربال وصل**.. فيه الأمان" يحيل إلى طلب السالك للطمأنينة والقرب والكرامة الروحية.

النص الثالث: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٣٧)

قـــد كـــف هـــوام لســـاني ويـــدي كـــم أخضـــع للعـــدا وأنـــتم عـــددي
أنـــتم أصـــل القـــرح الـــذي فـــي كبـــدي والبـــرء بأيـــديكم وكشـــف الضـــرر

ملامح الخطاب الصوفي في الأبيات:

في هذه الأبيات يبرز بوضوح خطاب صوفي قائم على الشكوى الروحية والاعتراف بالعجز، ويمكن استخراج عناصره:

١/ تعطيل الحواس عن الأذى:

قوله: و "قد كف هوام لساني ويدي" كفها عن الظلم، وهي قيمة صوفية يشير إلى مجاهدة النفس.

٢/ الانكسار والافتقار:

"كم أخضع للعدا" يعكس حالة التواضع والانكسار التي يعيشها السالك في طريقه.

٣/ الرؤية الباطنية للألم:

"أنتم أصل القرح الذي في كبدي" يجعل مصدر الوجع روحياً لا جسدياً وهو منحى رمزي صوفي.

٤/ طلب الشفاء من (الروحي الآخر):

"والبرء بأيديكم وكشف الضرر" يوحى بالتوجه لذوي المقام الروحي أو المعاني العليا طلباً للنجاة.

النص الرابع: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ١٦)

إن جـــذبت خـــدعها قلـــب فتـــىً ســـقته مـــن آفاقهـــا كـــأس الـــورى
أبـــرأ مـــن كـــل هـــوىً وفتنـــة إليـــك يـــا مـــن بهـــداه يقتـــدى
وأحمـــدُ الله إليـــك أننـــي أومـــن بـــالله الـــذي شـــاد العـــلا

وجعـــــل النجـــــوم فيهـــــا زينـــــة والنيـــــرين آيتـــــين للـــــورى
يســـــبح الأمـــــلاك فيهـــــا زمـــــراً مـــــن كـــــل مـــــأمون مطيـــــع مـــــا عصـــــى
وأرســـــل الريـــــاح فيهـــــا رحمـــــة وســـــخر الســـــحاب تهمـــــى بالحيـــــا

ملامح الخطاب الصوفي في الأبيات:

تحمل الأبيات خطاباً صوفياً واضحاً يقوم على الانتقال من غواية الدنيا إلى صفاء التوحيد، ويمكن استخراج ملامحه كالتالي:

١/ التبرؤ من الهوى الدنيوي:

"إن جذبت خدعها قلب فتىً" "أبرأ من كل هوىً وفتنة" يدل على التصور الصوفي لمجاهدة النفس والتخلي عن الغوايات.

٢/ العودة إلى الله والاقتداء بهداه:

إليك يا من بهداه يقتدى" خطاب توحيدي صوفي يعبر عن التوجه الكامل إلى الله.

٣/ تعظيم الخالق عبر التأمل في الكون:

ذكر النجوم، النيرين، الرياح، السحاب هو تجلٍّ لصنعة الله، وتأمل الكون ركن ثابت في التجربة الصوفية.

٤/ تنزيه الملائكة وتسبيحهم:

يضفي بعداً روحانياً يذكر بعالم الطهر والقداسة.

النص الخامس: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٢٢)

زار وهنـــــا ونحـــــن بـــــالزوراء فـــــي مقـــــام خـــــلا مـــــن الرقبـــــاء
مـــــن حبيـــــب القلـــــوب طيـــــف خيـــــال فجـــــلا نـــــوره دجـــــى الظلمـــــاء
يـــــا لهـــــا زورة علـــــى غيـــــر وعـــــد بـــــت منهـــــا فـــــي ليلـــــة ســـــراء
نعمـــــت عيشـــــتي وطابـــــت حيـــــاتي فـــــي دجاهـــــا يـــــا طلعـــــة الغـــــراء
يـــــا طـــــراز الجمـــــال يـــــا حلـــــة الـــــمجـــــد وتـــــاج الكمـــــال للعليـــــاء
يـــــا هـــــلال الســـــرور يـــــا قمـــــر الأنـــــس نجـــــم الهـــــدى وشـــــمس البهـــــاء
يـــــا ربيـــــع القلـــــوب يـــــا قـــــرة الـعـــــين وبـــــاب الإحســـــان والنعمـــــاء
يـــــا لبـــــاب المعنـــــى ونـــــور المعـــــاني يـــــا شـــــفاء الصـــــدور مـــــن كـــــل داء
إن يومـــــاً أراك فيـــــه ليـــــوم آرج النشـــــر ســـــاطع الـــــلألاء
كـــــم إلـــــى كـــــم أخفـــــي الإشـــــارة فـــــيمن فضـــــله ظـــــاهر بغيـــــر خفـــــاء
ســـــيد حبـــــه فخـــــار وتشـــــريـــــف وعـــــز بـــــاق لأهـــــل الصـــــفاء
أحمـــــد المصـــــطفى الســـــراج المنيـــــر الفـــــاتح الخيـــــر خـــــاتم الأنبيـــــاء
ولعمـــــري لـــــولا تقدمـــــه الأشـــــرف يرويـــــه ســـــادة العلمـــــاء

إنـــه واجـــب علـــى الكامـــل الإيـــمان تقـــــديم حبـــــه والـــــولاء
لعلـــى الأنفـــس العزيـــزة والمـــال جميعـــا والأهـــل والأبنـــاء
ارعـــدت دونـــه الفـــرائض إجـــلالا حبيـــب الـــرحمن رب الســـماء
أكـــرم العـــالمين أصـــلاً وفصـــلاً وجـــلالا وســـيد البطحـــاء
خـــص بالخـــاتم العزيـــز وشـــرح الصـــدر والقـــرب ليلـــة الإســـراء
والكتـــاب المبـــين والنصـــر بـــالرعـــب وريـــح الصـــبا علـــى الأعـــداء
ثـــم بـــالحوض والشـــفاعة فـــي الحشـــر لكـــل الـــورى ورفـــع اللـــواء
والمقـــام المحمـــود والســـبق للنـــاس دخـــولاً فـــي الجنـــة الفيحـــاء
ثـــم يعطـــى وســـيلة هـــي أعلـــى درجـــات الجنـــان دار البقـــاء
يـــا نبـــي الهـــدى عليـــك ســـلام يبقـــى غضـــاً علـــى الأنـــاء
وعلـــى صـــاحبيك ثمـــة صـــهريـــك وعميـــك الســـادة النـــبلاء
والصـــحاب الكـــرام خيـــر صـــحاب ناصـــري الـــدين بالقنـــا النجبـــاء
والحســـين الشـــهيد والحســـن المســـموم والبضـــعة الرضـــا الزهـــراء
وجميـــع الأزواج والتـــابعين الغـــر أهـــل الهدايـــة النصـــحاء
انـــت جـــاري وعـــدتي ونصـــيري وعمـــادي فـــي شـــدتي ورخـــائي
فـــاعى علـــي زمـــان فظيـــع الخطـــب فـــي أهلـــه شـــديد العنـــاء
وأســـأل الله حـــين تعـــرض أعمـــالي عليـــك الغفـــران لـــي يـــا رجـــائي

ملامح الخطاب الصوفي في الأبيات:

النص يحمل خطاباً صوفياً قوياً يتجلى في محبة رسول الله (ﷺ) وتمجيده، وهو محور مركزي في التجربة الصوفية. ويمكن استخراج أبرز مظاهر الخطاب الصوفي فيه:

١/ الزيارة الروحية الطيف النوراني:

وصف "طيف خيال فجلا نوره دجى الظلماء" تصوير صوفي للحضرة المحمدية كنور يبدد الظلمة.

٢/ التعظيم الروحي للنبي:

النداءات المتكررة: يا ربيع القلوب، يا شفاء الصدور، يا طراز الجمال. كلها تعبر عن مقام روحي يتجاوز الوصف البشري.

٣/ الإشارة والرمز:

قوله: "كم أخفى الإشارة" يدل على خطاب رمزي باطني، وهو سمة صوفية عامة.

٤/ مفهوم الوسيلة والشفاعة والمقام المحمود:

هي محاور صوفية واضحة في الارتباط الروحي بالنبي (ﷺ).

٥/ التوسل واللجوء:

يقول الشاعر: "أنت جاري وعدتي ونصيري.. وأسأل الله.. الغفران لي يا رجائي" يظهر الاعتماد الروحي والرجاء المحمدي.

النص السادس: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٣١١)

فيـــا رب قـــد عـــودت وجهـــي صـــيانة وأهلـــي غنـــى والقلـــب منـــك تعففـــا
فزدنـــي وأهلـــي مـــن صـــنيعك نعمـــة تـــدوم وصـــني واكـــف يـــا خيـــر مـــن كفـــى
وصـــلني ولا تقطـــع بلطـــف ورحمـــة فلســـت أبـــالي إن وصـــلت بمـــن جفـــا

ملامح الخطاب الصوفي في النص:

تحمل هذه الأبيات روحاً صوفية واضحة تميل إلى التوجه العميق إلى الله بالافتقار والطلب، ومن ذلك:

١/ الافتقار إلى الله والاكتفاء به:

"والقلب منك تعففا" وهو جوهر السلوك الصوفي يعتبر عن تجرد القلب من التعلق بغير الله.

٢/ طلب الزيادة من النعمة الروحية:

"فزدني وأهلي من صنيعك نعمة تدوم" عند الصوفية "المدد" يجسد معنى الدعاء.

٣/ الالتجاء إلى الحفظ الإلهي:

"وصني واكف يا خير من كفى" دعاء يحضر كثيراً في مناجاة السالكين.

٤/ عدم الاكتراث بصدود الخلق:

"فلست أبالي إن وصلت بمن جفا" يعكس التعلق بالله وحده دون الالتفات لرضا الناس.

النص السابع: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٤٠٧)

ســـلكت طريـــق الفقـــر ظنـــا بـــأنني أضـــاهي جنيـــداً أو أناســـب معروفـــا
وكنـــت أديبـــا قبـــل ذلـــك شـــاعرا أروق الـــورى نظمـــاً ونثـــراً وتأليفـــا
فهمـــت أعـــارض الخليـــل بـــن أحمـــد وبـــرزت فـــي نحـــوي قياســـا وتصـــريفا
وباحثـــت فـــي الفقـــه الأئمـــة برهـــة وأتقنـــت فـــي القـــرآن همـــزا وتخفيفـــا
وطارحـــت فـــي علـــم الحســـاب فنلتـــه وبينـــت فـــي الألفـــاظ همـــزا وتصـــحيف
وفارقـــت إخـــوان الصـــفا متجنبـــا وثقفـــت نفســـي فـــي الرياضـــة تثقيفـــا
فلـــم أر لـــي كالصـــالحين وســـيلة ألـــذ الـــورى عرفـــا وأطيـــب معروفـــا
رجـــال إذا مـــا طبـــق الأرض حـــادث رمـــوه بصـــدق العـــزم فانجـــاب مكســـوف
هـــم العـــروة الـــوثقى وهـــم أنجـــم الهـــدى بهـــم يحفـــظ الله المهامـــه والســـيفا

تمثل الأبيات خطاباً صوفياً ناضجاً يقوم على السيرة الروحية للشاعر وانتقاله من علوم الظاهر إلى سلوك الفقر والصفاء، ويمكن استخراج أبرز ملامح الخطاب الصوفي فيها:

ملامح الخطاب الصوفي في النص:

١/ التحول من علوم الظاهر إلى علوم الباطن:

الشاعر يذكر تفوقه في العروض، النحو، الفقه، القرآن الحساب، ثم يقول: "إلى أن أملت بي من الفضل نفحة"، هو إذ يعكس التحول الصوفي المعروف بالانتقال من "العلم" إلى "الحال".

٢/ سلوك طريق الفقر الروحي:

"سلكت طريق الفقر" يشير إلى الفناء عن شواغل الدنيا وهو أحد مسالك التصوف.

٣/ الابتعاد عن الناس بعد المجاهدة:

ترك أخوان الصفا وملازمة العبادة والزهد من أبرز سمات السالك.

٤/ الابتلاء بالناس بعد السلوك:

لوم الناس، انصراف الأحباب، اتهامات بالبدعة، كلها محن يصفها الصوفيون بأنها تمحيص للقلوب.

٥/ البحث عن الأولياء والصالحين:

وفي ختام المقطع يشير إلى أن "الصالحين وسيلة" ويصفهم بـ"أنجم الهدى" و"العروة الوثقى" وهذه صور صوفية خالصة تعكس التعلق بأهل الله.

الخلاصة: النص يعرض تجربة صوفية كاملة

علم ← فقر ← مجاهدة ← ابتلاء ← تجريد ← التفات للأولياء

النص الثامن: (الصرصري، ٢٠٠م، ٣٢٥)

ما هز البرق سيفه أو ضحكا إلا وتذر الحمى ثم بكى

يقفو أثر الغرام أني سلكا إما المأمول أو ذهاب العمر

ملامح الخطاب الصوفي في النص:

يظهر في هذه الأبيات خطاب صوفي مختصر لكنه عميق يقوم على تصوير الغرام الروحي وما يترتب عليه من وجد وحزن وفقد.

١/ رمزية الطبيعة للتجليات الروحية:

"ما هز البرق سيفه إلا وبكي" البرق هنا رمز للمعنى الخاطف الذي يلمع في القلب ثم يورث شوقاً.

٢/ الحمى بوصفها حرارة العشق:

ذكر الحمى يشير إلى لهيب المحبة الصوفية التي تلازم السالك.

٣/ السير خلف الغرام الروحي:

"يقفو أثر الغرام أني سلكا" يعبر عن إتباع القلب لمحبوبه الإلهي دون تخلف.

٤/ ثنائية الرجاء والضياع:

إما المأمول أو ذهاب العمر" تعكس حال السالك بين أمل الوصول وخوف الفوات.

النص التاسع: (الصرصري، ٢٠٠م، ٣٢٧)

لله فتى مزق ثوب السلوى ثم أدرع الصبر لحمل البلوى

ما أظهر من شدة وجد شكوى قد باع لذاذة الكرى بالسهر

تحمل هذه الأبيات خطاباً صوفياً واضحاً يقوم على تصوير حال السالك الذي فارق الدنيا واشتغل بالمجاهدة والجد، ومن أبرز ملامح الخطاب الصوفي في النص:

١/ ترك السلوى الدنيوية:

"مزق ثوب السلوى" هو أول طريق السالكين إشارة إلى التخلي عن أسباب الراحة ولذات الدنيا.

٢/ الاحتمال والصبر:

"أدرع الصبر لحمل البلوى" تصوير الصبر الصوفي على الابتلاءات في سبيل الوصول.

٣/ الوجد الصامت:

"ما أظهر شكوى" يدل على كتمان الوجد وعدم بثه للخلق، وهو أدب صوفي معروف.

٤/ السهر في العبادة:

"باع لذاذة الكرى بالسهر" إشارة إلى قيام الليل ومجاهدة النفس.

النّص العاشر: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٢٦٦)

إن بان من تهوى وأنت مثبط وصبرت لا تبكي فأنت مفرّط
فاحلل عقود الدمع في دار الهوى فلها البكاء عليك حقاً يُشرط
طلّ الدموع على ثرى الأطلال في شرع الغرام فريضةٌ لا تسقط
دار عكفت بها وفودك فاحمٌ افتنتني عنها ورأسك اشمط
وإذا تمكنت الصبابة من فتىً لم يلو عطفيه مزارٌ يشحط
كيف التسلي عن هوى قمر له في القلب مني منزل متوسط
أرضي بما يختاره طوعاً ولو أضحى بما أرضى به يتسخّط
لم أنسه يوم التقينا بأسما والصدر بالأشجان مني ينحط
ففهمت من ذُلي لديه وعزّه أن الجمال على القلوب مسلّط
والحسن جند لا يفكّ أسيره وقتيله بدم الجوى متشحط

ملامح الخطاب الصوفي في النص:

تمثل القصيدة نموذجاً دقيقاً للغزل الصوفي الرمزي، حيث يتخذ الشاعر من الحب الإنساني ستاراً للتعبير عن الوجد الروحي والعشق الإلهي وفيها تتداخل معاني الهوى الدنيوي مع إشارات السلوك الصوفي، ومن ذلك:

١/ الوجد والدمع كعبادة روحية:

"طلّ الدموع على ثرى الأطلال في شرع الغرام فريضةٌ لا تسقط" الدمع هنا رمز للذكر والندم والتطهر، فالبكاء عند الصوفية علامة صدق المحبة.

٢/ الهوى طريق الفناء:

كما في قوله الحب هنا ليس شغفاً بشرياً فحسب، بل مجاز عن فناء العاشق في محبوبه، "الحسن جند لا يفكّ أسيره" أي أن الجمال الإلهي يأسر القلوب فلا تفلت منه.

٣/ التسليم والرضا بالمقدور:

"أرضي بما يختاره طوعاً ولو أضحى بما أرضى به يتسخّط" تعبير عن الرضا الكامل بمشيئة الله وهو مبدأ صوفي رفيع المحبوب.

٤/ اللقاء الرمزي بالمحبوب:

"أم أنسه يوم ألتقينا باسما" يشير إلى لحظة تجل أو ذوقٍ روحي، يخلدها القلب كما يخلد الصوفي لحظة الوصل.

٥/ الجمال كسلطان على القلوب:

"إن الجمال على القلوب مسلط" هنا الإشارة إلى "جمال الحق" الذي تخضع له الأرواح.

الخلاصة: القصيدة تخفي وراء غزلها العذري عشقاً إلهياً، يعبر عن شوق، فناء، ورضا وهي من أصفى صور الخطاب الصوفي الوجداني.

النّص الحادي عشر: (الصرصري، ٢٠٠م، ٢٥)

أئمة أهل الحب ما القول في فتى يرى حكم من يهواه من حكمه أولى
ويرضى بما يقضيه سراً وجهرة فهل واجب في شرعكم هجره أو لا
فيمن عن المحبوب ليس بصابر نهاراً فهل يقوى على بعده حولا
فهل شافع بالوصل منه فلا قوى لقلبي بطول الصدر منه ولا حولا
أعبر عن أنوار طلع وجهه ببرق سرى من نحو كاظمة ليلا
وأكني بهند عن هواه ولم أشم وميضا ولا أحببت هندا ولا ليلى

ملامح الخطاب الصوفي في النص:

القصيدة تفيض بروح العشق الصوفي الرفيع، إذ تتخذ من خطاب الغزل ستاراً رمزياً للتعبير عن المحبة الإلهية، وهي من النصوص التي تجمع بين الوجد والفقه الروحي، والاشارة الباطنية، مثل:

١/ الرضا المطلق بالمحبوب الإلهي:

"يرى حكم من يهواه من حكمه أولى" "ويرضى بما يقضيه سراً وجهرة" الرضا بالقضاء الإلهي، والتسليم التام بمشيئة المحبوب، هذا هو قلب التصوف.

٢/ العجز عن الصبر على البُعد:

"في من عن المحبوب ليس بصابر نهاراً" فالصوفي لا يطيق حجاب البعد عنه "المحبوب" هنا ليس إنساناً، بل رمز للحق تعالى.

٣/ الرجاء في الشفاعة بالوصل:

"فهل شافع بالوصل منه" يعبر عن توق السالك إلى "الوصال" هو سؤال روحي، أي لحظة الكشف والأنس بالله.

٤/ الأنوار والتجلي:

"أعبر عن أنوار طلع وجهه ببرق سرى من نحو كاظمة ليلا" البرق رمز للتجلي الإلهي الخاطف الذي يضئ القلب لحظ الإشراق.

٥/ الترمزي بالحب البشري:

"وأكني بهند عن هواه" حيث تستخدم أسماء النساء رموزاً للمحبوب الإلهي (هند، ليلى، سُعدى) هذا أسلوب صوفي معروف الذي لا يصرح باسمه.

الخلاصة: يصف النص خطاب وجداني صوفي حال المحب الصادق محبوبه حكماً حتى لم ير لنفسه دون الذي تملكه العشق الإلهي، وجعل رموز الغزل جسوراً إلى المعنى الروحي العميق.

النّص الثاني عشر: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٥١٣)

أنتم لغزي في كل ما أكنيه أنتم سر في باطني أخفيه

أنتم معنى المعنى الذي أبديه أنتم قصدي أشرت أو لم أشر

ملامح الخطاب الصوفي في النص:

تمثل هذه الأبيات قمة الخطاب الصوفي في التعبير عن وحدة المحبة والفناء في المحبوب، وفيها من الرمزية والوجد ما يجعلها من أجمل صور الشعر الصوفي الخالص:

١/ كسر باطني المحبوب:

"وأنتم لغزي في كل ما أكنيه" يدل على أن الذات الإلهية أو الحقيقة المحبوبة هي جوهر كل تعبير يصدر عن الشاعر، فهي الذي لا يُفك إلا بالذوق "اللغز".

٢/ السر المستتر في القلب:

"أنتم سر في باطني أخفيه" يشير إلى التجربة الصوفية الباطنية التي لا تقال، لأن حقيقتها تعاش ولا تنطق.

٣/ المعنى وراء المعنى:

"أنتم معنى المعنى الذي أبديه" فالله أو المحبوب هو الحقيقة الكامنة خلف كل معنى ظاهر، هذا من أرق التعابير الصوفية، أي الذي منه تستمد الكلمات روحها "المعنى المتعالي".

٤/ الفناء في المحبوب:

"أنتم قصدي أشرت أو لم أشر" إذ يصير كل ما يقصده أو لا يقصده، هنا يبلغ العاشق مقام الفنا متوجهاً إلى المحبوب ظاهراً أو باطناً.

الخلاصة: الأبيات تعبر عن وحدة المقصد، وسر العرفان، والفناء في المعشوق، وهي من أصفى ما يقال في وصف علاقة الصوفي بربه، حيث يصير اللسان ناطقاً بالحب وإن صمت، والقلب شاهداً وإن خفي.

النص الثالث عشر: (الصرصري، ٢٠٠٨م، ٢٤٩)

شواهد قلب الصب لا تقبل الرشا فكيف قبول النصح من كاشح وشى

أيـــأمر خلـــو بالتصـــبر مغرمـــا وآنـــس ربـــع الحـــب أصـــبح موحشـــا
أمـــا فـــي الهـــوى العـــذري عـــذر لشـــيق إذا لاح بـــرق مـــن تهامـــة أجهشـــا
ويهتـــز مـــن وجـــد إذا نفـــس الصـــبا ســـحيراً بأعطـــاف الخزامـــى تحرشـــا
متـــى يـــرد المـــاء النميـــر محـــلأ فينقـــع مـــن ورد الصـــفا غلـــة الحشـــا
ويهمـــل مـــن مـــاء بطيبـــة حـــائم يـــروي فـــؤاداً نحوهـــا متعطشـــا
ســـقى حرمـــي أرض الحجـــاز حيـــا روى ليحيمـــي ميـــت الحـــرتين وينعشـــا

ملامح الخطاب الصوفي في النص:

القصيدة تفيض بروح وجدانية عميقة تمزج بين العشق الروحي والحنين إلى الحجاز، فتغدو في جوهرها قصيدة صوفية في الحب الإلهي والاشتياق إلى الحضرة النبوية ومن ذلك:

١/ صدق الوجد ورفض التصنع:

"شواهد قلب الصبا لا تقبل الرشا" لأنه يرى بالصفا لا بالحيلة، القلب الصوفي لا يخدع بالمظاهر.

٢/ العشق العذري رمز للعشق الإلهي:

"وأما في الهوى العذري عذر لشيق" وهو عذر المتيم عن طريق الحب الإلهي، العشق هنا ليس دنيوياً بل روحي.

٣/ الطبيعة مرآة للشوق الروحي:

"إذا لاح برق من تهامة أجهشا" "ويهتز من وجد إذا نفس الصبا" البرق والنسيم رموز للتجلي الإلهي أو نفحات الذكر التي توقظ القلب.

٤/ الحنين إلى طيبة (المدينة المنورة):

"متى يرد الماء النمير محلأ" و"سقى حرمي أرض الحجاز" هنا يتحول الشوق المادي إلى مقام النبي (ﷺ)، حنين روحي نحو المدينة الطاهرة، وهو مقام القرب والمحبة في الوجدان الصوفي.

٥/ رمزية الماء والارتواء:

الماء هنا يرمز إلى الصفا الإلهي والعلم اللدني الذي يروي عطش القلب.

الخلاصة: النص يجمع بين غزل العشق العذري والحنين الصوفي، حيث يتحول الحجاز من مكان جغرافي إلى رمز للوصال الروحي والمحمدي، ويغدو الشاعر سالكاً متعطشاً لشراب القرب الإلهي.

النص الرابع عشر: (الصرصري، ٢٠٠م، ٢٦٧)

مـــن علـــم ذا الحمـــام شـــدو الشـــجن مـــن هـــز مـــن الغـــرام عطـــف الغصـــن
مـــن أي صـــبابة حنـــين البـــدن مـــا ذلـــك إلا لهـــوى مســـتتر

هذه الأبيات الوجيزة من أصفى ما يعبر عن الخطاب الصوفي في تجلياته الوجدانية الرمزية، إذ تمزج بين مشهد الطبيعة وصوت الوجدان العاشق، ويمكن تلخيص عناصرها كالتالي:

١/ رمزية الطبيعة بوصفها لسان الوجد:

"من علم ذا الحمام شدو الشجن" الحمام رمز الروح المشتاقة التي تعبر عن الحب الإلهي بالأنين والشدو، وهو من أقدم رموز التصوف العربي.

٢/ الوجدان الساري في الكائنات:

"من هز من الغرام عطف الغصن" عند تذكر الغصن المهتز يرمز إلى القلب المرتعش بالوجد في إشارة إلى أن الكون بأسره يشارك العاشق وجده المحبوب.

٣/ تجلي الحب المستتر في الوجود:

"من أي صبابة حنين البدن" "ما ذلك إلا لهوى مستتر" يعبر عن العقيدة الصوفية القائلة بأن كل حركة في الوجود إنما هي أثر لحب إلهي خفي يسري في الأشياء.

الخلاصة: النص يقدم صورة رمزية للعشق الكوني في التصوف، الحمام، والغصن، والبدن، حيث كلها ألسنة تنطق بالحب المستتر في الخلق، دلالة على وحدة الوجود العاطفية التي توحد العاشق والمعشوق في الوجدان الإلهي.

الخاتمة:

يتضح من خلال دراسة الخطاب الصوفي في ديوان الصرصري أن التصوف - وإن اختلفت الآراء حول جذوره بين من يربطه بالمسيحية أو الفلسفة اليونانية أو التجارب الروحية الشرقية – يبقي في جوهره ظاهرة إسلامية خالصة، انبثقت من روح الزهد والعبادة والبحث عن القرب إلي الله تعالى. وقد استطاع الصرصري أن يجسد هذا البعد الإسلامي في شعره من خلال لغة خاشعة وصور رمزية تعبر عن الفناء في المحبوب الإلهي، والاتحاد المعنوي بالنبي (ﷺ) .

أظهر التحليل أن الخطاب الصوفي عند الصرصري يقوم على ثلاث مرتكزات أساسية:

١/ الزهد والتواضع كمدخل للسلوك الروحي.

٢/ الذكر والمحبة كوسيلة للتطهير والوصول.

٣/ الإتباع النبوي كغاية ووسيلة في آن واحد.

لقد نجح الصرصري في أن يجعل من شعره فضاءً يجمع بين جمال التعبير وصفاء العقيدة الإسلامية، فحوّل التجربة الصوفية إلى خطاب أدبي راقٍ يعانق الروح والفكر معاً، وهكذا، فإن الخطاب الصوفي في ديوانه لا يُقرأ بوصفه تجربة ذاتية فحسب، بل هو أيضاً مرآة لروح الإسلام التي تجمع بين العقل والقلب، العلم والحال، والجمال والقداسة.

المصادر المراجع:

أولاً: القرآن الكريم

١. ابن أبي أصيبعة، أحمد، (١٢٩٩هـ/١٨٨٢م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصر.

٢. ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، (١٩٢٨م)، تلبيس إبليس، مصر.

٣. ابن خلدون، (١٩٠٣م)، مقدمة ابن خلدون، الطبعة الثالثة، المطبعة الأدبية، بيروت.

٤. الزمخشري، محمد بن عمر، (١٣٤١هـ/١٩٢٢م)، أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٥. السُهروردي، شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد، عوارف المعارف على هامش الأحياء.
٦. الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن أبي القاسم، (١٣١١هـ)، على هامش الملل والنحل لابن حزم، المطبعة الأدبية، مصر.
٧. الصرصري، محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، ديوان الصرصري، تحقيق مخيمر صالح مخيمر، دار البصائر، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٨. الطوسي، أبي نصر السراج، (١٩١٤م)، اللمع في التصوف، ليدن.
٩. الكلاباذي، أبي بكر محمد بن اسحق البخاري، (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م)، التعرف لمذهب أهل التصوف، نشره آرثر جون أربري، مصر.
١٠. عمر فروخ، التصوف الإسلامي، الطبعة الأولى، مكتبة منيسة، بيروت، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
١١. محمد بن محمد الحسيني المعروف بالمرتضي الزبيدي، (١٣٠٦هـ-١٣٠٧هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، مصر.

المراجع الأجنبية:

١. Enc. Isl. Encycopaedia of Islam (English edition). IV 684 b. c.
٢. Enc. R. E. Encycopaedia of religion and ethics, New York, 1908-1926. IX 86, 314 d-316 b: cf.
٣. Fuller. A history of philosophy, by Benjamin A. G. Fuller, New York, 1938, 150-2.
٤. Goldz. Vorlesungen ueber den Islam von Ignaz Goldziher, 2 Aufl. Heidelberg 1928, 154.
٥. La Syrie, précis historigue, par Henri Lammens, eyrouth 1921. I 178,
٦. Mystics Bystics of Islam, byR. A, Nicholson, London 1914.10-11, cf. 61, 82, 111-112.
٧. Thilly. A history of philosophy, by Frank Thilly, Ne York, 1924. 126-31;
٨. Ueberweg . Grundriss der Geschichte der philosphie, von Friedrich Ueberweg, Berlin, 1. Teil 1926, 2. Teil 1928. I 608-9;

السجع في بديعيتي صفي الدين الحلي وابن حجة الحموي دراسة بلاغية مقارنة

د. إبراهيم حسين يعقوب حسن(•)

المستخلص:

تناولت الدراسة موضوع السجع في بديعيتي صفي الدين الحلي وابن حجة الحموي بسبيل المقارنة مع التعرف على مفهوم السجع عند البلاغيين القدامى منهم والمحدثين. هدفت الدراسة إلى التعرف على السجع في بديعتي صفي الدين الحلي وابن حجة الحموي بالمقارنة والتحليل والنقد، مع الإشارة إلى البدايات الأولى لقصائد البديعيات وعلاقتها بالمديح النبوي تنبع أهمية الدراسة في ضرورة معرفة السجع وأقسامه، ومميزاته الجمالية في بلاغة البديع اللفظي، إذ لا يخلو الكلام منه في الأدب شعره ونثره، ولعل ما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع، هو محاولة تسليط الضوء على السجع والتعرف عليه وأنواعه. تكمن مشكلة الدراسة في كيفية تناول السجع وأقسامه عند الشاعرين حيث أن هنالك اتفاق واختلاف في تسمية أنواع السجع في البديعيتين، ومنهم من وافق مشايخ البديع ومنهم من خالف، ومن خلال دراسة السجع في البديعيتين توصلت الدراسة إلى النتائج التالية: خلاصة الكلام في السجع عند البلاغيين، أن يكون معتدلاً في مقاطع الكلام غير متكلف. وابن حجة وافق علماء البديع في تعريفه للسجع، مع ذكر أقسامه. الحلي خالف علماء البديع في تسمية السجع، مع عدم ذكره الأقسام. الحلي وابن حجة ابتكرا مسميات بديعية جديدة من أقسام السجع، بغرض التوسع في البديع.

الكلمات المفتاحية: السجع - البديعيات - صفي الدين - بلاغية - قارنة.

التعريف بالشاعرين:

أ- صفي الدين الحلي:

هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي، نسبة إلى قبيلة سنبس (بطن من طي) ولد في الحلة بالعراق سنة ٦٧٧هـ وتوفي في بغداد سنة ٧٥٠هـ، وإليها نسب ومات في بغداد، أولع بنظم الشعر منذ شبّ عن طوقه ... وكان صفي الدين الحلي شيعياً شيعيته شديدة البروز في شعره، وكان فارساً شجاعاً وعربياً صافي العروبة، حيث تظهر في شعره نعرته العربية القوية.(الحلي، ١٣٣٩هـ، ٥).

كان في شعره كثير من التصنع والتكلف لأنواع البديع، ولعله أول شاعر من شعراء عصره تفنن في أوزان الشعر فنظم الموشحات، وقد اشتهر بوصفه لمجالس اللهو والإنس والطرب ومظاهر الطبيعة، ويستدل من أبواب ديوانه أنه لم يترك فنّاً من فنون الشعر إلا ونظم فيه، فهو أشهر شعراء عصر

(•) أستاذ مساعد – جامعة شندي – كلية الآداب.

الانحطاط، وقبس متقد فيهم، وشعره قوي السبك رائق الديباجة لم ينحط فيه إلى العامي والمبتذل كشأن شعراء ذلك العهد.(الحلي ، ١٣٣٩هـ ، ٦-٧)

هاجر صفي الدين الحلي من العراق بسبب الحروب والمحن وحط رحاله بفناء ملوك آل أرتق أصحاب ماردين في الجزيرة ونظم في مدح السلطان نجم الدين أبي الفتح غازي تسعاً وعشرين قصيدة في كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يبدأ كل بيت منها بحرف من حروف المعجم وبه يختم ووسمها بـ(درر النجور في مدائح الملك المنصور) وهي من ضمن الأرتقيات، ومن مؤلفاته :

١- (ديوان شعر) ٢-(العاطل الحالي) رسالة في الزجل والموالي ٣-(الأغلاطي) معجم للأغلاط اللغوية و٤- (درر النحور)، وهي قصائده المعروفة بالأرتقيات ٥- (صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء) و٦- (الخدمة الجليلة)، رسالة في وصف الصيد بالبندق ٧ - الدر النفيس في أجناس التجنيس (٥) ٨- النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية.(إدوارد ، ١٩٦م ، ١٥٠٠)

ب-ابن حجة الحموي:

ولد أبوبكر علي بن عبدالله المعروف بـ(ابن حجة الحموي) سنة ٧٦٧هـ في مدينة حماة، حيث نشأ بها فحفظ القرآن واشتغل بالعلم والأدب. (السخاوي، ٢٠٠٢م، ٤٨).

وذُكر أن ابن حجة كان شاعراً مترسلاً ومؤلفاً، وشعره رصين مملوء بأوجه البلاغة مع شيء في التكلف، ونثره المرسل سهل واضح ومتين. (فروخ، د.ت، ٨٣٩)

وكان ابن حجة أديباً بارعاً حسن الحظ كما قال مؤرخو عصره: "ونظمه أحلى من ليالي الوصال وأشفى للقلوب الصافية من الذلال". (زغلول، ١٩٩٩م، ٢٤٨).

ويُعرف ابن حجة بالحموي نسبة إلى مدينة حماة، كما يُعرف بالحنفي نسبة إلى المذهب الفقهي المعروف، أمّا كونه يعرف بالأزراري فلاتخاذه عمل الحرير وعقد الأزرار، كما عرف أيضاً بالقادري نسبة إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية، ولقب نفسه بتقي الدين كعادة أهل العصر في زمانه حيث أنهم كانوا يضيفون اسماً لكلمة الدين.(ابن حجة، ١٩٨٧م، ٢٢). ولم يكن ابن حجة من أسرة ذات منزلة من العلم والأدب، وكل ما قام به أبواه أنهما علماه القرآن الكريم، ثم دفعاه إلى احتراف مهنة الأزرار، ولكن طموحه كان أكبر من ذلك فسمت همته إلى الانشغال بالعلم والمعرفة، فظل يلازم أهل العلم وشيوخ الأدب فتردد على الشيخين (شمس الدين الهيتي) و(عزالدين الموصلي). (الربداوي، ١٩٨٢م، ٥١).

آثاره الأدبية:

آثار الأدبية بعضها شعري والآخر نثري، وهي ما يأتي:

١-آثاره النثرية وهي عبارة عن قطع إنشائية يكتبها ابن حجة في مناسبات مختلفة وهي نوعان:

أ-رسائل إخوانية وكان يبعث بها إلى إخوانه وأصدقائه كالرسالة البحرية، ورسالة ياقوت الكلام.

ب-رسائل من إنشاء ابن حجة وهي رسائل صغيرة كان معجباً ابن حجة فيها بنفسه وعلمه. (الربداوي، ١٩٨٢م، ٥٣).

٢-آثاره الشعرية:

تتمثل في إنتاجه الشعري المشتمل عليه ديوانه وكتاب (جنى الجنتين) و(الثمرات الشهية من الفواكه الحموية والزوائد المصرية) و(أمان الخائف) وغيرها من المؤلفات، وهذه المؤلفات بعضها في حقيقتها لا تعدو أسماء قصائد في ديوانه .(ابن حجة ، ١٩٨٧م ، ٥٩).

٣-آثاره البلاغية والنقدية:

تتمثل في شرح بديعيته، وثبوت الحجة على الموصلي والحلي، وكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام الذي عارض به مصنف الصفدي المسمى (فض الختام عن وجه التورية والاستخدام) وذكر بعض المترجمين إن لابن حجة مصنفات مفقودة، بعضها في التاريخ وأكثرها في الأدب عامة والشعر خاصة ، ومنها : السيرة الشخصية ، قهوة الإنشاء ، بلوغ الأمل في فن الزجل رفع الالتباس عن بديع الاقتباس، بروق الغيث، بلوغ المراد من الحيوان والنبات وحديقة زهير وغيرها من المؤلفات(ابن حجة، ١٩٨٧م، ٦٠).

جهوده النقدية:

ابن حجة الحموي يبدو من خلال كتابه -خزانة الأدب - واسع الاطلاع وما تقتضيه هذه الصفة من صقل ملكة النقد الأدبي عنده، غير أنّه يعد ناقداً تعوزه الدقة والوضوح المقياس النقدي، فنراه أحياناً كثيرة يطلق أحكاماً تنقصها الدقة والصوابية، أو دون تحليل في كثير من الأحايين(ابن حجة، ١٩٨٧م، ١١-١٢).

وفاته:

توفي ابن حجة الحموي سنة ٨٣٧هـ ودُفن في تربة باب الجسر، وبُني على قبره قبة بقيت جدرانها إلى نهاية القرن الثالث عشر، وعمل له بعض الناس حجارة على لحده حُفر عليها بأن هذا قبر الغزالي، والعامة يزورنه باسم الغزالي ويجهلون إنّه ابن حجة، فالإمام الغزالي دُفن في طوس.(أحمد إبراهيم، د.ت. ١٠٢).

ثانياً - مفهوم البديعيات:

منذ أواخر القرن السابع الهجري ومطلع القرن الثامن، قد رمي الشعر العربي بجماعة مهمتها جمع ألوان (البديع) حيث سلكوا في جمعها مسالك التكلف والصنعة، ووجهوا هممهم إلى رصّ ألوان (البديع) ضاربين صفحاً عما ينبغي أن يراعى في الشعر في مقتضيات أهمها إبراز المعني وتجلية الغرض، وجاءوا بشعر مؤلف من تفعيلات وموازين لا يروق لفظها ولا يفهم معناها، وسمّوا تلك القصائد البديعيات. (عبد الفتاح، د.ت. ١٩٥)

تعريف البديعيات:

في اللغة: جاء في المعجم الوسيط بدعه بدعاً: أنشأه على غير مثال سابق فهو بديع. (إبراهيم مصطفى، د.ت. ٤٣)

في الاصطلاح: البديعية هي قصيده طويلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على بحر البسيط وروي الميم المكسورة، يتضمن كل بيت منها نوع من أنواع البديع شاهداً عليه، وعرّفها د. منير سلطان

"البديعية قصيدة طويلة تحتوي على كل الفنون التي أدرجت تحت علم البديع، وفي الوقت ذاته في المديح النبوي".(منير سلطان ، د.ت. ٢٠٥).

وللبديعيات أسس ومقومات تبنى عليها منظوماتها منها:

١. بحر البسيط.
٢. روي الميم المكسورة.
٣. أن يكون في كل بيت من أبياتها لون بديعي.
٤. أن تكون قصيده طويلة لا تقل عن مائة بيت أما غايتها فمدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأبرار، وهي غاية روحية وغرض شعري معروف. (أبو زيد، ١٩٨٣م، ٤٧).

نشأة البديعيات:

ما هو معلوم إن معرفة البدايات من أصعب المشكلات التي تواجه الباحثين، لا سيما إذا كانت البداية نفسها تسهم في ذلك الإشكال، وتشعب الطرق إليه كما هو الحال في بداية (البديعيات) فما زال الباحثون الذين تعرضوا للحديث عن فن (البديعيات) ونشأتها مختلفين في تحديد أول بديعية، فمكان الأولية يتنازعه ثلاثة من الشعراء وهم: ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة (٧٧٩هـ)، وعلى الأربلي المتوفى سنة (٦٧٠هـ) وصفي الدين الحلي المتوفى سنة (٧٥٠هـ) يرى الدكتور(ذكي مبارك) إن (البديعيات) هي أثر من آثار بردة (البوصيري) وأول من فتح هذا الباب هو (ابن جابر الأندلسي) الذي أحب البردة وشغف بها، ولعل الدافع الذي حمل (ذكي) على هذا ما وجده في مقدمة شرح بديعية ابن جابر الأندلسي في وصف تلك البديعية يقول أبو جعفر الألبيري (شارح بديعية ابن جابر الأندلسي): نادرة في فنها، فريدة في حسنها، تجني ثمار البلاغة وتنهل سواكب الإجادة، لا يُنسج على منوالها، ولا سمعت قريحة بمثالها.(أبو زيد، ١٩٨٣م، ٥٥-٥٦).

بينما يرى آخرون أن أول من سبق إلى هذا الفن ليس (ابن جابر الأندلس) وإنما هو شاعر مصري يدعى (علي بن عثمان الأربلي) وبرهنوا على ذلك بحكم الأسبقية الزمنية فكانت وفاة (الإربلي) قبل (ابن جابر الأندلسي)، ومطلع بديعية الأربلي:

بعض هذا الدلال والإدلال حالي الهجر والتجنيب حالي

رق يا قاسي الفؤاد لأجفانٍ قصارٍ أسرى ليالٍ طوالِ.(عبد الفتاح، د.ت، ١٩٥)

أمّا (محمد الربداوي) فقد رشح الأولوية لـ (صفي الدين الحلي) ويدلل بأن وفاة (الحلي) كانت قبل وفاة (ابن جابر الأندلسي)، قرابة بثلاثين سنة، وهنالك العديد من الباحثين الذين جعلوا أسبقية (البديعيات) لصفي الدين الحلي ، ولكن على الرغم من إجماعهم بأن (صفي الدين الحلي) هو أول من طرق هذا الباب فذلك لا يعني بالضرورة أن يكون (ابن جابر) قد اطلع على بديعية (صفي الدين الحلي) بل ربما يكون نظم كل واحد منهما دون أن يعلم صنع الآخر وتشابه عملهما لتشابه الدوافع والظروف مع الحالة العامة والحركة الواحدة التي كانت مهيأة لظهور فن البديعيات، علماً بأن فن البديعيات صناعة فكرية راسخة المعالم والفنون، وضرب من ضروب شعر حقائق العلوم، وجملة ما نظم فيها يدور حول المدائح النبوية والأصباغ البديعية.(أبو زيد، ١٩٨٣م، ٦٩).

أسباب نشأة البديعيات:

قصائد البديعيات لم تنشأ بين يوم وليلة، بل تضافرت حولها جهود ودوافع كثيرة تفاعلت وتكاملت حتى أخرجتها إلى حيز النور، واستمدت قوتها من أعماق التراث والبيئة، ومن يطلع على نصوص البديعيات وما تضمنته من إشارات، يجد أن هناك عوامل من ورائها أسباب متلازمة دفعت هذا الفن إلى الظهور والتقدم والنضج، ولعل أهم هذه الأسباب والدوافع ما يلي:

١. الرغبة في التأليف البلاغي عامة والبديعي خاصة، لمعرفة إعجاز القرآن الكريم.
٢. الرغبة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم واتحادها مع التأليف البديعي.
٣. اجتماع الشاعرية والتأليف عند ناظم البديعية.
٤. المرض ورقة العواطف عند ناظم البديعية، ومما لا ريب فيه إن المريض ذو روح شفافة يبحث عن دواعي شفائه.
٥. السعي إلى الشهرة، والرغبة في المعارضة، وحب الظهور كما فعل أصحاب البديعيات في محاولتهم لمجاراة بردة الإمام البوصيري.
٦. أثر المجتمع بتقبله لهذا الفن، فسرعان ما انتشر فن البديعيات بين الناس حتى استبشروا به خيراً واحتفوا بأهله.(ابن حجة، ١٩٨٧م، ١٣٨-١٤٢).

علاقة البديعيات بالمدائح النبوية:

لقد كثرت المدائح في شخصية الرسول صلى الله علية وسلم منذ أن بعث هادياً ومبشراً ونذيراً وقد نشأت هذه المدائح النبوية منذ أواخر العصر الجاهلي، بدليل أن الأعشى مدح النبي الكريم بقصيدته التي مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

وعندما جاء الإسلام برز شعراء المديح النبوي كحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن زهير وغيرهم، وبلغ هذا الفن ذروته بقدوم العصر المملوكي بظهور البديعيات، فطغت على شعر المديح الناحية العلمية لما حوته فنونه من صور بديعية.(ابن حجة، ١٩٨٧م، ١٣٤-١٣٥).

وشعر المديح النبوي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب رفيع من الأدب، لا يصدر إلا من قلوب مفعمة بالإيمان، مليئة بحبه والإعجاب بشخصيته صلى الله عليه وسلم ويبدو إن الذي فجر ينبوع البديعيات أحد الشعراء المتصوّفين الذي يدعى الإمام البوصيري وهو إمام شعر المديح النبوي المولود سنة (٦٠٨هـ) ومطلع بردته قوله:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

أمّا عن سبب نظم هذه القصيدة فإن الإمام البوصيري أصابه فالج (شلل نصفي) أبطل نصفه ففكر في عمل قصيدة يتشفع به آملاً أن يعافيه الله سبحانه وتعالى، وأنشدها ودعا وتوسل وعندما نام رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أنه مسح وجهه بيده المباركة، وألقى عليه بردته فنهض وقام معافى

من المرض فعرفت قصيدته بالبردة أو (البرأة)؛ لأن البوصيري برئ بسببها من علته، ثم انطلقت هذه القصيدة تجوب في الآفاق فانتشرت بين الناس، وأخذ الشعراء يعارضونها كصفي الدين الحلي وابن جابر الأندلسي في وقت انتشرت فيه ألوان البديع انتشاراً واسعاً فكل هذا يمثل نقطة التقاء البديعيات بالمدائح النبوية، حيث مثلت بردة الإمام البوصيري الطريق المؤدي إلى تلاؤم شعر المديح والبديعيات، وإذا نظرنا إلى بديعية صفي الدين الحلي ودوافع نظمه لها نجد سهولة متانة العلاقة بين المدائح النبوية والبديعيات فالذي تعرض له الإمام البوصيري تعرض له صفي الدين الحلي كالمرض، وطلب الشفاء مع التوسل، ثم البرأة من المرض، فبحر القصيدتين واحد وهو بحر البسيط، وحرف الروي واحد وهو الميم المكسورة، فقط الاختلاف أن (صفي الدين) تضمنت قصيدته الفنون البديعية، فكل هذه الاتفاقات تبرهن وجود روابط قوية بين المدائح النبوية والبديعيات.(ابن حجة، ١٩٨٧م، ١٣٥-١٣٦).

ومطلع بديعية صفي الدين الحلي المسماة (الكافية البديعية في المدائح النبوية):

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بذي سلم

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم استطع عن ذاك منع دمي

أبيت والدمع هام هامل سرب والجسم في إضم لحمٌ على وضمِ (الحلي، ١٩٨٢م، ١٠-١١)

لم يلتزم صفي الدين الحلي تسمية النوع البديعي في هذه البديعية في كل بيت منها ولعله أراد بذلك أن يصبغ عليها صفة الوضوح والجمال الشعري، وأن يجنبها صفة التعقيد في النظم(عتيق، د.ت. ٦٠).

ومطلع بديعية ابن حجة المسماة (تقديم أبي بكر) والتي التزم فيها تسمية النوع البديعي:

لي في ابتداء مدحكم يا عرب ذي سلم براعة تستهل الدمـــع في العلم

بالله سر بي فسربي طلقوا وطني وركبوا في ضلوعي مطـــلق السقم

ورمت تلفيق صبري كي أرى قدمي يسعى معي فسعى لكن أرق دمي.(ابن حجة، ١٩٨٧م، ١٩)

ثالثاً - السجع:

السجع في اللغة:

السجع: جمع أسجاع كالأسجوعة بالضم جمع: أساجيع، وكمنع: نطق بكلام له فواصل فهو سجاعة وساجِع، والحمامة: رددتْ صَوتَها فهي ساجِعة وسَجوع جمع: سُجَّع كركَّعٍ وسواجِعُ، وسجع ذلك المَسجع: قَصَدَ ذلك المَقْصد، والساجِعُ: القاصِدُ في الكلامِ وغيرِه والناقة الطويلَة أو المُطْرِبَة في حنِينِها والوجْه المُعْتدِل الحَسَنُ الخِلْقَة. (الفيروز آبادي، ٢٠٠٥م، ٩٣٩).

وسجَع الرجلُ إذا نطق بكلام له فواصل كالقوافي في الشعر من غير وزن كما قيل: لِصُّها بَطَلٌ وتمرها دَقَلٌ إن كثُر الجيش بها جاعوا وإن قلّوا ضاعوا، يَسجَع سَجعاً فهو ساجع وسجّاع.(الفراهيدي، د.ت. ٢١٤).

وأورد ابن الفارس: السين والجيم والعين أصلٌ يدلُّ على صوت متوازن، من ذلك السَّجع في الكلام، وهو أن يُؤتَى به وله فواصلُ كقوافي الشِّعر (ابن فارس، ٢٠٠٢م، ١٣٥).

والسجع في الاصطلاح: هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير(الهاشمي، د.ت. ٣٣٠).

وكذلك عند أكثر علماء البلاغة لا يخرج عن هذا التعريف، ذكر عبد الرحمن الميداني: (والسّجعُ في البديع: هو تواطؤُ الفاصلتين من النَّثر على حرف واحد، وهو في النثر كالقافية في الشعر). (الميداني، د.ت. ٨٤١).

وأورد عبد المتعال الصعيدي: "وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد والأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر".(الصعيدي، ٢٠٠٥م، ٤٧٣).

وعرّفه ابن الإصبع المصري: "وهو أن يتوخى المتكلم أو الشاعر في أجزاء كلامه، بزنة عروضية محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية" (ابن الإصبع، د.ت. ٣٠٠).

وأورد أبو هلال العسكري: "والسجع على وجوه: فمنها أن يكون الجزئين متوازنين متعادلين، لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه، وهو كقول الأعرابي: (سنة جردت، وحال جهدت، وأيد جمدت، فرحم الله من رحم، فأقرض من لا يظلم) فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان، والفواصل على حرف واحد ، ومنها أن يكون ألفاظ الجزئين المزدوجين مسجوعة، فيكون الكلام سجعاً في سجع، وهو مثل قول البصير: حتى عاد تعريضك تصريحاً، وتمريضك تصحيحاً، فالتعريض والتمريض سجع، والتصريح والتصحيح سجع آخر فهو سجع في سجع؛ وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع.(أبو هلال العسكري، ١٤١هـ، ٦٢٢-٦٢٣).

وذكر ضياء الدين بن الأثير: "واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام؛ والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد؛ إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجّاعاً، وما من أحد منهم ولو أنشد شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة، ويأتي بها في كلامه، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنّانة رنّانة، لا غثّة ولا باردة". (ابن الأثير، د.ت. ١٩٧).

وأورد بهاء الدين البشتكي "والأسجاع مبنيّة على سكون الأعجاز؛ كقولهم: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت" .(البشتكي، ٢٠٠٣م، ٣٠١).

وذكر عبد الرحمن حبنكة: "والأصل في السّجع، أن يكون في النثر، لكنَّه قد يأتي داخل فِقَرات البيت من الشعر، فيزيدُه حُسناً إِذَا كان مستوفياً شروطه الفنيّة غير متكلّف".(حبنّكة ،١٩٩٦م، ٥٠٤).

وأورد صدر الدين المدني: ومنهم من خصّ السجع بالنثر، والصحيح عدم اختصاصه به، بل يجري في النظم أيضاً، وهو أن يأتي الشاعر في البيت بكلمات مقفاة على روي البيت، غير متزنة بزنة عروضية، ولا محصورة في عدد معين. كقول أبي تمام:

تجلى به رشدي وأقرب به يدي وفاض به ثمدي وأروى به زندي.(المدني ، د.ت. ٤٩٢).

تلك طائفة من تعريفات السجع لدى كبار رجال البلاغة العربية في عصورها المختلفة، وهي وإن اختلفت عباراتها فإنها تكاد تكون متفقة مضموناً، ومن كل التعريفات السابقة تتجلى الحقائق التالية بالنسبة للسجع:

١-السجع في النثر كالقافية في الشعر.

٢-توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

٣-الاعتدال في مقاطع الكلام.

٤-أن لا يكون السجع متكلفاً.

آراء علماء البلاغة حول السجع في القرآن الكريم:

وقد سموا التشاكل الواقع بين الحروف في أواخر الآيات فواصل، وسموا نظيره في الأساليب الأخرى سجعاً؛ لأن مجيء السجع في القرآن لم يكن محل اتفاق بين العلماء فانقسموا في هذه القضية إلى قسمين:

الأول: يمنع أن يكون في القرآن سجع، ولهم في ذلك حجج وأسباب ذكروها وبنوا مذهبهم عليها

الثاني: يرى جواز مجيء السجع في القرآن، بل هو وارد فيه فعلاً، ولهم ردود على حجج وأسباب المانعين.

أورد الباقلاني: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة، إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني. (الرماني، د.ت. ٩٧).

وذكر أحمد جمال: أن الباقلاني نفى وجود السجع في القرآن الكريم تدعيماً لوجوه الإعجاز حيث أنه ذهب إلى ما ذكره الرماني فقال: إن الفواصل تباين السجع مباينة تامة، إذ الفواصل تتبع المعنى أمّا السجع فيتبعه المعنى، ومن أجل ذلك يتضح فيه التكلف والثقل. (أحمد جمال، ١٣٩٦هـ، ١٩).

ومن أدلة المانعين:

١ - إن القرآن وصف لله فلا يجوز وصفه بما يرد به إذن شرعاً.

٢ - إن السجع من قولهم: "سجع الطير" وشرف القرآن ألا يُستعار لشيء فيه لفظ أصله مهمل.

٣ - إن السجع يُقصد ثم يُحال المعنى عليه وفي هذا ضرب من التكلف، أما الفاصلة فيُقصد بها المعنى أولاً ثم يُحال عليه اللفظ، فالسجع عيب والفواصل بلاغة.

٤ - لو كان في القرآن سجع لما كان خارجاً عن أساليب كلامهم، ولو كان كذلك لما كان فيه إعجاز ولو كان جاز أن يقال: إنه سجع معجز لجاز أن يقال: إنه شعر معجز، وكيف والسجع مما كانت تألفه الكهان من العرب.

ونفيه عن القرآنَ أجدر أن يكون حجة من نفى الشعر؛ لأن الكهانة تنافى النبوات، وليس كذلك الشعر.

٥ - ولو سلمنا بأن في القرآن سجعاً لكان مذموماً في بعض المواضع لمجيئه على غير شرط السجع الحسن، وهو ما كان متقارب الحروف لعدم الاستواء. (المطعني، ١٩٩٢م، ٢١٩).

أمّا المجيزون لورود السجع في القرآن فكثيرون نذكر منهم:

أبو هلال العسكري، إذ يقول: "السجع مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام المخلوقين" ولا سبيل إلى إنكار السجع ففيه منه القدر الكثير والاتفاق في

التسمية لا يضير ما دامت التفرقة بينه وبين غيره مقيسة بمعايير الجودة والحسن وخلوه من العيوب التي ألفوها في غيره، وفي هذا السياق يقول ابن الأثير: "... وإلا لو كان مذموماً - يعنى السجع - لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة كسورتي الرحمن والقمر وغيرهما. (المطعني، ١٩٩٢م، ٢٢١)

وجاء ابن سنان الخفاجي فأتى بالعملين معاً، رد شُبه المانعين، وإثبات جديد من الأدلة ليس في وسع منصف إنكارها، فكان أكثر النقاد حسماً للخلاف، وأشدهم حماساً لإثبات السجع في القرآن الكريم، فمنهجه على النحو التالي:

١ - بدأ بذكر مذاهب المانعين وذكر عبارة الرماني: "الفواصل بلاغة، والسجع عيب" وفنّد أدلتهم واحداً واحداً.

٢ - فرق بين الفواصل والأسجاع تفرقة فنية بأن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول أما الفواصل فمنها ما يكون متماثل الحروف، ومنها ما يكون متقارب الحروف، فالأول سجع والثاني فاصلة.

وكلا النوعين إما أن يأتي طبعاً سهلاً تابعاً لمعناه، وإما أن يأتي على الضد، فالأول محمود والثاني مذموم.(المطعني، ١٩٩٢م، ٢٢١).

وأردف ضياء الدين بن الأثير: "وقد ذمَّه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهًا سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذمومًا لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة"، وقد ورد في الحديث الشريف: "أيها الناس، أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام".، وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرًا عليه وقد كلَّمه بكلام مسجوع: "أسجعًا كسجع الكهان"؟ ولولا أنَّ السجع مكروه لما أنكره النبي صلى الله عليه وسلم؟، فالجواب عن ذلك أنَّا نقول: لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقًا لقال: أسجعًا؟ ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان، فلمَّا قال: "أسجعًا كسجع الكهان" صار المعنى معلقًا على أمر، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه، فعلم أنه إنما ذمّ من السجع ما كان مثل سجع الكهان، لا غير، وأنه لم يذمّ السجع على الإطلاق، وقد ورد في القرآن الكريم, وهو صلى الله عليه وسلم قد نطق به في كثير من كلامه، حتى إنه غيَّر الكلمة عن وجهها اتباعًا لها بأخواتها من أجل السجع، فقال لابن ابنته رضي الله عنهما: "أعيذه من الهامة والسامة وكل عينٍ لامة" وإنما أراد "ملمة"؛ لأن الأصل فيها من "ألمَّ" فهو "ملم". أو أَمَةٍ, وقال الرجل: "أَأَدِي من لا شَرِبَ ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ، ومثل ذلك يطل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسجعًا كسجع الكهان" أي: أتتبع سجعًا كسجع الكهان؟ وكذلك كان الكهنة كلهم، فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعًا.(ابن الأثير ، د.ت. ٢١٠-٢١٢).

وذكر صاحب (الطراز) أن هنالك شروطاً ينبغي أن تتوفر في السجع، وهي:

الشرط الأول: يرجع إلى المفردات، وهى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق رطبة طنانة صافية على السماع حلوة طيبة رنانة، تشتاق إلى سماعها الأنفس، ويلذ سماعها على الآذان مجنبة عن

الغثاثة والرداءة، ونعنى بالغثاثة والرداءة أن الساجع يصرف نظره إلى مؤاخاة الأسجاع وتطابق الألفاظ، ويهمل رعاية حلاوة اللفظ وجودة التركيب وحسنه، فعند هذا تمسه الرداءة وتفارقه الحلاوة ويصير فيما جاء به بمنزلة من ينظم عقداً من خزف ملون، أو ينقش بألوان الصباغ ثوباً من عهن، فهذه الشريطة لا بدَّ من مراعاتها، وإلا وقع مهملها فيما ذكرناه.

الشرط الثاني: راجع إلى التركيب وهو أن تكون الألفاظ المسجوعة في تركّبها تابعة لمعناها، ولا يكون المعنى فيها تابعاً للألفاظ فتكون ظاهرة التمويه وباطنة التشويه، ويصير مثاله كمثال عمد من ذهب على نصب من خشب، أو كرة محلاة أو بعرة مذهبة مطلية، ومثال ذلك أنك إذا تصورت في نفسك معنى من المعاني، فإنك إذا أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك ذلك ولا سمحت قريحتك به إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه من غير حاجة إلى ذلك النقصان وتلك الزيادة، وإنما تأتى بالزيادة والنقصان من أجل تسوية السجع وإظهار جوهره لا من أجل المعنى ، فما هذا حاله هو الذي يذم من التسجيع ويقبح لما فيه من إصلاح اللفظ دون المعنى ولما فيه من التكلف والتعسف المستغنى عنه، فأما إذا كان من غير تكلف فإنه يأتي في غاية الحسن.

الشرط الثالث: أن تكون تلك المعاني الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة ولا مستنكرة ولا ركيكة مستبشعة، لأنها إذا كانت غريبة نفرت عنها الطباع وكانت غير قابلة لها، وإذا كانت ركيكة مجّتها الأسماع، فكل واحدة من السجعتين دالة على معنى حسن بانفراده، لكن انضمام إحداهما إلى الأخرى هو الذي ينافر من أجل التركيب.

الشرط الرابع: أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير للمعنى الذي دلت عليه الأخرى، لأنه إذا يكون من باب التكرير فيكون على هذا لا فائدة فيه، فهذا الشرط الرابع لا بدَّ من اعتباره في كل كلام مسجوع.(العلوي، ١٤٢٣هـ، ١٣-١٤).

رابعاً - أقسام السجع:

السجع ليس صورة واحدة، وإنما هو يأتي في الكلام على أربعة أضرب أو أقسام: المطرّف، والمرصع، والمتوازي، والمشطر.

١ - فالمطرّف: هو ما اختلفت فيه الفاصلتان أو الفواصل وزنا واتفقت رويا، وذلك بأن يرد في أجزاء الكلام سجعات غير موزونة عروضياً وبشرط أن يكون رويها روي القافية، نحو قوله تعالى: (ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً).[نوح: ١٣،١٤].

ومنهم من قال بأن السجع غير مختص بالنثر، وإنما هو يدخل النثر والشعر معاً قول أبي تمام:

تجلى به رشدي وأثرت به يدي وفاض به ثمدي وأورى به زندي

٢ – المرصع (الترصيع): وهو عبارة عن مقابلة كل لفظة من فقرة النثر أو صدر البيت بلفظة على وزنها ورويها، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) [الانفطار: ١٣،١٤].

ومنه قول الحريري في المقامات: "يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه".، ومن أمثلته الشعرية قول أبي فراس الحمداني:

وأفعالنا للراغبين كرامة وأموالنا للطالبين نهاب

ومنه قول الشاعر ابن النبيه:

فحريق جمرة سيفه للمعتدي ورحيق خمرة سيبه للمعتفي

فهذا البيت وقع الترصيع في جميع ألفاظه، فإن المقابلة فيه حاصلة بين حريق ورحيق، وبين جمرة وخمرة، وبين سيفه وسيبه، وبين المعتدي والمعتفي.

٣ - المتوازي: وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة، أي الفقرة مع نظيرتها في الوزن والروي، كقوله تعالى: (فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ) [الغاشية: ١٣، ١٤].

ومنه قول النبي صلّى الله عليه وسلّم: "اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً".

ومنه قول الحريري في المقامات أيضاً: "الجأني حكم دهر قاسط إلى أن أنتجع أرض واسط"، وقوله: "وأودى بي الناطق والصامت، ورثى لي الحاسد والشامت".

ومن أمثلته شعراً قول المتنبي:

فنحن في جذل والروم في وجل والبر في شغل والبحر في خجل

٤- المشطور: ويسمى أيضاً التشطير، وهو أن يكون لكل شطر من البيت قافيتان مغايرتان لقافية الشطر الثاني، وهذا القسم خاص بالشعر، كقول أبي تمام:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتغب في الله مرتقب

فالشطر الأول كما ترى سجعة مبنية على قافية الميم، والشطر الثاني سجعة مبنية على قافية الباء(عتيق، د.ت. ٢١٧-٢١٩)

وأحسن السجع:

١ - وأحسن السجع وأشرفه منزلة للاعتدال الذي فيه هو ما تساوت فقراته في عدد الكلمات، نحو قوله تعالى: (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ) [الواقعة: ٢٧-٣٠].

٢ - ثم ما طالت به الفقرة الثانية عن الأولى طولا لا يخرج بها عن الاعتدال كثيراً، نحو قوله تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى) [النجم: ١، ٢] وذلك لئلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة. (عتيق، د.ت.٢٢٠).

خامساً السجع عند الحلي:

يسمى بالتسجيع وهو أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أو بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين .(الحلي، ١٩٨٢م، ١٩٤).

وهذا هو تعريف السجع المطرف عند ابن حجة والكثير من علماء البديع، ولم يذكر الحلي أقسام السجع، بل وضع لها مسميات أخرى تعاريفها كتعاريف أقسام السجع، منها:

الترصيع وعرّفه الحلي هو عبارة عن مقابلة كل لفظة في صدر البيت بأخرى في عجزه.

والمسمى الآخر هو التشطير وعرّفه الحلي بقوله: هو أن يقسّم الشاعر بيته شطرين ثم يصرع كل شطر منهما مخالفاً لقافية الآخر.(الحلي، ١٩٨٢، ١٨٩-١٩٠).

ويُلاحظ من هذا الكلام إن الترصيع هو قسم السجع المرصع، والتشطير هو قسم السجع المشطر، من خلال التعاريف التي أوردها أغلب علماء البديع.

سادساً السجع عند ابن حجة:

عرّف السجع في اللغة فقط، ومثّل له من دون الإشارة إليه في الاصطلاح، وقسمه إلى أربعة أقسام ممثلاً لكل نوع منها:

١-المطرف وهو أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أو بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية.

٢-الموازي هو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي.

٣-المشطر هو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافية النصف الآخر.(ابن حجة، ١٩٨٧م، ٤١١-٤١٢)

وسمى ابن حجة هذا القسم في موضع آخر من شرح بديعيته بالتشطير، والذي تعريفه كتعريف السجع المشطر، فقط اختلاف التسمية.

٤-المرصع لم يورد له تعريفاً، وسماه الترصيع في موضع آخر من شرح بديعيته، توسعاً منه في ألوان البديع؛ لأن تعريف الترصيع عنده كتعريف السجع المرصع عند البديعيين، وعرّف الترصيع هو عبارة عن مقابلة كل لفظة في صدر البيت أو فقرة من النثر على لفظها ورويها.(ابن حجة، ١٩٨٧م، ٤٠٩).

سابعاً: مقارنة أبيات السجع و أقسامه في بديعتي الحلي و ابن حجة:

١-السجع المطرف:

وأورده صفي الدين الحلي في الكافية البديعية بمسمى آخر وهو (التسجيع) ، ونجده قد وافق فيه ابن حجة الحموي في التعريف، وضمنه في بديعيته بقوله:

فعّال منتظم الأحوال مقتحم الأهوال ملتزم بالله معتصم

السجع المطرف في (فعال، الأحوال، الأهوال) و (منتظم، مقتحم، ملتزم، معتصم)(الحلي، ١٩٨٢م، ١٩٤).

يبدو أن الحلي على الرغم من أنه قد أتى بأسجاع غير متزنة ولا محصورة في عدد معين في بيته، غير أن روي الأسجاع في الصدر خالفت روي القافية.

وبيت ابن حجة قوله:

سجعي ومنتظمي قد أظهرا حكمي وصرت كالعلم في العرب والعجم

السجع المطرف في (منتظمي، حكمي) و (العلم، العجم) .(ابن حجة، ١٩٨٧م، ٤١١)

ابن حجة في السجع المطرف التزم تسمية النوع البديعي، وهي ذكر مسمى اللون البديعي في بيت الشعر، وذلك في قوله: (سجعي) وأتى بأسجاع غير متزنة ولا محصورة، ورويها وافق روي القافية.

٢-السجع المشطر:

ذكره صفي الدين الحلي في بديعيته بمسمى (التشطير)، وقد وافق فيه ابن حجة في التعريف، وهو قوله:

بكل منتصر للفتح منتظر وكل معتزم بالحق ملتزم

السجع المشطر في (منتصر، منتظر) و (معتزم، ملتزم). (الحلي، ١٩٨٢، ١٨٩)

يُلاحظ أن الحلي قسم البيت إلى شطرين، مع اختلاف القافية والروي بين حرفي الراء والميم.

وبيت ابن حجة - والذي ضمنه في بديعيته بسمى التشطير أيضاً – قوله:

وانشق من أدب بلا كذب شطرين في قسم تشطير ملتزم

السجع المطرف في (أدب، كذب) و (قسم، ملتزم). (ابن حجة، ١٩٨٧م، ٣٨١)

ابن حجة التزم تسمية النوع البديعي في قوله: (تشطير)، وقسم بيته إلى شطرين ولكن أهمل تناسب التسجيع بين (قسم، ملتزم)، إضافة إلى ذكره لكلمة (شطرين) والتي بتكرارها زاد البيت حشواً.

٣-السجع المرصّع:

أورده كل من الحلي وابن حجة في بديعيتهما بمسمى (الترصيع)، وقد توافقا في تعريفه، وبيت صفي الدين الحلي قوله:

من حاسر بغرار العضب ملتحف وسافر بغبار الحرب ملتزم

السجع المرصّع في (حاسر، سافر) و (بغرار، بغبار) و (العضب، الحرب) و (ملتحف، ملتزم). (الحلي، ١٩٨٢م، ١٩٠)

وذكر ابن حجة الحموي معلقاً على بيت الحلي بقوله: "صفي الدين فاته في هذا البيت ترصيع العروضة والضرب، وقد أتى في بيته بالحشو"، وبيته:

نعم ترصع شعري واعتلت همي وكم ترفع قدري وانجلت غمي

السجع المرصّع في (نعم، وكم) و (ترصّع، ترفع) و (شعري، قدري) و (اعتلت، انجلت) و (همي، غمي). (ابن حجة، ١٩٨٧م، ٤١٠).

يبدو أن ابن حجة كان موفقاً في نقده لصفي الدين الحلي، الذي سها في ترصيع العروضة (ملتحف) بالضرب (ملتزم)، أمّا ابن حجة فالسجع المرصّع ظاهرٌ في بيته، حيث أنه استطاع أن يقابل كل كلمة في الصدر بأخرى في العجز وزناً وروياً.

أمّا السجع الموازي فلم يشر إليه صفي الدين الحلي في بيت من بديعيته لا بمسماه ولا حتّى بمسمى آخر، غير أن ابن حجة الحموي أورده ضمن أقسام السجع الأربعة ، لكن دون الإشارة له في بيت من بديعيته.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بعونه وتوفيقه اكتملت هذه الدراسة، والتي هي بعنوان السجع في بديعتي صفي الدين الحلي وابن حجة الحموي، دراسة بلاغية مقارنة شملت مفهوم السجع وأقسامه في البديعيتين بالشرح والتحليل والتعليق، وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

١- أثبت بعض علماء البلاغة وجود السجع في القرآن الكريم، وأنكره بعضهم الآخر.

٢- خلاصة تعريفات البلاغيين في السجع، أن يكون معتدلاً في مقاطع الكلام دون تكلف

٣-الحلي وابن حجة قد توافقا في تعريف السجع.

٤-ابن حجة وافق مشايخ البديع في تعريف السجع وذكر الأقسام.
٥-الحلي خالف علماء البديع في التسمية ووافقهم في التعريف، مع عدم ذكره الأقسام.
٦- السجع المرصع أورده الحلي وابن حجة بمسمى الترصيع.
٧-الحلي وابن حجة ابتكرا مسميات بديعية جديدة من أقسام السجع، بغرض التوسع أكثر في البديع كالترصيع والتشطير وغيرهما.
٨-ابن حجة كان موفقاً بأبيات بديعيته في مقارنة السجع أكثر من الحلي.
٩-الحلي وابن حجة كلاهما لم يضمّن السجع الموازي في بديعيته.

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم
١- إبراهيم مصطفى وآخرون (د.ت) المعجم الوسيط، دار الدعوة للنشر.
٢- ابن الأثير: ضياء الدين بن محمد نصر الدين (د.ت) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.
٣- أحمد إبراهيم الصابوني (د.ت) تاريخ حماة، دار دمشق للطباعة والنشر.
٤- أحمد جمال العمري، ط١٣٩٦هـ، أبوبكر الباقلاني ومفهومه للإعجاز القرآني، الناشر الجامعة الإسلامية المدينة المنورة.
٥- إدوارد كرنيليوس فانديك، ١٨٩٦م، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، تصحيح السيد محمد الببلاوي، دار الهلال للنشر، مصر.
٦- ابن أبي الإصبع المصري: عبد العظيم بن ظافر العدواني (د.ت) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، تحقيق: حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للنشر والتوزيع.
٧- البشتكي: أحمد بن علي بن عبد الكافي أبو حامد بهاء الدين، ٢٠٠٣م، عروس الأفراح لتلخيص المفتاح، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
٨- حبنكة : عبد الرحمن حسن الدمشقي، ١٩٩٦م، البلاغة العربية، دار الكتب العلمية، دمشق.
٩- ابن حجة: تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي، ١٩٨٧م، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت.
١٠- الحلي: عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي، ١٩٨٢م، الكافية البديعية في المدائح النبوية، تحقيق: نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، وديوان صفي الدين الحلي، ط ١٣٣٩هـ، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت.
١١- الرُماني: أبو الحسن علي بن عيسى (د.ت) النكت في إعجاز القرآن تحقيق: محمد خلف الله أحمد، دار المعارف، القاهرة.
١٢- السخاوي: شمس الدين بن عبد الرحمن، ٢٠٠٢م، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ضبط: عبد اللطيف حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣- الصعيدي: عبد المتعال الصعيدي، ٢٠٠٥م، بغية الإيضاح في تلخيص المفتاح، الدار الناشر، مكتبة الآداب.

١٤- عبد العزيز عتيق (د.ت) علم البديع، دار الكتبة العلمية، لبنان.

١٥- عبد الفتاح لاشين (د.ت) البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦- العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن مهران، (١٤١١ه). الصناعتين في الكتابة والشعر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

١٧- العلوي: يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني(١٤٢٣ه) الطراز، المكتبة العصرية، بيروت، ط١.

١٨- علي أبو زيد، ١٩٨٣م، البديعيات في الأدب العربي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩- عمر فروخ (د.ت) تاريخ الأدب العربي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠- ابن فارس: أبي الحسن أحمد بن زكريا (٢٠٠٢م) مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار اتحاد الكتاب العربي للنشر.

٢١- الفراهيدي: الخليل بن أحمد (د.ت) معجم العين، ضبط عبد الله درويش، مكتبة الشباب للنشر.

٢٢- الفيروز آبادي: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٢٠٠٥م) القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت.

٢٣- محمد الربداوي، (١٩٨٢م) ابن حجة شاعراً وناقداً، دار قتيبيه للنشر والتوزيع.

٢٤- محمد زغلول سلام (١٩٩٩م) الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، الإسكندرية.

٢٥- المدني : صدر الدين علي بن أحمد بن محمد الحسني الحسيني (د.ت) أنوار الربيع في أنواع البديع، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٦- المطعني: عبد العزيز إبراهيم محمد، ١٩٩٢م، خصائص التعبير القرآني وخصائصه البلاغية، مكتبة وهبة للنشر.

٢٧- منير سلطان (د.ت) البديع تأصيل وتجديد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨- الميداني: عبد الرحمن الميداني (د.ت) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٩- الهاشمي: السيد أحمد بن إبراهيم بن مصطفى (د.ت) جواهر البلاغة، ضبط وتدقيق: د. يوسف الصميلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

غياب أنظمة إدارة الجودة وأثرها على مراقبة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفيات السودانية الخاصة

"دراسة حالة مستشفى توب كير الخاص بمدينة الدويم خلال الفترة ٢٠٢٤-٢٠٢٥"

أمل الماحي الخليفة محمد(•)

محمد عامر أحمد محمد

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة توضيح أهمية الأجهزة الطبية العلاجية بالعناية المركزية للمستشفيات السودانية، وكذلك التعرف على مدي تأثير أنظمة إدارة ومراقبة الجودة علي سلامة الأجهزة الطبية الحيوية، استخدمت الدراسة عدة وسائل تضمن العمل الميداني والملاحظة والمقابلة والاستبانة والتقارير المكتبية، كما اتبعت المنهج الوصفي التحليلي للوصول إلي نتائج وتوصيات تساعد متخذي القرار بالإدارات العليا للصحة والمستشفيات لتطوير الأداء المهني من خلال الاهتمام بتطبيق نظم إدارة ومراقبة الجودة، توصلت الدراسة إلي أن إدارة الجودة بمستشفي توب كير الخاص تساهم في ترقية الخدمات المقدمة من إدارة الأجهزة الطبية الحيوية من خلال الأقسام التي تتبع لها إداريا وماليا، وان هناك جوده في مستوي الأجهزة الصحية الحيوية ناتج من إدارة ومراقبة الجودة، وقد أوصت الدراسة بضرورة إصدار وتبني إجراءات إدارية جديدة من قبل إدارة المستشفى تزيد من فعالية الجودة وتحقيق تنمية متكاملة للخدمات الصحية، وضرورة توفير موارد مالية كافية للتسيير والصرف علي خدمة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفيات، وضرورة إعطاء المستشفيات أولوية قصوى في الخدمات التحتية الأخرى خاصة خدمتي الكهرباء والمياه.

كلمات مفتاحيه: الجودة، الأجهزة الطبية، المستشفيات السودانية.

المقدمة: إن الجغرافيا الطبية تعني بدراسة أنظمة إدارة الجودة ومراقبة الجودة باعتبارها تضم مجموعة من السياسات والإجراءات والعمليات التي تهدف إلي ضمان جودة المنتجات أو الخدمات التي تقدمها المؤسسات الطبية، وترتكز جزئيات مكونات أنظمة إدارة ومراقبة لجودة علي استراتيجية تتبني حزمة من السياسات والإجراءات والعمليات والمعايير التي تتبعها المؤسسة لتحقيق الأداء المهني وتحسين الجودة وزيادة الكفاءة وزيادة رضا العملاء وتحسين السمعة، في مجال الجغرافيا الطبية تعتبر أنظمة إدارة ومراقبة الجودة هي الضامن الحقيقي للأداء المهني المتميز في القطاع الصحي بصفة عامة والصحة العلاجية علي وجه الخصوص، فالجغرافيا الطبية تدعوا إلي تطبيق أنظمة الجودة علي كل جزئيات الخدمة الصحية العلاجية كضرورة ملحة لضمان تقديم خدمات صحية متميزة، علي إن يرتكز مستوي الأداء المهني الصحي العلاجي في المستشفيات علي معينات العمل الصحي المتمثلة

(•) جامعة الملك خالد – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم الجغرافيا

* جامعة بخت الرضا. كلية التربية. قسم الجغرافيا.

في الأجهزة الطبية الحيوية، وصحة البيئة ، التي يعتمد عليها الكوادر العلاجية في التشخيص وعلاج الإمراض وتحسين جودة الحياة للمرضي، حيث يعتمد عليها في التشخيص الدقيق مثل أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي (MRI) وأجهزة الأشعة ، ومراقبة الحالة الصحية مثل أجهزة مراقبة القلب وأجهزة قياس ضغط الدم ، وتحسين جودة الحياة للمرضي مثل الاطراف الصناعية المساعدة علي الحركة ، وتقليل المخاطر الحيوية المرتبطة بالعمليات الجراحية والعلاج ، تطبيق أنظمة إدارة ومراقبة الجودة بشكل دقيق في الأجهزة الطبية الحيوية للقطاع الصحي العلاجي ، أصبح في غاية الأهمية بالمستشفيات . الواقع المعاش في المستشفيات يعكس قصور كبير في مستوي خدمات الأجهزة الطبية الحيوي التي تعينهم علي الأداء المهني المتميز، حيث تعاني الكوادر الصحية من عدم توفر الكثير من الأجهزة الطبية الحيوية، وتعطل بعضها لغياب الصيانة والمتابعة، ويعزي ذلك إلي غياب أنظمة إدارة ومراقبة الجودة، حيث تعمل إدارة الجودة علي توفر وجود الأجهزة ومعينات العمل بينما تعمل مراقبة الجودة علي سلامة وضمان التشغيل.

مشكلة الدراسة: إن تأثير غياب أنظمة إدارة ومراقبة الجودة علي توفر وسلامة الأجهزة الطبية العلاجية بالمستشفيات السودانية الخاصة أصبح من أهم المشكلات التي تواجه الكوادر الصحية، وتضعف الأداء المهني، وتقلل من دور المستشفيات في تقديم الرعاية الصحية بصورة ممتازة، مما دفع كثير من المواطنين للبحث عن مصادر بديلة لتلقي العلاج، والتنقل من مدينة إلي أخري بحثا عن مستشفى متوفر بها جهاز طبي معين أو حتي السفر إلي خارج السودان

عليه يمكن صياغة مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس التالي ما هو اثر غياب أنظمة إدارة ومراقبة الجودة علي جودة الأجهزة الطبية الحيوية بالعناية المركزية للمستشفيات السودانية الخاصة.

أهداف البحث: توضيح أهمية الأجهزة الطبية العلاجية بالعناية المركزية للمستشفيات السودانية، التوصل إلي معرفة مدي تأثير أنظمة إدارة ومراقبة الجودة علي سلامة الأجهزة الطبية الحيوية، التوصل إلي نتائج وتوصيات قد تساعد متخذي القرار بالإدارات العليا للصحة والمستشفيات لتطوير الأداء المهني من خلال الاهتمام بتطبيق نظم إدارة ومراقبة الجودة.

فرض الدراسة: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين أنظمة إدارة ومراقبة الجودة وتوفر وسلامة وتشغيل الأجهزة الطبية الحيوية بمستشفى توب كير، مدينة الدويم.

عينة الدراسة: إن طبيعة هذه الدراسة التي تبحث عن دور إدارة الجودة بمستشفى طوب كير الخاص جعل عينة الدراسة تتكون من الإداريين والمختصين والأطباء والعاملين والمرضي المنومين الذين يعتمدون علي الأجهزة الطبية الحيوية في أداء مهامهم الوظيفية وتلقي علاجهم والبالغ عددهم ٥٣ مبحوث بنسبة ١٠٠٪

الدراسات السابقة. دراسة: وجدان عابدين عبد الرحيم: (٢٠٢٤) عن اثر اتخاذ القرارات الإدارية علي جوده الخدمة الصحية بمستشفي طوب كير والنصر بمحلية الدويم خلال الفترة من ٢٠١٩-٢٠٢٤ ، هدفت الدراسة إلي التعرف على مفهوم اتخاذ القرارات الإدارية وبيان أهميتها وتأثيرها على جوده الخدمة الصحية العلاجية ، وعلي جودة مخرجات الأداء المهني للعاملين ، والتعرف على مفهوم

جوده الخدمة الصحية العلاجية في بمستشفي توب كير النصر ، وافترضت الدراسة بان هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين اتخاذ القرارات الإدارية و جوده الخدمة الصحية بمستشفي توب كير والنصر، توصلت الدراسة إلي وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين عملية صنع القرار و جوده الخدمة الصحية محل الدراسة ، والي وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين عملية اتخاذ القرار و جوده الخدمة الصحية محل الدراسة ، ومن ثم أوصت الدراسة بضرورة الاهتمام بتجويد الخطة الاستراتيجية لضمان اتخاذ قرارات إدارية وفنية سليمة تعزز من ثقة المستفيدين في جودة الخدمات الصحية العلاجية ، والاهتمام بتطبيق نظم إدارة الجودة ومراقبة الجودة لضمان تقديم خدمات صحية علاجية ذات مستوي عالي تنال رضا العملاء.

دراسة صلاح الدين عباس حداد (٢٠١٤) عن قياس مستوي جودة الخدمات الطبية في السودان ، دراسة حالة مستشفى النساء للتوليد والجراحة العامة بالإدارة العامة للخدمات الطبية ، هدفت الدراسة إلي تحقيق إضافة إلي الإحصاء القياسي والرقابة علي مستوي الخدمات الطبية عامة التي تقدمها الإدارة العامة للخدمات الطبية للمرضي المنومين ، توصلت الدراسة إلي إن هناك فروقا ذات دلاله إحصائية بين توقعات وإدراك المرضي المنومين للخدمة الطبية لصالح الخدمة المتوقعة في عنصري الملموسة والاعتمادية ، وأوصت الدراسة بضرورة العمل علي تحقيق جودة الخدمات الطبية عبر الخدمات المختلفة التي تناولتها الدراسة ، و العمل علي إدخال التكنولوجيا المتطورة في العمليات الإدارية والعلاجية .

دراسة كوثر علي محمد العبيد : (٢٠١٩) عن قياس مستوي جودة الخدمات الصحية من خلال وجهة نظر المرضي والعاملين بالمستشفيات السودانية ، بالتطبيق علي عينه من مستشفيات الدويم خلال الفترة ٢٠١٧-١٩١٨ ، هدفت هذه الدراسة إلي معرفة مستوي جودة الخدمات الصحية من وجهة نظر المرضي والعاملين بمستشفيات محلية الدويم ، أظهرت الدراسة انه توجد فروق معنوية ذات دلالة إحصائية بين استجابات إفراد العينة ، وجميعها لصالح الموافقين علي أي عنصر ملموس تشير إلي التسهيلات المادية والأجهزة والمعدات ، والأماكن وصالات انتظار المرضي ، والمباني والمظاهر التي تشمل الغرف والعنابر والحمامات وغيرها بالمستشفيات ، و أوصت الدراسة بضرورة توفير الأجهزة الطبية الحيوية وصيانة الأجهزة المتعطلة ، ضرورة وضع برتوكول لتوفير ومتابعة توفير الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفيات حسب التخصصات ومتابعة صيانتها وتدريب العاملين والغنيين عليها .

دراسة حسن احمد حسن الشيخ (٢٠٢٠) ، الإجراءات التنظيمية لمستشفى الدويم التعليمي وفق مواصفات وزارة الصحة الاتحادية والخطة الاستراتيجية الخمسية لتطوير القطاع الطبي خلال الفترة من ٢٠١٤ إلي ٢٠١٩ ، هدفت الدراسة إلي توفير اطر نظرية وعلمية عن الخدمات الصحية الطبية ، ومعرفة وتقييم مستوي الخدمات الصحية العلاجية بمستشفى الدويم التعليمي من خلال قياس خمسة إبعاد الملموسة والاعتمادية والاستجابة والأمان والتعاطف ومعايرتها وفق مواصفات وزارة الصحة الاتحادية وموجهات الخطة الاستراتيجية الخمسية لتطوير القطاع الطبي خلال الفترة

من ٢٠١٤ إلي ٢٠١٩ ، افترضت الدراسة بأنه توجد فروق معنوية ذات دلالة إحصائية بين استجابات إفراد العينة وفق متغيرات الدراسة وتوفر الإجراءات التنظيمية ، أوضحت نتائج الدراسة استجابات إفراد العينة وجميعها لصالح الموافقين علي أي عنصر ملموس تشير إلي ضعف معينات العمل ، وتردي مستوي صحة البيئة والنظافة ، وعدم توفر الأجهزة الطبية الحيوية مثل أجهزة الرنين المغنطيسي والأشعة المقطعية ، وأجهزة رسم القلب ، والمناظير ، والمعدات ومعينات العمل والعربات واليات النظافة ، والأماكن وصالات انتظار المرضي وعدم اكتمال بنيات مستشفى هباني للولادة ، وان واقع الحال في المستشفى يؤكد إن الخطة الخمسية لم تطبق علي ارض الواقع ، أوصت الدراسة بضرورة وضع خطة استراتيجية إسعافيه طارئة وفق معايير جوده عالية لتطوير العمل بمستشفى الدويم التعليمي .

محتوي الدراسة : عرفت الجودة بأنها فلسفة قائمة علي أساس أنها عملية دمج عمليات المنظمة ووظائفها ذات العلاقة للوصول إلي مستوي متميز من الجودة (ديسار ٢٠٠٠، ٤٥)، وقد عرفت بأنها مجموعة من البرامج التنظيمية تستهدف تنظيم مستوي الإشباع لدي العميل من خلال الالتزام بمبادئ التحسين المستمر للعمليات(عبد المحسن: ٢٠٠٥، ٧٥) ، وعرفت الجودة بأنها القدرة علي انجاز الإعمال بشكل دقيق ، ويقاس ذلك بمستوي الانجاز الذي تم تحقيقه ، ومن خلال الأشياء لأنتهي أدائها بصورة صحيحة ، والأشياء غير الصحيحة بعد تحويرها إلي إعمال صحيحة وإصلاح الأشياء الخاطئة التي يتم عملها بشكل خاطئ . (القرشي : ٢٠٠٧) ، الجودة هي جزء من مكونات الخطة الاستراتيجية ، وهدفها الاسمي ، تأتي الجودة في مقدمه الاهتمامات الاستراتيجية الحيوية التي تواجهنا في حياتنا عموما، وفي مجالات تخصصاتنا التوعية بصفه خاصة. يرجع ذلك إلى التقدم العلمي ، وتزايد حد المنافسة بين المؤسسات الإنتاجية والخدمية ، في ظل زيادة العرض عن الطلب ، ويتجاوز مفهوم الجودة معناه التقليدي إلي جوده المنتج أو خدمه أو جودة التشغيل وجودة الأدوات ومعينات العمل ، يشمل تعريف الجودة جودة مؤسسات العمل أو منظمات الخدمة ، والجودة تعني السعي لتحسين وتطوير العمليات والأداء وتقليل التكاليف والتحكم في الوقت وتحقيق الرغبات العملاء والمتطلبات السوق والعمل بروح فريق وهذا جميعه يمكن تلخيصه في نقطتين أساسيتين وهي:- المطابقة للمواصفات ، وإشباع وتحقيق المتطلبات السوق. الجودة تعني الإتقان وتعني تطبيق نظام الجودة لتحقيق رغبات ومتطلبات العميل انطلاقا من مبدأ أساسي في أداره الجودة الشاملة وهي التفوق على رغبه العميل. وقد تبني البعض مفهوما عن جودة الخدمة ينعكس من خلال إدراك العميل المستفيد للجودة ودرجة مطابقتها لتوقعاته، فإذا ما حصل العميل علي الخدمة وكان ما قدم إليه ادني مما كان يتوقعه فقد اهتمامه بالمؤسسة، وإذا كان ما قدم إليه متفق مع توقعاته أو تفوق عليها فانه سوف يقبل على التعامل مع المؤسسة

تعريف جودة الخدمة الصحية: إن جودة الخدمة الصحية ليس من السهل تعريفها بطريقه دقيقه ، (كل فرد يحاول الكتابة عن جودة الخدمة الصحية وممارستها يجد من الصعب عليه إن يصل إلى تعيير واحد يتحقق مع الآخرين).

(جودة:٢٠١٦) ، الجمعية الأمريكية لضبط الجودة فقد عرفها بأنها مجموعة من المزايا وخصائص المنتج أو الخدمة القادرة علي تلبية حاجات المستهلكين (الدرانكه ، ٢٠٠٦، ٦٥) ، وتميل غالبيتها التعريفات الحديثة بجوده الخدمة على أنها معيار لدرجه تطابق الأداء الفعلي للخدمة مع توقعات الزبائن لهذه الخدمة ويمكن التعبير عن ذلك رياضيا بالمعادلات التالية، جودة الخدمة = إدراك الزبون للأداء الفعلي _ توقعات الزبون مستوى الأداء. وفي وضوح معادله السابقة يمكن تصوير ثلاث مستويات للخدمة.

الخدمة العادية :وهي التي تتحقق عندما يتساوى الأداء الفعلي للخدمة مع توقعاتها المسبقة عنها.

الخدمة الرديئة :وهي تحقق عندما يتدنى الأداء الفعلي للخدمة عن مستويات التوقعات بالنسبة لها.

الخدمة المتميزة: هي التي تحقق عندما يفوق أو يتجاوز الأداء الفعلي للخدمة توقع الزبائن بالنسبة لها.

مفهوم جودة الخدمات الصحية يختلف من فرد إلي أخر، وذلك حسب موقع الفرد من المؤسسة الصحية وهو ما نوضحه في الاتي: -

الجودة لدي مقدم الخدمة: الالتزام بمعايير الجودة الصحية لتحقيق النتائج المرجوة.

الجودة لدي المريض: درجة الرعاية الصحية التي يتلقاها وتتفق مع توقعاته أو تزيد عنها.

الجودة لدي إدارة المؤسسة الصحية: هي الوصول إلي مستوي مرتفع من رضا المرضي وبالتكلفة الأقل.

الجودة لدي صانعوا السياسات الصحية: هي تحسين مستمر لصحة إفراد المجتمع في ضوء الموارد المتاحة

عرفت منظمة الصحة العالمية جودة الخدمات الصحية بأنها (التوافق مع المعايير والأداء الصحيح بطريقة أمنه ومقبولة من المجتمع، وبتكلفة مقبولة، بحيث تؤدي إلي إحداث تأثير علي نسبة الحالات المرضية ونسبة الوفيات ونسبة الإعاقة ونسبة سوء التغذية) (الأحمدي: ٢٠٠٤، ٢٨). يمكن حصر التعريفات المقدمة في مجال الخدمة الصحية في ثلاثة مجموعات أساسيه هي: -

مجموعه التعريفات التي تحاول إن تركز على جوده الخدمة الصحية

٢-مجموعه **التعريفات التي قامت بالتركيز على عمليه الأداء الخدمة الصحية ذاتها**

٣-مجموعه **التعريفات الموجه للزبائن**:

يتطلب وضع تعريفات لجوده خاصة بالتحديات الضرورية على ثلاث مجموعات من الإبعاد لجوده الخدمات هي (مجيد: :٢٠١٨، ٥٤). - **البعد الفني - البعد الوظيفي - الإمكانيات المادية**

مفهوم جودة الخدمة الصحية: جودة الخدمة الصحية هي مفهوم يشير إلي مدي تلبية الخدمة لتوقعات العملاء ومتطلباتهم. وتشمل جودة الخدمة الصحية عدة عناصر هي: -

الموثوقية :(Reliability) وهي عنصر أساسي من عناصر جودة الخدمة الصحية وتشير إلي إنه يجب إن تكون موثوق بها كلما أعيد أو تكرر تقديمها وهي تتكون من: -القدرة علي تقديم الخدمة الصحية بشكل موثوق به، وتلبية التوقعات والالتزامات. وتتكون الموثوقية من عدت مكونات هي: -الالتزام

بالمواعيد عند تقديم الخدمة الصحية في الوقت المحدد. والدقة بتقديم الخدمة الصحية بدقة وبدون أخطاء، والاستجابة السريعة للاحتياجات العملاء بشكل سريع وفعال، والامتثال للمعايير والسياسات المحددة.

أهمية الموثوقية: تعمل الموثوقية علي: - بناء الثقة التي تساعد على بناء الثقة مع العملاء، وزيادة الرضا التي تؤدي إلي زيادة رضا العملاء عن الخدمة الصحية، وتعزيز السمعة التي تعزز ثقة المنظمة وتجعلها أكثر جاذبية للعملاء. وتقليل الشكاوى التي تقلل من شكاوى واحتجاجات العملاء

كيفية تحسين الموثوقية: يتم التحسين من خلال تحديد معايير الجودة الصحية وتدريب الموظفين واستخدام التكنولوجيا والأجهزة الطبية الحيوية والاستجابة السريعة.

الاستجابة: (Responsiveness) وهي: هي عنصر مهم من عناصر جودة الخدمة الصحية، وتشير إلي القدرة علي الاستجابة لاحتياجات العملاء وتقديم المساعدة بشكل فعال وسريع وهي تعتمد علي: القدرة على الاستجابة لاحتياجات العملاء، وتقديم المساعدة بشكل فعال وسريع.

أهم مكونات الاستجابة هي: **السرعة**: الاستجابة السريعة لاحتياجات العملاء فعامل الزمن يعد معيار حقيقي لقياس جودة الخدمة الصحية وكسب ثقة العملاء. **والاهتمام**: الاهتمام باحتياجات العملاء وتقديم خدمات صحية شخصية تجعل العملاء يحسون بنوع من الحميمة وخصوصية المعاملة مما يعزز من عمليات الانتماء والثقة. **والتواصل**: التواصل الفعال مع العملاء وتقديم المعلومات اللازمة، وكلما كانت أدوات التواصل فعالة اختصرت الكثير من المشكلات وساعدت علي سرعة انجاز المهام.

أهمية الاستجابة: تؤدي إلي زيادة الرضا وبناء الثقة وتعزيز السمعة وتقليل الشكاوى.

أدوات تحسين الاستجابة: (الجزائري: ٢٠١٣) تتم من خلال تدريب الموظفين، واستخدام التكنولوجيا، وتوفير قنوات اتصال متعددة، وفعالة والاستجابة الفورية.

الضمان: (Assurance) وهي عنصر مهم من عناصر جودة الخدمات الصحية ويشير للعملاء بان ضمان تقديم خدمات صحية ذات جودة عالية يعزز الثقة بين المنظمة والعملاء، ويساهم في بناء علاقة طويلة الأمد وترتكز عملية الضمان إلي: توفير ضمانات للعملاء بان الخدمة ستكون ذات جوده عالية. وبناء الثقة مع العملاء.

التعاطف: (Empathy) وهي : القدرة علي فهم احتياجات العملاء, وتقديم خدمة شخصية.

المظهر: (Tangibles) وهي : لمظهر الجيد للخدمة الصحية والموظفين والبيئة. وتقديم تجربة ملموسة ومرتبه للعملاء.

السرعة: (Speed) وهي: تقديم الخدمة بسرعة وفعالية .و تقليل وقت الانتظار.

الدقة: (Accuracy) وهي: تقديم الخدمة بدقة وبدون أخطاء وتلبية التوقعات والمتطلبات.

الابتكار: (Innovation) وهي: تقديم حلول مبتكره ومتطورة وتحسين الخدمة بشكل مستمر

هذه العناصر تعمل معا لضمان تقديم خدمة عالية الجودة تلبي توقعات العملاء وتجاوزها.

ثانياً: أهمية الجودة: هي مفهوم أساسي في مختلف المجالات، بما في ذلك الصناعة والخدمات والرعاية الصحية وهناك عدت نقاط تبرز أهمية الجودة وهي (أبو عقله، ٢٠٠٢، ٨٧) رضا العملاء والتنافسية وتقليل التكاليف وتحسين الكفاءة وتعزيز السمعة والامتثال للمعايير.

أهداف جودة الخدمة الصحية (الدراكة: ٢٠٠٢، ٤٣) تتمثل الأهداف الرئيسية لجودة الخدمة الصحية في الآتي: ضمان الصحة البدنية والنفسية للمستفيدين (المرضي) وتقديم خدمة صحية ذات جودة متميزة من شانها تحقيق رضا المستفيد وزيادة ولائه للمؤسسة الصحية والذي سيصبح فيما بعد وسيلة إعلامية فاعلة لتلك المؤسسة الصحية، وتعد معرفة أراء وانطباعات المستفيدين (المرضى) وقياس مستوي رضاهم عن الخدمات الصحية وسيلة مهمة في مجال البحوث الإدارية والخطط للرعاية الصحية ووضع السياسات المتعلقة بها، وتطوير وتحسين قنوات الاتصال وضمان تأدية مهامها بكفاءة وفاعلية، وتحقيق مستويات إنتاجية أفضل، إذ يعد الوصول إلى المستوى المطلوب من الرعاية الصحية المقدمة من المستفيدين (المرضى) الهدف الأساسي من تطبيق الجودة، وكسب رضى المستفيد (المريض) إذ إن هناك قيم أساسية للإدارة الجودة لا بد من توفرها في أي مؤسسة صحية تعمل علي تحسين الجودة وتسعي إلي تطبيق نظم الجودة وبالتالي تطوير أداء العمل وهذا ما يؤدي في النهاية إلي كسب رضي المستفيد (المريض) ، وتحسين معنويات العاملين ، إذ إن المؤسسة الصحية هي التي يمكن إن تعزز الثقة لدي العاملين لديها وجعلهم يشعرون بأنهم أعضاء يتمتعون بالفاعلية مما يؤدي إلي تحسين معنوياتهم وبالتالي الحصول علي أفضل النتائج ، وزيادة الطلب علي مختلف أنواع الخدمات الصحية الحديثة ويرافق هذه الزيادة الاهتمام بتلبية حاجات وتوقعات المستفيد (المريض)، وزيادة التنافس بين المؤسسات الصحية المتشابهة، ولائمة العلاج والرعاية المقدمين لمختلف الحالات المرضية، وتحقيق أفضل النتائج السريرة لمختلف الحالات المرضية، واعتماد الإجراءات السريرية المتميزة للحد من المضاعفات والإحداث التي يمكن تحاشيها أو الوقاية منها، وتبني السلوك الايجابي عند تعامل العاملين مع المستفيدين (المرضي) علي النحو الذي يحفظ لهم كرامتهم الفردية او العمل علي إشراكهم في خطط الرعاية المرسومة لهم من قبل أطبائهم المعالجين، وتامين بيئة تساعد علي سلامة المريض، وبعث الاطمئنان في النفوس وضمان سلامة الإجراءات حيال الوضع الصحي، وضمان الاستخدام المناسب للموارد المستهدفة، وضمان توفر معينات العمل والأدوات والمعدات والأجهزة الطبية الحيوية، وضمان إصحاح البيئة والنظافة والتخلص من النفايات، وضمان مكونات البنية التحتية الأساسية من كهرباء ومياه وصرف صحي وعربات، وضمان رفع كفاءة مستوي الكوادر الطبية المساعدة بالتدريب والتقييم والمتابعة، وضمان وجود كوادر صحية ذات خبرات تراكمية عالية وتوفر المرجعيات الطبية على أعلى المستويات.

أنظمة إدارة الجودة و أنظمة مر اقبة الجودة (زرياب: ٢٠٠٠)

أولا: أنظمة إدارة الجودة. تعرف إدارة الجودة بأنها فلسفة إدارية حديثة تأخذ شكل نهج أو نظام إداري شامل قائم علي أساس إحداث تغيرات ايجابية جذرية لكل شيء داخل المنظمة ، بحيث تشمل هذه التغيرات ، الفكر والسلوك والقيم والمعتقدات التنظيمية والمفاهيم الإدارية ، ونمط القيادة

الإدارية ، ونظم وإجراءات العمل والأداء من اجل تحسين وتطوير كل مكونات المنظمة للوصول إلي اعلي درجات الجودة ،في مخرجاتها (سلع أو خدمات) وبأقل تكلفة ، بهدف تحقيق اعلي درجة من الرضا لزبائنها عن طريق إشباع حاجاتهم ورغباتهم وفق ما يتوقعونه ، وهذا التوقع يتماشى مع استراتيجية تدرك إن رضا الزبون هو هدف المنظمة وان بقاء المنظمة ونماءها واستمرارها يعتمد علي رضا كل من يتعامل معها.

إبعاد أنظمة إدارة جودة الخدمات الصحية: الإبعاد تعتبر الإطار الذي يساعد مقدمي الخدمات الصحية على تحديد وتحليل المشاكل وقياس مدي تطابق أداء المعايير المتفق عليها. وهي أداة عملية لها بعدين أساسين هما: (الجزائري: ٢٠١٣) **الجودة المادية الملموسة** والتي يتعرض لها العميل حال حصوله علي الخدمة، **والجودة التفاعلية** وهي تمثل عملية أداء الخدمة ذاتها أثناء تفاعل العاملين في المؤسسة مع العملاء. بينما يرى (جور بروس) إن أنظمة إدارة جودة الخدمات الصحية لها بعدين هما (الشمري: ٢٠٠١) **الجودة الفنية**: تشير إلي المخرجات الفعلية للخدمة، **والجودة الوظيفية**: وهي العلاقات والمعاملات بين العميل ومقدم الخدمة ويميز (دونا بريان) أنظمة إدارة جودة الخدمات الصحية تتمثل في ثلاث إبعاد وهي: **البعد الفني**: والذي يمثل في العلم والتكنولوجيا كمشكلة معينة، **البعد غير الفني**: هو التفاعل النفسي والاجتماعي بين مقدم الخدمة والفرد الذي يستخدم الخدمة، **البعد المادي**: وهو المكان الذي تؤدي فيه الخدمة ومعينات العمل والأجهزة الطبية والأدوات وخدمات البنية الأساسية مثل الكهرباء والماء وشبكات الصرف الصحي ومكبات النفايات. بينما توصل (بارا سرمان) أنظمة إدارة جودة الخدمات الصحية وفقا للإدراك العميل وهي (البكري: ٢٠١٥) **المباني**: وهي المكان من الداخل ومن الخارج، **ومظهر مقدمي الخدمة**: اللبس حسب المهمة والدور، **الأدوات والأجهزة الطبية الحيوية**: هي جميع الأجهزة الطبية الحيوية التي تلعب دورا أساسيا في الأداء المهني ويتضمن توفير الأجهزة الطبية الحيوية، وتوفير الكوادر الفنية المؤهلة للتشغيل، وللصيانة، وتوفير قطع الغيار.

الاعتمادية: تقديم الخدمة بشكل صحيح من أول مرة وهي تتضمن: الدقة في العمل، تقديم الخدمة بصورة صحيحة، أداء الخدمة في الوقت المحدد، الثقة في الأطباء والفنيين وكفاءتهم وشهرتهم.

الاستجابة: أي معرفة سرعة استجابة مقدمي الخدمة لطلاب العملاء وتتضمن: الدقة في مواعيد التنفيذ، السرعة في تلبية الخدمة، تقديم الخدمات التي من شانها حث العميل علي التعامل مع المؤسسة، الاستعداد الدائم للعاملين للتعاون مع المريض.

كفاءة وقدرة مقدمي الخدمة: وهي تعني امتلاك الأفراد مقدمي الخدمة للقرارات التي تمكنهم من تقديم خدمة مميزة للعملاء تتضمن: قدرة ومهارة مقدمي الخدمة المتصلين اتصالا مباشر بالعملاء، وقدرة ومهارة القائمين على مساعدة الإفراد المتصلين مباشرة بالعملاء، وقدرة المؤسسة على البحث والتقصي.

السهولة: الوصول إلي مقدمي الخدمة والاتصال عند الضرورة وتتضمن (Harmon, 1992) سهولة الاتصال المباشر بالهاتف أو وسائل التواصل الاجتماعي، واختيار ساعات مناسبة للعمل، واختيار مكان مناسب لتقديم الخدمة.

المجاملة: وتشير إلي حسن معاملة العملاء وتقدير ظروفهم الخاصة:

المصداقية: تعني توفير درجة عالية من الثقة لدى مقدمي الخدمة وتتضمن: سمعة المؤسسة، اسم المؤسسة، السمات الشخصية لمقدمي الخدمة.

الأمان: أي تقديم الخدمة دون مخاطر.

الاتصال: يشير إلي تبادل المعلومات المتعلقة بالخدمة بين مقدمي الخدمة والعملاء بشكل مبسط وذلك لتحقيق الآتي: توضيح الخدمة ذاتها للعميل، توضيح تكلفة الخدمة للعميل، العلاقة بين التكلفة وجودة الخدمة.

الاهتمام والرعاية والعناية: وتتضمن بذل الجهود للتعرف على حاجات العمل من خلال الآتي: معرفة طلبات العميل بالتحديد، إعطاء اهتمام خاص لحاجاته وظروفه الشخصية والتكيف معها.

ثانيا: أنظمة مر اقبة الجودة: مجموعة من الإجراءات والعمليات التي تهدف إلى ضمان جودة المنتجات أو الخدمات التي تقدمها المنظمة، وضمان استمرار التشغيل وعمل الأجهزة والأدوات بكفاءة عالية. ويتم قياس أنظمة مراقبة الخدمة الصحية بعدت طرق، تتعدد بناء علي الغرض من القياسات وأنواع ومتغيرات التي سوف يتم قياسها، وهناك عنصرين أساسيين تهتم أنظمة مراقبة الجودة بمراقبتهم هما:

العنصر التقني: ويتعلق بتطبيق المعرفة، والمعلومات والتقنيات الطبية وغيرها من العلوم في معالجة المشكلات الصحية التي تعطل أو تعوق سير العمل، وتقاس درجة الجودة في هذه العناصر بمدي القدرة علي توفير أقصي حد من المنافع الصحية للمريض دون إن يؤدي ذلك إلي زيادة المخاطر التي يتعرض لها.

العنصر الإنساني: يتمثل في إدارة التفاعل الإنساني الاجتماعي والنفسي بين مقدمي الخدمة الصحية للمرضى، وفق القيم والقواعد الاجتماعية التي تحكم التفاعل بين الافراد بشكل عام وفي مواقف للمرضي بشكل خاص.

إما طرق قياس مر اقبة الجودة فهي (العزاوي: ٢٠٠٩)

طريقة القياس المباشر: وتقوم علي المقارنة مستنده إلي معدلات قياسية موضوعة بواسطة أنظمة وضعتها الأجهزة التنفيذية المشرفة علي المؤسسات الصحية المقارنة محلية، أو مقارنة تاريخية، أو مقارنة قومية، مقارنة دولية.

الطرقة التقليدية: تقاس مر اقبة الجودة التقليدية بثلاث طرق :. قياس الإجراءات: إتباع الإجراءات وفق المعايير المقبولة للرعاية والصيانة والمتابعة **المقاييس الهيكلية**: تختص بالبنية الخدمية من أجهزة ومعدات والأدوات ومعينات العمل وضمان توفرها وتشغيلها وصيانتها. **مقاييس اللو ائح**: استخدام اللوائح المنظمة للعمل في إجراءات المراقبة والمتابعة والتشغيل والصيانة.

مكونات أنظمة مر اقبة الجودة: تتكون أنظمة مراقبة الجودة من: **فحص الجودة:** يتم فحص جودة الأدوات وفق برتوكول معين مستند إلى جدول مواصفات. **اختبار الجودة:** يتم تحديد جودة تشغيل الأدوات وتحديد الأعطال، **مر اقبة العمليات:** استمرار التشغيل الجيد للأدوات والأجهزة والمعدات وفق معايير الجودة.

تحليل البيانات: تسجيل الأداء ومتابعته وتحليل المعلومات.

أنواع أنظمة مر اقبة الجودة (أحمد : ٢٠٠٤) مراقبة الجودة الإحصائية: يتم مراقبة جودة الخدمة الصحية بإتباع أساليب إحصائية لضبط الجودة مثل أسلوب المخطط التدفقي (Flow Chart)، إما أسلوب ورقة الفحص (Check Sheet)، أو استخدام أسلوب مخطط ايشيكاوا (السبب والأثر) (Cause And Effect Diagram)، أو أسلوب مخطط توزيع التواتر (مدمج إحصائي) (Histogram) أو الجرسي للمنحني (Bell-Shaped Curve)، إما أسلوب المخطط المبعثر (دال بستر : ٢٠١١) (Setter Plots) ويعرف بشكل الانتشار لعرض العلاقة بين متغيرين وذلك بغرض تكوين فكرة أولية لطبيعة العلاقة.

مر اقبة الجودة الشاملة: نظام مراقبة الجودة الآلي: نظام مراقبة الجودة في الوقت الحقيقي:

أدوات مر اقبة الجودة: يتم بواسطة: مخططات التحكيم، وتحليل السبب الجذري، وفحص العينات، والاختبارات المعملية،

فو ائد أنظمة مر اقبة الجودة: تتمثل في: تحسين الجودة وتقليل التكاليف، وزيادة رضا العملاء، وتحسين السمعة:

السمات المؤسسية لجودة للخدمات الصحية بولاية النيل الأبيض: تقدم الرعاية الصحية في ولاية النيل الأبيض بواسطة مؤسسات القطاع الحكومي بصورة رئيسية. بالإضافة إلى بعض المنظمات التطوعية مع دور محدود للقطاع الطبي الخاص. تأسيساً على تطبيق النظام الفدرالي في عام ١٩٩٤ وتنفيذاً للامركزية، اختصت الولايات بمهام التخطيط والتنفيذ وتطبيق السياسات العامة للدولة في مجال الرعاية الصحية (إبراهيم: ٢٠١٩) فيما يخص السياسات والاستراتيجيات الصحية بولاية النيل الأبيض فهي متوائمة مع السياسات والاستراتيجيات الصحية الاتحادية بصورة واضحة. ترتكز السياسات والاستراتيجيات الصحية على تطبيق مبادئ الرعاية الصحية الأساسية عبر النظام الصحي المحلي لزيادة تغطية الخدمات الصحية بصورة عادلة وفعالة. وعليه فإن وزارة الصحة الولائية تستهدي بمجموع السياسات الصحية الحالية للدولة مثل الاستراتيجية الربع القرنية، وثيقة سياسة الصحة الإنجابية، وثيقة صحة الطفل، وثيقة سياسة السيطرة على الإيدز، وثيقة سياسة الحزمة الأساسية للرعاية الصحية والاستراتيجية العشرية للموارد البشرية. بعد صدور قانون الحكم المحلي ٢٠٠٦م أعطيت المحليات مزيداً من السلطات والمسئوليات الإدارية خاصة في مجال الصحة. الوحدات الصحية التي تقدم خدمات صحية متخصصة والمستشفيات الخاصة فتتبع إداريا إلى وزارة الصحة الولائية (كافي :٢٠١٢).

استراتيجية جودة الخدمات الصحية بولاية النيل الأبيض وفق وثيقة موجهات الخطة الخمسية للاستراتيجية ٢٠١٤-٢٠١٩ م. (الشيخ، ٢٠٢١): تقديم خدمات صحي ذات جوده عالية هو هدف استراتيجية التنمية الصحية للقطاع العام والقطاع الخاص على حد سواء، ووسيلتها للمساهمة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية. كما نصت وثيقة موجهات الخطة الخمسية للإستراتيجية ٢٠١٤-٢٠١٩ م. سيظل الهدف هو توفير الصحة للجميع بحيث يتمتع المواطن بأعلى مستوى من الجودة يمكن بلوغه من الصحة التي تمكنه من الحياة الاجتماعية والاقتصادية المنتجة، أساسيات واستراتيجيات تراعي القيم المتأصلة في ثقافة المجتمع والمشكلات الصحية ذات الأولوية والمشاركة الكاملة من قبل المجتمع بتوفير خدمات القطاع الخاص والتنسيق الفعال بين القطاعات، يدعمها الالتزام السياسي للدولة والنمو الاقتصادي المضطرد. واهم النقاط التي توضح أهداف الجودة ولها علاقة مباشرة بتوفير الأجهزة الطبية الحيوية في الخطة الاستراتيجية هي:

إنشاء معايير جودة الخدمة على المستوى الولائي والعمل على ترجمة هذه المعايير الى دلائل إرشادية وبروتوكولات خدمة في كافة مستويات النظام الصحي، إدراج معايير جودة الخدمة ضمن المناهج أكاديمية والبرامج الأكاديمية للعلوم الصحية، تنظيم وتنفيذ برامج التدريب إثناء الخدمة للعاملين لإكسابهم المهارات اللازمة ، رفع كفاءة مراكز المعلومات الصحية بوزارة الصحة الولائية بتوفير الميزانيات وأجهزة الحاسوب ووسائل الاتصال بالمرافق الصحية المختلفة لتحسين وتوسيع قاعدة المعلومات، تقوية نظام الإشراف ومتابعة الجودة بكافة مكوناته على المستويين الولائي والمحلي، دعم وتوفير معينات العمل والكوادر المؤهلة لإدارة التقييم والمتابعة بوزارة الصحة الولائية، إنشاء وحدات للجودة و للتقييم والمتابعة علي مستوى المحليات الأربع، التأكيد على أهمية البحوث والمسوحات لتوفير المعلومات اللازمة لرسم السياسات والخطط الصحية.

رفع قدرات الكوادر الصحية في إجراء بحوث النظام الصحي لتوفير المعلومات اللازمة التي تساعد في إيجاد الحلول العملية لمشاكل النظام الصحي الولائي، تقوية قنوات التعاون مع الجامعات القائمة بولاية النيل الأبيض للمشاركة في رفع مستوي الجودة من خلال تنفيذ البحوث العلمية وبحوث النظام الصحي.

نشأة وتطور مستشفى توب كير الخاص: مستشفى توب كير التخصصي واحد من المستشفيات الخاصة التي أسست في العام ٢٠٢٢م بمدينة الدويم، وحدة الدويم الإدارية، وتقع في الجزء الغربي من سوق الدويم الرئيس شرق الحي الثامن بالقرب من البنك الإسلامي وصينية الحركة. بدأت الفكرة بتأسيس مستشفى علاجي متكامل الأركان بمدينة الدويم كإمداد لظهور خدمات صحية علاجية على مستوى المستشفيات الخاصة، مثل مستشفى النصر التخصصي، ومستشفى الأندلس التخصصي، ومستشفى دار العلاج التخصصي، ومستشفى الزهراء، ومستشفى سارية التخصصي، وغيرها من المراكز الصحية الخاصة التي تقدم خدمات صحية علاجية متميزة بمدينة الدويم. الاستثمار في مجال الطب العلاجي متاح بالسودان بصفة عامة، وفي ولاية النيل الأبيض على وجه الخصوص، وفي محلية الدويم بصفة أخص، وقد ظهر هذا النوع من الخدمات الصحية العلاجية بفضل القبول الكبير الذي

وجده من قبل المرضي والمستفيدين من المستشفيات العلاجية، بفضل الخدمات الصحية الجيدة نسبياً مقارنة بمستوى الخدمات الصحية المقدمة في المؤسسات العلاجية الحكومية. مستشفى توب كير هو أحد المستشفيات الاستثمارية الخاصة بالطب العلاجي، تقدم عدد من الخدمات الطبية المتميزة على مستوي التخصصات، مثل تخصص الباطنية، وتخصص النساء والتوليد، وتخصص الجراحة، وتخصص المسالك البولية، وتخصص الأطفال، بجانب الخدمات العلاجية المساندة، مثل وجود معمل متكامل حديث وقسم الطوارئ والحوادث وقسم للعمليات الجراحية بكل أنواعها وقسم للتنويم. يعمل في مستشفى توب كير عدد من الأخصائيين المميزين أصحاب الخبرة العالية، والسمعة الأكاديمية الممتازة، كما يعمل به طاقم تمريض متخصص بثلاث ورديات يقدم خدمة علاجية متكاملة طوال ساعات اليوم، ويوجد به معمل تحليل طبي يعمل ٢٤ ساعة في اليوم، وهو معمل مرجعي به خدمات مميزة وكاملة، حيث يوجد به الأجهزة الطبية الضرورية. أما قسم الحوادث والإصابات فهو يقدم خدمات متكاملة للطوارئ والحوادث. لمستشفى توب كير خطة استراتيجية مجازة من قبل إلا داره تحمل رؤية المستشفى ورسالتها وأهدافها. وتسعي لجعل مستشفى توب كير التخصصي الخاص مؤسسة طبية تهدف إلى تقديم خدمات علاجية متميزة حسب احتياجات سوق العمل وفق معايير مرتفعة من الجودة للضمان موقع متقدم بين مؤسسات الخدمات العلاجية الخاصة.

الهيكل التنظيمي لمستشفى توب كير: تم تحديد الهيكل التنظيمي لمستشفى طوب كير وفق النسق الإداري المعمول به فى المستشفيات العلاجية الخاصة, حيث يتكون من: **المدير العام**: هو المسئول الأول في إدارة المستشفى بشقيها التنفيذي والإداري، و**المدير الطبي**: هو مساعد المدير العام للشؤون الفنية المتعلقة بالطب العلاجي، ويوكل إليه مهمة إدارة الوحدات العلاجية العاملة ، و مشرف على عدد من الوحدات العلاجية وهي الكوادر الفنية العاملة بالمستشفى معمل التحليلات الطبية والصيدلية و الكوادر الطبية المساعدة العاملة بالمستشفى مثل الممرضات ومختصين المعمل والصيادلة بالصيدلية ومشرف أيضاً على المخازن الطبية التي تحتوى على الأدوية والأجهزة الطبية وهو مكلف بملف جودة العمل الطبي العلاجي وجودة عمل الأجهزة الطبية الحيوية، و**المدير الإداري**: هو مساعد المدير العام للشؤون الإدارية، ويوكل إليه مهمة الإشراف على عدد من الأقسام الإدارية مثل إدارة شؤون الأفراد المكون من الكوادر غير الطبية من الموظفين، العمال كما يشرف على قسم الحسابات وقسم النظافة وقسم الأمن وقسم المخازن الإدارية، ومكلف بملف إدارة جودة العمل الإداري والبيئة المهنية والتشغيل والشراء والتعاقد.

جودة الخدمة بمستوصف توب كير: يعمل المستشفى بنظام الرقابة الالكترونية مثل تركيب كاميرات للمراقبة في كل نواحي المستشفى لمراقبة الأداء وتصحيح الانحرافات واتخاذ القرارات الصحيحة فوراً. يتم تقيم الأداء من خلال استمارة صممت من قبل إدارة الموارد البشرية. يتم متابعة عمل وأداء الأجهزة الطبية الحيوية من خلال المدير الطبي والمدير الإداري، ولكل دور حسب تخصصه، فالمدير الطبي يتابع من حيث الأداء المهني والإبعاد الفنية وجودة التشغيل، والمدير الإداري

يتابع من حيث توفير مكونات البنية التحتية للتشغيل من كهرباء ومياه ومعينات عمل والصيانة وتجديد الأجهزة.

غياب أنظمة إدارة الجودة وثرها على مر اقبة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفيات السودانية الخاصة "دراسة حالة مستشفى توب كير الخاص بمدينة الدويم خلال الفترة ٢٠٢٤-٢٠٢٥:"

يتناول هذا البحث تحليل البيانات واختبار الفرضيات من خلال التوزيع التكراري لعبارات الاستبانة، الإحصاءات الوصفية، بالإضافة إلى اختبار الفرضية. وذلك على النحو التالي:

أولاً: التوزيع التكراري لعبارات الاستبانة:

جدول(١) التوزيع التكراري لإجابات المبحوثين حول عبارات الجودة في مستشفى توب كير

العبارة	المقياس	أوافق بشد	أوافق	محايد	لا أوافق بشدة	لا أوافق	المجموع
١.يقدم المستشفى خدمة صحية بجودة عالية للمرض.	التكرار	٢١	٢٦	٢	٣	١	٥٣
	النسبة	٪٤٠	٪٤٩	٪٤	٪٦	٪٢	٪١٠٠
٢.تتم الخدمة الصحية المستشفى بدقة عالية.	التكرار	٢٤	١٩	٧	١	٢	٥٣
	النسبة	٪٤٥	٪٣٦	٪١٣	٪٢	٪٤	٪١٠٠
٣.يقدم المستشفى الخدمة بعناية للزبائن.	التكرار	٢٧	١٥	٥	٣	٣	٥٣
	النسبة	٪٥١	٪٢٨	٪٩	٪٦	٪٦	٪١٠٠
٤.يلتزم المستشفى باللوائح والقوانين.	التكرار	٢٥	٢٠	٦	١	١	٥٣
	النسبة	٪٤٧	٪٣٨	٪١١	٪٢	٪٢	٪١٠٠

المصدر: الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (١) ما يلي:

أعلى نسبة الموافقون على المستشفى يقدم خدمة صحية بجودة عالية للمرض. بلغت (٨٩) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (٤) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (٨) %

أعلى نسبة الموافقون على أن الخدمة الصحية بالمستشفى تتم بدقة عالية. بلغت (٨١) %، بينما نسبة غير الموافقين (٦) %، أما الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (١٣) %.

أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن بالمستشفى يقدم الخدمة بعناية للزبائن. بلغت (٧٩) %، بينما نسبة غير الموافقين (١٢) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (٩) %.

أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن المستشفى يلتزم باللوائح والقوانين. بلغت (٨٥) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (١١) %، بينما نسبة غير الموافقين (٤) %.

جدول(٢) التوزيع التكراري لإجابات المبحوثين حول جودة بيئة العمل في مستشفى توب كير

العبارة	المقياس	أوافق بشدة	أوافق	محايد	لا أوافق بشدة	لا أوافق	المجموع
١.تحفز بيئة العمل بالمستشفى العاملين على الأداء الجيد.	التكرار	٢٥	٢١	٥	١	١	٥٣
	النسبة	٤٧٪	٤٠٪	٩٪	٢٪	٢٪	١٠٠٪
٢.بيئة العمل بالمستشفى متاحة بتنفيذ الخدمة للمرضى.	التكرار	١٣	٣٠	٧	١	٢	٥٣
	النسبة	٢٥٪	٥٧٪	١٣٪	٢٪	٤٪	١٠٠٪
٣.تتيح بيئة العمل بالمستشفى تقديم الخدمة بدرجة عالية.	التكرار	٣٢	١٠	٧	٢	٢	٥٣
	النسبة	٦٠٪	١٩٪	١٣٪	٤٪	٤٪	١٠٠٪
٤.يوجد بالمستشفى بيئة صحية متكاملة لشفاء المرضى.	التكرار	١٠	٢٩	١٠	٣	١	٥٣
	النسبة	١٩٪	٥٥٪	١٩٪	٧٪	٢٪	١٠٠٪

المصدر: الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (٢) ما يلي:

أعلى نسبة الموافقون على جودة بيئة العمل بالمستشفى تحفز العاملين على الأداء الجيد. بلغت(٨٧) %، بينما نسبة غير الموافقين (٤) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (٩) %.

أعلى نسبة الموافقون على جودة بيئة العمل بالمستشفى متاحة بتنفيذ الخدمة للمرضى. بلغت(٨٢) %، بينما نسبة غير الموافقين (٦) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (١٣) %.

أعلى نسبة الموافقون على جودة بيئة العمل بالمستشفى تتيح تقديم الخدمة بدرجة عالية. بلغت(٧٩)%، بينما نسبة غير الموافقين (٨)% ، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (١٣)%.

أعلى نسبة الموافقون على أن بالمستشفى يوجد جودة بيئة صحية متكاملة لشفاء المرضى. بلغت(٧٤) %، بينما نسبة غير الموافقين(٩)%، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة بلغت نسبتهم (١٩)%.

جدول رقم(٣) التوزيع التكراري لإجابات المبحوثين حول عبارات جودة الأجهزة الطبية الحيوية

العبارة	المقياس	أوافق بشد	أوافق	محايد	لا أوافق بشد	لا أوافق	المجموع
١.تجد جودة الأجهزة الطبية الحيوية رضا تام من المرضى بالمستشفى.	التكرار	١٤	٢٦	١٠	٢	١	٥٣
	النسبة	٢٦٪	٤٩٪	١٩٪	٤٪	٢٪	١٠٠٪
٢. تؤدى جودة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى إلي انجاز الخدمة الصحية بطريقة صحيحة من أول	التكرار	١٦	٢٨	٧	١	١	٥٣
	النسبة	٣٠٪	٥٣٪	١٣٪	٢٪	٢٪	١٠٠٪

مرة.							
٣. تتوفر جودة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى أجهزة لجميع التخصصات الطبية التي يحتاج لها المرضى.	التكرار	١٥	٢٦	٥	٣	٤	٥٣
	النسبة	٢٨٪	٤٩٪	٩٪	٦٪	٨٪	١٠٠٪
٤. العاملين بالمستشفى المختصين بالأجهزة الطبية الحيوية لديهم الاستعداد الدائم للتعاون مع المرضى.	التكرار	١٦	٢٥	٦	٢	٤	٥٣
	النسبة	٣٠٪	٤٧٪	١١٪	٢٪	٨٪	١٠٠٪

المصدر: الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (٤-١٤) ما يلي:

أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن جودة الأجهزة الطبية الحيوية يجد رضا تام من المرضى بالمستشفى. بلغت(٧٥) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (٦) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (١٩) %.

أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن تؤدى جودة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى إلي انجاز الخدمة الصحية بطريقة صحيحة من أول مرة. بلغت(٦٥) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (١٣) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (٦) %.

أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن تتوفر جودة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى أجهزة لجميع التخصصات الطبية التي يحتاج لها المرضى. بلغت(٧٧) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (١٤) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (٩) %.

أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن العاملين بالمستشفى المختصين بالأجهزة الطبية الحيوية لديهم الاستعداد الدائم للتعاون مع المرضى. بلغت(٧٧) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (١٠) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (١١) %.

جدول رقم(٤) التوزيع التكراري لإجابات المبحوثين حول صيانة الأجهزة الطبية الحيوية

العبارة	المقياس	أوافق بشدة	أوافق	محايد	لا أوافق بشدة	لا أوافق	المجموع
١. يتم صيانة الأجهزة الطبية الحيوية بشكل دوري بمشاركة العاملين في المستشفى.	التكرار	١٨	٢٥	٧	٢	١	٥٣
	النسبة	٣٤٪	٤٧٪	١٣٪	٤٪	٢٪	١٠٠٪
٢. تتوفر البدائل عند صيانة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى	التكرار	١٣	٢٥	٥	٣	٧	٥٣
	النسبة	٢٥٪	٤٧٪	٩٪	٦٪	١٣٪	١٠٠٪
٣. يتم اختيار بديل واحد من بين البدائل المتاحة لاتخاذ قرار الصيانة المناسب	التكرار	١٤	٢٤	٩	٣	٣	٥٣
	النسبة	٢٦٪	٤٥٪	١٧٪	٦٪	٦٪	١٠٠٪

بالمستشفى.							
٤. تتبع خطوات عملية للوصول لاختيار كيفية صيانة الأجهزة الطبية الحيوية	التكرار	٢١	١٧	١٠	٢	٣	٥٣
	النسبة	٪٤٠	٪٣٢	٪١٩	٪٤	٪٦	٪١٠٠

المصدر: الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (٤) ما يلي:

١.أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن صيانة الأجهزة الطبية الحيوية بشكل دوري بمشاركة العاملين في المستشفى. بلغت (٨١) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (٦) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (١٣) %.

٢.أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن تتوفر البدائل عند صيانة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى. بلغت(٧٢) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (١٩) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (٩) %.

٣.أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن يتم اختيار بديل واحد من بين البدائل المتاحة لاتخاذ القرار الصيانة المناسب بالمستشفى. بلغت(٧١) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (١٢) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (١٧) %.

٤.أعلى نسبة من أفراد العينة يوافقون على أن تتبع خطوات عملية للوصول لاختيار كيفية صيانة الأجهزة الطبية الحيوية. بلغت(٧٢) %، بينما نسبة غير الموافقين على ذلك (١٠) %، أما أفراد العينة الذين لم يبدوا إجابات محددة فقد بلغت نسبتهم (١٩) %.

ثانياً: المتوسطات الحسابية والانحر افات المعيارية لعبارات الاستبانة:

جدول رقم (٥) المتوسطات الحسابية والانحر افات المعيارية لعبارات الجودة

العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النتيجة
١.يقدم المستشفى خدمة صحية بجودة عالية للمرض.	٦٠4.	0.58	أوافق بشدة
٢.تتم الخدمة الصحية بالمستشفى بدقة عالية.	4.35	0.68	أوافق بشدة
٣.يقدم المستشفى الخدمة بعناية للزبائن.	3.66	0.95	أوافق بشدة
٤.يلتزم المستشفى باللوائح والقوانين.	4.32	٦0.5	أوافق بشدة
المتوسط للمحور ككل	٤,١٠	٤0.8	أوافق

المصدر: إعداد الباحث من واقع بيانات الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (٥) الجدول ما يلي:

إن جميع العبارات التي تعبر عن عبارات الجودة يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي (3) وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات التي تعبر عن الجودة. أهم عبارة من عبارات الجودة هي العبارة (يقدم المستشفى خدمة صحية بجودة عالية للمرض)، حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (4.60) وبانحراف معياري (٠,٥٨) وأقل عبارة من حيث الموافقة هي

العبارة (يقدم المستشفى الخدمة بعناية للزبائن) حيث بلغ متوسط العبارة (٣,٦٦) بانحراف معياري (٠,٩٥). كما بلغ متوسط جميع العبارات (٤,١٠) وهذا يدل على أن إفراد العينة يوافقون على جميع العبارات التي تقيس الجودة، بانحراف معياري (٠,٨٤)، مما يدل على تمركز القيم حول وسطها الحسابي.

جدول رقم (٦) المتوسطات الحسابية والانحر افات المعيارية لعبارات بيئة العمل

العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النتيجة
١.تحفز بيئة العمل بالمستشفى العاملين على الأداء الجيد.	3.81	0.93	أوافق بشدة
٢.بيئة العمل بالمستشفى متاحة بتنفيذ الخدمة للمرضى.	3.89	0.96	أوافق بشدة
٣.تتيح بيئة العمل بالمستشفى تقديم الخدمة بدرجة عالية.	4.11	0.81	أوافق بشدة
٤.يوجد بالمستشفى بيئة صحية متكاملة لشفاء المرضى.	4.08	0.89	أوافق بشدة
المتوسط الحسابي للمحور ككل	٤,١٢	٠,٨٤	أوافق بشدة

المصدر: إعداد الباحثة من واقع بيانات الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (٦) ما يلي:

إن جميع العبارات التي تعبر عن عبارات بيئة العمل يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي (3) وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات تعبر عن بيئة العمل، أهم عبارة من عبارات بيئة العمل هي العبارة (تتيح بيئة العمل بالمستشفى تقديم الخدمة بدرجة عالية.) ، حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٤,١١) وبانحراف معياري (٠,٨١) وأقل عبارة من حيث الموافقة هي العبارة (تحفز بيئة العمل بالمستشفى العاملين على الأداء الجيد. حيث بلغ متوسط العبارة (٣,٨١) بانحراف معياري (٠,٩٣). كما بلغ متوسط جميع العبارات (٤,١٢) وهذا يدل على أن إفراد العينة يوافقون على جميع العبارات التي تقيس بيئة العمل، بانحراف معياري (٠,٨٤)، مما يدل على تمركز القيم حول وسطها الحسابي.

جدول رقم **(٧) المتوسطات الحسابية والانحر افات المعيارية لعبارات** جودة الأجهزة الطبية

العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النتيجة
١.تجد جودة الأجهزة الطبية الحيوية رضا تام من المرضى بالمستشفى.	3.92	0.98	أوافق بشدة
٢. تؤدى جودة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى إلي انجاز الخدمة الصحية بطريقة صحيحة من أول مرة.	3.64	1.05	أوافق بشدة
٣. تتوفر جودة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى أجهزة لجميع التخصصات الطبية التي يحتاج لها المرضى	3.72	0.88	أوافق بشدة
٤. العاملين بالمستشفى المختصين بالأجهزة الطبية الحيوية لديهم الاستعداد الدائم للتعاون مع المرضى	3.60	1.14	أوافق بشدة
المتوسط الحسابي للمحور ككل	3.89	0.97	

المصدر: إعداد الباحثة من واقع بيانات الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (٧) ما يلي:

إن جميع العبارات التي تعبر عن عبارات جودة الأجهزة الطبية يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي (3) وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات تعبر عن جودة الأجهزة الطبية،

العبارة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	النتيجة
١. يتم صيانة الأجهزة الطبية الحيوية بشكل دوري بمشاركة العاملين في المستشفى.	3.92	0.98	أوافق بشدة
٢. تتوفر البدائل عند صيانة الأجهزة الطبية الحيوية بالمستشفى	3.64	1.05	أوافق بشدة
٣. يتم اختيار بديل واحد من بين البدائل المتاحة لاتخاذ قرار الصيانة المناسب بالمستشفى.	١١.٤	0.88	أوافق بشدة
٤. تتبع خطوات عملية للوصول لاختيار كيفية صيانة الأجهزة الطبية الحيوية	3.60	1.14	أوافق بشدة
المتوسط الحسابي للمحور ككل	٩٧3.	٧٠.١	

أهم عبارة من عبارات جودة الأجهزة الطبية هي العبارة (يجد أداء العاملين رضا تام من المرضى بالمستشفى.) ، حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٣,٩٢) وبانحراف معياري (٠,٩٨) وأقل عبارة من حيث الموافقة هي العبارة (العاملين بالمستشفى لديهم الاستعداد الدائم للتعاون مع المرضى) حيث بلغ متوسط العبارة (٣,٦٠) بانحراف معياري (١,١٤). كما بلغ متوسط جميع العبارات (٣,٨٩) وهذا يدل على أن إفراد العينة يوافقون على جميع العبارات التي تقيس جودة الأجهزة الطبية ، بانحراف معياري (٠,٩٧) ، مما يدل على تمركز القيم حول وسطها الحسابي.

جدول رقم (٨) المتوسطات الحسابية والانحر افات المعيارية لعبارات صيانة الأجهزة الطبية

المصدر: إعداد الباحثة من واقع بيانات الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

يتضح من الجدول رقم (٨) ما يلي:

.إن جميع العبارات التي تعبر عن عبارات صيانة الأجهزة الطبية يزيد متوسطها عن الوسط الفرضي (3) وهذه النتيجة تدل على موافقة أفراد العينة على جميع العبارات تعبر عن صيانة الأجهزة الطبية.

أهم عبارة من عبارات الفرضية الرابعة

هي العبارة (يتم اختيار بديل واحد من بين البدائل المتاحة لاتخاذ القرار المناسب بالمستشفى.) ، حيث بلغ متوسط إجابات أفراد العينة على العبارة (٤,١١) وبانحراف معياري (٠,٨٨) وأقل عبارة من حيث الموافقة هي العبارة (تتبع خطوات عملية للوصول لاختيار القرار الأنسب بالمستشفى) حيث بلغ متوسط العبارة (٣,٦٠) بانحراف معياري (١,١٤). كما بلغ متوسط جميع العبارات (٣,٩٧) وهذا يدل على أن إفراد العينة يوافقون على جميع العبارات التي تقيس صيانة الأجهزة الطبية، بانحراف معياري (١,٠٧)، مما يدل على تمركز القيم حول وسطها الحسابي.

ثالثاً: نتائج الدراسة: تناول الباحث مناقشة وتفسير نتائج الدراسة الميدانية وذلك من خلال المعلومات التي أسفرت عنها جداول تحليل البيانات الإحصائية وكذلك نتائج التحليل الإحصائي

لاختبار الفروض وفى ضوء مشكلة وأهداف الدراسة واستقراء الدراسات السابقة يمكن للباحث صياغة نتائج الدراسة وهي:

هنالك علاقة ذات دلالة إحصائية بين أنظمة إدارة ومر اقبة الجودة وتوفر وسلامة تشغيل الأجهزة الطبية الحيوية بمستشفى توب كير: استخدم الباحث اختبار مربع كأي لدلالة الفروق بين إجابات أفراد عينة الدراسة عند مستوى معنوية ٠,٠٥، وأمام درجات حرية (٢) لكل عبارة، وتكون العبارة دالة إحصائياً إذا الدلالة الإحصائية المصاحبة لقيمة مربع كأي المحسوبة أقل من ٠,٠٥.

جدول رقم (٩) اختبار مربع كأي لعبارات إدارة جودة الخدمة وسلامة تشغيل الأجهزة الطبية الحيوية

العبارة	مربع كأي المحسوبة	درجات الحرية	الدلالة الإحصائية	التفسير	النتيجة
جودة الخدمة وجودة بيئة العمل	.230٤٤	2	٠,٠٠٠	دالة	أوافق بشدة

المصدر: إعداد الباحث من واقع بيانات الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

بلغت قيمة مربع كأي المحسوبة لدلالة الفروق بين أفراد عينة الدراسة لعبارات إدارة جودة الخدمة (44.230) عند درجات حرية (٢) ومستوى دلالة إحصائية (٠,٠٠٠) وهي أقل من (5%)، وعليه فإن ذلك يشير إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين لعبارات إدارة جودة الخدمة وسلامة تشغيل الأجهزة الطبية الحيوية **بمستشفى** توب كير.

هنالك علاقة ذات دلالة إحصائية بين لعبارات إدارة جودة الخدمة وجودة تشغيل الأجهزة الطبية الحيوية بمستشفى توب كير. استخدم الباحث اختبار مربع كأي لدلالة الفروق بين إجابات أفراد عينة الدراسة عند مستوى معنوية ٠,٠٥، وأمام درجات حرية (٢) لكل عبارة، وتكون العبارة دالة إحصائياً إذا الدلالة الإحصائية المصاحبة لقيمة مربع كأي المحسوبة أقل من ٠,٠٥.

جدول رقم (١٠) اختبار مربع كأي لعبارات مر اقبة جودة الخدمة وجودة تشغيل الأجهزة الطبية الحيوية

	مربع كأي المحسوبة	درجات الحرية	الدلالة الإحصائية	التفسير	النتيجة
جودة الخدمة وجودة تشغيل الأجهزة الطبية الحيوية	٢٣.٢٥	٢	٠,٠٠٠	دالة	أوافق بشدة

المصدر: إعداد الباحث من واقع بيانات الدراسة الميدانية ٢٠٢٥م

بلغت قيمة مربع كأي المحسوبة لدلالة الفروق بين أفراد عينة الدراسة للفرضية الثانية (٢٥,٢٣) عند درجات حرية (٢) ومستوى دلالة إحصائية (٠,٠٠٠) وهي أقل من (5%)، وعليه فإن ذلك يشير إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين مراقبة الجودة وجودة تشغيل الأجهزة الطبية الحيوية بمستشفى توب كير.

التوصيات:

١. على إدارة مستشفى توب كير الاهتمام بتجويد الخطة الاستراتيجية لضمان جودة الخدمة وفق إجراءات فنية سليمة تعزز من ثقة المستفيدين في الخدمات التي تقدمها. واقتراح بعض الخطط الاستراتيجية العاجلة واللازمة لضمان جودة الخدمة الفنية والتقنية

٢. الاهتمام بتطبيق الأساليب الكمية عند إدارة الجودة ومراقبة الجودة، والتأكيد على ضرورة إنشاء إدارة متخصصة للجودة تهتم بإدارة الجودة ومراقبة الجودة.

٣. تعزيز الاهتمام بالتحليل الكمي والأساليب العلمية وتوفيرا لأجهزة المتطورة لذلك. وإتباع منهجية تفويض الصلاحيات للمستويات الإدارية الدنيا للمشاركة في تحقيق الجودة.

٤. تنشيط دور الحوافز المادية والمعنوية وتطبيق ذلك على كافة العاملين وخاصة الميدانيين الذين يتصفون بجودة الأداء المهني. وتطبيق الأساليب العلمية الحديثة في العمل للوصول إلي جوده الخدمة و توزيع الوقت نظراً لأهمية الوقت في إنجاز لخدمات.

٥. الاهتمام بالأجهزة الطبية الحيوية وضمان جودة تشغيلها. والتدريب والإعداد الكافي للعاملين في القطاع الصحي على التطور التقني والالكتروني واستخدام التقنية الحديثة في قياس جوده الخدمة.

٦. الاطلاع على التجارب العربية والعالمية واستيراد وتطوير مثل هذه التجارب في مجال الأجهزة الطبية الحيوية لإثراء عمل القطاع الطبي العام والقطاع الخاص على حد سواء. وأن تعتمد معايير ثابتة ومعلومة لدى العاملين في ممارستها ادارة ومراقبة الأجهزة الطبية الحيوية لتقويم الأداء ولتحقق اعلي مستوي من جوده الخدمة ولتنال رضا العاملين.

٧. وضع نظام لتوصيف الوظائف، وتحديد المهارات المطلوبة من العاملين تدعم الأجهزة التخطيطية الكفاءات البشرية القادرة على التخطيط العملي ونشر الوعي التخطيطي بالمستشفيات الخاصة. ووضع نظام لتطوير إجراءات وأساليب الرقابة الإدارية لتطوير الأداء المهني

المراجع:

١. أبو عقلة، عصام الدين ،٢٠٠٢ المفاهيم الاستراتيجية النظرية والتطبيق، حوري للنشر، الإسكندرية.

٢. الأحمدي، محفوظ احمد، ٢٠٠٤، أدوات الضبط الإحصائية للجودة، الأردن، دار وائل للنشر.

٣. إدريس، فتحية أبو بكر، ٢٠٢٠، قياس جودة أداء الخدمة الصحية وتأثيرها على رضي المرضي، إصدارات جامعة العلوم الخاصة، الأردن.

٤. بستر، قيد دال، ٢٠١١، الرقابة علي الجودة، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ص٥٧١.

٥. البكري، تامر ياسر، ٢٠١٥، تسويق الخدمات الصحية، دار البازوري للنشر، عمان، الأردن.

٦. الجزائري، صفاء محمد حماد، ٢٠١٣، قياس وتقييم جودة الخدمة الصحية، دراسة تطبيقية بمستشفى الفيحاء، البصرة، دار المعلم للنشر والتوزيع، العراق.
٧. جوده، محفوظ. إدارة الجودة الشاملة، مفاهيم وتطبيقات، دار وائل للنشر، الأردن، ٢٠١٦.
٨. حسن احمد حسن الشيخ، ٢٠٢٠، الإجراءات التنظيمية لمستشفى الدويم التعليمي وفق مواصفات وزارة الصحة الاتحادية والخطة الاستراتيجية الخمسية، ورقة علمية مجلة بخت الرضا العلمية، العدد ٢٤.
٩. الدرانكه، مأمون سليمان، ٢٠٠٦، الجودة الشاملة وخدمة العملاء، عمان، دار الصفا للنشر.
١٠. ديسار، جان جون، ٢٠٠٠، إدارة الجودة البشرية، ترجمة محمد سيد احمد، دار المريخ للنش.
١١. زرياب، صلاح محمد، ٢٠٠٠، قياس إبعاد جودة الخدمة الطبية المقدمة في المستشفيات الحكومية الأردنية من منظور المرضي والموظفين، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ٢ المجلد ٢٠.
١٢. الشمري، احمد، ٢٠٠١، جودة الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية، مجلة الإدارة العامة، العدد الثاني، مجلد ٤١
١٣. صلاح الدين عباس حداد، ٢٠١٤، قياس مستوي جودة الخدمات الطبية في السودان، رسالة دكتوراه، جامعة ام درمان الإسلامية
١٤. عبد المحسن، توفيق محمد، ٢٠٠٥، قياس الجودة والقياس المقارن، أساليب حديثة في المعايير والقياس، معهد الكفاية الإنتاجية، الزقازيق.
١٥. العزاوي، سمر احمد، ٢٠٠٩، الابتكار للتسويق وعلاقته بجودة الخدمة الصحية، مجلة الإدارة والاقتصاد. بغداد.
١٦. عمر، محمد إسماعيل، ٢٠١٧، أساسيات الجودة في الإنتاج، القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر.
١٧. القرشي، سمير محمد، ٢٠٠٧، أنظمة إدارة وتأكيد الجودة، المركز السوداني الألماني لتأكيد الجودة.
١٨. القرشي، سمير، ٢٠٠٧، أنظمة إدارة وتأكيد الجودة، المركز السوداني الألماني لتأكيد الجودة
١٩. كوثر علي محمد العبيد، (٢٠١٩) عن قياس مستوي جودة الخدمات الصحية من خلال وجهة نظر المرضي والعاملين بالمستشفيات السودانية، بالتطبيق علي عينه من مستشفيات الدويم خلال الفترة ٢٠١٧-١٩١٨ رسالة دكتوراه، جامعة بخت الرضا
٢٠. مجيد، نور الدين، ٢٠١٨ جودة الخدمات وأثرها على رضا العملاء، جامعة محمد بوضياف.

٢١. مختار، عبود علي، ٢٠٠٩، تقييم جودة الخدمات في مستشفى الديوانية التعليمي، مجلة القادسية للعلوم الإدارية، العدد ١١

٢٢. وجدان عابدين عبد الرحيم، اثر اتخاذ القرارات الإدارية علي جوده الخدمة بمستشفي طوب كير والنصر خلال الفترة من ٢٠١٩-٢٠٢٤، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بخت الرضا.

1-K.j .Harmon . Total Quality Management in Local Government. Government Review August 1992

أثر الحرب في السودان على تجديد اتفاقيات إعادة التامين بشركات التأمين السودانية (بالتطبيق على شركة السلامة للتأمين وإعادة التامين المحدودة السودان ٢٠٢٤م)

د. وئام عبد الله أحمد عبد الرحمن(•)
محمد عبد العزيز الصافي

المستخلص:
هدفت الدراسة لتوضيح أثر اتفاقيات الإعادة على الشركات التأمين المباشرة في ظل الحرب ومعرفة التحديات التي تواجه شركات التامين المباشرة في ظل الحرب وتمثلت مشكلة الدراسة في ماهي الشروط التي وضعتها شركات إعادة التأمين لتجديد الاتفاقيات للعام ٢٠٢٤م ومن اهم فروض الدراسة قامت بعض شركات إعادة التأمين بإلغاء الاتفاقيات مع شركات التأمين المباشرة بسبب الحروب يؤثر سداد المديونيات السابقة على شركات التأمين المباشرة في الحصول على تجديد الاتفاقيات. استخدمت الدراسة المنهج الوصفي فيما هو مكتوب عن اتفاقيات إعادة التأمين والمنهج التحليلي وذلك بتحليل البيانات ودراسة فروض البحث، وتمثل الحدود المكانية في شركة السلامة للتامين المباشر، اما الحدود الزمانية فقد تمثلت في العام ٢٠٢٤م، وتمثلت الحدود الموضوعية للبحث في دراسة الشروط التي وضعتها شركات إعادة التأمين لتجديد الاتفاقيات مع شركات التأمين المباشرة في ظل الحرب وتوصلت الدراسة الى عدد من النتائج أهمها قامت بعض شركات إعادة التامين بإلغاء الاتفاقيات مع سوق التامين السوداني بسبب الحرب ولا توجد تغطيات تأمينية لتغطية مخاطر الحرب في السودان. ولم تقم شركات إعادة التامين بزيادة الأسعار لتجديد اتفاقيات إعادة التامين للعام ٢٠٢٤م ومن اهم التوصيات على الجهاز القومي للرقابة على التامين وضع الشروط والاحكام والقوانين لمزيد من الحماية للشركات المباشرة ولمصلحة المؤمن لهم لنهوض بقطاع التامين السوداني ولمجابهة المخاطر والتحديات. ويجب على شركات إعادة التامين قبول سداد المديونيات بالعملة المحلية وفتح حسابات بالبنوك السودانية كما يجب على شركات التامين السودانية زيادة الطاقة في السوق المحلي أي التركيز على الإعادة المحلية.

لكلمات المفتاحية: إعادة التأمين –الغاء الاتفاقيات – سداد المديونيات.

مقدمة:

تعتبر الحرب في السودان واحدة من أكثر العوامل تأثيراً على الاستقرار السياسي والاقتصادي في البلاد، منذ بداية النزاعات المسلحة شهد السودان تغيرات جذرية في مختلف المجالات، بما في ذلك

(•) أستاذ مساعد بقسم التأمين جامعة النيلين
* الجهاز القومي للرقابة على التأمين

التامين وإعادة التامين. ان تأثير الحرب على تجديد اتفاقيات إعادة التامين يشكل موضوعاً بالغ الأهمية، حيث يعكس التحديات التي تواجه شركات التامين في ظل الظروف غير المستقرة.

مشكلة البحث:

تعد اتفاقيات إعادة التأمين من اهم العوامل التي تساهم في تطور ونجاح شركات التأمين المباشرة وتحقيق الاستقرار لها، ولكن في ظل الظروف الاستثنائية التي تؤدي الي تدهور الوضع الاقتصادي وبالتالي تدهور قطاع التأمين قد تجبر شركات إعادة التأمين الي تغيير شروط الاتفاقيات حتى لا تتعرض للخسائر، ومن هنا نطرح السؤال الأساسي ماهي الشروط التي وضعتها شركات إعادة التأمين لتجديد الاتفاقيات للعام ٢٠٢٤م ومنه تتفرع الأسئلة الاتية:

١. هل قامت شركات إعادة التأمين بإلغاء اتفاقياتها مع شركات التأمين المباشرة بسبب الحرب؟
٢. هل قامت شركات إعادة التأمين بزيادة الأسعار لحصول شركات التأمين المباشر على تغطيات تأمينية مناسبة؟
٣. لماذا طالبت شركات إعادة التأمين الشركات المباشرة بتسديد مديونياتها كشرط لتجديد الاتفاقيات؟

أهداف الدراسة:

١- بيان أهمية اتفاقيات إعادة التأمين في تطوير قطاع التأمين.
٢- توضيح أثر اتفاقيات الإعادة على الشركات التأمين المباشرة في ظل الحرب.
٣- التعرف على الشروط التي وضعتها شركات إعادة التأمين لتجديد اتفاقيات إعادة التأمين.
٤- معرفة التحديات التي تواجه شركات التامين المباشرة في ظل الحرب.

فروض الدراسة:

١. قامت بعض شركات إعادة التأمين بإلغاء الاتفاقيات مع شركات التأمين المباشرة بسبب الحرب.
٢. توجد علاقة ذات دلاله إحصائية بين زيادة الأسعار والحصول على اتفاقية إعادة تامين مناسبة لتغطية الاخطار.
٣. يؤثر سداد المديونيات السابقة على شركات التأمين المباشرة في الحصول على تجديد الاتفاقيات.

أهمية الدراسة:

أ. العلمية: معرفة أثر الحرب على شركات التأمين السودانية ومدى تأثر اتفاقيات إعادة التأمين بهذه الظروف الاستثنائية.
ب. العملية: تزويد الجهات ذات الاختصاص بالطرق المثلي لاتفاقيات إعادة التأمين في ظل ظروف الحرب، بيان أهمية اتفاقيات إعادة التأمين في زيادة الطاقة الاستيعابية لشركات التأمين المباشرة.

منهجية الدراسة:

استخدمت الدراسة المنهج الوصفي فيما هو مكتوب عن اتفاقيات إعادة التأمين والمنهج التحليلي وذلك بتحليل البيانات ودراسة فروض البحث، وتمثل الحدود المكانية في شركة السلامة للتامين

المباشر، اما الحدود الزمانية فقد تمثلت في العام ٢٠٢٤م، وتمثلت الحدود الموضوعية للبحث في دراسة الشروط التي وضعتها شركات إعادة التأمين لتجديد الاتفاقيات مع شركات التأمين المباشرة في ظل الحرب.

الدراسات السابقة:

١/وهي رسالة دكتوراه مقدمة من الباحث مجتبى هاشم رمضان بعنوان أثر إعادة التأمين على الاقتصاد القومي، دراسة حالة سوق التأمين السوداني.

حيث تمثلت مشكلة الدراسة في أن وجود شركات إعادة التأمين الوطنية يساهم في الحد من تسرب عمليات إعادة التأمين إلى الخارج، ولكن دور شركات إعادة التأمين مرتبط أيضاً بالطاقة الاستيعابية لهذه الشركات والتي بموجبها يتم تحديد مقدار النسب المعاد تأمينها إلى الخارج، الامر الذي يستدعي العمل على ايجاد خطط مستقبلية لزيادة الطاقة الاستيعابية لشركات التأمين المحلية لتتناسب مع النمو الملموس في الاقتصاد الوطني. وعلى ضوء ما سبق تتلخص مشكلة الدراسة في السؤال الرئيسي التالي ما هو أثر إعادة التأمين على الاقتصاد القومي؟

وللوقوف على ذلك وضع الباحث عدة فرضيات تتمثل في تدني الوعي التأميني لدي الفئات المستهدفة بعملية التأمين سبب في ضعف القوة الاستيعابية لسوق التأمين السوداني. حدود احتفاظ شركات التأمين من العمليات المكتتبة بسيط مقارنة مع الامكانيات المادية والفنية لهذه الشركات، تقليص عدد شركات التأمين العاملة في السوق يزيد عن حجم استيعاب سوق التأمين السوداني من العمليات المكتتبة والهدف من الدراسة: التعرف على القوة الاستيعابية لسوق التأمين السوداني، ومدى تناسب عدد شركات التأمين العاملة في سوق التأمين السوداني مع الحاجة للتأمين. وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج اهمها: أن حجم الاحتفاظ في معظم شركات التأمين السودانية ضعيف جداً ولا يتناسب مع الامكانيات المادية لهذه الشركات

فقد أوصت الدراسة بوضع ضوابط ومعايير تلزم شركات التأمين بزيادة حجم الاحتفاظ لديه

تناولت الدراسة أثر إعادة التأمين على الاقتصاد القومي، دراسة حالة سوق التأمين السوداني، ولم تتطرق الدراسة إلى تقييم إعادة التأمين في سوق التأمين السوداني، بينما تناول الباحث في دراسته تقييم إعادة التأمين بشركات التأمين السودانية بالتطبيق على فرع التأمين البحري.

٢/هي رسالة ماجستير مقدمة من الباحث الطيب ابراهيم سبيل بعنوان: الأثر الاقتصادي لاتفاقيات تجاوز الخسارة _ دراسة تطبيقية على سوق التأمين السوداني.

وقد تمثلت مشكلة الدراسة في وجود صعوبات تواجه شركات التأمين سواء في التكوين الرأسمالي أو النشاط الاستثماري وتأسياً على ما سبق فإن مشكلة الاختيار الصحيح والتطبيق السليم لبنود اتفاقيات تجاوز الخسارة تتلخص في تجاوز الصعوبات والمشاكل الآتية:

١/ اختيار السعة المناسبة للتغطيات التي تحتاجها الشركة خاصة إذا كان حجم المسئولية غير محدود كما في قانون حركة المرور لعام ١٩٨٣م بالنسبة لشركات التأمين بينما سعة الاتفاقيات محدودة كما في تغطيات حوادث السيارات عند معظم شركات التأمين.

توصلت الدراسة الى النتائج ومن أهمها ضعف المركز المالي لبعض شركات التأمين ساهم في اضعاف صناعة التأمين في السودان.

وقد تبنت الدراسة عدد من التوصيات أهمها تطوير دور هيئة الرقابة على التأمين أذ تهدف الهيئة إلى حماية حملة الوثائق بصفة خاصة وحماية الاقتصاد بصفة عامة.

٣/وهي رسالة ماجستير مقدمة من الباحث محمد محمد محمد عطا بعنوان: تقييم سياسات إعادة التأمين الخارجي لسوق التأمين المصري بالتطبيق على تأمين الحريق

وتتمثل مشكلة الدراسة في أنه عند فحص نتائج الاعمال الفنية للتأمين وإعادة التأمين بشركات التأمين المباشر المصرية بقطاعيها العام والخاص معاً في الاعوام الأخيرة والمنتهية في عام ٢٠٠٣/٢٠٠٢م نلاحظ ارتفاع معدلات الخسائر في صافي العمليات الانتاجية عن الاكتتاب المباشر لتأمينات الممتلكات بصفة عامة وللتأمين ضد خطر الحريق بصفة خاصة، فبينما بلغ معدل الخسائر لفرع الحريق في السوق المصرية عام ٢٠٠٣/٢٠٠٢م والذي يخص صافي الاكتتاب المباشر نسبة ٣٧,٩٪ نجد أن معدل الخسائر لفرع الحريق في هذا السوق لنفس العام ولصافي العمليات أي بعد معالجة عمليات إعادة التأمين قد بلغ ٤٢٪ أي بزيادة صافية قدرها ١٢٪ مما يوضح جلياً أن عمليات إعادة التأمين بنوعيها المحلى والخارجي سواءً الوارد أو الصادر تؤثر تأثيراً كبيراً في معدلات الخسائر لصافي العمليات التأمينية في فرع الحريق.

فروض الدراسة:

يتحدد فرض هذه الدراسة في ملائمة النماذج الكمية المقترحة في هذه الدراسة لمعدلات الخسائر ومعدلات العمولات وتكاليف الانتاج لعمليات إعادة التامين الخارجي الصادر والوارد التى تمارسها شركات التأمين المباشر سواء شركات القطاع العام أو القطاع الخاص فيما يتعلق بالتأمين ضد أخطار الحريق.

وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها:

١/ تبين من الدراسة عدم ملائمة النماذج الكمية لبيانات معدلات الخسائر لعمليات إعادة التأمين الصادر للخارج. وفيما يتعلق بالتوصيات فقد وصلت الدراسة إلى عدد من التوصيات اهمها:

١/ حتمية إعداد برنامج محدد جيد لإعادة التأمين بالشركات المصرية للتأمين ولسوق التأمين ككل يشمل كافة فروع التأمينات العامة وبخاصة فرع التأمين ضد الحريق.

٤/وهي رسالة ماجستير مقدمة من الباحث حسن سعيد حامد زكي بعنوان: إعادة التأمين بشركات التأمين المباشرة في جمهورية مصر العربية، دراسة ميدانية.

ويتلخص الدافع إلى البحث في النقاط الاساسية الآتية:

١/ أهمية إعادة التأمين سواء الإلزامي أو غير الإلزامي، المحلي أول الخارجي في استمرار شركات التأمين المباشرة في مزاولة نشاطها بنجاح.

٢/ دراسة كيفية تحديد حصص إعادة التأمين الإلزامية والتي ألزم القانون شركات التأمين المباشرة المحلية بإسنادها إلى الشركة المصرية لإعادة التأمين.

الهدف من البحث:

يتلخص اساساً في ايضاح مشاكل إعادة التأمين الخاصة بالنشاط التأميني في جمهورية مصر العربية سواء الإلزامي أو غير الإلزامي محلى أو خارجي واقتراح حلول لهذه المشاكل.

وقد توصل الباحث إلى عدة اقتراحات تمثلت في: بالنسبة لتنظيم علاقة أسواق التأمين في الدول النامية ومن بينها مصر وعلاقتها بأسواق إعادة التأمين العالمية يقترح أن تبدأ تحديد مقدار حاجتها إلى إعادة التأمين بالخارج بعد استنفاد الطاقة الاستيعابية المحلية والاقليمية ثم اختيار أنسب أسواق إعادة التأمين من حيث الشروط والمزايا للتعامل معها. كما يوصي الباحث بأهمية تدعيم التعاون بين شركات التأمين وإعادة التأمين المحلية وبين الهيئات الإقليمية والمجمعات التأمينية بالخارج، وخاصة العربية والإفريقية والآسيوي

الفجوة البحثية:

كل الدراسات السابقة تناولت إعادة التامين والمشاكل الفنية التي تتعلق بشركات التامين وكيفية زيادة الطاقة الاستيعابية لشركات المباشرة ولكن في ظل أوضاع سياسية مستقرة ولكن تختلف هذه الدراسة في انها تناولت مشكلة اتفاقيات الإعادة في ظل ظروف الحرب التي تواجهها شركات التامين السودانية والشروط التي وضعتها شركات إعادة التامين في ظل هذه الظروف لتجديد الاتفاقيات التي تعتبر أساس لتعزيز وتقوية شركات التامين السودانية.

الجانب النظري:

أثرت الحرب في السودان على الوضع الأمني وانعدام الاستقرار وعلى الاقتصاد بشكل كبير فأصبح يعاني من تدهور كبير نتيجة انخفاض الإنتاج الزراعي وتدمير البنية التحتية وارتفاع معدلات التضخم وكذلك اثرت الحرب على السكان وعلى التعليم وغيرها. وقطاع التامين كغيرة من القطاعات الاقتصادية تأثر سلباً على بالحرب فأدت الى انكماش في طلب بواليص التأمين وتوقف المؤمن لهم عن سداد الأقساط للحفاظ على السيولة، ورغم ذلك هنالك طلب على التأمين لأنه في الوضع الغير طبيعي يحتاج المؤمن لهم لتغطيات التأمين أكثر من غيرهم فيكثر الطلب علية في حالة الازمات، توجد تغطية للحرب في شركات التأمين السودانية ويقبل معيد التأمين التغطيات في ظل الحرب فيقوم بوضع شروط على أنواع التامين الأخرى.

الحرب في السودان:

تثير الحروب والاعمال الإرهابية التي تحدث في مختلف العالم تساؤلات حول ما يصيب قطاع التأمين المحلي والإقليمي والعالمي من خسائر جراء تلك الحروب، وتسعي العديد من شركات إعادة التأمين الي تحويل الخسائر الي مكاسب وتصل التعويضات الي مئات المليارات، هذا بالنسبة للخسائر المباشرة أما الخسائر الغير مباشرة فمن الصعب تقديرها لأنها قد تمتد لسنوات طويلة. وذلك لعدم وجود شركات إعادة عربية، فالزيادة في الرسوم تتسرب للخارج وتدفعها القطاعات المؤمنة محلياً بالإضافة الي ضعف الملاءة المالية للشركات المحلية والاقليمية مما يؤثر على تنافسها مع الشركات الإقليمية

ويدفع القطاعات المؤمنة بإعادة النظر في وثائق التأمين نظراً لغلاة الأسعار وهذا يؤثر على الموازنة ويؤدي الي ركود اقتصادي.

الصندوق العربي لتأمين أخطار الحرب:

تظهر أهمية الصندوق العربي لتحديد أخطار الحرب في تحديد أسعار وشروط أخطار الحرب والاخطار السياسية الأخرى في المنطقة من خلال مختلف الاغطية التأمينية التي يوفرها للشركات الأعضاء. والصندوق يوفر تغطية متكاملة ومناسبة وسريعة لأخطار الحرب والأخطار السياسية الأخرى لشركاته الأعضاء. وفيما يختص بأخطار الحرب بالنسبة للسفن التي تدخل تغطيتها في نطاق أعمال الصندوق، يشترط ان تكون السفينة حاملة علم أحد الأقطار العربية وان تعود ملكيتها أو إدارتها ال شخصية طبيعية أو معنوية عربية أو الي حكومة عربية، أو ان تكون ذات مصلحة فيها. وللصندوق قبول الاعمال بالنسبة للسفن الأخرى التي تبحر في المنطقة المذكورة أو خارجها والنطاق الجغرافي لعمليات الصندوق هو جميع أنحاء العالم. وعدد الشركات الأعضاء في الصندوق حالياً هو ١٧٥شركة من ١٨ بلداً عربياً (private sector

التحديات التي واجهت قطاع التامين بسبب الحرب في السودان:

١/ قطاع التامين الذي يمثل أحد القطاعات الحية في العملية الإنتاجية وله دور مهم على الصعيد الصناعي والزراعي والخدمي وفي حركة الصادر والوارد تأثر كغيرة من القطاعات الأخرى، بسبب الحرب، فخسائر الحرب أدت الى تراجع الاقتصاد الى ٤٢٪ وقد تآكلت العملة المحلية مقابل الدولار وتراجعت الصادرات نحو ٦٠٪ وتدمرت الأصول الإنتاجية وتأثر القطاع الصناعي والزراعي وقطاع الخدمات.

٢/ أصبحت شركات التامين المباشرة السودانية ١٨ شركة فقط من أصل ٢٢ شركة فهذا اثر واضح للحرب على القطاع، فمنذ اندلاع الحرب في ابريل ٢٠٢٣م صدرت مذكرة استشارية من سوق التامين البحري في لندن ادرج السودان من ضمن المناطق عالية المخاطر(**وهذا يعني ان أي سفن تبحر في البلاد ستحتاج الى دفع قسط تامين إضافي لمخاطر الحرب والحصول على مو افقة من شركة التامين الخاصة بها)** وهذه المذكرات تصدر من لجنة الحرب المشتركة التي تضم أعضاء نقابيين من جمعية سوق لويدز وممثلين من سوق التامين في لندن تتم مراقبتها عن كثب وتؤثر على مراجعات شركات التامين فيما يتعلق بأقساط التامين، وهذه اثرت بصورة واضحة في ارتفاع تكلفة اصدار الوثائق البحرية مما انعكس على زيادة في أسعار الواردات الى السودان وكذلك تأثر الطيران وذادت أقساط التامين بنسبة١٠٠٪ مما أدى لتوقف الطيران الدولي والإقليمي وأصبحت أسعار الطيران المحلي اضعاف مضاعفة لسعر التذاكر مع انخفاض العملة المحلية.

٣/ وكذلك تأثر المواطن بصوره كبيرة من تقلص خدمات التامين الطبي التي كانت تقدمها شركات التامين نسبة لما طال القطاع الصحي الخاص من تدمير للبنى التحتية في المدن المتأثرة بالحرب وكذلك الجهات طالبة الخدمة (مؤسسات وشركات ومنظمات) أصبحت خارج الخدمة ويمكن القول ان هنالك انخفاض كبير في حجم الاكتتاب وفقدان متبقي الأقساط الآجلة المستحقة وكذلك تأثر

معيدي التامين والتحويلات المالية المستحقة الدفع وتأكلت قيمة أصول الشركات وتضرر الأصول العقارية التي تمتلكها شركات التامين وكذلك تأثر العاملين بالقطاع واسرهم حيث ان الشركات العاملة تعمل باقل عدد من العاملين وبعض الشركات متوقفة عن العمل فاصبح العاملين بدون عمل وبدون اجر وهذا اثر معنوي. فهنالك تحدي كبير ينتظر شركات التامين عقب الحرب ان شاء الله يتمثل في بقاء جسر الثقة بينهم وبين حملة الوثائق. في سداد التعويضات التي سوف تظهر وكذلك دور القطاع في الاعمار والتنمية وجبر الضرر ونشر الثقافة التأمينية والتفكير بصورة مبتكره في تعزيز الملاءة المالية للشركات ومراجعة شاملة لقانون التأمين ولائحة الجهاز القومي للرقابة على اعمال التأمين (رامي حسن السيد مدير الشركة السودانية للتامين وإعادة التامين والأستاذ عبد الرحيم بلة مدير شركة النيلين للتامين)

اتفاقيات إعادة التأمين

اتفاقيه إعادة التأمين هي عقد مكتوب وملزم بين الشركة المباشرة من ناحية ومعيد التأمين من ناحية اخري وبموجب اتفاقه إعادة التأمين فان الشركة المباشرة توافق على الالتزام بإسناد كافة الأخطار الواقعة ضمن نطاق وحدود الاتفاقية الى معيد التأمين ومقابل ذلك يلتزم معيد التأمين بقبول كافة الاسنادات الواقعة ضمن الاتفاقية اي ان الالتزام بالإسناد من جهة الشركة المباشرة والالتزام بالقبول من جانب معيد التأمين هي الخاصية الرئيسية لإعادة التأمين الاتفاقية **(نبيل مختار ٢٠٠٥)، وتنقسم ال نوعين وهما :**

١- **اتفاقية إعادة التأمين النسبي (proportional re- insurance treaty):**

٢- **اتفاقية إعادة التأمين اللانسبي non proportional re- insurance treaty:**

وفيما يلي ايجاز تعريفي لهذين النوعين :

١- الاتفاقية النسبية: ويمكن ان نعرف هذه الاتفاقية انها قائمة على الأساس النسبي من حيث الالتزامات والحقوق بين شركة التامين المباشرة وشركات إعادة التامين فيما يتعلق بي الأقساط والتعويضات سواء كان الاحتساب وفق مبالغ او نسبة مئوية وبالطرق التالية:

أ. **طريقة المشاركة:Quota Share**

بموجب هذه الطريقة تحتفظ شركة التامين بنسبة مئوية من قسط الخطر المؤمن علية مثلا٣٠٪وتسند المتبقي البالغ ٧٠٪ الى المعيد حيث يلتزم المعيد بتسديد التزاماته عند نشوء طلب تعويض بنفس حصته النسبية تحقق هذه الطرية الفوائد التالية:

- الحصول على عمولة إعادة تامين اعلى مقارنة بالطرق الأخرى.
- التخلص من عبء الاخطار الرديئة بإعادة تأمينها.
- الاستفادة من خبرة المعيد خصوصا عندما تكون شركة التامين حديثة التأسيس، ولكن هذه الطريقة لا تتيح لشركة التامين الاحتفاظ بالأخطار الجيدة وعدم إعادة تأمينها (بهاء بهيج ،٢٠١١، 45.)

ب. **طريقة الفائض: Surplus**

اتفاقية إعادة التأمين تأخذ الصفة الإلزامية حيث يتوجب على الشركة المسندة أن تقوم بإسناد جزء من الأقساط إلى المعيد حتى وإن كانت نوعيه هذه الأخطار من الحجم الذي تستطيع الشركة الاحتفاظ به بالكامل، وعلى المعيد قبولها.

تعتبر اتفاقية الفائض طريقة مثاليه من حيث ملاءمتها لتقدير احتفاظ شركة التأمين لكل خطر على حده. حيث تمنح هذه الاتفاقيات شركة التأمين سعات اكتتابيه مثل قبول أخطار كبيرة دون الحاجة إلى زيادة احتفاظها من الحدود المقبولة وهذا يؤدي إلى احتفاظ الشركة بقدر أكبر من الأقساط خاصة بالنسبة للأخطار الصغيرة والأخطار الكبيرة التي تقع في حدود احتفاظها. تكون شركة التأمين ملزمة بإسناد كافة الأخطار التي تزيد عن حد احتفاظها إلى الاتفاقية، ويكون المعيد ملزماً بقبولها ويكون هذا الالتزام تلقائياً ولا يكون هناك مجال لحرية الاختيار لأي من الطرفين، وهي تعطي المجال للمؤمن للعمل داخل السوق ومنافسه الشركات الأخرى (محمد حافظ ،٢٠١٧، 25).

وتستطيع الشركة شراء أكثر من اتفاقية فائض مثل فائض أول أو ثاني، ويكون نصيب اتفاقية الفائض الثاني من الإسناد أقل من نصيب اتفاقية الفائض الأول وبالتالي فأن نصيبها من الأقساط يكون أقل. ويتم الإسناد إلى اتفاقية الفائض الثانية بعد استخدام كامل السعه في اتفاقية الفائض الأولى، ونفس الشيء بالنسبة للثانية والثالثة ... الخ.

يحتفظ المؤمن في هذا النوع بقدر معين من مبلغ التأمين للخطر الواحد يسمى الخط Lineوتكون حدود الاتفاقية عبارة عن عدد معين من الخطوط، ويتم تقسيم الأقساط والمسؤوليات والخسائر بنسبة مقدار احتفاظ كل من الشركة المسندة والجزء الذي يتم إسناده إلى الاتفاقية ويتم حساب الفائض (مبلغ التامين – احتفاظ الشركة المباشرة) ويتم حساب طول الخط (الفائض \ عدد الخطوط).

المزايا:

١) تسمح للمؤمن أن يختار مبلغ الاحتفاظ بالنسبة لكل خطر.
٢) الإسناد يتم بصورة تلقائية شرط أن يكون ذلك ضمن شروط الاتفاقية.
٣) تسمح للمؤمن بالاحتفاظ بحصة أكبر من دخله (في حالة الحصة النسبية Quota يتم الاقتسام بنسبة ثابته).

العيوب:

١) يكون المؤمن ملزماً بمبلغ الاحتفاظ الذي أختاره.
٢) تؤثر على التركيبة الأصلية لحساب المؤمن من حيث صافي ما أحتفظ به وإجمالي حساباته (امام عبد العزيز،٢٠١٧).

ت. **اتفاقية الفائض الحصية:** Mixed or Combined Quota Share and surplus

تستخدم اتفاقية الفائض الحصية (مزيج بين اتفاقيتي الفائض والحصص) عندما ترغب الشركة المتنازلة في تقليل أو تخفيض حد احتفاظ اتفاقية الفائض من خلال تنازل إضافي من احتفاظ الفائض ال معيد الحصة.

قد يحدث هذا التنازل الإضافي من احتفاظ الفائض في ظروف معينة كان تكون شركة التأمين شركة جديدة ومبتدئة في مجال التأمين فلا تستطيع الاحتفاظ بمبالغ تأمين كبيرة، او عندما تبدأ شركة التأمين في الاكتتاب في فرع تامين جديد.

- يسمي احتفاظ الفائض بالاحتفاظ الإجمالي
- يأخذ معيد الحصة جزء من احتفاظ الفائض (نسبة مئوية من احتفاظ الفائض).
- الجزء المتبقي من الاحتفاظ الإجمالي بعد التنازل ال معيد الحصة يسمي الاحتفاظ الصافي .
- قد يكون معيد الحصة هو نفسه معيد الفائض.

ث. المجمـعات:Pools

ينصرف المفهوم الى انضمام العديد من شركات التامين وإعادة التامين الية حيث يتم توزيع الاخطار والمسؤوليات الكبيرة ذات الخطورة العالية مثل الحروب وتامين الطيران والنقل البحري ...الخ على الشركات المساهمة في المجمع وفق نسبة مساهمة كل شركة وحسب طاقتها الاحتفاظية. وتخضع المجمعات الى نفس الأسس المتبعة في شركات التامين في تقييم نتائج اعمالها واعداد الكشوفات والموازنات السنوية لأقساطها وتعويضاتها والارباح المتحققة.

٢- الاتفاقيات غير النسبية: **Non – Proportional Treaty**

نوع من إعادة التأمين بموجبة توافق شركة إعادة التأمين على دفع مبلغ محدد لكل مطالبة تتلقاها شركة التأمين، حتى حد محدد مسبقاً. وتلجأ الية شركات التامين للحماية من الاخطار الجسيمة فهو يغطي الاخطار الكارثية وكذلك في حالة تراكم الاخطار. وتنقسم التغطية غير المتناسبة أيضاً إلى نوعين فرعيين هما:

أ. اتفاقيات زيادة الخسارة**Excess of Loss Treaty**

بمقتضى هذه الطريقة تغطى الشركة المسندة لدى معيد التأمين ما يزيد عن مبلغ محدد من تعويضات الحادث الواحد أو مجموعة حوادث تنشأ من واقعة واحدة وما يزيد عن ذلك تتحمله تغطية اتفاقية زيادة الخسائر حتى حدها الأقصى، أي أن هذه الاتفاقية تبرمها الشركة غالبا لحماية احتفاظها حيث تضمن الاتفاقية للشركة المسندة تعويضها عن مبالغ التعويضات التي يزيد نصيب الشركة الصافي منها عن مبلغ معين وذلك بالنسبة لكل حادث على حده، هذا بعد خصم أنصبة إعادة التأمين الإلزامية أو بموجب الاتفاقيات الأخرى ولكن بحد أقصى أيضا، أي أنه إذا تجاوزت التعويضات هذا الحد الأقصى ارتدت المسئولية إلى الشركة المسندة مرة ثانية (أحمد بديع ،٢٠٠٦)

ب. اتفاقيات وقف الخسارة:**Stop Loss Treaty**

هذه الاتفاقيات ينصب موضوعها على معدل تعويضات الشركة المسندة في فرع معين أثناء فترة معينة (سنة مثلا)، أي أن الشركة المسندة تتحمل كل الخسائر إلى أن تبلغ جملتها نسبة معينة من جملة الأقساط، بينما تبدأ مسؤولية معيد التأمين عن الخسائر التي تزيد عن تلك النسبة وذلك حتى نسبة معينة أخرى.

وتعتبر مثل هذه الاتفاقيات إحدى الطرق الحديثة لإعادة التامين اللانسبي وتعرف أيضا بتجاوز معدل التعويضات، ومن الناحية العملية فإن إعادة اتفاقيات وقف الخسائر تستخدم عادة في بعض أنواع التأمين الخاصة مثل تأمين الصقيع وتأمين بعض الغابات في أستراليا. (احمد مظهر عبد المهدي ،٢٠١٢).

ويري الباحثان: ان الحرب والنزاعات المسلحة تؤثر بشكل كبير على اتفاقيات إعادة التامين في السودان وذلك في الاتي:

١- زيادة المخاطر: الحرب تزيد من المخاطر التي تواجه شركات التامين مما يؤدي الى ارتفاع أقساط التامين وإعادة التامين فشركات إعادة التامين قد تتجنب او تزيد من تكاليف التغطية في المناطق المتأثرة بالنزاع.

٢- عدم الاستقرار الاقتصادي: تؤثر الحرب بشكل كبير في السودان على الاقتصاد مما ينعكس سلبا على قدرة شركات التامين في دفع أقساط إعادة التامين وكذلك يزيد من قيمة التعويضات.

٣- تأثير على القوانين والتنظيمات: تؤدي الحرب الى تغيير في القوانين والنظم المتعلقة بالتامين وإعادة التامين مما يؤثر على سوق التامين كما قامت شركة (zebra re) بإلغاء اتفاقياتها مع شركات التامين السودانية على الرغم من الاتفاقية الدولية الملزمة للطرفين وذلك في شهر يونيو ٢٠٢٣م.

٤- تأثير على العلاقات الدولية: تؤثر الحرب سلبا على العلاقات الدولية مما قد يعيق شركات إعادة التامين الدولية من العمل في سوق التامين السوداني.

٥- انعدام الاستثمار والمستثمرين مما قد يقلل من حجم الاعمال قيء القطاع وخروج معظم الشركات والاعمال عن الخدمة بسبب الحرب مما ادي الى انخفاض كبير في حجم المحافظ التأمينية وخروج أصحاب الاعمال خارج البلد مع رؤوس أموالهم ففي ظل الحروب يصعب تقييم المخاطر بشكل دقيق مما يصعب من تحديد الأسعار المناسبة لتغطية التامين.

٦- هنالك بعض شركات إعادة التامين غيرت في بعض شروط الاتفاقيات ففي تجديد العام ٢٠٢٤م وبسبب الحرب قامت شركات الإعادة بتخفيض نسبة (cap- loss) في بعض فوع التامين كالتامين الطبي وهنالك بعض شركات الإعادة رفضت قبول حصة في فرع التامين الطبي الا مع مجموعة محافظ تأمينية(كالسيارات والحريق والتمويل الأصغر والتكافل) مما سبب في خروج الشركات المتخصصة والجديدة من السوق.

الدراسة الميدانية (الجانب التطبيقي):

دراسة حالة شركة السلامة للتامين وإعادة التامين المحددة للفترة من ٢٠١٩-٢٠٢٤م

وتعتبر احدى الشركات الرائدة في مجال التامين في السودان تأسست الشركة عام ١٩٩٢م بمساهمة من البنك الإسلامي السوداني ومجموعة من رجال الاعمال ولديها فروع كثيرة في ولاية الخرطوم وكل ولايات السودان بهدف تقديم منتجات تأمينية متنوعة لتلبية احتياجات العملاء وتقدم خدمات متميزة وسرعة في سداد المطالبات وتتميز بالشفافية والمصداقية في التعامل مع العملاء.

الفرضية الأولى: قامت بعض شركات إعادة التأمين بإلغاء الاتفاقيات مع شركات التأمين المباشرة بسبب الحرب.

ومن خلال الملاحظة والمشاهدة واجراء بعض المقابلات الشخصية توصل الباحثان الى ان شركة (Africa re) رفضت قبول الحصة المسندة اليها من السوق السوداني بسبب الحرب رغم انها حصة الزامية مسندة اليها من قبل الجهاز القومي للرقابة على التامين منذ الحظر الاقتصادي على السودان ،فقد كان لديها نافذة في السوق السوداني بموجب الاتفاقيات الإقليمية ولديها نسبة ١٠٪ من حصة السوق السوداني فقد كان موقفها حيادي بصورة كبيرة مقارنة مع نظيراتها فكان لابد ان تقوم بدورها كشركة إعادة تامين وتجبر الضرر الذي تتعرض له الشركات المباشرة مع العلم ان السوق السوداني له مميزات عديدة فخسائره تعتبر صغيرة ومتوسطة أي انه مربح نوعا ما بالنسبة لشركات إعادة التامين فبدلاً عن الرفض كان متوقع ان تسانده وتقف بجانبه في هذه الظروف الاستثنائية، وكذلك الجهاز القومي للرقابة على التامين لم يلزمها بقبول الحصة لان الاتفاقية اختيارية الزامية أي انها الزامية من جانب شركات التامين المباشرة واختيارية من جانب المعيد ولم يقف بجانب شركات التامين بل ساند شركات إعادة التامين مما أدى الى قضب مدراء الشركات المباشرة واعتبروا ان الجهاز القومي للرقابة على التامين لم يقوم بدوره كما هو مطلوب ووضعوا الحق علية في هوان مواقفهم في ظل هذه الظروف، فبدلا عن ذلك كان يمكن لكل الشركات المباشرة وشركات الإعادة والجهاز القومي للرقابة على التامين ان يتكاتفوا ويتعاونوا للخروج معاً وتحقيق التكافل والتعاون الذي يمثل العمود الفقري للتامين الإسلامي.

الفرضية الثانية: توجد علاقة ذات دلاله إحصائية بين زيادة الأسعار والحصول على اتفاقية إعادة تامين مناسبة لتغطية الاخطار.

وللتأكد من صحة هذه الفرضية من عدمها قام الباحثان بحساب معدل التغيير في الأقساط المباشرة واقساط إعادة التامين، كما في الجداول الاتية:

الجدول (٢٠٢٤/١/١م

السنة	الأقساط المباشرة	معدل التغير
٢٠١٩م	802,003,000	-
٢٠٢٠م	1,383,270,345	72.5%

٢٠٢١م	4,505,199,564	69.3%
٢٠٢٢م	4,494,246,241	-0.24
٢٠٢٣م	2,146,376,412	-52.2%

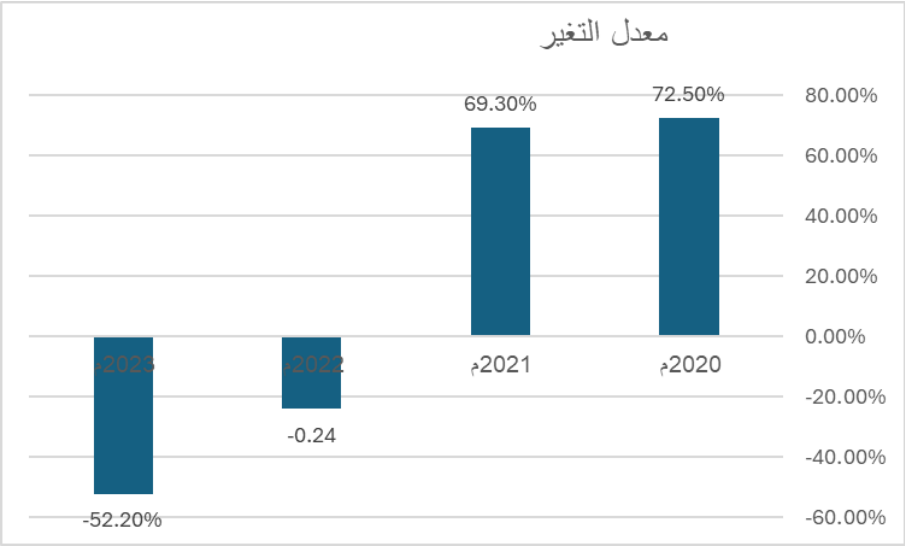

السنة	أقساط الإعادة	معدل التغير
٢٠١٩م	326,568.000	-
٢٠٢٠م	533,874,000	63.5%
٢٠٢١م	1,995,074,259	73.7%
٢٠٢٢م	2,202,382,742	10.4%
٢٠٢٣م	1,440,792,524	-34.6%

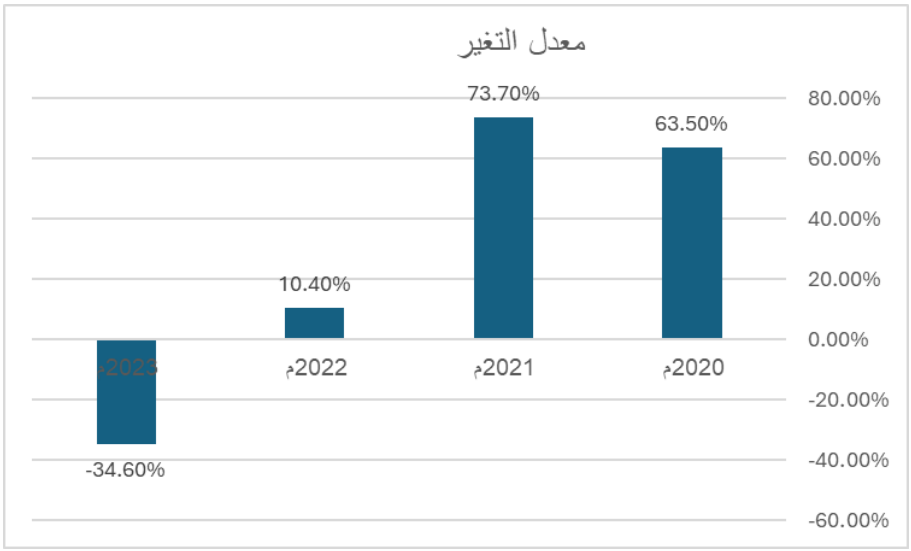

الارتباط

جدول رقم (١) يوضح:

معامل ارتباط بيرسون بين الأقساط المباشرة و اقساط الاعادة خلال الفترة ٢٠١٩-٢٠٢٣م

المتغير المستغل	قيمة معامل بيرسون	عدد السنوات	القيمة الاحتمالية	الاستنتاج
الأقساط المباشرة	0.60	5	0.287	ليسه دالة

من الجدول (١) نجد أن قيمة معامل ارتباط بيرسون هي ٠,٦٠ وهو ارتباط طردي قوي أي كل ما زاد الاقساط المباشرة يتبعه زيادة في اقساط الاعادة، القيمة الاحتمالية لمعمل بيرسون للارتباط هي ٠,٢٨٧ وهي أكبر من ٠,٠٥ عليه الارتباط غير معنوي.

الانحدار

جدول رقم (٢) يوضح:

معامل الارتباط ومعامل التحديد لمتغيرات معالة الانحدار خلال الفترة ٢٠١٩-٢٠٢٣م

قيمة معامل الارتباط R	معامل التحديد R^2	معامل التحديد المعدل $\overline{R}^2$	اختبار DW
0.60	0.57	0.43	1.711

من الجدول رقم (٢) نجد أن قيمة الارتباط هي ٠,٦٠ وهو ارتباط طردي قوي ، معامل التحديد هو ٠,٥٧ ومعامل التحديد المعدل هو٠,٤٣ أي أن ٥٧,٠٪ من التغيرات التي تحدث في أقساط الإعادة سببها الأقساط المباشرة و ٤٣,٠٪ من التأثيرات ترجع لعوامل أخرى.

بما أن قيمة اختبار DW (DW= اختبار دربن واتسون) (١,٧١١) أقل من ٢ علية لا توجد مشكلة تداخل خطي في نموذج الانحدار البسيط .

جدول رقم (٣) يوضح:

جدول تحليل التباين

مصدر التباين S.O.V	مجموع المربعات Sum of Squares	درجات الحرية df	متوسط المربعات Mean Square	قيمة اختبار F	القيمة الاحتمالية Sig	الاستنتاج
الانحدار Regression	101343184346438 20000000.000	1	101343184346 43820000000.0 00	7.002	.287	دالة
البواقي Residual	182437443751831 90000000.000	3	608124812506 1060000000.00 0			
المجموع	283780628098270 20000000.000	4				

من الجدول (٣) نجد أن القيمة الاحتمالية لاختبار (F) هي ٠,٠٠٥ وهي أقل من ٠,٠٥ عليه نموذج الانحدار الخطي البسيط معنوية أي أن معادلة الأنحدار الخطي البسيط معنوية وتمثل البيانات تمثيل سليم .

جدول رقم (٤) يوضح:

معاملات نموذج الانحدار الخطي البسيط للاستثمار خلال الفترة من ٢٠١٩-٢٠٢٣

المتغيرات	Unstandardized Coefficients المعاملات		Standardized Coefficients	t	القيمة الاحتمالية Sig
	B	Std. Error	Beta		
(Constant) الثابت	-38321024472.162	69170478486.476		-.554	.618
الأقساط المباشرة	28.922	22.404	.598	1.291	.287

معادلة انحدار كل من الأقساط المباشرة و اقساط الاعادة خلال السنوات ٢٠١٩-٢٠٢٣م.

الصورة العامة لمعالة الانحدار المتعدد:

$$y_i = \alpha_0 + \alpha_1 x_{i1} + \alpha_2 x_{i2} + \cdots \alpha_k x_{ik} + u_i$$

الصورة العامة لمعادلة الانحدار البسيط المقدرة:

$$\hat{y}_i = \hat{\alpha}_0 + \hat{\alpha}_1 x_1$$

معادلة انحدار كل من الأقساط المباشرة و اقساط الاعادة خلال السنوات ٢٠١٩-٢٠٢٣م:

$$y_i = \alpha_0 + \alpha_1 x_1$$

أقساط الاعادة = y_i

x_1 = الاقساط المباشرة

$$y_1 = -38321024472.162 + 28.922x_1$$

تفسير معادلة الانحدار:

α_0 =-38321024472.162

، وهي تعني أن متوسط أقساط الاعادة هو 38321024472.162-جنيه سوداني في حالة أن المتغير المستقل تساوي صفراً.

α_1= 28.922 أي كلما تغير الاقساط المباشرة واحد جنيه سوداني يزيد اقساط الاعادة بمقدار 28.922%.

اختبار معنوية المتغير المستقل:

١- الأقساط المباشرة:

من الجدول رقم (٤) نجد أن القيمة الاحتمالية لاختبار (t) لمعامل الاقساط المباشرة هي ٠,٢٨٧ وهي أكبر من ٠,٠٥ عليه متغير الاقساط المباشرة غير معنوي بمعنى آخر الاقساط المباشرة لا تؤثر على اقساط الإعادة علية تم رفض الفرضية القائلة "توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين زيادة الأسعار والحصول على اتفاقيات إعادة تامين مناسبة لتغطية الاخطار".

وبعد التحليل للفرضية تبين انها مرفوضة أي انه لم يكن هنالك زيادة في الأسعار للحصول على تجديد للاتفاقيات، فقد كانت الأسعار ثابتة كما في الأعوام السابقة ولكن انخفاض العملاء وتدهور الوضع الاقتصادي بسبب الحرب وانعدام الموجودات وقلة الإنتاج والإنتاجية وعدم تحقق الاكتتاب المتوقع أي ان خطر الفروقات أصبح واقع ملموس ادي كل ذلك الى تغيير في شروط اتفاقيات إعادة التامين وانخفاض الحصة السوقية بشكل كبير حتى ان بعض الشركات لم تستطيع تجديد الاتفاقيات للعام ٢٠٢٤م.

٤. الفرضية الثالثة: يؤثر سداد المديونيات على شركات التأمين المباشرة في الحصول على تجديد الاتفاقيات.

ولدراسة هذه الفرضية قام الباحثان بحساب معدل التغيير لحجم المديونيات على شركة السلامة للتامين خلال الثلاث سنوات الأخيرة، وذلك لعدم توفر البيانات بسبب الحرب وضياع كتير من الداتا التي تعتبر مهمه لشركات التامين وبعض منها فقد وبعض منها يوجد برئاسة الشركات في الخرطوم ولكن بسبب الحرب لا تستطيع الحصول عليها .

السنة	ارصدت معيدي التامين	معدل التغير
٢٠٢١م	202,042,298	-
٢٠٢٢م	204,146,216	-1.04
٢٠٢٣م	304,531,203	-49.17

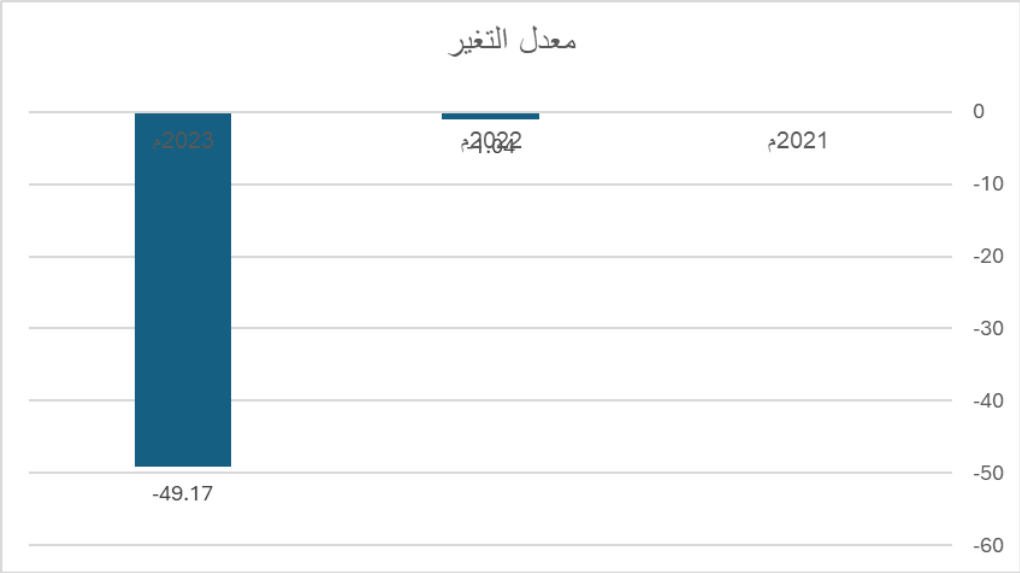

ومن خلال هذا المعدل يتضح بشكل كبير زيادة حجم المديونيات في العام ٢٠٢٣م عن العام ٢٠٢٢م وهذا نتيجة لتدهور الشركة في عملياتها ورغم تزايد حجم المديونيات فقد الزمت شركات إعادة التامين هذه الشركة بدفع المديونيات المتراكمة عليها كشرط أساسي لقبول تجديد الاتفاقيات لها للعام ٢٠٢٤م رغم ظروف الحرب وعدم سداد أقساط التامين من قبل المؤمن المباشر، فقد كان هذا الشرط جزء من تدهور هذه الشركة وعدم قدرتها على سداد المطالبات المتراكمة عليها للمؤمن لهم فقد ثبتت عن سدادها المديونيات للمؤمن لهم وخاصة في فرع التامين الزراعي وقامت بسداد جزء من المديونيات لشركات إعادة التامين واعتبرت شركات التامين المباشر هذا الشرط ظلم لها في ظل هذه الظروف التي تمر بها البلاد وهذا دليل على عدم كفاءة إدارة المخاطر بشركات التامين المباشرة .

النتائج والتوصيات:

فقد توصلت الدراسة للنتائج الاتية:

١- قامت بعض شركات إعادة التامين بإلغاء الاتفاقيات مع سوق التامين السوداني بسبب الحرب ولا توجد تغطيات تامينية لتغطية مخاطر الحرب في السودان.

٢- لم تقم شركات إعادة التامين بزيادة الأسعار لتجديد اتفاقيات إعادة التامين للعام ٢٠٢٤م

٣- ألزمت شركات إعادة التامين شركات التامين المباشرة بسداد المديونيات المتراكمة عليها كشرط أساسي لتجديد الاتفاقيات للعام ٢٠٢٤م

٤- تم تعديل بعض الشروط والاحكام في اتفاقيات إعادة التامين لحماية نفسها من الخسائر المحتملة.

٥- انعدام السيولة لشركات السلامة للتامين المباشرة مما أثر سلباً على الوفاء بسداد مديونياتها للمعيدين.

٦- زيادة تعقيدات في الوضع المالي للجوء شركات التامين الى السوق السوداء للحصول على العملات الأجنبية لتسديد مديونياتها السابقة.

التوصيات:

قام الباحثان بصياغة بعض التوصيات:

١- يجب على شركات التامين المباشرة ان تكون أكثر مرونة وتطور منتجات تأمينية تتناسب مع المخاطر الجديدة وتوفير تغطيات للحرب.

٢- يجب على شركات التامين المباشرة الاستثمار في التكنولوجيا الحديثة مثل الذكاء الاصطناعي وذلك بعد فقدها للبيانات بسبب الحرب.

٣- يجب تعزيز التعاون الإقليمي والمحلي وانشاء مجمعات إعادة تامين لمجابهة المخاطر والكوارث والحروب.

٤- على شركات التامين المباشرة وضع استراتيجيات لإدارة السيولة في أوقات الازمات لضمان قدرتها على الوفاء بالتزاماتها.

٥- على الجهاز القومي للرقابة على التامين وضع الشروط والاحكام والقوانين لمزيد من الحماية للشركات المباشرة ولمصلحة المؤمن لهم لنهوض بقطاع التامين السوداني ولمجابهة المخاطر والتحديات.

٦- يجب على شركات إعادة التامين قبول سداد المديونيات بالعملة المحلية وفتح حسابات بالبنوك السودانية كما يجب على شركات التامين السودانية زيادة الطاقة في السوق المحلي أي التركيز على الإعادة المحلية.

-قائمة المراجع والمصادر:

١. أحمد بديع السيفي، الوسيع في التامين وإعادة التامين، الجزء الثاني بغداد ٢٠٠٦م

٢. أحمد مظهر عبد المهدي، حد الاحتفاظ الأمثل وإعادة التامين وعلاقتهما بزيادة اعمال شركات التامين بحث ماجستير بغداد ٢٠١٢م

٣. إمام عبد العزيز الحسيني، إعادة التامين، مكتبة الثالوثية الرياض ٢٠١٩م

٤. بهاء بهيج شكري، إعادة التامين بين النظرية والتطبيق، دار الثقافة للنشر عمان، الاردن ٢٠١١،

٥. محمد حافظ، إعادة التامين علميا وعمليا، مركز الخبرات المهنية للإدارة ،٢٠١٧م ص ٢٥

٦. نبيل محمد مختار، إعادة التامين، دار الفكر الجامعي الإسكندرية ٢٠٠٥مق

المقابلات الشخصية:

١. رامي حسن السيد مدير الإدارة الفنية والمالية بالشركة السودانية للتامين وإعادة التامين المحدودة (مقابلة شخصية بتاريخ ١٢/يوليو /٢٠٢٤م الساعة ١٠ص)

٢. عبدالرحيم بلة مدير شركة النيلين للتامين (مقابلة شخصية بتاريخ ١٤/يوليو/٢٠٢٤م الساعة ٩ص)

٣. الهام شريف مدير عام مكلف شركة السلامة للتامين (مقابلة شخصية بتاريخ ١٨/يوليو /٢٠٢٤م الساعة ١٠ص

الرسائل الجامعية والأوراق غير المنشورة:

١. مجتبى هاشم رمضان رسالة دكتوراه غير منشورة بعنوان أثر إعادة التامين على الاقتصاد القومي عام ٢٠١٥م

دراسة العلاقة بين تبنى السجلات الصحية الإلكتروني ورضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن

د. بدرعلي عبد الله آل معاف(•)

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة العلاقة بين تبني السجل الصحي الإلكتروني بأبعاده (المواقع الإلكترونية، الملف الطبي الإلكتروني، الصيدلية الذكية، والتطبيب الإلكتروني) وتحقيق رضا العاملين، وذلك من خلال اختيار عينة مكونة من ٣٧٦ فردًا من العاملين في المستشفيات الحكومية بمدينة حفر الباطن بالمملكة العربية السعودية. وتوصلت نتائج البحث إلى وجود علاقة معنوية بين المواقع الإلكترونية ورضا العاملين، كما وُجدت علاقة معنوية بين الملف الطبي الإلكتروني ورضا العاملين، إضافةً إلى دور معنوي للصيدلية الذكية في تحقيق رضا العاملين، وأخيرًا ثبتت العلاقة المعنوية بين التطبيب الإلكتروني ورضا العاملين في المستشفيات محل الدراسة.

الكلمات المفتاحية :السجل الصحي الإلكتروني، المواقع الإلكترونية، الملف الطبي الإلكتروني، الصيدلية الذكية، التطبيب الإلكتروني، رضا العاملين

مقدمة

تتمحور رؤية وزارة الصحة في تطوير الرعاية الصحية في المملكة العربية السعودية من حيث الجودة، والمقاييس، والمساواة في تقديم خدمات الرعاية الصحية. ولتحقيق هذه الرؤية، حددت المملكة العربية السعودية خطة شاملة لتحسين الرعاية الصحية، التي من خلالها يتم تحقيق نظام صحي مستدام على مستوى عالمي يتماشى مع الطموح والأهداف المحددة في رؤية ٢٠٣٠. ويُعد الملف الصحي الموحد إحدى المحاور الأساسية التي تعتمد عليها آلية تقديم الرعاية الصحية في المستشفيات، والمنشآت الطبية. وتؤدي الملفات الصحية دورًا مهمًا في حفظ معلومات المريض كافة، مثل: الفحوصات، والتشخيصات، والعلاج، وتقارير المتابعة، وغيرها من القرارات الطبية المهمة. (وزارة الصحة السعودية، ٢٠٢٠)

وقد تم تطوير السجل الصحي الموحد ليشمل معلومات طبية دقيقة مثل فصيلة الدم، الأمراض المزمنة، المؤشرات الحيوية، نتائج الفحوصات والتحاليل، والأدوية الموصوفة، وغيرها من البيانات، من خلال منصات إلكترونية مثل تطبيق "صحتي" (تقرير مؤشرات وزارة الصحة السعودية، ٢٠٢٢). ويهدف هذا النظام إلى رفع كفاءة الخدمات الصحية، وتحسين تجربة المريض، وتقليل التكاليف، مع ضمان أعلى معايير الأمان والسرية.

وعلى الرغم من الجهود المبذولة، فإن نجاح تطبيق مثل هذه الأنظمة الرقمية لا يتوقف فقط على البنية التحتية التقنية، بل يعتمد أيضًا على مدى رضا العاملين الصحيين عنها، باعتبارهم

(•) استاذ مساعد .كلية الخليج الاهلية – السعودية - حفر الباطن

المستخدمين الرئيسيين لها. ومن هنا تنبع أهمية الدراسة الحالية، التي تسعى إلى **استكشاف العلاقة بين تبني السجل الصحي الإلكتروني بأبعاده المختلفة (المواقع الإلكترونية، الملف الطبي الإلكتروني، الصيدلية الذكية، والتطبيب الإلكتروني) ورضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن**، مثل: (مستشفى حفر الباطن المركزي، مستشفى الملك خالد، مستشفى الولادة والأطفال، مستشفى القيصومة العام).

مصطلحات البحث

السجل الصحي الإلكتروني

يشير السجل الصحي الإلكتروني إلى أحد التطبيقات الجوهرية للتحول الرقمي في القطاع الصحي، حيث يتم توظيف تقنيات الاتصال والمعلومات لتسجيل بيانات المريض الطبية وتخزينها وإدارتها بطريقة إلكترونية بديلة عن السجلات الورقية التقليدية. ويعكس هذا المفهوم توجّه المؤسسات الصحية نحو تبني أدوات وتقنيات العالم الرقمي بهدف تحسين كفاءة الخدمات الصحية، ودقة المعلومات، وسهولة الوصول إليها ومشاركتها بين مقدمي الرعاية.(Tagde, P., et al., 2021)

رضا العاملين

خضع مفهوم رضا العاملين لتطورات فكرية متعددة، تأثّرَت بالعوامل البيئية والتنظيمية المحيطة بالموظف، مما أدى إلى تباين في تعريفاته باختلاف المنطلقات النظرية. وقد عرّفه عدد من الباحثين باعتباره **حالة وجدانية إيجابية ناتجة عن تقييم الفرد لعمله أو وظيفته، وتعكس مدى الإشباع الذي يحققه العمل لحاجاته وتوقعاته** .(Ali, B. J., & Anwar, G., 2021)ويُعد رضا العاملين مؤشرًا حيويًا على الصحة التنظيمية، حيث يؤثر بشكل مباشر في الأداء والإنتاجية والالتزام الوظيفي، ويُعتبر عنصراً أساسياً في نجاح تطبيق الأنظمة الحديثة، ومنها نظم السجل الصحي الإلكتروني.

الدراسات السابقة

الدراسات السابقة التى تناولت السجل الصحي الإلكتروني

دراسة Tertulino وآخرون (2024) تطرقت بشكل غير مباشر إلى أهمية الواجهات الإلكترونية والأنظمة المرتبطة بها في حماية خصوصية المرضى وضمان التشغيل البيني. وقد أكدت الدراسة أن المواقع والأنظمة الإلكترونية تمثل واجهة الوصول إلى البيانات الصحية، مما يجعلها عنصرًا أساسيًا في تحقيق التوازن بين الأمان وسهولة الاستخدام. وهذا ينعكس بدوره على رضا المستخدمين من العاملين الصحيين، إذ تتطلب المواقع الإلكترونية أن تكون سهلة، آمنة، وتدعم الأداء الوظيفي بكفاءة، تناولت دراسة Johnson وآخرون (2023) الملف الطبي الإلكتروني بوضوح، حيث أبرزت أهمية جمع البيانات الرقمية داخل المستشفيات ضمن السجلات الإلكترونية أثناء الممارسة السريرية الروتينية. وبيّنت أن الملفات تحتوي على معلومات حيوية مثل: تشخيصات المرضى، الأوامر الطبية، الإجراءات، الملاحظات، ونتائج الفحوصات، مما يجعلها أداة محورية في اتخاذ القرار السريري. كما أوضحت أن دقة البيانات وتكاملها يساهم في تحسين جودة الرعاية ويُسهم في رضا الكادر الصحي من خلال سهولة الوصول للمعلومة، أبرزت دراسة Shah وآخرون (2023) هذا البُعد من خلال تناولها

للملف الصحي الإلكتروني ضمن إطار المستشفيات الافتراضية، التي تعتمد بشكل أساسي على التطبيب الإلكتروني .(Telemedicine) وأوضحت الدراسة أن النظام الصحي الحديث يتجه إلى تقديم الرعاية عن بُعد باستخدام أدوات رقمية، مما يعزز الوصول للخدمة الطبية ويوفر وقت وجهد العاملين والمرضى. ويمثل هذا التطور نقلة نوعية في تقديم الخدمة، ويتطلب جاهزية إلكترونية عالية من حيث الأنظمة والملفات الرقمية، وهو ما ينعكس على مستوى رضا العاملين واستجابتهم لهذه النماذج الجديدة.

ب. الدراسات السابقة التي تناولت رضا العاملين

بدأت دراسة **Edmans وآخرون(٢٠٢٤)** التي هدفت إلى استكشاف العلاقة بين رضا الموظفين وعوائد الأسهم في الشركات المالية على مستوى عالمي. وأظهرت نتائج الدراسة أن رضا الموظفين يرتبط ارتباطًا إيجابيًا بتحقيق فوائد أكبر في عمليات التوظيف، والاحتفاظ بالعاملين، وتحفيزهم، مما يؤدي إلى زيادة مستوى الرضا الوظيفي وتعزيز الأداء المؤسسي، أجرى كل من **Purwantoو Sulaiman (2023)** دراسة بعنوان *"دور القيادة التحويلية والتبادلية في رضا العاملين من المعلمين من جيل الألفية."* هدفت الدراسة إلى تحليل تأثير أنماط القيادة المختلفة على رضا العاملين في المدارس، وأكدت النتائج أن القيادة التحويلية لها تأثير كبير وإيجابي على الرضا الوظيفي، في حين أن القيادة التبادلية أثرت أيضًا بشكل ملموس في تعزيز رضا العاملين ، تناولت دراسة **Thielmann وآخرون (2023)** موضوع رضا العاملين ومشاركة العمل لدى موظفي الخدمة الطبية الطارئة في المستشفيات. ركزت الدراسة على تقييم مستويات الرضا النفسي والجسدي، وأكدت أن تعزيز رضا العاملين يعد من مطالب الجودة الأساسية لأنظمة الرعاية الصحية، حيث يؤثر بشكل مباشر على كفاءة وجودة الخدمات المقدمة.

التعليق على الدراسات السابقة.

من خلال العرض السابق للدراسات السابقة، ظهر بشكل واضح أهمية السجل الصحي الإلكتروني ورضا العاملين، كما أن الدراسات تشير إلى حداثة الاهتمام بمجالات الدراسة. وقد استند الباحث في هذا البحث على المساهمات التالية:

- التعرف على الجوانب البحثية التي تمت دراستها سابقًا، والوقوف على الفجوات والمجالات التي تحتاج إلى جهود بحثية إضافية، كمحاولة لتغطيتها في هذه الدراسة التي تركز على **المستشفيات الحكومية بحفر الباطن**.
- كما يتضح من الدراسات السابقة المتعلقة بتقييم السجل الصحي الإلكتروني، أهمية هذا السجل بأبعاده المختلفة المتمثلة في :**المواقع الإلكترونية، الملف الطبي الإلكتروني، الصيدلية الذكية، والتطبيب الإلكتروني**.
- اتفقت الدراسات السابقة المتعلقة برضا العاملين على أهمية هذا المفهوم بأبعاده المختلفة، التي تشمل :**طبيعة العمل وظروفه، المكانة الاجتماعية، المكانة الوظيفية، الأجور،**

وأشارت إلى أن الاهتمام برضا العاملين يساهم في خلق بيئة عمل إيجابية ويعزز من أداء المنظمة بشكل عام.

مشكلة البحث

في ظل التطور التقني المتسارع، أصبحت السجلات الصحية الإلكترونية من الركائز الأساسية لتحسين جودة الرعاية الصحية وتعزيز كفاءة العمل في المستشفيات. ومع ذلك، يبقى فهم مدى تأثير تبني هذه السجلات على رضا العاملين أحد الجوانب التي لم تحظَ بالاهتمام الكافي، خاصة في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن. إذ يُعد رضا العاملين مؤشراً رئيسياً على نجاح تطبيق أنظمة السجلات الصحية الإلكترونية، حيث ينعكس إيجابياً على أداء المؤسسة وجودة الخدمات المقدمة.

في هذا الإطار، تطرح الدراسة السؤال الرئيسي التالي:

- **هل توجد علاقة ذات دلالة بين تبني السجلات الصحية الإلكترونية ورضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن؟**
- ولتفصيل هذا السؤال الرئيسي، تفرعت الأسئلة الفرعية التالية:
- ما هي مكونات وأبعاد السجلات الصحية الإلكترونية المعتمدة في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن؟
- ما هو مستوى رضا العاملين عن بيئة العمل وأنظمة السجلات الصحية الإلكترونية في تلك المستشفيات؟
- كيف يؤثر تبني السجلات الصحية الإلكترونية في تعزيز رضا العاملين وتحسين أدائهم الوظيفي في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن؟

صياغة الفروض

الفرض الرئيس: هناك علاقة إيجابية ودالة إحصائيًا بين تبني السجلات الصحية الإلكترونية ورضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.

الفروض الفرعية:

١. تتكون السجلات الصحية الإلكترونية في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن من أبعاد واضحة تشمل المواقع الإلكترونية، الملف الطبي الإلكتروني، الصيدلية الذكية، والتطبيب الإلكتروني.
٢. هناك فرق معنوي في مستوى رضا العاملين بناءً على مدى تبني واستخدام أبعاد السجل الصحي الإلكتروني في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.
٣. تبني السجلات الصحية الإلكترونية يساهم بشكل إيجابي في تحسين أداء العاملين وزيادة رضاهم الوظيفي في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.

أهداف البحث

يتمثل الهدف الرئيسى للبحث فى دراسة العلاقة بين تبني السجلات الصحية الإلكترونية ورضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.

الأهداف الفرعية:

١. تحديد مكونات وأبعاد السجل الصحي الإلكتروني المستخدمة في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن (المواقع الإلكترونية، الملف الطبي الإلكتروني، الصيدلية الذكية، التطبيب الإلكتروني).
٢. قياس مستوى رضا العاملين تجاه بيئة العمل وأنظمة السجلات الصحية الإلكترونية في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.
٣. تحليل أثر تبني السجلات الصحية الإلكترونية على رضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.
٤. تقييم تأثير السجل الصحي الإلكتروني على أداء العاملين ورضاهم الوظيفي في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.

أهمية البحث

تتمثل أهمية البحث فيما يلى:

الأهمية العلمية: تنبع الأهمية العلمية لهذه الدراسة من سدّ الفجوة البحثية في مجال العلاقة بين تبني السجلات الصحية الإلكترونية ورضا العاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن، حيث تندر الدراسات التي تناولت هذا الموضوع في هذا السياق الجغرافي المحدد.

الأهمية العملية: تساعد نتائج الدراسة إدارة المستشفيات على تحديد النقاط القوية والضعف في استخدام أنظمة السجلات الصحية الإلكترونية، مما يتيح لهم تحسين الإجراءات وتطوير البرامج التدريبية المناسبة لتعزيز مهارات العاملين في التعامل مع هذه الأنظمة. إضافة إلى ذلك.

منهج البحث

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي، الذي يقوم بتفسير الظاهرة موضوع البحث وتحديد معالمها بدقة، إلى جانب المنهج التحليلي الذي يُستخدم لتحليل وتفسير العلاقات بين المتغيرات قيد الدراسة. ويشمل مجتمع البحث مديرَي الإدارات والعاملين في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن، والذين يبلغ عددهم (٧٧٠٤) فردًا.

أما فيما يخص اختيار العينة، فقد تم استخدام طريقة العينة العشوائية الطبقية لضمان تمثيل جميع الفئات الوظيفية والإدارية بالمجتمع البحثي بشكل متوازن. وقد تم تحديد حجم العينة بناءً على الجداول الإحصائية المعتمدة، حيث بلغت (٣٧٦) مفردة.

الدراسة الميدانية

نتائج الثبات والصدق للمقياس المستخدم في البحث

نتائج الثبات والصدق أظهرت أن أداة القياس المستخدمة في دراسة السجل الصحي الإلكتروني وعلاقته برضا العاملين في مستشفيات حفر الباطن تتمتع بدرجة عالية من الموثوقية؛ إذ بلغ معامل

ألفا كرونباخ(0.859) ، مما يشير إلى ثبات جيد للمقياس، كما بلغ الصدق الذاتي(0.911) ، مما يؤكد دقة الأداة وصلاحيتها للقياس.

جدول رقم (٣)

معامل الثبات والصدق الذاتي لمتغيرات الدراسة باستخدام معامل ألفا كرومباخ Alph cronbach

م	أبعاد الدراسة	عدد العبارات	معامل الثبات	معامل الصدق
	المتغير المستقل : السجل الصحى الالكترونى			
	إنشاء مواقع الكتروني	٣	٠,٧٢٨	٠,٨٥٣
	الملف الطبى الالكترونى الموحد	٣	٠,٧٩٥	٠,٨٩١
	الصيدلية الذكي	٣	٠,٨٢٤	٠,٩٠٧
	التطبيب الالكترونى	٣	٠,٨٣٩	٠,٩١٥
	إجمالى المتغير المستقل : السجل الصحى الالكترونى	١٢	٠,٨٥٦	٠,٩٢٥
	المتغير الوسيط: مشاركة المعلومات اللوجستية			
	طبيعة العمل وظروفه	٣	٠,٨٤٨	٠,٩٢٠
	المكانة الاجتماعية	٣	٠,٧٦٣	٠,٨٧٣
	المكانة الوظيفة	٣	٠,٧٦١	٠,٨٧٠
	الأجور	٣	٠,٨٢٨	٠,٩١١
	إجمالى المتغير التابع : رضا العاملين	١٢	٠,٨١٥	٠,٩٠٢
	إجمالي أبعاد الدراسة	**٣٩**	**٠,٨٥٩**	**٠,٩١١**

المصدر: الجدول من إعداد الباحث وفقًا لنتائج الدراسة

من الجدول السابق:

١-أكدت قيم معاملات الثبات لأبعاد المتغير المستقل "**السجل الصحي الالكتروني**" الارتفاع، وتراوحت بين (٠,٧٢٨ حتى ٠,٨٣٩)، وهي أكبر من (0.7) مما يعني القدرة على الاعتماد على تلك المقاييس.

٢- أكدت قيم معاملات الثبات للمتغير التابع "**رضا العاملين**" الارتفاع وتراوحت بين (٠,٧٦٣ حتى ٠,٨٤٨)، وهي أكبر من (0.7) مما يعني القدرة على الاعتماد على تلك المقاييس.

٢/٩. الاحصاء الوصفي

المتغير المستقل: (السجل الصحي الالكتروني) وتشتمل على ٤ أبعاد كما يلي:

جدول (٤) المقاييس الوصفية (المتوسط الحسابي، والانحراف المعياري، والأهمية النسبية، والترتيب) لأبعاد "السجل الصحي الالكتروني"

	العبارات	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الأهمية النسبية %	الترتيب
١. المو اقع الالكترونية					
١	يسهم وجود موقع إلكتروني للمستشفى في تحسين تجربة المرضى	٣,١٤	١,٢٨	٦٢,٨٠	٣
٢	تتاح كافة الخدمات على الموقع الإلكتروني للمستشفى	٤,١٥	٠,٣٦	٨٣	٢
٣	يتم تحديد مواعيد طبية عبر الموقع الإلكتروني	٤,٣٦	٠,٥٦	٨٧,٢٠	١
المتوسط العام		**٣,٦١**	**٠,٥١**	**٪٧٢,٣٥**	-
٢. الملف الطبى الالكترونى					
٤	يزيد الملف الطبي الإلكتروني فعالية التواصل بين الأطباء والمرضى	٤,٤٧	٠,٨٢	٨٩,٤٠	١
٥	يسهل الملف الالكترونى فى الوصول إلى التاريخ الطبي	٤,١٧	٠,٥٩	٨٣,٤٠	٢
٦	يسهم الملف الطبي الإلكتروني الموحد في تقليل الأخطاء الطبية	٤,١٤	٠,٥٤	٨٢,٨٠	٣
المتوسط العام		**٤,٢٥**	**٠,٤٠**	**٪٨٥,١٧**	-
٣. الصيدلية الذكية					
٧	تساهم الصيدلة الذكية في تحسين جودة خدمات الصيدلي	٣,٩٣	٠,٩٩	٧٨,٦٠	٢
٨	تحسن استخدام التكنولوجيا في الصيدلية من تجربة العملاء	٤,٠٧	٠,٧٥	٨١,٤٠	١
٩	تساعد الصيدلية الذكية في منع الأخطاء الطبية المتعلقة بالأدوية	٣,٧٩	١,٣١	٧٥,٨٠	٣
المتوسط العام		**٣,٩٣**	**٠,٥٥**	**٪٧٨,٦٤**	-
٤. التطيب الالكتروني					
١٠	يساعد الوصول إلى السجلات الطبية الإلكترونية في تسريع عملية تقديم الرعاية الصحية	٣,٥٠	١,١١	٧٠	٣
١١	تتوفر درجة أمان البيانات الصحية التي تتم مشاركتها عبر التطبيب الإلكتروني	٤,١٠	٠,٥١	٨٢	١
١٢	يتم جربة التشاور الطبي عبر الإنترنت من خلال التطبيب الإلكتروني	٣,٩٩	٠,٦٥	٧٩,٨٠	٢
المتوسط العام لإجمالى أبعاد السجل الصحى الالكترونى		**٣,٨٨**	**٠,٢٣**	**٪٧٧,٦٦**	-

يتضح من الجدول السابق ما يلي:

أظهرت نتائج الدراسة أن متوسط آراء أفراد العينة حول **السجل الصحي الإلكتروني** بلغ (٣,٨٨) وبأهمية نسبية (٧٧,٦٦٪)، ما يدل على اتجاه عام نحو الموافقة.

في **بعد إنشاء المو اقع الإلكترونية** بلغ المتوسط (٣,٦١) وأهمية نسبية (٧٢,٣٥٪)، وكانت أكثر العبارات موافقة هي "تحديد المواعيد عبر الموقع الإلكتروني.(87.20%) "

في **بعد الملف الطبي الإلكتروني الموحد** بلغ المتوسط (٤,٢٥) وأهمية نسبية (٨٥,١٧٪)، وجاءت أعلى عبارة "يزيد الملف الطبي الإلكتروني فعالية التواصل بين الأطباء والمرضى " (89.40%).

في **بعد الصيدلية الذكية** بلغ المتوسط (٣,٩٣) وأهمية نسبية (٧٨,٦٤٪)، وأكثر العبارات موافقة "تحسن التكنولوجيا في الصيدلية تجربة العملاء.(81.40%) "

في **بعد التطبيب الإلكتروني** بلغ المتوسط (٣,٨٦) وأهمية نسبية (٧٧,٣٣٪)، وأعلى عبارة "توفر درجة أمان البيانات الصحية.(82%) "

المتغير التابع: (رضا العاملين) وتشتمل على ٤ أبعاد كما يلي:

جدول (٥) المقاييس الوصفية (المتوسط الحسابي، والانحراف المعياري، والأهمية النسبية، والترتيب) لأبعاد " رضا العاملين "

	العبارات	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الأهمية النسبية %	الترتيب
١. طبيعة العمل وظروفه					
١	يتم تحديد احتياجات المستشفى من العاملين ذوى المهارات الرقمية	3.89	1.012	77.80	١
٢	يتم تحديد عدد ونوع المهارات المتلائمة مع متطلبات السجل الصحى الالكترونى	3.53	1.196	70.60	٢
٣	يتم تقييم إمكانات وقدرات العاملين الحالية لتحديد الفجوات فى أداء مهام السجل الصحى الالكترونى	3.21	1.314	64.20	٣
المتوسط العام		**3.41**	**0.83**	**68.38**	-
٢. المكانة الاجتماعية					
٤	يتم توجيه العاملين نحو زيادة التثقيق الالكترونى	3.41	1.217	68.20	٢
٥	يوفر السجل الصحي الإلكتروني مستوى عالٍ من الأمان والخصوصية للمعلومات الصحية	3.44	1.237	68.80	١
٦	يعزز السجل الصحي الإلكتروني التواصل والتنسيق بين الفرق الطبية المختلفة	2.67	1.259	53.40	٣
المتوسط العام		**٣,٥٢**	**٠,٨٤٣**	**٧٠,٥٧**	-
٣- المكانة الوظيفية					
٧	يساعد السجل الصحي الإلكتروني في تحسين كفاءة العمل	3.71	1.057	74.20	١
٨	يتيح السجل الصحي الإلكتروني الوصول السريع والسهل	3.58	1.034	71.60	٢

	إلى المعلومات الصحية للمرضى				
٩	يوفر السجل الصحي الإلكتروني ميزات إضافية مثل تذكيرات المواعيد وتقارير التشخيص	3.25	1.346	65.00	٣
المتوسط العام		**٣,٣**	**٠,٨١٩**	**٦٦,٣**	--
٤- الأجور					
١٠	يعتقد أن العمل بإدارات السجل الصحي الإلكتروني يساهم في تحسين الوضع المادى للعاملين	3.68	1.105	73.60	١
١١	تتوفر تعويضات إضافية مثل بدلات أو مزايا إضافية للعاملين في السجل الصحي الإلكتروني	3.31	1.331	66.20	٢
١٢	يتم تحديد الأجور بناءً على الراتب الشهري أو الراتب السنوي .	2.89	1.295	57.80	٣
المتوسط العام		**٣,٢٦**	**٠,٧٧٥**	**٦٥,٢٦**	
المتوسط العام لإجمالى أبعاد رضا العاملين		**٤,٠٤**	**٠,٤٦**	**٨٠,٨٤٪**	-

يتضح من الجدول السابق ما يلي:

أظهرت النتائج أن متوسط آراء أفراد العينة حول **رضا العاملين** بلغ (٤,٠٤) وبأهمية نسبية (٨٠,٨٤٪)، مما يشير إلى اتجاه عام نحو **المو افقة المرتفعة**.

- في **بعد طبيعة العمل وظروفه** بلغ المتوسط (٣,٤١) وأهمية نسبية (٦٨,٣٨٪)، وكانت أعلى عبارة موافقة :تحديد احتياجات المستشفى من العاملين ذوي المهارات الرقمية .(77.8%)
- في **بعد المكانة الاجتماعية** بلغ المتوسط (٣,٥٢) وأهمية نسبية (٧٠,٥٧٪)، وأعلى عبارة : يوفر السجل الصحي الإلكتروني مستوى عالٍ من الأمان والخصوصية .(68.8%)
- في **بعد المكانة الوظيفية** بلغ المتوسط (٣,٣) وأهمية نسبية (٦٦,٣٪)، وأعلى عبارة :يساعد السجل الصحي الإلكتروني في تحسين كفاءة العمل .(74.2%)
- في **بعد الأجور** بلغ المتوسط (٣,٢٦) وأهمية نسبية (٦٥,٢٪)، وأعلى عبارة :العمل في إدارات السجل الصحي الإلكتروني يساهم في تحسين الوضع المادي للعاملين .(73.6%)

اختبار الفروض

توجد علاقة إيجابية ذات دلالة إحصائية بين **تبنّي السجلات الصحية الإلكترونية ورضا العاملين** في المستشفيات الحكومية بمحافظة حفر الباطن.

الفروض الفرعية:

١. تتكوّن السجلات الصحية الإلكترونية في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن من مجموعة أبعاد رئيسية تشمل :**المو اقع الإلكترونية، الملف الطبي الإلكتروني، الصيدلية الذكية، والتطبيب الإلكتروني**.

٢. توجد فروق ذات دلالة إحصائية في مستوى **رضا العاملين** تُعزى إلى **مدى تبنّي واستخدام أبعاد السجل الصحي الإلكتروني** في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.

٣. يُسهم **تبنّي السجلات الصحية الإلكترونية** بشكل إيجابي في **تحسين أداء العاملين وزيادة رضاهم الوظيفي** في المستشفيات الحكومية بحفر الباطن.

.جدول رقم (٧) نموذج الانحدار الخطى المتعدد التدريجي للفرض الرئيس

المتغير المستقل	المعلمات المقدرة β_i	قيمة ت		قيمة ف		R2
		القيمة	مستوى المعنوية	القيمة	مستوى المعنوية	
الجزء الثابت	٠,٤٢٩	٣,٩٤٨	٠,٠١**	٢١٩,١٩٠	٠,٠١	٧٠,٩٪
المواقع الالكترونية	٠,٥٣٠	١٢,٥٤١	٠,٠٢*			
الملف الطبى الالكترونى	٠,٢٥٥	٢,٦٣٢	٠,٠٤*			
الصيدلية الذكية	٠,٢٦٢	٣,٥٦٨	٠,٠٠١٧			
التطبيب الالكترونى	٠,٣٥٦	٨,٧٩٦	٠,٠٣٠٤*			

***دالة عند مستوى معنوية أقل من (٠,٠٥). **دالة عند مستوى معنوية أقل من (٠,٠١).**

*** المصدر: مخرجات البرنامج الإحصائي Spss.**

من الجدول السابق يتضح ما يلى :

- **أن** المتغيرات المستقلة ككل (أبعاد السجل الصحى الالكترونى)، تفسر (٧٠,٩٪) من التغير الكلي في المتغير التابع المتمثل فى رضا العاملين، وباقي النسبة يرجع عدم إدراج متغيرات مستقلة أخرى كان من المفروض إدراجها ضمن النموذج أو لاختلاف طبيعة نموذج الانحدار عن النموذج الخطي.

- باستخدام اختيار (t.test) نجد أن المتغيرات المستقلة جميعها لها تأثير على رضا العاملين، حيث بلغت قيم "ت" على الترتيب (١٢,٥٤١)، (٨,٧٩٦)، (٣,٥٦٨)، (٢,٦٣٢) وذلك عند مستوى معنوية أقل من (٠,٠٥)

- لاختبار معنوية جودة توفيق النموذج ككل، تم استخدام اختبار (F-test)، وحيث أن قيمة اختبار (F-test) هي (٢١٩,١٩٠) وهي ذات معنوية عند مستوى أقل من (٠,٠١)، مما يدل على التأثير القوى على بعد رضا العاملين.

٣/١٠. النتائج والتوصيات

- **المو اقع الالكترونية**: تتوقف أهميته على وجود موقع إلكتروني للمستشفى يسهم في تحسين تجربة المرضى، مع إتاحة كافة الخدمات الطبية على الموقع الإلكتروني، فضلاً عن تحديد مواعيد طبية عبر الموقع الإلكتروني.

- **الملف الطبي الالكتروني**: تتوقف فعاليتها على قدرة الملف الطبي الإلكتروني فى تحقيق فعالية التواصل بين الأطباء والمرضى، مع القدرة على الوصول إلى التاريخ الطبي والتقارير الطبية، وتقليل الأخطاء الطبية وزيادة سرعة التشخيص،
- **الصيدلية الذكية**: تتوقف فعاليتها أيضاً على قدرتها في تحسين جودة خدمات الصيدلي، واستخدام التكنولوجيا في الصيدلية من خلال تجربة العملاء، ومنع الأخطاء الطبية المتعلقة بالأدوية
- **التطبيب الالكتروني**: ويتوقف تحقيقه فى قدرة السجلات الطبية الإلكترونية على تسريع عملية تقديم الرعاية الصحية، وتوفير درجة أمان للبيانات الصحية التي تتم مشاركتها عبر التطبيب الإلكتروني، وتفعيل التشاور الطبي عبر الإنترنت من خلال التطبيب الإلكتروني.
- **طبيعة العمل وظروفه:** تتوقف أهميته على تحديد احتياجات المستشفيات من العاملين الحالية والمستقبلية، مع تحديد عدد ونوع المهارات اللازمة لتنفيذ الاستراتيجية، فضلاً عن تقييم إمكانات وقدرات العاملين الحالية لتحديد الفجوات فى أداء مهام السجل الصحي الالكتروني.
- **المكانة الاجتماعية:** تتوقف فعاليتها على توجيه العاملين نحو العمل التطوعي لتنفيذ مهام خارج الدور الرسمي للوظيفة، ومراعاة الحالة النفسية والمزاجية التي يكون عليها العاملين عند أدائهم لمهام وظيفتهم، مع تحفيز العاملين للاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية، والتواصل والتنسيق بين الفرق الطبية المختلفة، مع توفير مستوى عالٍ من الأمان والخصوصية للمعلومات الصحية
- **المكانة الوظيفية:** تتوقف فعاليتها أيضاً على التوازن بين ما يحصل عليه العاملين وما يقومون به من مهام ، وكذلك توجد آلية لضمان تكافؤ الفرص بين الجميع، مع توافر طريقة جيدة للتعامل بين الرؤساء والموظفين، فضلاً عن قدرة السجل الصحي الإلكتروني بتوفير ميزات إضافية مثل تذكيرات المواعيد وتقارير التشخيص، والوصول السريع والسهل إلى المعلومات الصحية للمرضى.
- **الأجور:** وتتوقف على أن العمل بإدارات السجل الصحي الإلكتروني يساهم في تحسين الوضع المادي للعاملين، وتوفير تعويضات إضافية مثل بدلات أو مزايا إضافية للعاملين في السجل الصحي الإلكتروني، وتحديد الأجور بناءً على الراتب الشهري أو الراتب السنوي.

التوصيات

جدول (٨) توصيات البحث

الرقم	التوصية	آلية التطبيق	جهة التنفيذ	المدى الزمني
توصيات متعلقة بالسجل الصحى الالكترونى				

١	ضرورة قيام المستشفيات محل الدراسة بالتوعية المجتمعية لأهمية السجلات الصحية الالكترونية	- تنظيم حملات توعية واسعة لشرح فوائد السجل الصحي الإلكتروني للمواطنين، وكيف يمكن أن يساهم في تحسين صحتهم - توفير معلومات واضحة وسهلة الفهم حول كيفية التسجيل في النظام، والإجراءات التي يجب اتباعها - التأكيد على أن البيانات الصحية للمرضى محمية بشكل كامل، وأن الوصول إليها مقيد فقط للأطراف المخولة.	وزارة الصحة السعودية إدارة التخطيط والمتابعة	بصفة مستمرة
٢	ضرورة قيام المستشفيات محل الدراسة بتسهيل إجراءات تعامل العاملين مع السجلات الصحية الالكترونية	- تطوير تطبيق واحد موحد وسهل الاستخدام لجميع الخدمات المتعلقة بالسجل الصحي الإلكتروني. - ربط السجل الصحي الإلكتروني مع الأنظمة الأخرى مثل التأمين الصحي، لتسهيل عملية الدفع والتحقق من الاستحقاقات. - توفير دعم فني متكامل للمستخدمين لمساعدتهم في حل أي مشاكل قد يواجهونها.	وزارة الصحة السعودية إدارة التخطيط والمتابعة	بصفة مستمرة
٣	ضرورة قيام المستشفيات محل الدراسة بالتقييم المستمر لنواتج أداء السجلات الصحية الالكترونية	- إجراء تحليلات دورية للبيانات المتاحة في السجل الصحي الإلكتروني، لتحسين جودة الخدمات المقدمة - تطوير النظام باستمرار بناءً على نتائج التقييم، ومقترحات المستخدمين.	وزارة الصحة السعودية إدارة التخطيط والمتابعة	بصفة مستمرة
توصيات متعلقة برضا العامين				
٤	سعى المستشفيات محل الدراسة إلى الأخذ فى الاعتبار طبيعة العمل الصحى وظروفه	-تحديد احتياجات المستشفى من العاملين الحالية والمستقبلية -تحديد عدد ونوع المهارات اللازمة لتنفيذ الاستراتيجية -تقييم إمكانات وقدرات العاملين الحالية لتحديد الفجوات الوظيفية	-الإدارة العليا بالمستشفى -إدارة الموارد البشرية	بصفة مستمرة
٥	سعى المستشفيات محل الدراسة إلى الأخذ فى الاعتبار المكانة الاجتماعية للعاملين كأحد دوفع الرضا الوظيفى	-توجيه العاملين نحو العمل التطوعي. -مراعاة الحالة النفسية للعاملين -الاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية	-الإدارة العليا بالمستشفى -إدارة الموارد البشرية	بصفة مستمرة

٦	سعى المستشفيات محل الدراسة إلى الأخذ فى الاعتبار المكانة الوظيفية للعاملين كأحد دوفع الرضا الوظيفى	-التوزان بين المهام وأداء العاملين - ضمان تكافؤ الفرص بين الجميع	-الإدارة العليا بالمستشفى -إدارة الموارد البشرية	بصفة مستمرة

المراجع

- وزارة الصحة السعودية، إدارة التنمية البشرية – مراقبة تخطيط واحصاءات القوي العاملة، العدد السادس والثلاثون، ٢٠٢٢، ص ٢١.
- Tagde, P., Tagde, S., Bhattacharya, T., Tagde, P., Chopra, H., Akter, R., ... & Rahman, M. H. (2021). Blockchain and artificial intelligence technology in e-Health. ***Environmental Science and Pollution Research***, p28.
- Ali, B. J., & Anwar, G. (2021). An empirical study of employees' motivation and its influence job satisfaction. *International Journal of Engineering, Business and Management*, 5(2), 29.
- Haitao, N. (2022). Relationship of Challenges, Recognition and Co-Workers to Job Satisfaction (Study of Human Resource Management Literature). *Dinasti International Journal of Digital Business Management*, 3(2), 358–360.
- Halkides, H., James, T. G., McKee, M. M., Meade, M. A., Moran, C., & Park, S. (2022). Spotlighting disability in a major electronic health record: Michigan Medicine's disability and accommodations tab. *JMIR Formative Research*, 6(12), 3.
- Hazazi, A., & Wilson, A. (2021). Leveraging electronic health records to improve management of noncommunicable diseases at primary healthcare centres in Saudi Arabia: a qualitative study. *BMC Family Practice*, 22(1), 106.
- Henry, S., Buchan, K., Filannino, M., Stubbs, A., & Uzuner, O. (2020). 2018 n2c2 shared task on adverse drug events and medication extraction in electronic health records. *Journal of the American Medical Informatics Association*, 27(1), 3.
- Johnson, A. E., Bulgarelli, L., Shen, L., Gayles, A., Shammout, A., Horng, S., ... & Mark, R. G. (2023). MIMIC-IV, a freely accessible electronic health record dataset. *Scientific Data*, 10(1), 89.

- Judge, T. A., Zhang, S. C., & Glerum, D. R. (2020). Job satisfaction. *Essentials of job attitudes and other workplace psychological constructs*, 210.

السلطان عبد الحميد الثاني وثيودور هرتزل (١٨٧٦-١٩٠٩م)

عبد اللطيف قيس عبد الله(•)

المستخلص:

هدفت الدراسة إلى التعرف على إسهامات السلطان عبد الحميد الثاني في الوقوف أمام المشاريع الصهيونية (١٨٧٦-١٩٠٩م) من جانب آخر الوقوف على أهم الجهود التي بذلها ثيودور هرتزل في سبيل تحقيق هذه المشاريع، ويعتبر السلطان عبد الحميد الثاني السلطان العثماني الوحيد الذي وقف أمام الأطماع الصهيونية وتصدى لها، وقد رفض كل العروض المالية التي قدمت له مقابل أن يتنازل عن فلسطين لتكون وطناً قومياً لليهود، تنبع أهمية دراسة الموضوع لأن الشخصيتين من الشخصيات والموضوعات المهمة بالنسبة للباحثين. اتبعت هذه الدراسة المنهج التاريخي والوصفي التحليلي بجمع المعلومات والحقائق من مصادرها الأصلية، ومن ثم نقدها ومقارنتها وتحليلها وتوظيفها لخدمة البحث. خلصت الدراسة إلى نتائج من أهمها: بذل هرتزل قصارى جهده في السنوات التي قضاها منذ بداية نشاطه الصهيوني وحتى وفاته في العام ١٩٠٤، لكي يحصل على موافقة الدول الاستعمارية لمساعدة الصهيونية في تحقيق أهدافها، وبالمقابل ستقدم لها الحركة الصهيونية كل ما تطلبه، وعلى الصعيد الآخر بذلت الدولة العثمانية قصارى جهدها للتصدي للحركة الصهيونية، إن الحركة الصهيونية حركة استعمارية، وأنها ولدت في حضن الاستعمار، وقد استعملت جميع الوسائل اللا أخلاقية كالرشوة والكذب والعنف والانتهازية في سبيل إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. يعتبر موقف السلطان عبد الحميد الثاني من أصلب المواقف في سبيل التصدي للحركة الصهيونية ومؤامراتها لاسيما أطماعها في فلسطين، وقد كان السلطان عبد الحميد حجر عثرة أمام مخططاتهم وقف في وجههم حتى كلفه الأمر أن يفقد عرشه من أجل قضية فلسطين.

مقدمة:

أدرك السلطان عبد الحميد الثاني خطورة ما يحدث، وما يترتب على تسلل اليهود إلى فلسطين، ورأى عبر حجب الغيب توابعه وآثاره، فما أن صعد إلى سدة السلطنة، حتى أصدر تعليماته للحكومة العثمانية بمنع بيع الأراضي في فلسطين لليهود (الأمير:٢٠٢٠م، ٢) في تلك الفترة أيضاً جاء إلى فلسطين رؤوف باشا (١٨٧٦_١٨٨٨م) وهو رجل مستقيم نظيف اليد عينته الدولة العثمانية متصرفاً على القدس، فأخذ يرسل بين الحين والآخر القوات العثمانية للبحث عن اليهود المقيمين بطريقة غير قانونية، ولكن هذه القوات كانت في كثير من الأحيان تخضع لشهوة المال الذي كان اليهود يمنحه بسخاء لقاء الصمت وغض النظر عن إقامتهم، وكان رؤوف باشا في صراع مع اليهود منذ عام ١٨٧٨م ومن المعارضين للهجرة اليهودية لأنه كان يعي تماماً انه انتشرت بين اليهود أحلام العودة إلى فلسطين،

(•) جامعة دنقلا - كلية التربية مروي - قسم التاريخ

وأن ما يفعله ضد المستعمرات اليهودية إنما لإزالة الحلم، وكثيراً ما تنازع مع القنصلين الروسي والألماني بسبب احتجاجاتهما المتكررة ضده بسبب ملاحقاته للمهاجرين من اليهود، والواقع أنه كان لردود الفعل العربية أثر واضح في سياسة رؤوف باشا حين اجتمع أكثر من مرة مع المتنورين من العرب الذين أبدوا معارضتهم للهجرة اليهودية سواء بتقديم العرائض أو بالهجمات على المستوطنات اليهودية (حلاق:١٩٧٨م،٩١).

كانت الأستانة قد تنبهت أواخر عهد السلطان عبد العزيز إلى خطورة الأوضاع في القدس، وأطماع اليهود فيها، فأصدرت الحكومة العثمانية سنة١٨٧٤م، قراراً إدارياً بتحويل القدس والمناطق التابعة لها من سنجق/لواء يتبع والي الشام، إلى متصرفية مستقلة تتبع للباب العالي مباشرة، وهو الذي يقوم بتعيين متصرفها ويتلقى منه المعلومات ويصدر له التعليمات، كانت متصرفية القدس تشمل خمسة أقضية هي: قضاء القدس، وقضاء الخليل، وقضاء يافا، وقضاء غزة وقضاء بئر السبع(الأمير: ٢٠٢٠م، ٢)

أسباب اختيار الموضوع:

نجد أن العلاقة بين السلطان عبد الحميد الثاني وثيودور هرتزل (١٨٧٦_١٩٠٩م) تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة حتى تكتمل ملامح هذه الدراسة لفهم الأحداث التي أدت إلى تشكيل الوضع الحالي في فلسطين، ومحاولة من الباحث للإسهام في هذا الجانب بما يستطاع من جهد يأتي اختياري لموضوع هذا البحث.

أهمية البحث:

تنبع أهمية دراسة موضوع السلطان عبد الحميد الثاني وثيودور هرتزل (١٨٧٦_١٩٠٩م) لأنه من الشخصيات التاريخية والموضوعات المهمة بالنسبة للباحثين.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى الآتي:

١. تحليل العلاقة بين السلطان عبد الحميد الثاني وهرتزل وفهم تفاصيل المفاوضات بينهما.

٢. دراسة الظروف التاريخية التي أدت إلى هذه العلاقة وتأثيرها على المنطقة.

٣.التعرف على موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

٤.معرفة دور السلطان عبد الحميد الثاني في مواجهة الضغوطات الخارجية وتأثير قراراتها عليه.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في هذه الورقة في دراسة العلاقة بين السلطان عبد الحميد الثاني وثيودور هرتزل (١٨٧٦-١٩٠٩م)

منهج البحث:

اتبعت هذه الدراسة المنهج التاريخي والوصفي التحليلي معتمداً على جمع المعلومات والحقائق من مصادرها الأصلية.

حدود البحث:

تحدد هذه الدراسة بالحدود الآتية:

١.الحد المكاني: تغطي هذه الدراسة في حدودها المكانية الدولة العثمانية.

٢.الحد الزماني: من١٨٧٦_١٩٠٩م.

على الرغم من إعلان الموقف العثماني وإصدار قوانين ١٨٨٢م الخاصة بالهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية فقد استمر اليهود في محاولاتهم لإقناع السلطان عبد الحميد الثاني، وتوجه كثير منهم إلى القسطنطينية ليغيروا قانون الهجرة، وكان في مقدمة من ذهب لهذه الغاية (لورنس أوليفانت) الذي طلب وساطة السفير الأمريكي، ولكن هذه الجهود لم تثن السلطات العثمانية عن التمسك بقانون منع اليهود من الإقامة بفلسطين، ونتيجةً لازدياد شكوك السلطان بالتحرك الصهيوني أفهم المبعوث اليهودي(أوليفات) بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية جهة من المملكة إلا فلسطين، وإن الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين ولكنها لا ترحب بإقامة مملكة لليهود في فلسطين يكون أساسها الدين، والحقيقة أن "أوليفانت" صُدم من موقف السلطان العثماني وراح ينشر الدعايات ضده، فما كان من السلطان العثماني إلا أن طرده من استانبول ومنعه من دخولها، فاخذ المبعوث الصهيوني يكرر محاولاته ثانية ووسط (استراوس) وزير أمريكا المفوض في استانبول _ الذي اجتمع بالسلطان لإقناعه بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ولكن السلطان أفهمه صراحةً أن لا أمل ببقاء اليهود في فلسطين(النتشة:١٩٩١م، ٩٩-١٠٠).

نظراً لموقف الدولة العثمانية من المهاجرين اليهود، بدأت الصهيونية تنشط للحصول على تأييد أوربي شامل ثم قامت بالاتصال مع كبار الشخصيات اليهودية للتباحث في موقف السلطان العثماني، وكان أن عُقد مؤتمر "فيلنا" (philna) عام ١٨٨٩م وترأسه (أحدهاعام) زعيم الصهيونية الثقافية، وبحث فيه أوضاع المهاجرين اليهود في فلسطين، ولمضاعفة النشاط الصهيوني تقرر تأسيس جمعية (بني موسى) التي وحّدت جهودها مع جمعية (أحباء صهيون) من أجل قضية اليهود في العالم والعمل على فتح الباب أمام هجرة الشباب اليهود إلى فلسطين، وجعل إنشاء المنظمة الصهيونية ممكناً ، بالفعل وفقت الحركة الصهيونية بأحد الممولين اليهود البارون النمساوي " موريس دي هيرش" الذي أسس في عام ١٨٩١م جمعية "الاستيطان اليهودي" برأسمال قدره ١٠ ملايين لتسهيل الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية(حلاق:١٩٧٨م،٩٧).

أدى هذا الأمر على أن يقوم سيلاميرك (القنصل الأمريكي في القدس) بإرسال تقارير إلى الحكومة الأمريكية جاء فيها: "إن تركيا المسلمة غير راضية بإقامة دولة لليهود في فلسطين، ولاسيما أن فلسطين بلد فقير، وإذا استمرت الهجرة في التدفق فإن ذلك يعتبر وبالاً على اليهود وعلى السكان الأصليين معاً"، وفي نفس الوقت كتب القنصل البريطاني في القدس تقريراً إلى حكومته وذلك في عام ١٨٩٢م جاء فيه "أن التعليمات الصادرة من حكومة الباب العالي تفيد عدم السماح لليهود بالاستقرار في القدس، أما فيما يتعلق بالحجاج اليهود فإن ذلك مسموح لهم شريطة ألا تتجاوز إقامتهم فيها أكثر من شهرين((النعيمي:١٩٩٧م، ٧٢،٧١).

بالرغم من إعلان الموقف العثماني من الهجرة إلا أن النشاط الصهيوني استمر في بذل مساعيه لإنجاح حركة الاستيطان في فلسطين، ففي عام ١٨٩٣م قدَّم "صموئيل مونتاغو" طلباً يهودياً بأسلوب قانوني إلى السلطان عبد الحميد الثاني بواسطة "إيرل روزبري" يحمل تواقيع المسؤولين في اللجنة التنفيذية وأمناء السر في كل خيمة (Tent) من خيام " أحباء صهيون" إلا أن هذا الطلب رفض، ومن الأهمية بمكان القول أن النشاط الصهيوني كان يواجه تحرك عثماني مضاد فقد جددت السلطات العثمانية إصدار قوانين المنع ضد اليهود، وأرسلت إلى متصرف القدس في آب(أغسطس) ١٨٩٤م أوامر جديدة مشددة تقضي بعدم السماح لليهود الأجانب بالبقاء في القدس بعد انتهاء المدة المقررة للزيارة، وباشرت سلطات ميناء يافا بوضع صعوبات أمام اليهود المهاجرين من جميع الجنسيات بما فيهم اليهود الإنجليز، ولكن بريطانيا كانت تعرقل قوانين الحكومة العثمانية الخاصة بالهجرة، حين بلغ عدد العائلات اليهودية أكثر من مائتي عائلة(حلاق:١٩٧٨م،٩٩) وفي الحقيقة فإن هناك اعتبارات معينة أمام معارضة الدولة العثمانية لاستيطان اليهود في فلسطين، وتتركز هذه الاعتبارات في نقطتين رئيسيتين هما:

١/ بعد أن وافقت السلطات الروسية على الترخيص القانوني لحركة أحباء صهيون، بدأت تضغط على الحكومة العثمانية لقبول نشاط هذه الحركة داخل الدولة العثمانية، مؤكدةً أن هذه الحركة واسعة وقوية أكثر من الحجم الحقيقي لها، وقد بالغت الصحافة في أوربا في عدد هؤلاء تحت هذه الظروف قامت حركة محبي صهيون على إرسال مندوبين إلى القسطنطينية، ليطلبوا الالتماس باسم ألف يهودي لإمكانية الهجرة إلى الدولة العثمانية.

٢/ أن المسألة اليهودية كانت مسألة روسية وأن روسيا كانت العدو الرئيسي للدولة العثمانية، حيث دخلت الأخيرة معها في القرن التاسع عشر أربعة حروب، بالإضافة إلى ذلك فإن العثمانيين وضعوا مسؤولية القومية البلقانية على روسيا وذلك في الحقبة الواقعة بين ١٨٧٧ _ ١٨٧٨م. ولما كان أصحاب حركة محبي صهيون هم المنادون بالقومية اليهودية، لذلك لم ترغب الحكومة العثمانية بتعليم هؤلاء الذين نشأوا على تربية روسية (النعيمي:١٩٩٧م، ٧٢_٧٤).

كانت بريطانيا قد منحت حمايتها لكل يهودي نزعت عنه الحكومة الروسية الجنسية، وذلك بموجب تنظيم قامت به بريطانيا في عام ١٨٤٨م لبسط حمايتها على اليهود من أصل روسي(حلاق:١٩٧٨م، ٩٩).

هناك عوامل أخرى ساهمت في عدم موافقة الدولة العثمانية على هجرة اليهود إلى الدولة العثمانية، وهذه العوامل هي:

١/ خشية الدولة العثمانية من نشوء مشكلة قومية أخرى فيها.

٢/ لم تحاول الحكومة العثمانية توسيع القضايا المتعلقة بالسلوك السياسي الخارجي، ولاسيما الأوربية منها.

٣/ إن السلطان عبد الحميد كان يخشى موافقته لليهود على طلباتهم في فلسطين حتى لا يفتح على نفسه باباً للمطالب المسيحية بحكم تبعية أراضيهم المقدسة للسيادة العثمانية، ولهذا فضل أن

يرفض مطالب الصهيونية في فلسطين، حتى لا يفتح على نفسه مشاكل أخرى قد تثيرها الدولة المسيحية الكبرى.

نتيجة لهذه العوامل أخبر الوزراء العثمانيون بأن الدولة العثمانية لا توافق على هجرة اليهود إلى سوريا وبلاد مابين النهرين، مؤكداً له أن حكومته غير راغبة في نشوء القومية في الدولة العثمانية (النعيمي: ١٩٩٧م، ٧٦).

مندوبون ساميون يقومون لم يكن سفراء الدول الاستعمارية في الدولة العثمانية يقومون بأعمالهم الدبلوماسية كما تقتضي الأعراف الدبلوماسية المعروفة، والمعمول بها في الدول الأخرى، لقد كانوا يعلمون أنهم بمهمتهم في دولة توشك على الانهيار ويعاملون السلطان وحكومته معاملة عليائية خاصة عندما أصبح من المعروف أن الدولة في طريقها للانهيار، وكان كل سفير أو قنصل يسعى جاهداً إلى كسب الأنصار ، وبسط الحماية على الطوائف الدينية والحصول على الامتيازات التي تؤهله للتدخل في شؤون الدولة الداخلية، على أمل أن تحصل دولته في المستقبل على أكبر غنيمة من إرث الرجل المريض الذي يشرف على الموت(النتشة:١٩٩١م، ٩١).

في خضم التطورات السابقة تحرك هرتزل للتأثير على الدولة العثمانية بُغية تحقيق الأهداف الصهيونية المرسومة، ومن هنا ركز هرتزل على فلسطين، ولكن من جانب آخر أدركت الحكومة العثمانية نوايا الحركة الصهيونية بعد دراسة الأفكار السياسية لهرتزل، ونتيجةً لذلك خاطب المندوب العالمي العثماني في مصر السيرEvelyn Baring القنصل العام البريطاني مؤكداً قلق السلطات لمحاولات استيطان اليهود في الساحل الشرقي من خليج العقبة ومع ذلك فقد أخبر عبد الحميد في سنة تالية رئيس الحاخاميين في الدولة العثمانية حول إمكانية استيطان اليهود الروس واللاجئين اليهود من دول أخرى في أناضول الشرقية(النعيمي: ١٩٩٧م، ١١٢،١١٣).

سعى هرتزل منذ عام ١٨٩١م لحل مشكلة اليهود في أوربا، وأخذ يدون أفكاره على الورق، بعد أن فشل إقناع بعض زعماء اليهود بقضيته، ودعا صراحة في كتاباته إلى إحياء الدولة اليهودية(العبدالله: ٢٠١٦م، ١١٣).

إن موضوع هجرة اليهود إلى فلسطين قد تبلور كثيراً، منذ أن أصدر هرتزل كتابه الموسوم بـ"الدولة اليهودية" عام ١٨٩٥م، حيث جاء في جزء منه: " لقد كان ليهود العالم فيما مضى كيان خاص وثقافة خاصة وتاريخ مشترك، وبذلك تتوافر فيهم العناصر اللازمة لتكوين أمة، وعليه فإن مسألة اليهودية ليست مسألة دينية، إنما هي مسألة قومية، هي لا تُحل إلا بقيام دولة يهودية مستقلة يتم تحقيقها عن طريق النشاط السياسي على المسرح الدولي.. يكفي أن يعطونا قطعة من الأرض تتناسب مع حاجات شعبنا وتكون لنا السيادة عليها، ونحن لا نريد أكثر من ذلك" ويردف هرتزل قائلاً:" نحن لا نريد أن نذهب إلى فلسطين بأساليب خداعة، لا نريد أن ندخلها ترهيباً، بل أن نذهب إليها جهرة ونحن آمنون نريد أن نستقر فيها ونحن مطمئنون لا نريد أن نبدأ شيئاً من أعمالنا الاستعمارية في فلسطين قبل الحصول على تصريح قانوني بدخولنا إليها (النعيمي: ١٩٩٧م، ٦٥،٦٦) ولذا، كما يقول الصهيوني إسرائيل كوهين: (كان هرتزل يعارض أي محاولة لإقامة مستعمرات في فلسطين قبل ضمان

الحصول على مرسوم رسمي Before The coveted charter was secured ... وخلال الاثني عشرة سنة التي مرت بين كتاب الدولة اليهودية وبداية الاستعمار الصهيوني، لم تحرز مجموعات المستوطنين اليهود في فلسطين سوى تقدم ضئيل) (الأمير:٢٠٢٠م، ٤٧).

منذ حزيران (يونيو) ١٨٩٥م وضع هرتزل قائمة بوسائله التي سيسلكها للوصول إلى هدفه: إنشاء دولة اليهود:

ترتيب الإجراءات:

١/ جمع المال (النقابة).

٢/ بدء الدعاوى (وهذا لن يكلف شيئاً، لأن الساميين سيسرون بالأمر وسوف أقضي على معارضة الأحرار وذلك بتهديدهم بالمنافسة).

٣/ الإكتتاب لمريدي الأرض.

٤/ دعاوى أكثر وأوسع، تضحك منها أوروبا، وتلعنها وباختصار تتكلم عنها.

٥/ المفاوضة مع صهيون.

٦/ اتفاقات على بيع الأراضي.

٧/ إصدار الأفضليات في أراضي (بليون).

٨/ شراء السفن وبنائها.

٩/ اكتتاب مستمر لكل من يتقدم، توظيف وتعيين وتدريب.

١٠/ ابتداء نشر أخبار الاشتراك.

١١/ إبحار الحملة لتستولي على البلاد، مع موظفين للأخبار لكل الصحف.

١٢/ انتقاء الأراضي وتعيين البقع الصالحة للمدن الرئيسية.

١٣/ يكون العمال من روسيا وغيرها قد بنوا ثكنات للتسفير على شواطئ إيطاليا وهولندا، أولاً لأنفسهم ثم لمن يأتي بعدهم.

١٤/ عقود سفر وشحن مع السكك الحديدية، وهنا يجب أن نربح في النقل.

١٥/ بدء تبديل المواد القديمة بمواد جديدة.

١٦/ وهكذا، عندما تبدأ عجلات العمل تدور، سوف تبقى بالطبع تسير، وبالتدريج يزاد عليها جميع ما في برنامجي من أمور، حتى تصبح الآلة بكاملها تعمل.

١٧/ ولقيصر ألمانيا(طلب امتيازات خاصة منه).

لقد عبَر هرتزل صراحةً عن هذا الهدف عندما أعلن: ".. وتتجه مساعينا الآن للحصول على براءة "اعتراف" من الحكومة التركية، بحيث تأتي هذه البراءة في ظل سيادة صاحب الجلالة السلطان العثماني، وحين تصبح هذه البراءة في حوزتنا، شريطة اشتمالها على الضمانات القانونية، وسوف نجلب للحكومة التركية منافع لقاء منحنا هذه البراءة"، وكان هرتزل يعبر بكلماته هذه عن الرأي السائد في المنظمة الصهيونية آنذاك أي الرأي السياسي الذي يؤكد الحصول على موافقة الدول الكبرى على استيطان اليهود لفلسطين (النعيمي: ١٩٩٧م، ٦٦-٧٢).

لكن هذه الوسائل ليست إلا مظهراً محترماً وخداعاً للوسائل التي اعترف هرتزل بإتباعها في أماكن متقطعة في يومياته، فهو يؤمن أولاً بالاستغلال: استغلال كل فئة أو جماعة أو مؤسسة تضمن له وصوله إلى أهدافه أو تقربه منها، يستغل رجال الدين يقول هرتزل: "يجب أن يؤتى بحاخام العجب من ساداجورا وينصب هنا كما لو كان مطران البلاد، بهذا نكسب كل الكهنة." ويستغل كبار الأثرياء اليهود ويتنقل من واحد منهم إلى آخر ويقول هرتزل في هذا الصدد: " لقد اتصلت بهيرش، وأنا ذاهب إلى روتشيلد، كما ذهب مولتكه من الدنمارك إلى بروسيا" ويردف قائلاً: " لن أعتمد على آل روتشيلد _ أُفضِّل أن أجعل منهم هدفاً فقط لأني أستطيع أن أجمع كل الأموال في أمسية واحدة بواسطة خطة من قلمي"، ويقول: " أما البارون هيرش(الذي سيقف موقف المعارضة الشديدة بعد أن أتم الاتفاقية مع آل روتشيلد) فيجب أن أرد عليه بلباقة الملوك (لا بأس من إقالته بلطف لأنني لست بحاجةٍ إليه بعد) " إنك شخص قادر وخبير لقد أحببتك منذ البدء، يجب أن نتفاهم، وأنا أُصلح بينك وبين آل روتشيلد، علينا أن نكون متضامنين الآن، وأخيراً سأهدده بالمتعصبين الذين سأذمه لهم (صائغ: ١٩٦٨م، ٣٣٥،٣٣٧).

كانت خطة هرتزل وإستراتيجيته التي وضعها والتزم بها هو والجيل الأول من الصهاينة، كانت برنامجاً سياسياً، هدفه ليس هجرة اليهود العشوائية إلى فلسطين وإقامة مستوطنات متفرقة فيها، بل الحصول عليها كاملة، وبصورة قانونية، وإقامة مستوطنات ومجتمعات يهودية منظمة، عبر التفاوض مع الدولة العثمانية، وإغرائها بتسديد ديونها وحل مشاكلها الاقتصادية والتحالف مع القوى الأوروبية ودفعها للضغط على الدولة العثمانية، فهرتزل هو مؤسس الصهيونية السياسية political zionizim (الأمير:٢٠٢٠م، ٤٧).

في الواقع كانت الحركة الصهيونية تعرف أن السلطان عبد الحميد الثاني كان بحاجة إلى المال في هذه الحقبة، لذا نرى أن الحركة المذكورة استغلت ذلك بغية دفع بعض العوائل الفقيرة اليهودية إلى شراء الأراضي في فلسطين، ولتحقيق ذلك كانت هناك خطوتان أمام الدبلوماسية الصهيونية هما:

١/ قيام الحركة الصهيونية بإقناع أثرياء اليهود لإنفاق ثروتهم خدمةً للحركة المذكورة.

٢/ إقناع القوى العظمى بممارسة بعض الضغوط على الدولة العثمانية.

وتجدر الإشارة في هذا المجال، إلى أنه وجدت في تلك الحقبة قوتان كبيرتان هما ألمانيا وبريطانيا، وقد بدأ هرتزل التأكيد على ألمانيا لخدمة أغراض الصهيونية بعد أن استطاعت الصهيونية تغيير موقف بريطانيا إزاء الحركة الصهيونية، ولتحقيق هذا الغرض فقد سلك اليهود طريقين:

١/ إرسال وكلائهم العسكريين إلى فلسطين لأجل غض النظر عن هجرة اليهود إلى تلك الديار.

٢/ العمل مع الصهيونيين في العالم كافة والمنظمات المؤتمرة بأمرهم من أجل دفع العالم إلى أتون حرب عالمية كبرى، أو كما يقول الصهيوني البريطاني دنيس الدرسميث في كتابه الحقائق البريطانية (أن اليهود سيحققون هدفهم في العودة إلى أرضهم الموعودة في نهاية الحرب العالمية الأولى التي دفعنا إليها العالم والتي ستنتهي بانحلال الدولة العثمانية ليكون اليهود أصحاب الأراضي المقدسة) (النعيمي: ١٩٩٧م، ٦٧،٦٨).

بدأ هرتزل منذ أيام تخيله الأولى للدولة اليهودية، ومن قبل أن يقرر فلسطين مكاناً لهذه الدولة، يفكر بوجوب الاتصال مع الدول الكبرى، بدأ أولاً بقيصري روسيا وألمانيا، أما أول اتصال رسمي بين هرتزل ومسئولي أوروبا فقد بدأ مع بسمارك في ٢٠/يونيو/١٨٩٥م، ليدبر له موعد مع القيصر، لكن هرتزل لم يكن يقنع ببلد واحد وانتقل بعد ذلك التاريخ بخمسة أشهر إلى لندن، وبعد ثلاثة أشهر بدأ يحاول الاتصال بدولة ثالثة وهي النمسا، حيث كتب إلى رئيس حكومتها باديني يطلب مساعدته، لكن أحد أصدقاء هرتزل يدعى هكلر شجعه على التركيز على ألمانيا وطلب العون من رجال الدولة فيها، ذلك لأن هكلر كان معلماً في بلاط دوق بادن الكبير وهو يعرف قيصر ألمانيا ويظن أن بإمكانه أن يرتب لهرتزل موعداً لمقابلته، هذا مما شجع هرتزل على أن يقرر محاولة طرق باب قيصر ألمانيا أولاً في جلسته مع القسيس المذكور، وبالفعل في ١٨٩٦/٤/١٣م كان هكلر قد رتب لهرتزل موعدامع دوق بادن الكبير مع أن هرتزل بدأ أمام دوق بادن الكبير بمظهر الصديق الحميم لألمانيا الساعي وراء مصلحتها، كان في الواقع يفكر بالاتصال بمعظم دول أوروبا ومسئولها، وكان على استعداد لعرض خدماته على كل واحد منهم زاعماً أمام كل منهم أن مخططه الصهيوني لن يخدم إلا مصالح تلك الدولة التي ينتمي محدثه إليها ففي الوقت الذي كان فيه يباحث دوق بادن الكبير، كان يجرى اتصالات أخرى مع غيره)، وكان هرتزل في الواقع قد حاول الاتصال بالبابا وفشل لأن الظروف لعبت ضده، لكنه نجح في ١٨٩٦/٥/١٩م بمقابلة القاصد الرسولي في فيينا وطلب منه مساعدة البابا للمشروع الصهيوني، كما نجح أيضاً بعد مساعٍ طويلة في الحصول على رسالة من جلادستون رئيس الحكومة البريطانية، إلى صموئيل مونتاجو _ اليهودي وعضو مجلس العموم البريطاني _ في مدح كتاب الدولة اليهودية الذي بعث به مونتاجو إلى رئيس الحكومة البريطانية في يونيو ١٨٩٦م، كانت محاولات هرتزل هذه مع المسئولين في أوروبا هي في الواقع تمهيدات للاتصال بالسلطان العثماني عبد الحميد، الذي كانت فلسطين تقع ضمن ممتلكاته الآسيوية، وكان صديقه الصهيوني قد أوحى له منذ ١٨٩٦/٢/٢١م بفكرة وهي أن يوسط مع السلطان صديقه نيولنسكي(١)، كما أن صديقاً آخر لهرتزل صموئيل مونتاجو، أوحى له بفكرة أخرى وهي رشوة السلطان بمليوني جنيه مقابل الحصول على فلسطين (صائغ: ١٩٦٨م، ١٩-٢٨).

يتبين لنا مما سبق أن هرتزل قد جاب العالم بأسره باحثاً عن تأييدٍ لقضية اليهود ولعل الدول جميعها كانت متخوفة من تبني هذه القضية في بادئ الأمر، إلا أنه من حسن حظ هرتزل أن فكرته قد لقيت القبول عند الدول العظمى صاحبة القرار والتي كانت على رأسها في ذلك الوقت بريطانيا وألمانيا.

---

(١) نيولنسكي: فيليب ميخائيل نيفلنسكي philipp michael de newlinski نبيل بولندي، كان دبلوماسياً في السفارة المجرية النمساوية في الأستانة، ثم تركها سنة ١٨٨٠م، وأسس في فيينا صحيفة" الصحافة الحرة الجديدة" وصحيفة في باريس اسمها "رسائل الشرق" وإبان عمله في الأستانة توثقت صلته بالسلطان عبد الحميد الثاني، وبعد أن عاد إلى فيينا كان السلطان يكلفه بمهام دبلوماسية خاصةً في أوروبا، وصار وسيطه مع قادة الأرمن؛ أنظر: بهاء الأمير: مرجع سابق، ص٩.

كما أن هرتزل كان يضع لهذا الأمر خطةً بديلة في حال فشله، وقد أورد ذلك في يومياته قائلاً: قال نيولنسكي لي: إن السلطان لن يتخلى عن القدس. قلت له: سندبر هذا الأمر سنجعل القدس خارج حدود الدولة، وبهذا لا تكون لأحدٍ وحده وتكون للجميع في الوقت نفسه _ المكان المقدس الذي يمتلكه كل المؤمنين، بلد الثقافة والأخلاق المشتركة. وكان نيولنسكي يعتقد أن السلطان يفضل أن يعطينا أناضوليه لأن المال لا يعني شيئاً له، وهذا شأن كثير من الحكام، ولكن هناك طريقة أخرى يمكن أن توثر على السلطان وهي مساندته في قضية الأرمن، وقد طلب مني نيولنسكي أن أؤمن مساعدة اليهود للسلطان في مسألة الأرمن، حتى ينقل للسلطان هذا الخبر الذي سيرضي السلطان ويحرز تقديره (صائغ: ١٩٦٨م، ٢٩).

تم ترتيب لقاء مع السلطان عبد الحميد، عن طريق السفير العثماني في بلغراد "توفيق باشا" في يوم ١٧ يونيو ١٨٩٦م وصل هرتزل ونيفلنسكي إلى الأستانة، وفي يوم ١٨ يونيو استقبل السلطان عبد الحميد نيفلنسكي وحده في قصره في يلدز، وهذا هو وصف هرتزل نفسه لنيفلنسكي عند عودته من اللقاء، وماذا كان رد السلطان عليه: في المساء، عاد نيفلنكسي من يلدز بوجه شاحب وأخبار سيئة، وطلب زجاجة من الشمبانيا، فشرب نصفها ثم قال: لم أفعل شيئاً، السيد العظيم لا يريد أن يسمع عن طلبك شيئاً وكانت هذه ضربة موجعة(الأمير: ٢٠٢٠م، ٩-١٠) وقد ذكر هرتزل في يومياته الحديث الذي دار بين السلطان عبد الحميد الثاني وبين نيونلسكي الذي أرسل ليكون وسيطاً للسلطان ، وقد أخبر نيولنسكي هرتزل بما حصل له في المقابلة: " قال السلطان لي: "إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه بأن لا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم وقد غزوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا. لقد حاربت كتيبتان منا في سوريا وفلسطين وقُتل رجال الواحد بعد الآخر في بلفنة لأن أحداً منهم لم يرض بالتسليم، وفضّلوا أن يموتوا على ساحة القتال. الإمبراطورية التركية ليست لي بل هي للشعب التركي، لا أستطيع أن أعطي أحداً أي جزءٍ منها. ليحتفظ اليهود ببلاينهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. إنما لن تُقسم إلا على جثثنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان"(صائغ: ١٩٦٨م،٣٥).

سجل هرتزل في رسالة هامة مؤرخة في الثاني عشر من شهر يوليو/تموز١٩٠٢م، رأياً خطيراً نسبه إلى السلطان عبد الحميد الثاني، فقرر أن هذا السلطان عرض على هرتزل توطين اليهود في العراق، ولكن رفض هرتزل هذا العرض لأنه لم يشمل فلسطين(العبد الله: ٢٠١٦م، ١١٥).

على الرغم مما حمله ممثلو البارون روتشيلد الذين زاروا الأستانة من عروض سخية، لم يتغير موقف السلطان عبد الحميد، ويعزو لوثر السفير البريطاني في الأستانة إلى الصدر الأعظم كامل باشا(١٨٨٦ _ ١٨٩١م) سبب هذا التشدد، لأنه شرح للسلطان النتائج الخطيرة لمثل هذه السياسة على الدولة العثمانية، ولاقت محاولات تالية فشلاً مشابهاً، ولم يستطع هرتزل كممثل لجريدة Neue Freie presse الذي قابل السلطان مرتين بواسطة الأستاذ Armenius vambery أن يقنع السلطان بالتخلي عن معارضته، بل إنه كما يقول مارلنغ "Marling" القائم بأعمال السفارة البريطانية في الأستانة "

رفض كل مشاريع الهجرة غير المحددة لليهود إلى تركيا، ووضع كل عقبة في طريق إدخال جماعي لليهود الأجانب"(قاسمية: ١٩٧٣م، ٤٢).

وقد أوضح حاييم وايزمان في مذكراته: "كنا نعرف أن أبواب فلسطين مغلقة وأن اليهودي يمكن أن يطرد حالاً من قبل السلطات... وأن القانون التركي يمنع الحصول على الأراضي... ولو أننا حاولنا أن نكون نظاميين لفزعنا، ولكننا عبرنا عن طريق ملتو، فاليهود قد استقروا في فلسطين ولم يطردوا ... واشتروا أرضا... أحياناً عن طريق رجال صورة... أو بالرشوة... لأن النظام التركي كان فاسداً...(قاسمية: ١٩٧٣م، ٢٦).

لا ننكر أن بعض الذين استعملهم السلطان عبد الحميد كانوا فاسدين، وهنالك فساد عام في النظم الإدارية في الدولة العثمانية، وليس ذلك يخفى على السلطان لكنه كان قد وصل إلى مرحلة فقد فيها السيطرة على عماله وموظفيه، فعاثوا فساداً في أرجاء الدولة العثمانية لاسيما البلاد العربية وكان ذلك الفساد وبالاً على الدولة العثمانية، وأحد الأسباب التي أدت إلى زوالها.

إزاء هذا الفشل الذريع قرر هرتزل أن يستعمل وسيلتين أخريين للتعويض وللاستمالة _ أن يستميل السلطان بواسطة خدمته في القضية الأرمنية، وأن يقدم له جزيرة قبرص مع مبلغ من المال، وقد ذكر هرتزل ذلك في يومياته قال: " كانت نصيحة عزت بك أن يشتري اليهود أي مقاطعة أخرى ويقدمونها لتركية كبديل لفلسطين مع مزيد من المال، ففكرت رأساً بقبرص، إن فكرة عزت جيدة، وتبين أن الرجل يفكر بنا ومن أجلنا" وقال هرتزل أيضاً: " طلب مني السلطان أن أقوم بخدمة له، وهي أن أثر على الصحف الأوربية (في لندن وباريس وبرلين وفيينا) أن أتحدث عن المسألة الأرمنية بلهجة أقل عداءً للأتراك، كذلك طلب مني أن أقنع زعماء الأرمن بالإذعان له مباشرةً وبعدها يصبح هو مستعداً لأن يعطيهم ما يطلبون ... أخبرت نيولنسكي حالاً أني مستعد أن أقوم بهذه الحملة، لكن عليهم أن يعطوني فكرة وافية عن الوضع الأرمني: من هم الأشخاص في لندن الذين يجب أن أقنعهم بما يريدون، وأي الجرائد يجد أن نستميلها لجهتنا وغير ذلك ... طبعاً جهودي تكون ميسرة أكثر لو قبل السلطان أن أقابله (صائغ: ١٩٦٨م، ٣٥،٣٦).

يتضح لنا مما سبق أمران الأمر الأول أن السلطان عبد الحميد قد تم اختراقه من الداخل بواسطة المقربين إليه والدليل على ذلك أن الصهيونية قد استطاع أن تصل إليه عبر صديقة نيولنسكي بغض النظر عن أن مهمته قد نجحت أم لم تنجح، والأمر الثاني أنهم استطاعوا أن يستميلوا عزت بك وهو أحد الرجال المقربين من السلطان، وكان عزت بك في الحقيقة وبكل أسف يكن الولاء للحركة الصهيونية كما ذكر عنه هرتزل وهو بلا شك يضمر العداء للسلطان عبد الحميد وللدولة العثمانية.

بعد المؤتمر الصهيوني الثالث في زيورخ عام١٨٩٦م اقترح اليهود على السلطان عبد الحميد ان يبيع لهم "المزارع السلطانية" الواقعة على ساحل فلسطين أو تأجيرها لهم لمدة ٩٩ سنة مقابل "ذهباً يعادل ميزانيات عثمانية" ورفض السلطان العثماني هذا الاقتراح، وكان المتحدث باسم الوفد الصهيوني المحامي اليهودي السلانيكي إيمانويل قراصو، وبعد الرفض السلطاني خرج الوفد فقال المتحدث

باسم الوفد اليهودي، لتحسين باشا _ كبير أمناء القصر السلطاني:"... سآتي هنا مرة أخرى؛ لكن سيكون دوري في هذه المرة غير دوري الآن..."(عبد الحميد: ١٩٩١م، ١٤٢-١٤٣).

تذكر بعض المصادر الصهيونية أنه نتيجة للموقف العثماني الرسمي من المشروع الصهيوني، عرض القنصل العام للدولة العثمانية في فيينا " علي نوري بك"[١]على هرتزل مشروعاً لتحقيق استيطان يهودي وإقامة الدولة اليهودية، وبدونه لا يمكن أن تنال الصهيونية ما تريد في فلسطين، وهو أن يبحر هرتزل إلى البسفور في سفينتين وينسف قصر (يلدز) ويعمل على إتاحة الفرصة للسلطان عبد الحميد الثاني بالهرب أو القبض عليه، وتعيين سلطان آخر بدلاً منه، ولكن قبل ذلك يجب إقامة حكومة مؤقتة تعطي اليهود امتياز الاستيطان في فلسطين، ورغم غرابة القصة فقد درسها هرتزل وفكر بعواقب فشلها، وقد طرحت الفكرة في (٢٤ شباط/ فبراير ١٩٠٤م) وقرر هرتزل اللجوء إليها إذا فشلت مساعيه الأخيرة السلمية في استانبول، لكنه أبرق إلى (علي نوري) في (١٩ نيسان/أبريل من العام نفسه) معتذراً عن قبول الاقتراح بسبب خشية هرتزل من قيام مذبحة هائلة يمنى بها اليهود إذا فشل المشروع (العبد الله:١١٦،١١٧) وتقول بعض المصادر أن هرتزل ما لبث أن أعاد الكرة وقابل السلطان عبد الحميد بعد توسط سفيري بريطانيا وأمريكا وعرض عليه أن ينشئ اليهود لدولته اسطولاً حربياً وتجارياً يفوق ويستلب من الأسطول البريطاني سيادة البحار... فأبلغه السلطان أنه يرفض جميع العروض اليهودية من أساسها وأنه لن يسمح لهم باستعمار فلسطين والثابت قطعاً أن مكاتبات جرت بينهم حول هذا الموضوع وأن السلطان ظل متمسكاً بموقفه حتى النهاية طالباً من اليهود أن يحتفظوا بملايينهم إلى الحين الذي يستطيعون فيه الحصول على فلسطين ولكن، على أنقاض الدولة العثمانية (الماضي: ١٩٨٤م، ٥٨٧-٥٨٨).

على الرغم من فشل الزعيم الصهيوني هرتزل في إقناع السلطان عبد الحميد بمشروع الدولة اليهودية في فلسطين، فقد كانت (جمعية الاستعمار اليهودي) تواصل نشاطها في فلسطين بالأساليب غير القانونية، معتمدةً على شراء الأراضي من الإقطاع اللبناني ومنتهجةً أسلوب الرشوة مع الإدارة التركية الفاسدة، كي تتغاضى عن عمليات الشراء، وكانت أسرة (سرسق) تملك وحدها مساحات شاسعة في فلسطين، تتاجر بها وتستثمرها، ويعترف هرتزل بهذه الحقيقة عندما يقول: جمعية الاستعمار اليهودي تتفاوض مع عائلة رومية اسمها سرسق _ على ما أظن _ من أجل شراء سبعة وتسعين قرية في فلسطين، يعيش هؤلاء الروم في باريس وقد خسروا أموالهم في القمار[١](العبد الله: ٢٠١٦م، ١١٧).

---

(١) علي نوري بك(١٨٦١_١٩٣٧م): اسمه الأصلي غوستاف نورنخ من التابعية السويدية، عمل صحافياً في برلين ثم القسطنطينية عام ١٨٨١م، اعتنق الإسلام وحصل على الجنسية العثمانية،عُين قنصلاً للسلطنة في روتردام إلى ١٩٠٠م ثم في فيينا، وبعد أن حصل خلاف بينه وبين السلطان انضم إلى الجماعة المعارضة لحكم السلطان، فحكم عليه بالسجن المؤبد غيابياً؛ أنظر: حسان علي حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص١٩٩.

الواقع أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين أدت إلى خلل وتقهقر في الميدانين الزراعي والاجتماعي بسبب جهل المهاجرين وفقرهم وتدني مستواهم الاجتماعي، وبالرغم من أنهم أعطوا الأرض مجاناً والبيوت وأثاثها وأدوات الفلاحة وراتباً أسبوعياً من الدراهم ترغيباً لهم، إلا أنهم لم ينجحوا في حياتهم الجديدة، وقد روى شهود عيان أوضاع المهاجرين من أنهم" إذا أخذوا الراتب الأسبوعي أنفقوا نصفه على أهل بيوتهم وأعطوا النصف الآخر العرب أجرة على فلاحة الأرض وسائر ما يتعلق بذلك من الأعمال الزراعية"، ويسجل الأب لامنس (lammens) مشاهداته عن أحوال اليهود عندما كان في زيارة لفلسطين عام ١٨٩٧، فيصف مستعمرة" محطة عاقر/عكرون" بقوله: "إنه لم يشاهد شيئاً من الحبوب كالقمح والذرة بالرغم من احتياج الفلاحين إلى هذه الغلات، والسبب أن اليهود لا يجدون في الحبوب الأرباح التي يقصدونها فيهملون زراعتها ... وبيوت هذه المستعمرة إذا شاهدها المسافر من بعيد ، حسنة المنظر مسقفة بالآجر الأحمر وجدرانها مبيضة بالملاط، ولما اقتربنا منهما وجدناها قذرة متداعية البنيان مع أنها حديثة البناء(حلاق:١٩٧٨م، ١٤٠-١٤١).

تشير المصادر إلى أن يهود العالم تعاونوا مع المحافل الماسونية، وطلبوا مساعدتهم وإسكانهم في فلسطين، وقد عرضوا الأموال على السلطان ولكنه لم يقبلها ورفض مشروعهم، وإن زعيم الصهيونية هرتزل لم يستطع إقناع السلطان بإنشاء مزارع يهودية، لأن السلطان يعرف أنهم سيقيمون حكماً ذاتياً، وأن السلطان عبد الحميد قد بدأ يعارض مخطط الحركة الصهيونية منذ نشأتها لأنه قد عرف مقاصدها وهو يدرك أن الصهيونية لا تريد أرضاً زراعية في فلسطين فحسب، ولكنها تريد أن تقيم حكومة ويصبح لها ممثلون في الخارج...وكان أن أكد السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يسمح بهجرة اليهود إلى فلسطين، وصرح بذلك في العديد من الفرمانات السلطانية(العبد الله: ٢٠١٦م، ١١٧-١١٨).

بذل هرتزل قصارى جهده في السنوات التي قضاها منذ بداية نشاطه الصهيوني وحتى وفاته في العام ١٩٠٤، لكي يحصل على موافقة الدول الاستعمارية لمساعدة الصهيونية في تحقيق أهدافها، وبالمقابل ستقدم لها الحركة الصهيونية كل ما تطلبه، وعلى الصعيد الآخر بذلت الدولة العثمانية قصارى جهدها للتصدي للحركة الصهيونية، وقد مات هرتزل وكان واثقاً بعد موته أن أتباعه سيسيرون على طريقه ويكملون ما بدأه، ولكن ليت أن من جاءوا بعد السلطان عبد الحميد ساروا على طريقه وأكملوا مشروعه.

هدف هذا البحث إلى دراسة العلاقة السلطان عبد الحميد الثاني وثيودور هرتزل خلال عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩م) ومن خلال الدراسة لموضوع هذا البحث توصلنا للنتائج الآتية:

١. كان السلطان قد اجبر على الاعتراف باقتطاع أجزاء من دولته في أوربا بعد معاهدة برلين١٨٧٨م بعد هزيمة الدولة العثمانية أمام روسيا، إلا أنه تمسك بالولايات العربية ودافع عنها ولم يستسلم أمام المحاولات التي بذلت للاستيلاء عليها، ولم يقدم أي تنازل رسمي عنها، على الرغم من الإغراءات والعروض المالية التي قدمت له.

٢. إن الحركة الصهيونية حركة استعمارية، وأنها ولدت في حضن الاستعمار، وقد استعملت جميع الوسائل اللا أخلاقية كالرشوة والكذب والعنف والانتهازية في سبيل إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.
٣. يعتبر موقف السلطان عبد الحميد الثاني من أصلب المواقف في سبيل التصدي للحركة الصهيونية ومؤامراتها لاسيما أطماعها في فلسطين، وقد كان السلطان عبد الحميد حجر عثرة أمام مخططاتهم وقف في وجههم حتى كلفه الأمر أن يفقد عرشه من أجل قضية فلسطين.

التوصيات

خرجت الدراسة بعدد من التوصيات كان أهمها:

أولاً. نشر الوثائق والمخطوطات المتعلقة بتاريخ الدولة العثمانية في الدوائر الرسمية في تركيا وأوروبا وآسيا، وهي بحق تمكن الباحثين من الإلمام بصورة أوضح بتاريخ الدولة العثمانية.

ثانياً. على الباحثين التوجه للبحث في تاريخ الدولة العثمانية خاصة المنطقة العربية لارتباط تاريخ المنطقة بتاريخ الدولة العثمانية، لاسيما وأن هذه المنطقة كتب عنها الكثير من المستشرقين والعلمانيين الذين كانت لهم أغراضهم في تزوير التاريخ العثماني وتاريخ العرب وهنا يأتي دور الباحثين للوقوف أمام هذا التزوير.

ثالثاً: يجب على كل باحث الاهتمام بدراسة فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني التي امتدت من ١٨٧٦ _١٩٠٩م تلك الفترة التي شهدت الكثير من الأحداث والوقائع التي كان لها أثرها في تغيير مجريات الأحداث في تاريخ الدولة العثمانية بصورة عامة والمنطقة العربية بصورة خاصة.

قائمة المصادروالمراجع:

١. الأمير، بهاء: ٢٠٢٠م، السلطان عبد الحميد وتيودور هرتزل، (د.ن).
٢. حلاق، حسان علي: ١٩٧٨م، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧_ ١٩٠٩م، جامعة بيروت العربية، بيروت.
٣. صايغ، أنيس: ١٩٦٨م، يوميات هرتزل، ت: هلدا شعبان صايغ، مركز الأبحاث_ منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت _لبنان.
٤. عبد الحميد الثاني، السلطان، ١٩٩١م/ مذكرات السلطان عبد الحميد، ت: محمد حرب، دار القلم، دمشق.
٥. العبد الله، عيسى أسعد، ٢٠١٦م، السياسة الخارجية للدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، رسالة ماجستير، جامعة بيروت العربية، كلية الآداب، قسم التاريخ، بيروت.
٦. قاسمية، خيرية: ١٩٧٣م، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨-١٩١٨م، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت.
٧. الماضي، عيسى: ١٩٨٤م، السلطان عبد الحميد والقضية الفلسطينية، مجلة كلية التربية وأصول الدين، العدد٣، القصيم.

٨. النتشة، رفيق شاكر: ١٩٩١م، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين - السلطان الذي خسر عرشه من أجل فلسطين ط٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٩. النعيمي، أحمد نوري: ١٩٩٧م، اليهود والدولة العثمانية، ط١، دار البشير، عمان.

الطبيعة القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية وحمايته "دراسة مقارنة"

د. بابكر صالح محمد المدني(•)

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية، والذي تنبع أهميته من كونه يتيح للشركات، ولا سيما المالكة لعلامات ذات شهرة أو منتجات مستقرة في أسواقها التقليدية، التوسع نحو أسواق جديدة بما يسهم في زيادة أرباحها، كما يشكل أداة مناسبة للدول النامية من خلال تشجيع الاستثمار ونقل الخبرات، وتهدف الدراسة إلى بيان ماهية عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية، والكشف عن طبيعته القانونية، مع التطرق للحماية القانونية المقررة له في التشريعات المقارنة. وتتمثل إشكالية الدراسة في التساؤل حول ماهية هذا العقد، وتحديد طبيعته القانونية، ومدى كفاية الحماية القانونية التي قررها المشرع له ولأطرافه. واعتمد الباحث في اعداد الدراسة المنهج الوصفي والتحليلي، مدعوماً بالمنهج المقارن، للوقوف على أوجه الاتفاق والاختلاف بين القوانين المقارنة والمعاهدات الدولية ذات الصلة. وقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، من أبرزها غياب نصوص تشريعية تعالج عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية معالجة تفصيلية، فضلاً عن عدم تحديد الشروط الجوهرية لانعقاده، كما كشفت الدراسة أن المشرع السوداني لم يمنح المرخص له حق رفع الدعوى المدنية أو الجنائية في حالة التعدي على العلامة التجارية، وقصر هذا الحق على مالك العلامة.. وقد اوصت الدراسة بضرورة استحداث نصوص تشريعية خاصة تنظم عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية، إلى جانب تعديل أحكام قانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م بما يواكب التطورات الاقتصادية والتقنية الحديثة.

مقدمة:

يُعد عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من الأدوات القانونية ذات الأهمية المتنامية في بيئة الأعمال المعاصرة، لما يمثله من وسيلة فعّالة لاستثمار القيمة الاقتصادية للعلامة التجارية دون المساس بملكية صاحبها. فهذا العقد لا يقتصر على كونه اتفاقاً تعاقدياً تقليدياً بين طرفين، وإنما يشكل إطاراً قانونياً يربط بين علامة تجارية مستقرة في السوق وطموح مشروع يسعى إلى التوسع والانتشار، مستفيداً من السمعة والثقة المرتبطتين بتلك العلامة.

وقد برز هذا النوع من العقود في ظل التطور الاقتصادي واتساع نطاق المنافسة، بوصفه آلية قانونية تتيح استغلال العلامة التجارية وفق شروط وضوابط محددة، مع بقاء ملكيتها للمرخص. ويخضع عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية لتنظيم قانوني متداخل، تتقاطع فيه أحكام

(•) الأستاذ المشارك بقسم القانون الخاص - كلية الشريعة والقانون - جامعة وادي النيل.

قانون الملكية الفكرية مع قواعد التشريعات التجارية ونظرية العقد في قانون المعاملات المدنية، الأمر الذي يضفي عليه خصوصية قانونية تستدعي الدراسة والتحليل.

وتزداد أهمية هذا العقد بالنظر إلى طابعه العابر للحدود، حيث غالباً ما يتم في إطار علاقات تجارية دولية، مما يمنحه بعداً دولياً واضحاً، ويجعله خاضعاً، إلى جانب التشريعات الوطنية، للاتفاقيات الدولية ذات الصلة بحقوق الملكية الفكرية، وعلى رأسها اتفاقية الجوانب التجارية لحقوق الملكية الفكرية (تريبس TRIPS) لسنة ١٩٩٤م. ومن ثم، فإن دراسة عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية تكتسب أهمية نظرية وعملية، بالنظر لدوره الاقتصادي وتعقيده القانوني وتعدد مصادر تنظيمه.

أهمية الدراسة: تتجلى أهمية هذه الدراسة في الآتي:

١- اظهار الدور الاقتصادي لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية باعتباره أداة فعالة لاستثمار القيمة المعنوية للعلامة التجارية دون المساس بملكية صاحبها.

٢- أن هذا النوع من العقود يتيح فرص للشركات ذات المنتجات القديمة أسواق جديدة مما سيؤدي لزيادة استثماراتها ونمو أرباحها تبعاً لذلك.

٣- يلائم الدول النامية وذلك بتشجيع الاستثمار فيها ونقل الخبرات الفنية والإدارية، مما يخلق فرص عمل فيؤدي ذلك لزيادة الدخل الفردي والقومي معاً. الأمر الذي يجعل من تناول أحكامه القانونية أمراً ذا أثر اقتصادي كبير.

٤- يساهم في التوسع التجاري ونقل المعرفة والتكنولوجيا مع الحفاظ على السمعة الحسنة التي يكتسبها المرخص له.

٥- أن العلامة التجارية ليست مجرد شعار بل سمعة تجارية مبنية على الثقة، لذلك فالترخيص باستعمالها هي موازنة بين منح الحق وعدم إساءة الاستعمال مع الحفاظ على القيمة المعنوية.

أهداف الدراسة:

١- توضيح مفهوم عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية. ومعرفة شروطه، وبيان خصائصه وعناصره الأساسية.

٢- الكشف عن الطبيعة القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من خلال تحليل موقعه كعقد من العقود الهامة والمؤثرة. وبيان الأساس القانوني الذي يحكمه على ضوء أحكام وقواعد قانون الملكية الفكرية.

٣- بيان نطاق الحماية القانونية المقررة لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية.

مشكلة الدراسة: تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال الرئيسي:

ما هو عقد الترخيص باستعمال العلاقة التجارية؟ وما الأساس القانوني الذي يقوم عليه؟ وقد تفرعت منه عدة أسئلة:

١/ما مفهوم عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية؟ وماهي شروطه؟

٢/ ما خصائص عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية؟

٣/ ماهي الطبيعة القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية؟ وما الحماية القانونية المقررة لها؟

منهجية الدراسة: اتبع الباحث في اعداد الدراسة المنهج الوصفي والتحليلي المقارن.

حدود الدراسة: لموضوع عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية جوانب متعددة وكثيرة ومتشعبة بعدد من الموضوعات، لكن اقتصرت هذه الدراسة على ما ورد في هيكلها، وذلك من خلال مقارنة قانون العلامات التجارية السوداني ١٩٦٩م، بنظام العلامات التجارية السعودي لعام ١٤٢٣هـ، وقانون العلامات التجارية الاردني لعام ١٩٩٩م، مع قانون العلامات التجارية المصري لعام ٢٠٠٢م، مع الاتفاقيات الدولية المتعلقة بالموضوع عندما يكون الأمر ضرورياً لذلك.

مفهوم عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية وشروطه

أولاً: تعريف الترخيص باستعمال العلامة التجارية

الترخيص لغة: كلمة ترخيص مأخوذة من كلمة رخص، وجمعه رخائص وقال: رخص له كذا أوفى كذا أذن له فيه، وترخص في الأمر أي أخذ فيه بالرخصة (معلوف، ١٩٨٦م، ٢٥٤).

كما عُرّفت ايضاً بالإذن فتقول رخص له أي أذن له فيه، والرخصة هي الإذن ويقال رخَّص له في الأمر أي أذن له فيه بعد النهى عنه، والاسم الرُّخَّصة وقد رَخص له في كذا ترخيصاً فترخص هو فيه أي لم يستعصي، وتقول رخصت فلاناً في كذا أي أذنت له بعد نهى إياه عنه (ابن منظور، ٢٠٠٣م، ١٠٧).

أما في الاصطلاح فقد عرفه فقهاء الملكية الفكرية بعدة تعريفات، منها أنه "ذلك العقد المبرم بين شخصين أحدهما صاحب حق على إحدى مفردات الملكية الفكرية ويسمى المرخص، وشخص آخر ويسمى المرخص له، بمقتضى هذا العقد يلتزم المرخص بالسماح للمرخص له باستغلال واستعمال هذا الحق لفترة زمنية معينة مقابل حصوله على أي أداء مالي محدد سواء كان ذلك بصورة مبلغ مقطوع أو نسبة مئوية متفق عليها"(حبيب، ٢٠١٢م، ١٨). أيضاً عُرّف بأنه عقد يسمح بمقتضاه صاحب العلامة (المرخص) لشخص آخر أو أكثر وهو (المرخص له) خلال مدة زمنية وداخل منطقة جغرافية محددة، ومقابل أداء مالي معين، حق إنتاج السلع أو المنتجات أو الخدمات التي تحمل العلامة (المرخص بها) بكميات معينة مع وضع العلامة المرخص بها على هذه السلع أو الخدمات أو المنتجات (الصرايرة، ٢٠٠٤، ٥٨). كما تم تعريفه من أحد الفقهاء بأنه: "عقد يجوز بموجبه لمالك العلامة أن يرخص لشخص أو أكثر سواءً أكان هذا الشخص طبيعي أم كان شخصاً اعتباري باستعمال العلامة عن كل أو بعض المنتجات أو الخدمات المسجلة عنها العلامة وهي من العقود الرضائية ويكون خلال مدة معينة في مقابل أجر معلوم مع احتفاظه بملكيتها" (القليوبي، ١٩٦٧م، ٣٤٠).

وفي تعريف آخر قيل بأنه "يقصد بعقد الترخيص عموماً ذلك العقد المبرم بين شخصين أحدهما صاحب حق على إحدى مفردات الملكية الفكرية ويسمى المرخص، وشخص آخر ويسمى المرخص له،

بمقتضى هذا العقد يلتزم المرخص بالسماح للمرخص له باستعمال هذا الحق لفترة زمنية معينة مقابل حصوله على أي أداء مالي محدد سواء كان ذلك بصورة مبلغ مقطوع أو نسبة مئوية متفق عليها (حبيب، ٢٠١٢م، ١٨).

أما المنظمة العالمية للملكية الفكرية فتعرفه بأنه "إذن أو رخصه تقدم من طرف صاحب هذا الحق لشخص لاستعمال أو إنجاز بعض الأعمال التي يتضمنها هذا الحق"(الناهي،١٩٨٣م، ١١٨).

المشرع السوداني عرفه بدوره في قانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م على أنه " إذا استعملت العلامة بعد موافقة المالك المسجل، بواسطة شخص طبيعي أو اعتباري آخر، يعتبر هذا الاستعمال استعمالاً بواسطة المالك المسجل نفسه، على شرط أن تضمن العلاقات او الترتيبات القائمة بين المالك المسجل أو المستعمل، الإشراف الفعال بواسطة المالك على استعمال العلامة التجارية بالنسبة إلى طبيعة وخصائص البضائع وعلى شريطة ألا تستعمل العلامة التجارية بصورة ربما تضلل الرأي العام"(المادة: ١/٢٢).

وكذلك نص المشرع على أنه يجوز للوزير المختص أن يقرر أخذ موافقة على هذه الاتفاقيات بالترخيص بالاستعمال وكذلك عند أي تعديل أو اتفاق أو تجديد هذه الاتفاقيات والتي تشتمل علي دفع مبالغ في الخارج واضعاً في اعتباره احتياجات البلاد وتطورها الاقتصادي(المادة:٢٢/٣/أ). على أن يخضع التحويل (العائد) (المبالغ) للوائح العملة السارية المفعول وقت التحويل (المادة: ٢٢/ب)

وقد أعطي المشرع هذه السلطة للوزير للاطلاع على هذه التعاملات للوقوف على مدي أهمية هذا الاتفاق لاقتصاد البلاد وتأثيره عليه بالنظر إلى احتياجات البلاد لهذه السلع وكذلك الخدمات لأن النص جاء عام بذكر الاتفاقيات الخاصة باستعمال العلامات التجارية (شندي، ٢٠٠٦م، ٩٨).

استناداً إلى ما سبق يتضح أن المشرع السوداني كما ورد في قانون العلامات التجارية ١٩٦٩م، قد منح صاحب العلامة التجارية حق منح استعمالها، كما منح الوزير المختصة سلطة تقديرية واسعة على المعاهدات التي تخص الموضوع وذلك لما تحققه من مكاسب اقتصادية للدولة.

ثانياً: شروط عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية

لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية شروط محددة أوردها المشرع السوداني في قانون العلامات التجارية ١٩٦٩م وهي: (المادة/ ٢/٢٢)

١. أن تستعمل العلامة بواسطة الشخص المحالة إليه بحيث لا ينطوي الأمر على خديعة أو ارتباك.

٢. أن يسجل التنازل لدي المسجل بناء على طلب أي في الطرفين.

٣. أن يقدم طلب التنازل خلال ستة أشهر من تاريخه.

٤. دفع الرسوم.

يلاحظ مما ذكر آنفاً أن المشرع السوداني في قانون العلامات التجارية لسنة١٩٦٩م لم يستخدم مصطلح "الترخيص" وإنما استخدم كلمة الاتفاق وأوجب أن يتضمن ذلك الاتفاق إشراف المالك الفعال على استعمال العلامة التجارية فيما يتعلق بطبيعة وخصائص البضائع، وأن لا تستعمل العلامة التجارية بطريق يؤدي إلى تضليل الجمهور، ونسبة لأن هذا القانون يعتبر سابقاً على ظهور

عقد الترخيص بحكم صدوره في العام١٩٦٩م فإننا نلحظ عدم تناوله لأحكام هذا العقد بصورة مفصلة وكافية، ولاشك أن عدم وجود تشريع ينظم عقد الترخيص بصورة مفصلة يؤدي الى العديد من المشكلات العملية، الأمر الذي يوجب على المشرع سن أحكام تشريعية تتناول أحكامه باستقلالية وبتفصيل يضمن كفاية القانون في تنظيم جميع العلاقات والروابط القانونية التي تنشا عن العقد بما يتحقق معه بيان حقوق والتزامات اطراف العقد وبما يواكب التشريعات الحديثة، ولاشك في أن ذلك سيؤدي بدوره للمساهمة في دفع عجلة التنمية الاقتصادية والتجارية المأمولة وتشجيع الاستثمار السودان من خلال تحفيز المستثمرين الأجانب على الاقبال على الاستثمار بالبلاد مما يساعد على نقل التكنولوجيا.

أما القوانين المقارنة فقد اختلفت في الترخيص باستعمال العلامة التجارية حيث لم يجيز القانون السعودي في نظام العلامات التجارية لسنة ١٤١٩هـ السعودي "الملغى" موضوع الترخيص باستعمال العلامة التجارية، ونص على أنه " لا يجوز نقل ملكية العلامة أو رهنها أو الحجز عليها إلا مع المحل التجاري أو مشروع الاستغلال الذى تستخدم في تمييز منتجاته(المادة: ١٨)، ويشمل الحظر الوارد في نص المادة (١٨) من نفس القانون كافة التصرفات القانونية الناقلة للملكية كالهبة، والوصية، أو تقديم العلامة التجارية كحصة عينية في شركة على سبيل الانتفاع(عبد الرازق، ٢٠٠٦، ٤٥) .

غير أن نظام العلامات التجارية لسنة ١٤٢٣هـ السعودي الساري قد نص على إنه يجوز أن تنتقل العلامة التجارية إلى الآخرين بأي واقعه أو تصرف ناقل للملكية ويشترط في التصرف أن يكون كتابةً وألّا يكون الغرض منه تضليل الجمهور وخاصة بالنسبة إلى طبيعة أو مصدر المنتجات والخدمات أو مميزاتها أو أدائها. (المادة: ٣٩).

أما قانون العلامات الأردني رقم (٣٣) لسنة ١٩٥٢م فلم يجيز الترخيص باستعمال العلامة التجارية نظراً لربطه التصرف بالعلامة التجارية بالمحل التجاري وجوداً وعدماً، إلا أن المشرع لاحقاً ألغى هذا الارتباط وأجاز التصرف بالعلامة التجارية منفرداً دون ربط ذلك بالمتجر وذلك بموجب قانون العلامات التجارية المعدل رقم (٣٤) لسنة ١٩٩٩ م الأردني إذا نص على الاتي:

١/ يجوز نقل ملكية العلامة التجارية أو التنازل عنها أو رهنها دون نقل ملكية المحل التجاري الذي يستعمل العلامة في تمييز بضائعة أو التنازل عنه أو رهنه، كما يجوز الحجز على العلامة التجارية مستقلة عن المحل التجاري.

٢/ تنتقل ملكية العلامة التجارية بانتقال ملكية المحل التجاري إذا كانت ذات ارتباط وثيق به ما لم يتفق على غير ذلك.

٣/ إذا نقلت ملكية المحل التجاري دون نقل ملكية العلامة جاز لناقل الملكية الاستمرار في استعمال العلامة التجارية للبضائع التي سجلت بها العلامة التجارية(المادة:١٩/١/٢) .كما نص على أنه (لمالك العلامة التجارية أن يرخص لشخص أو أكثر بموجب عقد خطى موثق لدى المسجل باستعمال علامته التجارية لجميع بضائعه أو بعضها، ولمالك هذه العلامة حق الاستمرار في استعمالها ما لم يتفق على خلاف ذلك ، ولا يجوز أن تزيد مدة الترخيص باستعمال العلامة التجارية عن المدة المقررة

لحمايتها وفق تسجيلها(المادة:٢/٢٦)العلامة، وقد عدَل المشرع عن ربط تحويل العلامة التجارة ونقلها، بعد تسجيلها مع أسم وشهرة المحل التجاري المختص بالبضائع التي سجلت العلامة بشأنها، وانتهاء وزوال ذلك المحل التجاري وشهرته إلى مبدأ جواز نقل ملكية العلامة التجارية، أو التنازل عنها، أو رهنها، أو الحجز عليها، دون نقل ملكية المحل التجاري الذى تستعمل في تمييز بضائعه، حيث جاء ببيان عقد الترخيص وشروطه(رين الدين، ٢٠٠٩م، ٢١٦)، ولقد جاء تبنى المشرع الأردني للاتجاه الحديث لوظيفة العلامة التجارية وتعديله لقانون العلامات التجارية رقم (٣٣) لسنة١٩٥٢م استجابة لمتطلبات الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية خاصة أن التشريعات الخاصة بالملكية الصناعية تعد دعامة أساسية في تشجيع الاستثمار في الأردن من خلال تحفيز المستثمرين الأجانب على الاستثمار وتسهيل عمليات نقل التكنولوجيا ومنح التراخيص للمستثمرين المحليين في الأردن(النحاس، ١٩٩٧م، ٣).

مما سلف يتضح أن قانون العلامات التجارية الأردني رقم ٣٣ لسنة ١٩٥٢م لم يجز الترخيص باستعمال العلامة التجارية، ولم يعطى هذه الصلاحية لمالك العلامة، وذلك نظراً لربطه التصرف بالعلامة التجارية بالمحل التجاري وجوداً وعدماً، وفى ذات الوقت لم ينص صراحة على حرمانه من هذه الصلاحية، غير ان التشريع الأردني الجديد تدارك ذلك الخطأ وفك ذلك الارتباط، فأجاز لصاحب العلامة التصرف فيها دون ربط ذلك بالمحل التجاري، أيا كان نوع ذلك التصرف سواء كان بالتنازل أو الرهن، كما اشترط تدوين ذلك التصرف ونشره في الجريد الرسمية، لكي يكون حجة علي الغير، ونجده قد تميز في ذلك على المشرع السوداني، الذي حدد لها مدة زمنية، مقدارها ستة أشهر لتسجيل الاتفاق، وفي حالة عدم الإيفاء بهذا الشرط يعتبر التصرف باطلاً ولاغياً، كما أن المشرع السوداني لم ينص كذلك على جواز التصرف في العلامة التجارية بالرهن.

وقد أجاز قانون العلامات التجارية رقم ٥٧ لسنة ١٩٣٩م المصري الملغى نقل ملكية العلامة التجارية ولكن بشرط أن يشمل انتقال ملكية المحل التجاري أو مشروع الاستغلال الذى تستخدم في تمييز منتجاته سواء عن طريق البيع أو الرهن أو خلافه(المادة: ١٨)، غير أنه قد تم استدراك هذا القصور بعد صدور قانون حماية حقوق الملكية الفكرية رقم ٨٢ لسنة٢٠٠٢م المصري حيث نص على أن " لمالك العلامة أن يرخص لشخص أو أكثر طبيعي أو اعتباري باستعمال العلامة عل كل أو بعض المنتجات المسجلة عنها العلامة ، ولا يُحول الترخيص للغير دون استعمال مالك العلامة لها مالم يتفق على غير ذلك "(المادة:٩٥)، كما نص المشرع المصري في ذات القانون على أنه" لا يجوز للمرخص له التنازل عن عقد الترخيص للغير إلا مع التنازل عن المحل التجاري أو مشروع الاستغلال الذى تستخدم العلامة في تمييز منتجاته، وذلك مالم يتفق على خلافه، ولا يكون رهنه أو تقرير حق الانتفاع عليه حجة قبل الغير إلا بعد قيده في السجل والنشر عنه بالكيفية التي تجددها اللائحة التنفيذية لهذا القانون(المادة: ٩٧)، ولا يجب أن يُفهم من ذلك أن عقد الترخيص عقد شكلي، ذلك أن الإجراءات الشكلية المتقدمة التي ذكرها المشرع لازمة للاحتجاج بالعقد في مواجهة الغير، مما يعنى أن عقد الترخيص عقد رضائي، إلا أنه لا يكون نافذاً في حق الغير إلا بعد اكتمال إجراءات

قيده في سجل العلامات، وأن يتم النشر عنه بالطريقة التي حددتها اللائحة التنفيذية لهذا القانون (الصغير، ٢٠٠٤م، ٨٦)، وقد نص المشرع على شروط تقيد المرخص له بقيود غير ضرورية للحفاظ على الحقوق المترتبة على تسجيل العلامة. ومع ذلك يجوز أن يتضمن عقد الترخيص الشروط التالية:

أ / تحديد مدة الترخيص باستعمال العلامة.

ب/ الشروط المعقولة التي تكفل لمالك العلامة مراقبة جودة المنتجات التي تميزها العلامة موضوع الترخيص وبما لا يتعارض مع حرية المرخص له في الإدارة والتشغيل.

ج / إلزام المرخص له بالامتناع عن أي عمل من شأنه أن يؤدى إلى الإقلال من شأن المنتجات التي تميزها العلامة.

من كل ما سبق نفهم أن التشريعات المقارنة متفقة مع ما جاء في اتفاقية الجوانب المتصلة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية (تريبس) والتي أعطت مالك العلامة الحق في التنازل عنها في حالة التنازل عن المشروع وفي غير حالة التنازل عنه.

أما الاتفاقيات الدولية، فقد تم تنظيم الترخيص والتنازل عن العلامة التجارية فيها، حيث نصت اتفاقية التربس لعام ١٩٩٤م على أنه " يجوز للبلدان الأعضاء تحديد شروط الترخيص باستخدام العلامات التجارية أو التنازل عنها، على أن يفهم أنه غير مسموح بالترخيص الإلزامي باستخدام العلامات التجارية وأن لصاحب العلامة حق التنازل عنها للغير مع أو بدون نقل المنشاة التي تعود العلامة التجارية إليها لصاحب العلامة الجديد "(المادة: ٢١) من النص هذا نلحظ أن اتفاقية التربس قد جاء حكمها علي العكس مما قررته اتفاقية باريس والتي تنص على أنه يجوز للدول الأعضاء الربط بين التنازل عن العلامة التجارية والمحل التجاري، بحيث لا يجوز التصرف في العلامة التجارية استقلالاً عن المتجر، ذلك أن العلامة التجارية هي جزء من عناصر المحل التجاري وإحدى وسائل جذب العملاء وتمييز منتجاته عن غيرها من المنتجات المماثلة(محمدين، ٢٠٠٤، ١٢٠) كما حظرت اتفاقية التربس التراخيص الإجبارية باستخدام العلامات التجارية .

أما المنظمة العالمية للملكية الفكرية "wipo"، فقد أعطت صاحب العلامة التجارية الحق بالترخيص للغير والانتفاع بعلامته، ويرجع السبب إلى وجود علاقة تربط العلامة التجارية والسلع، إذ كثيراً ما توحى العلامة بمستوى الجودة والشهرة. عليه فإنه يكون من الضروري أن يحافظ المرخص له على هذه العلاقة، وعلى المستوى الذي فيه من الجودة والشهرة، كما يجب على مالك العلامة التجارية أن يراقب ويتأكد من حسن استعمال المرخص له للعلامة التجارية محل عقد الترخيص، وقد قررت بعض الدول في أنظمتها التشريعية وجوب النص في عقد الترخيص على المراقبة الفعلية على المرخص له من قبل المرخص، بل عدت العقد باطلاً في حالة خلوه من النص على مراقبة الجودة وممارستها فعلياً، ولاشك أنه من الضروري أيضاً للمرخص أن يراقب الانتفاع بالعلامة عن قرب وذلك لضمان الوفاء بشرط الانتفاع، لأن انتفاع الغير بعلامة بعد الحصول على تصريح قانونى من مالك العلامة بالانتفاع بها تحت إشراف المالك ومراقبته يعد كما لو كان انتفاعاً بالعلامة على يد المالك نفسه.

انطلاقاً مما ذكر يتضح أن حق المرخص له في استعمال العلامة التجارية هو حق شبيه بحق المستأجر، ذلك لكونه يكتسب حقاً شخصياً قبل صاحب العلامة يخُّوله استعمال العلامة التجارية، فعقد الترخيص باستعمال العلامة لا ينقل ملكية العلامة إلى المرخص له، والسلطة التي تمنح للمرخص له بموجب عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية تختلط أيضاً بسلطة الاستغلال، حيث أن المرخص له يقوم باستعمال العلامة التجارية وهدفه من ذلك الحصول على الثمار المتمثلة في الأرباح التي يجنيها من خلال بيع السلع التي تحمل العلامة التجارية محل الترخيص.

استخلاصاً لكل ما سبق يمكن القول أن قانون العلامات التجارية السوداني ١٩٦٩م لم يورد تلك الشروط، وقد اختلفت التشريعات المقارنة في ذلك حيث أن المشرع السعودي لم يجيزها في قانون ١٤١٩هـ،ثم جاء قانون ١٤٢٣هـ الحالي واجاز هذا النوع من العقود، ولم يجيزها قانون العلامات الأردني لسنة ١٩٥٢م لأنها مرتبط بالمحل التجاري، واجازها لاحقاً في قانون العلامات التجارية ١٩٩٩م،وقد استدرك المشرع المصري القصور الذي شاب قانون العلامات التجارية ١٩٣٩م الذي شرط نقل العلامة التجارية بانتقال ملكية المحل التجاري وذلك في قانون حماية حقوق الملكية الفكرية ٢٠٠٢م، حيث منح حق الترخيص للعلامة التجارية، فيما يتعلق بالاتفاقيات الدولية فقد منحت اتفاقية الجوانب المتعلقة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية (تريبس)، بعكس اتفاقية باريس التي اجازت الربط بين التنازل عن العلامة التجارية والمحل التجاري ، وهو الحق الذي اعطته المنظمة العالمية للملكية الفكرية (WIPO).

خصائص عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية

تتمثل الخصائص المميزة لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية عن غيره من العقود بالآتي:

١/ عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من العقود التجارية:

لم تتطرق القوانين المقارنة الى تعريف العقد التجاري، بل اهتم بذلك الفقه حيث حاول الفقهاء وضع معايير لتحديد الأعمال والعقود التجارية، ونظرية الأعمال هي النظرية الأرجح لدى غالبية الفقهاء (قايد، ١٩٩٥م، ٥)، فالعقد التجاري ينبع من العمل التجاري وما يسرى على الثاني يسرى على الأول (العكيلي، ١٩٩٥، ٤٨).

وقد وضع الفقهاء معايير عده للتفرقة بين الأعمال التجارية والأعمال المدنية وهي: معيار المضاربة (العكيلي، ١٩٩٥م، ٥٥) أي مدى السعي إلى الربح وتحقيق العائد المادي من وراء العمل، ومعيار الحرفة التجارية (قايد، ٢٠٠٢، ٥٣) أي أن العمل التجاري هو الذي يصدر عن شخص احترف التجارة، أي عن تاجر. ومعيار المشرع (المقاولة) (محرز، ١٩٩٨م، ٤٦) أي أن العمل يعتبر تجارياً إذا ما مارسه الشخص على شكل مشروع وباستمرار. ومعيار التداول (قايد، ٢٠٠٢، ٥)، ويعنى ذلك الوساطة في تداول السلع والنقود وتداول الثروات من لحظة خروج المنتج من الصانع إلى لحظة حصول المستهلك عليه (الخطيب، ٢٠١٨م، ٦٣).

مما سبق يمكننا القول ان الترخيص باستعمال العلامة التجارية يعتبر عملاً تجارياً يسعى فيه طرفي العقد إلى الربح وتحقيق العائد المادي من خلال عقد الترخيص الممتد والمضاربة وتحقيق الأرباح.

فعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية تتوفر فيه كل معايير الاعمال التجارية وبالتالي هو من العقود التجارية ونتيجة لهذا التصنيف يسري عليه كل ما يسري على الاعمال التجارية.

٢/ عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من العقود الرضائية:

إن الأصل العام في العقود أن تكون رضائية (السنهوري، ١٥٠)، غير أنها تقسم حسب كفاية الإرادة في إنشائها إلى رضائية وشكلية وعينية (الفضل، ١٩٩٦م، ٥٥)، فجميع العقود التي يكفي لانعقادها مجرد التقاء الايجاب والقبول من أطراف العقد تعتبر عقوداً رضائية، أما العقود التي يشترط لها المشرع شكلاً معيناً بان تكون مكتوبة فان العقد في هذه الحالة فيعتبر عقداً شكلياً، كما ان العقد يعتبر عقداً عينياً فيما إذا اشتُرط لانعقاده تسليم الشي الذي يرد عليه العقد (السنهوري، ١٩٨٦م، ١٨٨). وعلى ذلك فإن عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية يعتبر عقداً رضائياً، طالما أنه ينشأ صحيحاً وينعقد بتلاقي إرادة الأطراف، فالقوانين المقارنة لم تخصص قواعد توضح كيفية انعقاد العقد، وبالتالي يخضع العقد لأحكام النظرية العامة للعقد (الصغير، ٢٠٠٤م، ٨٧) غير أن المشرع السعودي والأردني يشترطان في هذا العقد أن يكون مكتوباً، إلا أن الكتابة هنا ليست شرطاً لانعقاد العقد إنما هي شرط لإثباته.

واشتراط الكتابة في هذا العقد تنص عليها التشريعات الحديثة عادةً وتشترطها حتى يمكن قيده وتسجيله والنشر عنه في السجلات المخصصة لذلك، الا أن اشتراط الكتابة لا يجردها من طبيعتها الرضائية وعليه فأن العقد ينشأ صحيحاً بين طرفيه (القليوبي، ١٩٦٧م، ٥٣٧).

وقد أشترط المشرع السوداني في المادة٢٢ الفقرة الثانية من قانون العلامات التجارية لسنة١٩٦٩م وجوب تسجيل الترخيص عند الطلب أي من الطرفين خلال ستة أشهر من تاريخه على ألا تتعدى فترة تسجيل العلامة نفسها في حالة الإخفاق في تسجيله يصبح الترخيص لاغياً وباطلاً.

أما المشرع المصري فقد اشترط لتسجيل عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية في سجل العلامات التجارية أن يكون العقد موثقاً ومصدقاً على صحة التوقيعات عليه في الشهر العقاري، كما لا يكون عقد الترخيص حجة في مواجهة الغير إلا بعد إجراء هذا القيد، والنشر عنه بالطرق المحددة بالقانون ولائحته، والظاهر أن المشرع المصري أشترط توثيق عقد ترخيص العلامة التجارية أو التصديق على صحة التوقيعات عليه إنما هو لقيد العقد بالسجل المخصص للعلامات التجارية وليس شرطاً لصحة العقد (القليوبي، ١٩٦٧م، ٥٣٨). وعلى العكس من ذلك أوجب المشرع الأردني في قانون العلامات التجارية رقم (٣٤) لسنة ١٩٩٩م الملغي ان يكون العقد شكلياً وليس رضائياً، حيث اشترط أن يكون العقد خطياً وموثقاً لدى مسجل العلامات التجارية، إلا أنه عدل ذلك الاتجاه في القانون رقم ١٥ لسنة ٢٠٠٨م، واكتفى بأن يكون العقد مكتوباً دون توثيقه، واشتراط الكتابة هنا شرط لإثبات العقد وليست شرطاً لصحة نشوئه (سلطان، ١٩٨٧م، ١٨).

هكذا يتبين لنا من كلما ذكر أن عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية عقد رضائي، وشروط الكتابة والتسجيل فهي لإثبات هذا العقد ونفاذة في حق الغير وليس شرطا للانعقاد، غير أن قانون

العلامات التجارية السوداني ١٩٦٩م تميز دون غير من التشريعات المقارنة بإيجابه تسجيل العلامة التجارية خلال ستة أشهر بطلب أحد الطرفين.

٣/ عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من العقود القائمة على الاعتبار الشخصي:

قسم الفقهاء القانون العقود من حيث الاعتداد بشخصية المتعاقدين أو أحدهما، إلى قسمين عقود قائمة على الاعتبار الشخصي وعقود لا يعتد فيها إلى شخصية المتعاقدين أو أحدهما، وعلى ضوء ذلك يعتبر عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من العقود القائمة على الاعتبار الشخصي بالنسبة للمرخص له، حيث ان المرخص يسعى إلى انتقاء المرخص له بحق استعمال العلامة التجارية على أساس شخصي، وعليه فإنه لولا ثقة المرخص في المرخص له لما بادر إلى التعاقد معه إبرام ، فليس من المعقول أن يوفر مالك العلامة التجارية كل عناصر النجاح لعلامته التجارية لتنال من الشهرة ما يكفى للإقبال على إبرام عقود للترخيص باستعمالها، ثم يأتي من بعد ذلك ليتعاقد بعقد ترخيص لاستعمالها مع شخص لا يثق بمدى محافظته عليها بل قد يؤثر سلباً على سمعة العلامة التجارية، نتيجة للتصرفات التي قد يُقدم عليها ، لذلك أن المرخص يسعى في ظل إبرامه لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية إلى الحرص على اختيار الشخص الذى سيرخص له باستعمالها وذلك بناءً على أساس شخصي يقوم على اعتبارات عديدة ، منها نشاطه التجاري وقوة استيعابه للنشاط الذى يسعى إلى ممارسته من خلال استعمال العلامة التجارية ومؤهلات المرخص له وكادره الوظيفي(السلامات، ٢٠١١م، ٤٩).وعليه فإنه وحسب وجهة نظر بعض الشراح فإنه يجب على المرخص له الاهتمام بالاعتبارات التالية(عمار، ١٩٨٧م، ١٩):

١. مستوى اعتراف السوق بالعلامة المراد الترخيص باستعمالها.

٢ . الفترة الزمنية لوجود هذه العلامة خاصة فيما يخص حمايتها القانونية من الاعتداء عليها.

٣. عقود التراخيص الأخرى الممنوحة للغير باستعمال العلامة.

٤ . هل سيمتد استعمال العلامة التجارية المرخص باستعمالها ضمن منطقة جغرافية معينة أم في دول أخرى.

وعلى هدى ذلك نص المشرع السعودي في المادة ٣٦من نظام العلامات التجارية لسنة١٤٢٣هـ على أنه "لا يجوز للمرخص له منح الغير ترخيصاً من الباطن أو التنازل عن الترخيص ولا ينتقل إلى الورثة إلا بالاتفاق على ذلك".

نفهم من كل ما ورد ذكره أن الاعتبار الشخصي في عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية يُعد من أهم الركائز الأساسية، حيث لا يمكن تصور منح المرخص له حق استعمال علامته أذا لم تتوفر فيه السمات المذكورة أعلاه، أما نهج المشرع السوداني تجاه هذه المسألة فإننا نلحظ فيه أن قانون العلامات التجارية السوداني ١٩٦٩م لم يبين إن كان يجوز للمرخص له منح الترخيص من الباطن أم لا، كما لم يتطرق لمسألة انتقال ذلك الحق إلى الورثة، أو إلى التنازل لغيره في حق الاستعمال.

٤/ عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من عقود المعاوضة:

يُعرّف عقد المعاوضة بأنه هو العقد الذي يتلقى فيه كلا الطرفين عوضاً لما أعطاه، ومثاله عقد البيع حيث يستحق البائع الثمن في مقابل تنازله عن المبيع، وفي ذات الوقت يستحق المشترى المبيع نظير إعطائه الثمن للبائع. وعلى ذات السياق فان عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية يعتبر من عقود المعاوضة، فيأخذ كل طرف فيه مقابلاً لما يعطى، فالمرخص يحصل على مقابل نقدي والمرخص له يحصل على منفعة استعمال العلامة التجارية (زين الدين، ٢٠٠٩م، ٢١٨). ويتم حصول المرخص على المقابل المالي على حسب ما يتفق عليه الطرفان سواءً تم الاتفاق عليه دفعة واحدة أم مجزأ على اقساط، كما أن المرخص له يحصل على منفعة استعمال العلامة التجارية مقابل ما يدفعه خلال المدة المتفق عليها، أو المحددة بنص القانون حسب الحال، وبما أنه قد ثبت أن هذا العقد من عقود المعاوضة فأنه يثبت له تبعاً لذلك أنه من العقود الدائرة بين النفع والضرر بأصله ويترتب على ذلك أن إخلال اي طرف بالتزاماته يترتب عليه جواز المطالبة بالوفاء بذلك الالتزام ولو قضاءً، وإلا كان هناك إخلال بالتزام تعاقدي يتيح لصاحب الحق طلب الفسخ وفقاً لقواعد الفسخ المنصوص عليها في القانون(صرخوة، ١٩٩٣م، ١٠٤).

٥/ عقد الترخيص باستعمال العلامة من العقود الملزمة للجانبين:

كذلك من خصائص عقد الترخيص أنه عقد ملزم لأطرافه، والعقد الملزم لأطرافه هو ذلك العقد الذي ينشئ التزامات متقابلة في ذمة كل طرف، وعليه فإنه في حالة امتناع أحد المتعاقدين عن تنفيذ التزامه جاز للطرف الآخر أن يطلب فسخ العقد، وذلك حتى يتمكن من التحلل من التزاماته المقابلة فينقضي العقد بأثر رجعى، مع جواز حقه في المطالبة بتنفيذ العقد، والمدين الذي يستحيل تنفيذ التزامه لسبب أجنبي لا يد له فيه هو الذي يتحمل التبعة إذ ينقضي الالتزام المقابل وينفسخ العقد من تلقاء نفسه (عبد الرحمن، ١٩٩٥م، ٢٥). وبما أن عقد الترخيص يتصف بكونه ملزم لأطرافه فلا شك في أنه ينشئ التزامات متبادلة بين طرفي العقد.

٦/ عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من العقود الممتدة:

يتصف عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية بكونه من العقود الممتدة، أي انه يعتبر من العقود الزمنية التي يكون فيها عنصر الزمن جوهرياً فيها، ذلك لأنه لا يمكن تنفيذه دفعة واحدة وفي وقت واحد ساعة اتفاق الأطراف عليه، بل يظل العقد مستمراً طيلة المدة المتفق عليها، فالعقود بصفة عامة تقسم من حيث التنفيذ إلى فورية وممتدة (سلطان، ١٩٨٧م، ٢١)، فالعقد الفوري هو الذي يتم تنفيذه فوراً كعقد البيع. أما العقد المستمر أو الممتد هو الذي يكون تنفيذه والوفاء بالتزاماته مستمراً ودورياً كعقد الإيجار مثلاً الذي يبقى فيه المستأجر ينتفع بالمأجور طيلة مدة العقد، وهنا يكون الزمن في العقد عنصراً جوهرياً (السنهوري، ١٩٨٦ ١٧٩). كما هو الحال في عقد الترخيص باستعمال الغلامة التجارية.

وباعتبار عقد الترخيص باستعمال العلامة من العقود الممتدة، يترتب على ذلك عدة نتائج، منها أن من يتأخر في تنفيذ عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية ليس من الواجب عليه تقديم الإعذار للمتعاقد الآخر، حيث انه في العقود المستمرة لا فائدة من العذر المقدم إذا ما تم التأخر في التنفيذ.(

السنهوري، ١٩٨٦م ١٨١)، ومما يترتب أيضاً على القول بأن عقد الترخيص عقد مستمر أنه يكون محلاً نموذجياً لتطبيق نظرية الظروف الطارئة عندما يقتضي الحال، خلافاً للعقود الفورية التي لا تكون محلاً لنظرية الظروف الطارئة إلا في حالات استثنائية نادره عندما يتأخر تنفيذ العقد.

٧/ اعتبار عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من العقود الدولية:

إن مصدر استمداد عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية لأهميته يأتي انطلاقاً من الشهرة التي تحققها العلامة التجارية محل العقد، مما يدفع بالمرخص إلى السعي لتوسيع قاعدة النشاط التجاري لحدود جغرافية أكبر ولا فاق اوسع، فيلجأ إلى الترخيص لآخرين باستعمال علامته التجارية، حيث قد لا يكون راغباً في إدارة نشاطه بنفسه أو قد يكون عاجز عن ذلك، أو أنه في أماكن متباعدة بعضها عن بعض، كما يلجأ المرخص له إلى الحصول على ترخيص باستعمال العلامة التي اكتسبت شهرة لدى العامة ساعياً من وراء ذلك تحقيق ارباحاً مجزيه، لذلك نجد بعضاً من عقود الترخيص تتصف بكونها عقود دوليه كما أنها تكون احياناً عقوداً محلية، و نجد أهمية هذه العقود تزداد يوماً بعد يوم عندما يتعلق الأمر بالدول الأقل نمواً على وجه خاص، ذلك لما تتسم به من صفة الاحتياج إلى رأس مال كبير، هذا فضلاً عن أنها وسيلة فاعلة لخروجها من دائرة التخلف بما يدفع بها إلى ساحات ارحب بهدف تحقيق التنمية الاقتصادية اعتماداً على ما تحققه تلك العقود من نقل للتكنلوجيا(جمال، ٢٠٠٥م، ١٠١).

ولا شك في أن هذه الخاصية تدفع عجلة الاقتصاد الوطني إذا تم استثمارها، فكثير من القطاعات الخدمية والانتاجية بحاجة لذلك من خلال تراخيص لعلامات تجارية دولية من قبل المستثمرين، سواءً كانوا أجانب أم كانوا وطنيين.

٨/ عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية من العقود غير المسماة:

قسّم الفقه العقود من جهة أهميتها وتفسيرها واعتناء التشريعات بها إلى عقود مسماة وعقود غير مسماة، ويقصد بكلمة تفسيرها تحديد طبيعة العقد وتكملة ما نقص من أحكامه، وليس إيضاح غموض الشروط. وقد عرَّف فقهاء القانون العقود المسماة بأنها هي تلك العقود التي خصها المشرع بتنظيم خاص تحت اسم معين ، ومثالها عقد الشركة وعقد العمل وعقد الايجار، في حين عرفوا العقود غير المسماة بأنها تلك العقود التي لم يتناولها المشرع بتنظيم خاص، ولم يخصها باسم، كما لم يضع لها أحكامها خاصه بها في ظل تشريعاته، بل تركها تخضع للقواعد العامة في نظرية العقد، مثل العقد الذي يبرم بين النزيل وبين الفندق، والأصل أن العقود غير المسماة لا حصر لها، حيث أنها تشمل أي علاقة تعاقدية تقوم على أرادة أطرافها فيما سوى العلاقات التي نظمها المشرع بأحكام وخصها باسم. فالإرادة حرة تستطيع ان تنشئ ما تريد من العقود ولا يحدها في ذلك إلا حدود النظام العام والآداب، ومتى ما انتشرت بعض العقود غير المسماة وأصبحت ذات وجود فاعل في حياة الناس فإن المشرع يهتم بها ويضيفها إلى قائمة العقود المسماة، ويتم اللجوء في العقود غير المسماة إلى الأحكام العامة التي نظمها المشرع في قانون المعاملات المدنية.

أما فيما يتعلق بعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية فهناك بعض الفقه يرى أنه عقد مسمى لأن له خصائص وأحكام خاصة به تميزه عن غيره من العقود، في حين يرى البعض الآخر أن هذا العقد يعتبر عقداً غير مسمى، لأنه عباره عن خليط من عدة عقود حسب الالتزامات الواردة فيه، حيث يرتب التزامات بيع وإجارة ومقاولة. (السنهوري، ١٩٨٦م، ١٢٢).

يتضح مما ذكر آنفاً أن المشرع السوداني والتشريعات المقارنة جميعها لم يخصصوا لعقد الترخيص أحكاماً خاصة تنطبق عليه، بل تركوا أمر تنظيمه لإرادة اطرافه المشتركة. ولما كان ذلك كذلك فأنه يمكن القول إن عقد الترخيص من العقود غير المسماة لأنه لم تخصص له أحكام خاصة به وبالتالي تطبق عليه الاحكام العامة للعقود في قانون المعاملات المدنية السوداني لسنة ١٩٨٤م.

الطبيعة القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية والحماية المقررة له

أولاً: الطبيعة القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية -

يرى فقهاء القانون إن عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية لا يرد على حق ملكية العلامة، وإنما يرد على حق الاستعمال، وعليه فأنه لا ينشئ للمرخص له سوى حقاُ عينياً، كما أنه يعتبر صورة خاصة من الإيجار ترد على العلامة التجارية(الصغير، ٢٠٠٤م، ٥٧)، ويمكن التعبير عن هذا المعنى بالقول أن المرخص له في عقد الترخيص يأخذ حكم المستأجر لعقار في عقد الإيجار، حيث أن المستأجر كما هو معروف لا يملك العين محل الإيجار مهما طالت مدة الإجارة، وباعتبار أن عقد الترخيص صورة خاصة لعقد الإيجار في صورته التقليدية لشيء معين بالذات وهو ذلك المنقول المعنوي "العلامة التجارية" دون غيرها فإنه يترتب على هذه الطبيعة القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية النتائج التالية:

١ . أن هناك وجه شبه بين حق المرخص له في استعمال العلامة التجارية وبين الحق الذي يثبت للمتأجر، فهو يكتسب حقاً شخصياً قبل صاحب العلامة التجارية يخوله استعمال العلامة، ولا يتمتع المرخص له بحق مباشر على العلامة، وعليه فأنه لا يملك الحق في إقامة دعوى التقليد ضد من يعتدى على حقه في استعمال العلامة التجارية، ويثبت لصاحب العلامة التجارية وحده الحق في رفع دعوى التقليد (عباس، ٣٥٩).

٢ . ان مالك العلامة يجوز له التصرف في ملكه بكافة التصرفات القانونية الجائزة ، فيحق له أن يبيع علامته التجارية أو يتنازل عنها كلياً أو جزئياً، كما يثبت له الحق في هبتها للغير أو أن يوصى بها أو يرهنها، ولا يقيده في ذلك وجود حق للمرخص له في استعمال علامته التجارية، الا اذا كان هناك نص في عقد الترخيص يشترط بموجبه المرخص له على المرخص عدم جواز إجراء أي تصرف على العلامة التجارية ، ويعتبر مثل هذا الشرط جائزاً بناءً على القاعدة التي تقول بأن العقد شريعة المتعاقدين، في حين أن المرخص له لا يملك إجراء أي تصرف على العلامة التجارية محل عقد الترخيص لأنه لا يملك سوى حق شخصي في استعمالها(الحناكي، ٢٠١٠م، ٤٢).

٣ . أن عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية يرد على الأشياء غير القابلة للاستهلاك وذلك بناءً على أنه صورة خاصة من عقد الايجار، فهو يخول المرخص له الانتفاع بالعلامة التجارية وردها إلى

صاحبها بعد مدة هذا الانتفاع ولا شك أن ذلك لا يستقيم إن كان الشيء محل العقد من قبيل الأشياء القابلة للاستهلاك، وعليه فإن العقد في حالة وروده على شيء قابل للاستهلاك فإنه لا يكون في هذه الحالة إيجاراً، وإنما يعد بيعا (الجبوري، ٢٠٠٣م، ٤٤).

هذا ويظهر الاختلاف بين عقد الإيجار وعقد الترخيص من خلال الاتي:

١ . من حيث تقسيم العقود إلى مسماة وغير مسماة، نجد أن عقد الإيجار هو عقد مسمى أما عقد الترخيص فهو غير مسمى.

٢ . من حيث تقسيم العقود إلى عقود تقوم على الاعتبار الشخصي وعقود لا تقوم على الاعتبار الشخصي، فأننا نجد أن عقد الإيجار ليس من عقود الاعتبار الشخصي، ذلك أن الأصل فيه عدم الاعتداد بشخصية المؤجر وشخصية المستأجر، وعلى خلاف ذلك يكون الحال في عقد الترخيص حيث نلحظ أنه من العقود التي تقوم على الاعتبار الشخصي، فشخصية المرخص والمرخص له محل اعتبار (الحناكي، ٢٠١٠م، ٤٤).

٣ . من حيث محل العقد، فانه يُلاحظ أنه من الجائز أن يرد عقد الإيجار على الأشياء المادية كالأراضي الزراعية، والمنازل، كما قد يرد على الحقوق المعنوية كتأجير المخترع براءة اختراعه، كما يرد على العقارات، وقد يرد كذلك على المنقولات كتأجير السيارات والآلات (أبو السعود، ١٩٨٦م، ٣٠)، أما محل عقد الترخيص فإنه يرد على العلامة التجارية فقط وهي مال معنوي له طبيعته الخاصة التي تختلف عن الأشياء المادية.

٤ . من حيث الانتفاع بمحل العقد، يختلف عقد الايجار عن عقد الترخيص في أن المستأجر في عقد الايجار ليس ملزماً بالانتفاع بالعين محل الإيجار، طالما أنه يدفع الإيجار المستحق في موعده، أما في عقد الترخيص فإنه يقع المرخص له التزام مؤداه القيام باستعمال العلامة التجارية بصورة فعلية.

يتضح مما سبق أن عقد الترخيص يمثل صورة خاصة لعقد الايجار، وأن المرخص له لا يملك حق اقامة دعوي التقليد لأنه لا يملك حق عيني، والمؤكد أنه ليس لديه الحق في بيع ورهن أو أي تصرف من التصرفات الناقلة للملكية، إلا أذا كان هناك شرط منصوص عليه في العقد يمنحه هذه الحقوق بحكم أن العقد شريعة المتعاقدين، وبالتأكيد هو يرد على الأشياء الغير قابلة للاستهلاك. بيد أنه يختلف عن عقد الايجار من حيث أنه من العقود غير المسماة، وأنه من العقود القائمة على الاعتبار الشخصي، ويرد على مال معنوي وهو العلامة التجارية.

ثانياً: الحماية القانونية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية -

تخضع العلاقات الناشئة عن عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية في السودان في تنظيمها إلى الاحتكام إلى قانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م وتعديلاته، والذي أجاز لمالك العلامة الترخيص للغير باستعمالها، شريطة أن يتم ذلك بعقد مكتوب، وأن يُقيد الترخيص في سجل العلامات التجارية حتى يكون نافذاً في مواجهة الغير. غير أنه وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الحق قد يتعرض للاعتداء عليه مما يوجب حمايته والتي تتنوع حسب طبيعة الاعتداء إلى حماية مدنية وجنائية:

أ/ الحماية المدنية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية

لا شك أن العلاقة التعاقدية بين المرخِّص والمرخَّص له تخضع لأحكام قانون المعاملات المدنية لسنة ١٩٨٤م، لا سيما القواعد العامة المتعلقة بالمسؤولية العقدية، وهو ما يشكل الإطار العام للحماية المدنية. هذا فضلاً عما يشتمل عليه قانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م من أحكام، ونلحظ من خلال هذا التداخل أن عقد الترخيص ليس عقداً مسمىً له قانون خاص به، وإنما عقد ذو طبيعة خاصة، تحكمه نصوص متفرقة تكملها القواعد العامة. وسأتناول بالحديث الحماية المقررة لطرفي العقد على النحو الاتي:

١. الحماية المدنية المقررة للمرخِّص (مالك العلامة): تقوم الحماية المدنية للمرخِّص على مبدأ المسؤولية العقدية، حيث يلتزم المرخَّص له باستعمال العلامة في الحدود المتفق عليها، وبما لا يوثر سلباً في سمعتها أو يسئ إليها أو يؤدي إلى تضليل الجمهور. فإذا أخلّ المرخَّص له بهذه الالتزامات، كان للمرخِّص – استناداً إلى أحكام الفسخ والتعويض في قانون المعاملات المدنية – أن يطالب بفسخ عقد الترخيص، أو التعويض عن الأضرار المادية والمعنوية التي لحقت به.

وتتعزز هذه الحماية بالنصوص الخاصة في قانون العلامات التجارية، التي تمنح مالك العلامة الحق في رفع الدعوى المدنية لوقف أي استعمال غير مشروع للعلامة، حتى ولو صدر هذا الاستعمال من مرخَّص له تجاوز نطاق الترخيص أو استمر في الاستعمال بعد انتهائه.

٢. الحماية المدنية للمرخَّص له: لا تقل الحماية المدنية المقررة للمرخَّص له أهمية عن تلك المقررة للمرخِّص، حيث يجب على مالك العلامة الالتزام بضمان الانتفاع الهادئ بالعلامة اثناء مدة الترخيص. ويترتب على هذا الالتزام امتناع المرخِّص عن القيام بأي تصرف من شأنه تعطيل استعمال المرخَّص له للعلامة، أو إضعاف مركزه القانوني، كمنح تراخيص متعارضة أو سحب الترخيص دون سبب مشروع.

وفي حال إخلال المرخِّص بهذه الالتزامات، يحق للمرخَّص له الرجوع عليه بالتعويض استناداً إلى أحكام المسؤولية العقدية المنصوص عليها في قانون المعاملات المدنية، متى ثبت الضرر والعلاقة السببية. كما يتمتع المرخَّص له بالحماية من أي تعرض قانوني من الغير، إذا كان هذا التعرض ناشئاً عن تقصير المرخِّص في حماية علامته أو المحافظة على تسجيلها.

أما بالنسبة للعلامة غير المسجلة فإنه وعلى الرغم من أن القانون السوداني لم يعرف المنافسة غير المشروعة (المجحفة) إلّا، أن قانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م نص في المادة ٢/٢٧ على أنه (لا يجوز لأي شخص ان يحصل على تعويضات عن أي تعدي على علامة تجارية غير مسجلة في السودان..) إلا أنه أورد استثناءً في الفقرة الخامسة من نفس المادة بأنه (لاشي من هذا القانون يعتبر ماساً لحق الشخص في رفع دعوي ضد أي شخص عن المنافسة المجحفة لتجارته ولأي تعويض عن أضرار تلك المنافسة).

من خلال ما ذكر يتضح أن المشرع السوداني قد أعطي الحماية المدنية للعلامة التجارية غير المسجلة عن طريق رفع دعوي المنافسة غير المشروعة رغم أنه لم ينص صراحة على عبارة المنافسة غير المشروعة، إلا أننا نجد قضاء المحاكم العليا السودانية في أحكامها قد درجت على استعمال

لفظ المنافسة غير المشروعة، مما يؤكد أن عبارة المنافسة المجحفة التي استعملها قانون العلامات التجارية السوداني ترادف عبارة المنافسة غير المشروعة التي تستعملها التشريعات المقارنة. وقد ورد استعمالها صراحة في السابقة القضائية مصنع البسكويت العربي للعصائر والشبس ضد مصنع طويل أستار للعصائر والشبس حيث ورد: (يمنع استعمال العلامة التجارية على السلع والمنتجات والخدمات متى ترتب على هذا الاستعمال انتهاك لحقوق ومكتسبات الآخرين التجارية أو إذا أنطوي على هذا الاستعمال للعلامة أي تعارض أو مخالفة لقواعد ومبادئ وقوانين منع المنافسة غير المشروعة) (محكمة الخرطوم التجارية وحقوق الملكية الفكرية. ط م /١٣٤٨/٢٠٠٤م).

مما سلف يتضح أن الحماية المدنية لعقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية، في القانون السوداني وعلى الرغم من أن التشريع السوداني يوفر لها أساساً قانونياً معقولاً إلا أنها ما تزال في حاجة إلى تطوير تشريعي، من خلال وضع تشريع أكثر تفصيلاً لحقوق والتزامات أطراف عقد الترخيص. مع بيان الآثار القانونية لعدم قيد عقد الترخيص في السجل. والنص صراحةً على التعويض عن الضرر المعنوي المرتبط بالقيمة التجارية للعلامة.

أما التشريعات المقارنة فنجد المشرع الأردني قد عّرف المنافسة غير المشروعة في المادة ٢/أ بأنها (يعتبر عملاً من أعمال المنافسة غير المشروعة كل منافسة تتعارض مع المنافسات الشريفة في الشئون الصناعية أو التجارية). **كما نص في** قانون المنافسة غير المشروعة والاسرار التجارية رقم (١٥) لسنة ٢٠٠٠م **على أنه:**

١/ لا يحق لأحد أن يقيم دعوى بطلب تعويضات عن أي تعدي على علامة تجارية غير مسجلة في المملكة، ألا أنه يحق له أن يتقدم إلى المسجل بطلب لإبطال علامة تجارية سجلت في المملكة من قبل شخص لا يملكها بعد أن كانت مسجلة في الخارج إذا كانت الأسباب التي يدعيها هي الأسباب الواردة في الفقرات (٦، ٧، ١٠، ١٢) من المادة ٨ من القانون الاردني رقم (٣٣) تعديل ١٩٩٩م

يتضح مما ذكر اعلاه أن هذه المادة تتضمن حكماً يمنع أي شخص من المطالبة بالتعويض عن التعدي على علامة له غير مسجلة في الأردن (الدعوى المدنية).

إذاً فقد اشترط المشرع الأردني شرطين لرفع دعوى المنافسة غير المشروعة وهما: -

١- أن تكون العلامة غير المسجلة والتي تعرضت لمنافسة غير مشروعه مستعملة في السوق الأردني.

٢- أن يؤدى استعمالها إلى تضليل الجمهور.

أما المشرع السعودي فقد نص في المادة ٢١ من نظام العلامات التجارية لسنة ١٤٢٣هـ على انه: (يعد كل من قام بتسجيل علامة تجارية مالكاً لها دون سواه، ولا يحق لأي شخص الانتفاع بأي علامة مسجلة إلا بموافقة مالكها، ولمالك العلامة التجارية المسجلة الحق في رفع دعوى قضائية لطلب منع غيره من استعمالها أو استعمال أي إشارة أخري مشابهة لها يكون من شأنها تضليل الجمهور بالنسبة لمنتجات أو الخدمات التي سجلت عنها العلامة، وكذلك بالنسبة للمنتجات أو الخدمات المماثلة).

كما أجاز النظام المذكور أعلاه في المادة ٨٤ بأنه: - (كل من أصابه ضررٌ نتيجة ارتكاب إحدى المخالفات المنصوص عليها في النظام أن يطالب المسؤول عن هذه المخالفة التعويض المناسب عما لحقه من ضرر).

نخلص من كل ما سبق إلى أن المشرع السوداني قد اعطي حق الحماية المدنية للعلامة التجارية غير المسجلة عن طريق رفع دعوي المنافسة غير المشروعة، وهو ذات اللفظ الذي جاء في التطبيقات القضائية، كما انتهجت ذات النهج القوانين المقارنة المشرع الأردني في قانون المنافسة غير المشروعة والاسرار التجارية الاردني لعام ٢٠٠٠م، غير أنه قيد ذلك بشروط محددة، كذا الحال عند المشرع السعودي في نظام العلامات التجارية لعام ١٤٢٣هـ

ب/ الحماية الجنائية لحق استعمال العلامة التجارية

أشار المشرع السوداني في المادة ٢٧/ ٦ من قانون العلامات التجارية السوداني لسنة ١٩٦٩م إلى ثلاثة أنواع من الجرائم تقع على العلامات التجارية.

١: تزوير وتقليد العلامة التجارية وهي جرائم خاصة بالاعتداء المباشر على العلامة التجارية.

٢: استعمال العلامات المزورة والمقلدة، وهي جرائم تتصف بأنها لا تقع على نفس العلامة التجارية وإنما هي أفعال تعتبر اعتداء عليها.

٣: وهو القسم الأخير من الجرائم التي تقع على الملكية المادية للعلامة، كوضع علامة مملوكة للغير، وقد حدد القانون هذه المخالفات على النحو الآتي:

(أ) من يستعمل علامة تجارية مسجلة بمقتضي هذا القانون بواسطة شخص آخر أو تقليد لعلامة تجارية سجلت البضائع باسمها.

(ب) من يبيع أو يخزن لأغراض لبيع أية بضاعة تحمل علامة يعتبر مخالفاً لأحكام الفقرة(أ).

(ج) من يستعمل علامة مسجلة تسجيلاً صحيحاً وفقاً لأحكام هذا القانون بواسطة شخص من أجل الدعاية كالصحافة أو بأي طريقة أخري على بضائع سجلت العلامة باسمها.

(د) من يؤشر على أو ينحت أو يطبع أي لوحة أو صيغة (اكليشيه) أو أي وصف لعلامة مسجلة تسجيلاً صحيحاً بواسطة شخص آخر أو أي تقليد يمكن أي شخص غير المالك المسجل لتلك العلامة التجارية من الاستفادة بطريقة مخالفة للفقرات (أ، ب، ج).

(هـ) من يغلق أو يلف أو يبيع أو يخزن بغرض بيع أي بضائع جمعت أو غلفت أو لفت أو جهزت في أي صورة بقصد حمل المشترين على الاعتقاد بأنها بضائع لمنتج آخر أو ذات منشأ غير منشئها الحقيقي.

(و) من يستفيد استفادة مباشرة أو غير مباشرة من الإشارة الى مصدر غير حقيقي أو خادع او تقليد أية إشارة إلى مصدر حتى ولو كان المصدر الحقيقي مبيناً أو كانت الإشارة إلى المصدر مصحوبة بكلمات مثل: (نوع) أو (عينة) أو (صنع) أو (تقليد) أو غيرها من الكلمات المشابهة.

(ز) من يستورد أي بضائع تحمل علامة قد تشكل تعدياً على علامة مسجلة تسجيل صحيحاً أو يستورد بضائع جمعت أو لفت أو غلفت أو تم تحضيرها بشكل يمكن ترويجها وكأنها بضائع لمنتج آخر.

استعمال علامة تجارية بواسطة شخص آخر أو تقليدها:

يتضح من نصوص القانون أن المشرع السوداني قد تناول بالذكر نوعين من المخالفات: المخالفة الأولى: هي استعمال العلامة التجارية بواسطة شخص آخر والثانية تقليد العلامة التجارية، وهذه الجرائم تعد من جرائم الاعتداء المباشر على العلامة التجارية.

وحتى تتحقق جريمة استعمال العلامة التجارية بواسطة شخص آخر لابد أن تكون العلامة التجارية مسجلة وأن يتم استعمال بدون موافقة المالك وأن يقوم الشخص باستعمال العلامة التجارية بقصد الغش، فإذا استطاع المتهم نفى هذا القصد وأثبت عدم علمه بملكية هذه العلامة لشخص آخر فلا تكون هنالك جريمة.

أما المخالفة الثانية فهي تقليد العلامة التجارية، ويعرف التقليد بأنه صنع علامة تشبه في مجموعها العلامة الحقيقية مع وجود اختلاف بينهما، مما يوقع المستهلك المتوسط الحرص في الشك، وعدم القدرة على التمييز بين العلامة الحقيقية والمقلدة، نظراً للخلط واللبس بينهما. ويلجأ المقلد عادة إلى إضافة أشياء طفيفة أو يقوم بإزالة جزء من العلامة أو يغير في لونها أو حروفها حتى يوهم الغير بأنها تختلف عن العلامة الحقيقية. ويراعى عند مقارنة العلامة المقلدة بالعلامة الحقيقية أن ينظر إليها على وجه التتابع وليس متجاورتين لأنه في الحالة الأخيرة يسهل معرفة أوجه الخلاف بينهما (شمس الدين، ١٦٢).

وقد قرر المشرع السوداني عقوبات عن تلك الجرائم فأوجب لكل نوع منها ما يناسبه من العقوبات فقد نص المشرع في المادة٦/٢٧ من قانون العلامات التجارية، لسنة ١٩٦٩م، على أنه كل من تتم إدانته بعد سماع الدعوي الجنائية في مواجهته وبعد التثبت من قيام أدلة الإثبات في مواجهته فإنه يعاقب بالسجن مدة لا تتجاوز سنة واحدة وغرامة لا تتجاوز خمسمائة جنيه أو بالعقوبتين معاً.

ولكي يكتمل وقوع جريمتي التقليد أو الغش وتجب لهما العقوبات المذكورة أعلاه فإنه لابد من توفر الركن المادي المتمثل في التزوير أو التقليد للعلامة بالنقل الحرفي لها أو معظمها في جريمة التزوير أو خلق علامة مشابهة للعلامة الأولى بحيث تصعب التفرقة بينهما وتؤدى العلامة الجديدة أو المقلدة إلى تضليل المستهلك. ومسألة وجود تزوير أو تضليل أمر متروك للقضاء، ويصل لهذه الواقعة من البيانات المقدمة أمامه. وقد أكد على ذلك قضاء المحكم العليا في إحدى قضاياها حيث استورد المتهم بضاعة من الصين تحمل نفس مواصفات بضاعة الشاكي الإنجليزية ومشابهة لعلامة الشاكي التجارية مع تعديل في الحرف الأخير وهي علامة (Temby) (Tembi) وتمت إدانة المستورد وفق أحكام المادة ٦/٢٧/ز لاستيراده بضائع مقلدة، والمتهم الثاني لقيامه بعرض هذه السلعة المقلدة.

وعن كيفية المقارنة بين العلامتين، العلامة الاصلية والعلامة المدعى بتقليدها فأنه يجب عند قيام المقارنة بينهما الاعتداد بأوجه التشابه، لا بأوجه الاختلاف، فالتقليد يقوم إذا ما وصل التشابه بين العلامتين إلى حد إيقاع الغير في الغلط واللبس بصرف النظر عن ما يوجد بينهما من اختلاف كما يتعين أن تكون العبرة عند المقارنة بين العلامة الأصلية والعلامة الغير أصلية بالمظهر العام للعلامتين لا في تفاصيلهما أو جزئيتهما ، فالعبرة هي الصورة العامة التي تنطبع في الذهن نتيجة لتركيب هذه

الصورة أو الرموز مع بعضها ، وللشكل الذى تبرز به علامة أو أخري بصرف النظر عن العناصر التي تتركب منها . فالعبرة بمحاكاة الشكل العام للعلامة في مجموعها والذي تدل عليه السمات البارزة فيها دون تفاصيلها الجزئية، وتكون العبرة في تقدير وجود تقليد أو تزوير بالمستهلك العادي المتوسط الحرص.

أما المشرع الأردني فقد نص في المادة ٣٨ من قانون العلامات التجارية رقم ٣٤ تعديل ١٩٩٩م على أنه:

١-يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر ولا تتجاوز سنة واحدة أو بغرامة لا تقل عن مائة دينار ولا تتجاوز ثلاثة آلاف دينار أو بكلتا هاتين العقوبتين كل من ارتكب بقصد الغش فعلاً من الأفعال التالية:

أ – زور علامة تجارية مسجلة وفقاً لأحكام هذا القانون، أو قلدها بطريقة تؤدي إلى تضليل الجمهور، أو وسم داخل المملكة علامة تجارية مزورة أو مقلدة على ذات الصنف من البضائع التي سجلت العلامة التجارية من أجلها.

ب – استعمل دون حق علامة تجارية يملكها الغير على الصنف ذاته من البضاعة التي سجلت العلامة التجارية من أجلها.

ج – باع أو أقتنى بقصد البيع أو عرض بضاعة تحمل علامة تجارية يعتبر استعمالها جرما بمقتضى البندين (أ) و(ب) من هذه الفقرة وكان لديه علم مسبق بذلك

٢/ بالرغم مما ورد في الفقرة (١) من هذه المادة يعاقب الأشخاص الذين يبيعون أو يعرضون للبيع أو يقتنون بقصد البيع بضاعة تحمل علامة تجارية يعتبر استعمالها جرماً بمقتضى البندين (أ) و (ب) من الفقرة (١) من هذه المادة بغرامة لا تقل عن خمسين ديناراً ولا تتجاوز خمسمائة دينار.

٣/ تسري أحكام الفقرة (١) من هذه المادة على كل من شرع في ارتكاب أي فعل من الأفعال المنصوص عليها في هذه الفقرة أو ساعد أو حرض على ارتكابها.

مما سبق يتضح التشريعات المقارنة بما فيها المشرع السوداني قد نصت على عقوبات مختلفة غير أن الباحث يرى أنها عقوبات ضعيفة، وغير رادعه ولا ترقى لمستوى الجرم، نظراً إلى جسامتها وخطورتها وآثارها الكبيرة. فمسألة الغش التجاري بالإضافة إلى تأثيرها على المستهلك وعلى صحته نتيجة لتناوله منتجات قد لا تكون مطابقة لمواصفات المنتج الأصلي الذي تعود على شرائه، فإنه كذلك يؤثر على السمعة التجارية لصاحب المنشأة أو التاجر الذي سيخسر مادياً نتيجة لانصراف الزبون عن منتجه، ومعنوياً نتيجة خسارته لسمعته وشهرته. لذلك كان لابد أن تكون العقوبات رادعة وتتناسب مع المكاسب التي يحققها هؤلاء القراصنة نتيجة تزويرهم وغشهم لذلك يقترح الباحث تعديل العقوبات المنصوص عليها في التشريعات المقارنة وذلك بزيادة مدة عقوبة السجن وعقوبة الغرامة حتى تتناسب الجريمة التي تؤثر على الفرد والمجتمع والاقتصاد الوطني برمته بالإضافة إلى النص على الالتزامات المدنية كالأمر بوقف التقليد والتعويض عن الخسائر التي لحقت بصاحب العلامة، كما تجب مصادرة المواد المخالفة محل الجريمة، كما يقترح الباحث عند ثبوت الإدانة أن تشتمل العقوبة على

إيقاف المؤسسة أو المصنع أو التاجر وسحب رخصته ونشر هذه الأحكام في الجريدة الرسمية حتي يتحقق الردع العام.

كما يتضح لنا أيضاً من خلال النصوص الواردة أن من له حق رفع الدعوي المدنية أو الجنائية هو صاحب العلامة التجارية دون غيره، ولم تتعرض التشريعات المقارنة لحق المرخص له في ذلك وإن كان يجور له رفع أي من الدعوتين أم لا! مما يفهم منه ثبوت الحق لصاحب العلامة فقط.

خاتمة:

نخلص في خاتمة هذه الدراسة إلى أن عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية يُعد من العقود ذات الأهمية القانونية والاقتصادية البالغة، لما يؤديه من دور فاعل في تنشيط الحركة الاقتصادية، ودعم التنمية، وخلق فرص العمل، فضلًا عن إسهامه في جذب الاستثمارات وتعزيز تدفقات النقد الأجنبي. غير أن هذه الأهمية المتزايدة تقابلها إشكالية تشريعية تتمثل في خضوع هذا العقد لقانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م، وهو تشريع مضى على صدوره زمن طويل شهد خلاله الواقع التجاري تطورات جوهرية ومتسارعة، الأمر الذي أفضى إلى قصور بعض أحكامه عن مواكبة المستجدات العملية وعن توفير تنظيم قانوني كافٍ للعلاقات الناشئة عن عقود الترخيص بالعلامات التجارية. واستنادًا إلى ما تناولته الدراسة من تحليل فقهي ونصي وتطبيقي، فقد انتهى الباحث إلى جملة من الاستنتاجات، واقترح عددًا من التوصيات، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: الاستنتاجات:

١/ إن المشرع السوداني قرر في قانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م لصاحب العلامة التجارية حق منح استعمالها، كما منح الوزير المختص سلطة تقديرية واسعة فيما يخص المعاهدات وذلك لما تحققه من مكاسب اقتصادية.

٢/ افتقار قانون العلامات التجارية لأي نصوص تشريعية تنظم عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية بصورة مفصلة، كما انه لم يحدد الشروط التي يجب أن يتضمنها، مع ملاحظة اختلاف وتباين القوانين المقارنة والمعاهدات الدولية في ذلك.

٤/ إن من سمات عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية ان الاعتبار الشخصي يمثل اهم ركائز حق منح استعمال العلامة التجارية، وأنه يعتبر من عقود المعاوضات، كما أنه من العقود المستمرة والممتدة.

٥/ ان عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية يعتبر صورة من صور عقد الايجار، وبالتالي لا يملك المرخص له حق إقامة دعوي التقليد لا نه ليس صاحب الحق العيني، وبالتأكيد ليس لديه أي حق من الحقوق الناقلة للملكية مثل الرهن والبيع وغيرها، غير أنه يختلف عن عقد الإيجار في أنه يرد على مال معنوي وأنه قائم على الاعتبار الشخصي.

٦/ إن المشرع السوداني قد منح حق الحماية المدنية للعلامة التجارية غير المسجلة عن طريق رفع دعوي المنافسة غير المشروعة، وهو اللفظ الذي جاء في التطبيقات القضائية، وهو ذات النهج في القوانين المقارنة.

٧/ إن المشرع السوداني والتشريعات المقارنة لم تعطي المرخص له حق رفع الدعوي المدنية او الجنائية في حالة التعدي على العلامة التجارية، وانما قرر ذلك الحق لصاحب العلامة التجارية دون غيره من أطراف العلاقة الناشئة عنها.

ثانيا: التوصيات

يوصي الباحث بالآتي:

١/ سن نصوص واحكام قانونية تفصيلية جديده تضمّن في قانون العلامات التجارية تنظم عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية، تحدد فيها الحد الأدنى من الحقوق والالتزامات للطرفين، وتبين فيها شروط العقد.

٢/توضيح مدي حق المرخص له في منح الترخيص من الباطن والنقل للورثة، والتنازل للغير وغيرها من المعاملات التي تعطي حق الاستعمال للغير.

٣/ النص علي حق المرخص له في رفع الدعاوي الجنائية والمدنية في حالة التعدي على العلامة التجارية المرخص له بها.

٤/ اخضاع قانون العلامات التجارية لعام ١٩٦٩م، للمراجعة الشاملة وتعديل نصوصه بما يواكب ما استحدث وما استجد من تطورات تتعلق بالعلامات التجارية وما حدث من نشاط اقتصادي وتقني وتطور كبير خلال العقود الأخيرة.

المصادروالمراجع:

١. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (٢٠٠٣م)، لسان العرب، ج٤، دار الحديث، القاهرة

٢. أبو السعود، رمضان، (١٩٨٦م)، دروس في العقود المسماة، عقد الإيجار في القانون المصري واللبناني، الدار الجامعية.

٣. الجبوري، علاء عزيز حميد، (٢٠٠٣م)، عقد الترخيص، دراسة مقارنة، دار الثقافة، ط١، عمان، الاردن

٤. جمال، صلاح الدين، (٢٠٠٥م)، عقود نقل التكنولوجيا دراسة في إطار القانون الدولي الخاص والقانون التجاري الدولي، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية

٥. حبيب، مصطفى سليمان حبيب، (٢٠١٢م)، الاستثمار في الترخيص الامتيازى، دار الثقافة، ط ١، الإصدار الرابع، عمان، الأردن.

٦. الحناكي، عبد الله محمد عبد الله، (٢٠١٠م) عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية في نظام العلامات التجارية السعودي.

٧. الخطيب، سلام عزيز محمد، (٢٠١٨م)، عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية " دراسة مقارنة " أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة النجاح الوطنية في نابلس.

٨.زين الدين، صلاح، (٢٠٠٩) م، العلامات التجارية وطنياً ودولياً، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

٩. السلامات، نادر عبد الحليم، (٢٠١١م) عقد الترخيص باستعمال العلامة التجارية في التشريع الأردني، عمادة البحث العلمي.

١٠. سلطان، أنور، (١٩٨٧م) مصدرا الالتزام، مصادر الالتزام في القانون المدني الأردني، دراسة مقارنة بالفقه الإسلامي، منشورات الجامعة الأردنية.

١١. السنهوري، عبد الرزاق، (١٩٨٦م) الوسيط في شرح القانون المدني، العقود الواردة على الانتفاع بالشيء، الإيجار والعارية، ج ٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢. السنهوري، عبد الرزاق، (د.ت) الوسيط في شرح القانون المدني، ج١، مصادر التزام، مجلد ١، القاهرة، دار النهضة العربية،

١٣. السنهوري، عبد الرزاق، (د.ت) الوسيط في شرح القانون المدني، ج١، نظرية الالتزام بوجه عام، مصادر الالتزام، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

١٤. شندي، سوسن سعيد، (٢٠٠٦م) الحماية القانونية لحق المؤلف والحقوق المجاورة والعلامات التجارية في السودان، مكتبة الشريف الأكاديمية، الخرطوم.

١٥. الصرايرة، منصور، (٢٠٠٤م) الترخيص باستعمال العلامة التجارية، دار رند للنشر والتوزيع، شارع الجامعة، الكرك.

١٦. صرخوة، يعقوب، (١٩٩٣م)، النظام القانوني للعلامات التجارية، مطبوعات جامعة الكويت.

١٧. الصغير، حسام عبد الغنى، (٢٠٠٤م) الجديد في العلامات التجارية في ضوء قانون حماية حقوق الملكية الفكرية واتفاقية التريبس، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية.

١٨. عباس، محمد حسنى، ا (د. ت) لملكية الصناعية والمحل التجاري، دار النهضة العربية القاهرة، ط ١.

١٩. عبد الرازق، نجيب، (٢٠٠٦م) نظام العلامات التجارية في المملكة العربية السعودية، منشورات جامعة الملك سعود.

٢٠. عبد الرحمن، أحمد شوقي محمد، (١٩٩٥م)، النظرية العامة للالتزام العقد والإرادة المنفردة، النسر الذهبي للطباعة

٢١. العكيلي، عزيز، (١٩٩٥م)، القانون التجاري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان.

٢٢. عمار، ماجد، (١٩٨٧م)، عقد نقل التكنولوجيا . الترخيص، شرط التحكيم، دار النهضة العربية، القاهرة.

٢٣. الفضل، منذر، (١٩٩٦م)، النظرية العامة للالتزامات" دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقوانين المدنية الوضعية، ج ١، مصادر التزام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان.

٢٤. قايد، محمد بهجت عبد الله، (١٩٩٥م)، العقود التجارية، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة.
٢٥. قايد، محمد بهجت عبد الله، (٢٠٠٢م) القانون التجاري . نظرية الأعمال التجارية، التاجر. المتجر. حقوق الملكية الصناعية والتجارية، دار النهضة العربية، القاهرة.
٢٦. القليوبي، سميحة، (١٩٦٧م) الوجيز في التشريعات الصناعية، دار الاتحاد العربي للطباعة، مكتبة القاهرة الحديثة.
٢٧. محرز، احمد محمد، (١٩٩٨م) القانون التجاري.
٢٨. محمدين، جلال وفاء، (٢٠٠٤م)، الحماية القانونية للملكية الصناعية وفقاً لاتفاقية الجوانب المتصلة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية " تريبس"، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية.
٢٩. معلوف، لويس، (١٩٨٦م) معجم المنجد في اللغة، دار المشرق، بيروت.
٣٠. الناهي، صلاح الدين، (١٩٨٣م) الوجيز في الملكية الصناعية والتجارية، دار الفرقان، ط١، عمّان.
٣١. النحاس، رامي، (١٩٩٧م)، الترخيص باستعمال العلامة التجارية، مقال في مجلة حماية الملكية الفكرية، العدد الثالث والخمسون، الربع الثالث.

القوانين والاتفاقيات:

١. قانون العلامات التجارية رقم ٥٧ لسنة ١٩٣٩م المصري الملغى
٢. قانون العلامات التجارية الاردني لعام ١٩٥٢م
٣. قانون العلامات التجارية لسنة ١٩٦٩م،
٤. قانون المعاملات المدنية السوداني لسنة ١٩٨٤م.
٥. اتفاقية التربس لعام ١٩٩٤م
٦. قانون العلامات التجارية رقم ٣٤ تعديل ١٩٩٩م الأردني
٧. نظام العلامات التجارية السعودي لعام ١٤١٩هـ
٨. قانون المنافسة غير المشروعة والاسرار التجارية رقم (١٥) لسنة ٢٠٠٠م الاردني
٩. قانون حماية حقوق الملكية الفكرية رقم ٨٢ لسنة٢٠٠٢م المصري
١٠. قانون العلامات التجارية المصري لعام ٢٠٠٢م
١١. نظام العلامات التجارية السعودي لعام ١٤٢٣هـ

التخطيط السياحي لأغراض تنمية سياحية بيئية مستدامة إقليم المحس شمال السودان نموذجا

د. ياسر علي محمد تاي الله(•)

المستخلص:

تناولت هذه الورقة موضوع السياحة البيئية في منطقة المحس في شمال السودان. وتهدف الدراسة إلي جرد مقومات السياحة البيئية في المنطقة ووضع الخطط العلمية لاستثمار إمكانيات المنطقة السياحية وخلق سياحة بيئية مستدامة. وتكمن أهمية الدراسة فى أن السياحة البيئية تعتبر من أهم أنواع السياحة، كما أنها تهتم بالتراث الإنساني بكل أشكاله، والتراث الطبيعي وتعتبر المرآة التي تعكس ذلك التراث. وتكمن مشكلة الدراسة في عدم تنامي الوعي السياحي لدى المجتمع المحلي خاصة فيما يتعلق بالوعي البيئي، والاهتمام بالموارد الطبيعية وتنميتها. اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي) من أجل الوصول إلى نتائج منطقية. ومن أهم النتائج التي توصلت لها الدراسة، أن المنطقة تتمتع بمقومات سياحة متنوعة سيما مقومات وعناصر السياحة البيئية. وأن مواقع السياحة الآثارية باعتبارها واحدة من مقومات السياحة البيئية، تكاد تفقد قيمتها الحضارية والتاريخية، لعدم تهيئتها وتخطيطها للسياحة، كما توصلت الدراسة إلى ضعف البنى التحتية والخدمات السياحية فى منطقة الدراسة، إضافة إلى التعقيدات الإدارية والمؤسسية على مستوى الدولة والإقليم.

أهداف لدراسة:

تلقي الدراسة الضوء على موارد السياحة البيئية في منطقة المحس ومحاولة معرفة التحديات والمعوقات التي تواجه النشاط السياحي فى المنطقة، واقتراح الحلول المناسبة لتلك المعوقات بزيادة الانشطة الثقافية والشعبية والخدمات والتسهيلات، واهمية وجود إدارة فعالة للارتقاء بالنطاقات الثقافية والحفاظ على محتواها العمراني والتاريخي.

* وتهدف الدراسة إلى التعريف بمفهوم السياحة البيئية والمفاهيم المرتبطة بصناعتها.

* المحافظة علي جمال طبيعة المواقع وابرازها وصيانتها وتوسيع دائرة المحميات بدون ان تفصل عن محيطها الاجتماعي لضمان سيادة الطابع المحلي والجغرافي لكل منطقه سياحيه لتظهر خصوصيتها عن غيرها كأهم عنصر للجذب السياحي اليها

* الاعلام عبر الاجهزة الاعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة وطباعة ملصقات ومطبقات ومجلات الجواذب السياحية وفتح مكاتب خارجيه للترويج السياحي بعرض الجواذب السياحية والخدمات المتوفرة.

(•) جامعة ابن سينا، السودان

د. رباب عبد الرحمن الوسيلة، كلية السياحة والفنادق، جامعة الزعيم الأزهري- السودان

د. رجاء يوسف عبد الرحمن، كلية السياحة والفنادق، جامعة الزعيم الأزهري، قسم الأغذية والمطاعم

* يبقى الهدف الأهم وهو تحقيق التنمية المستدامة من خلال تطوير السياحة البيئية في المنطقة.

فرضيات الدراسة:

* تفترض الدراسة أن منطقة المحس تعتبر من أغنى المناطق فى السودان من حيث الموارد والإمكانيات السياحية المتنوعة.

* أن الموارد والإمكانيات السياحية فى المنطقة لم تستغل بعد، وتفتقر للبنية التحتية.

* افتقار مواقع الجذب السياحي خاصة المواقع الحضارية والتاريخية، إلى عمليات الحفظ والترميم. والحماية.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج التاريخي، والوصفي والتحليلي والدراسة الميدانية لرصد صورة واقعية للسياحة البيئية في منطقة المحس. وذلك للوصول إلى فهم متكامل يتيح الاستفادة من السياحة البيئية وكيفية إدارتها. وذلك بالوقوف ميدانياً على كل مواقع الجذب السياحي بهدف حصر مواقع السياحة البيئية بكافة عناصرها فى المنطقة. ومعرفة حالتها الراهنة. واعتمدت الدراسة كذلك على المنهج التاريخي برصد معظم مصادر المعلومات الأولية والثانوية ومحاولة الاستفادة منها فى الخروج بنتائج مرضية.

مفهوم السياحة البيئية:

مع تدفق أعداد السياح بشكل كبيرة للمواقع السياحية، واهتمام السياح بالتنوع الحيوي، جرى تخريب وتدمير للعديد من البيئات وتهديد للحياة الفطرية، ولذلك بدأت تتعالى الأصوات بضرورة اهتمام السياحة بالأمور البيئية. وتبين أنه لا يمكن الحفاظ على البيئة إلا بإشراك السكان المحليين في المحافظة عليها ورعايتها. وقد برز مفهوم السياحة البيئية للاستمتاع بالطبيعة والتراث الثقافي المحلي والحفاظ عليهم وقد عرّف هذا النوع من السياحة بالعديد من التعريفات التي جاءت لتبين معنى السياحة البيئية على أنها (نوع من النشاطات السياحية الصديقة للبيئة التي يمارسه الإنسان حفاظاً على التراث الطبيعي والحضاري للبيئة الت يعيش فيها الإنسان) (كفافي، ٢٠٠٩م، ٢٠) كما أنها نشاط سياحي يمارسه البشر وفق ضوابط وقواعد محكمة تحمي وتصون الحياة الطبيعية وتحول دون تلوثها وتعمل على المحافظة عليها من أجل الأجيال الحالية والقادمة في المستقبل (الحضري، ٢٠٠٥م،٤٧). وتعرّف أيضاً بأنها السفر والانتقال من مكان لآخر بغرض الاستمتاع والدراسة والتفهم والتقدير للمناطق الطبيعية وما يصاحبها من مظاهر ثقافية تقليدية، أي أنها مجموعة من أفكار وخطط تهدف إلي المحافظة على الموروثات الطبيعية بكل عناصرها الحضارية والآثارية والدينية والصحية وفق خطط إستراتيجية بعيدة المدى تهدف لخلق سياسة شاملة رفيقة بالبيئة(عبودي، ٢٠٠٨م، ٤٨)، وهي توظيف للبيئة لكي تمثل نمطاً من أنماط السياحة التي يلجأ إليها الفرد أو الجماعة للاستمتاع بجمال الطبيعة والموروثات الحضارية والأثرية والدينية مع مراعاة المحافظة على البيئة.

تعريف السياحة البيئية

ظهر مصطلح السياحة البيئية منذ مطلع الثمانينات من القرن العشرين، وهو مصطلح حديث نسبياً، إذ بدأ البعض في الحديث عن هذا النوع من السياحة في السبعينيات من القرن الماضي، ومع أن المصطلح حديث إلا أن مكونات وأشكال السياحة البيئية كانت متداولة في بعض الأحيان كما هو الحال في سياحة السفاري التي جذبت السياح إلي افريقيا منذ عقود طويلة بالإضافة إلي بعض الرحلات البيئية التي كانت ينظمها البعض في المحميات الطبيعية(الطحلاوي، ٢٠١١م ، ٣٨).

وقد جاء مصطلح السياحة البيئية ليعبر عن نوع جديد من النشاط السياحي الصديق للبيئة الذي يمارسه الإنسان محافظاً على الميراث الفطري الطبيعي والحضاري للبيئة التي يعيش فيها. فالسياحة البيئية أو السياحة الطبيعية إن جاز القول: عليها هي تلك النوع الترفيهي والترويحي عن النفس والذى يوضح العلاقة التي تربط السياحة بالبيئة(الطحلاوي، ٢٠١١م، ٤٤) وقد ورد تعريف للسياحة البيئية من قبل الصندوق العالمي للبيئة: (السفر إلى مناطق طبيعية لم يلحق بها التلوث ولم يتعرض توازنها الطبيعي إلى الخلل، وذلك للاستمتاع بمناظرها ونباتاتها وحيواناتها البرية وحضاراتها فى الماضي والحاضر فهي سياحة تعتمد على الطبيعة فى المقام الأول بمناظرها الخلابة).

أهمية السياحة البيئية:

تكتسب السياحة البيئية أهميتها من عدة جوانب تتمثل في الآتي (كفافي، ٥٠):

١- المحافظة على التوازن البيئي من حماية الحياة البرية والبحرية من التلوث

٢- توفر الحياة السهلة والبسيطة البعيدة عن الإزعاج والقلق والتوتر، بمنع الضوضاء والانبعاثات الغازية التي تؤثر على كفاءة الإنسان

٣- ضوابط الترشيد السلوكي في استهلاك المواد، بما يحافظ على السلامة العامة وعدم هدر الموارد وضياعها وفي نفس الوقت تخصيص أعلى قدر من المحافظة على الطاقة وسلامة المجتمع وحيويته وفاعليته (الرواضية، ٢٠١٣م، ١٧).

١- الأهمية الاقتصادية: حيث تعد أماكن السياحة البيئية من أكثر الموارد ندرة في العالم ومن هنا كانت للجوانب الاقتصادية أهميتها الكبرى في ممارسة النشاط السياحي البيئي. وبالتالي يمكن الاستفادة من عنصر الندرة في تحقيق التنمية المستدامة بما يمكن تحقيقه من العوائد والارباح، توفير فرص العمل والتوظيف للعاطلين، تنويع العائد الاقتصادي ومصادر الدخل القومي، تحسين البنية التحتية وزيادة العوائد الحكومية.

٢- **الأهمية الاجتماعية:** إذ تعد السياحة البيئية صديقة للمجتمع حيث تعمل على الاستفادة مما هو متاح في المجتمع من موارد وافراد كما تعمل على تطوير ورقي المجتمع ونقل المجتمعات المنعزلة إلى مجتمعات منفتحة.

٣- **الأهمية الثقافية البيئية:** إن الجوانب الثقافية للسياحة البيئية هي جوانب تفاعلية قائمة على توسيع مجال الإدراك وزيادة الوعي والفهم للقضايا البيئية وتعميق الإحساس بشعور التعاون والمشاركة وتطوير المعارف فضلاً عن الاستفادة من الموارد الثقافية المحلية (زياد عيد ،مرجع

سابق:٥٧)، كما أن الأهمية الثقافية للسياحة البيئية تقوم على نشر المعرفة وزيادة تأثير المعرفة على تطوير وتقديم البرامج السياحية البيئية ونشر الثقافة للمحافظة على البيئة والمحافظة على الموروث والتراث الثقافي الإنساني، وثقافة الحضارة والمواقع التاريخية، وصناعة الأحداث والمناسبات الثقافية والعمل على الاستفادة من الثقافة المحلية مثل الفنون الجميلة والآداب والفولكلور وسياحة الندوات واللقاءات الثقافية.

العلاقة بين السياحة والبيئة:

تشير تقديرات منظمة السياحة العالمية إلى أن صناعة السياحة ستشهد نمواً بواقع ٤,٣٪ سنويا، حتى العام ٢٠١٧م، وتعد السياحة البيئية واحدة من أكثر أنواع السياحة نمواً، وفي هذا الصدد يمكن تصنيف العلاقة بين السياحة والبيئة في ثلاثة مستويات وهي:

١- الأنشطة السياحية التي تعتمد على الطبيعة والتي لا تقوم بدون وجود المقومات الطبيعية، كسياحة تسلق الجبال التي يعتبر فيها وجود السلاسل الجبلية العالية شرطاً لقيامها.

٢- الأنشطة السياحية التي تزداد أهميتها وجاذبيتها بالطبيعة كالتخييم الذي يفضل السياح إقامته في أماكن جذب طبيعية(العاني، ٢٠٠٩م، ٣٣).

٣- الأنشطة السياحية التي تتواجد وسط مقومات طبيعية دون أن يكون ذلك شرطاً لقيامها، كوجود القلاع الأثرية في مواقع طبيعية كما هو الحال في مواقع قلعة مراكول، وقلعة تنري، وتوندي وشوفين وقلعة جبل وهابة في منطقة الدراسة في شمال السودان.

السياحة والتوازن البيئي:

لعل أهم عنصر تقوم عليه السياحة البيئية هو عدم إحداث إخلال بالتوازن البيئي الناتجة عن تصرفات الإنسان والتي تكون متمثلة في تصرفات السائح في حالة السياحة البيئية وما قد يحدثه من تلوث فيها، ومن هنا ظهرت علاقة أخرى ولكن بين السياحة والبيئة ككل، وبين مفهوم التنمية المستدامة، حيث تعتبر التنمية المستدامة إحدى وسائل ارتقاء الإنسان، وتنطوي السياحة على إبراز المعالم الجمالية للبيئة، فكلما كانت البيئة نظيفة وصحية ازدهرت السياحة، ولكن بالرغم من الجوانب الإيجابية للسياحة البيئية إلا أنها قد تشكل مصدراً رئيساً من مصادر التلوث في البيئة والتي تكون من صنع الإنسان لذا فإنه لا بد من تحقيق التوازن بين السياحة والبيئة من ناحية وبينها وبين المصالح الاقتصادية والاجتماعية من ناحية أخرى(غفير،٢٠١٨م، ٢١).

مفهوم السياحة البيئية والاستدامة:

إن السياحة البيئية هي عملية تعلم وثقافة وتربية بمكونات البيئة، وبذلك فهي وسيلة لتعريف السياح بالبيئة والانخراط بها، أما السياحة المستدامة فهي الاستغلال الأمثل للمواقع السياحية من حيث دخول السياح بأعداد متوازنة للمواقع السياحية على أن يكونوا على علم مسبق ومعرفة بأهمية المناطق السياحية والتعامل معها بشكل ودي، وذلك للحيلولة دون وقوع الأضرار على الطرفين.

وتلبي السياحة المستدامة احتياجات السياح مثلما تعمل على الحفاظ على المناطق السياحية وزيادة فرص العمل للمجتمع المحلي. وهي تعمل على إدارة كل الموارد المتاحة سواء كانت اقتصادية أو

اجتماعية أو جمالية أو طبيعية في التعامل مع المعطيات التراثية والثقافية، بالإضافة إلى ضرورة المحافظة على التوازن البيئي والتنوع الحيوي.

مفهوم التخطيط السياحي البيئي:

يعد التخطيط السياحي البيئي أحد الآليات المهمة التي يمكن من خلالها تحديد الطرق الوقائية للحد من الإخلال بالبيئة، ويعرف التخطيط السياحي البيئي بأنه التخطيط الذي يعنى بالدرجة الأولى بالبعد البيئي والآثار البيئية المتوقعة من خطط التنمية السياحية على المدى البعيد والقريب (كوسام ٢٠١٧م، :١٥) كما يعرف بأنه التخطيط الذي يتصف بالشمولية والواقعية من حيث معالجة كافة المشاكل البيئية الناجمة عن استغلال وتنمية منطقة ما، ويعنى بالموارد الطبيعية وبالتغيرات التي تؤثر عليها ويهدف إلى تحقيق التوازن بين ثلاث أبعاد هي القضاء على الفقر، وحماية المجتمع وصحة الإنسان وحماية البيئة. كما أنه التخطيط الذي يهتم بالقدرات أو الحمولات البيئية، بحيث لا تتعدى مشروعات التنمية الحد البيئي الحرج، وهو الذي يعتمد بشكل أساسي على تنظيم العلاقة بين الإنسان والبيئة (القريشي ٢٠١٥م، ١٦٢)، وكيفية حصر واستغلال الموارد البيئية بشكل منظم مع مراعاة حقوق الأجيال القادمة وتتبع الآثار السلبية وتحديد المشكلات البيئية.

أهداف التخطيط السياحي البيئي:

هنالك العديد من الأهداف يسعى التخطيط السياحي البيئي إلى تحقيقها ويمكن حصرها في الآتي:

١- الاهتمام بكفاءة استخدام وتقليل الفاقد منها والبحث عن مصادر متجددة.

٢- تحقيق العدالة الدالة الاجتماعية عند توزيع الأعمال والوظائف في مناطق السياحة البيئية.

٣- المحافظة على الموارد الطبيعية بكل عناصرها.

٤- حماية المناطق ذات الوضع الخاص كمناطق التراث التاريخي والمحميات الطبيعية.

٥- تعزيز روح المواطنة والتخفيف من حدة الفقر من خلال دعم وتشجيع الاستثمار.

أسس التخطيط السياحي البيئي:

يعد التخطيط السياحي البيئي من أهم الآليات الفعالة لاستخدام مناطق موارد السياحة البيئية وبدون الإضرار بالبيئة، حيث يسعى للوصول إلى التوازن في تحقيق أهداف التنمية المستدامة مع عدم إحداث أي خلل في النظام البيئي (شوقي، ٢٠١٤م، ٥) ويمكن توضيح أهم أسس التخطيط السياحي البيئي من خلال:

١- **تقييم الأثر البيئي**: وهو مجموعة إجراءات يمكن من خلالها تحديد نوع الاستخدام الأمثل للبيئة ودرجة التأثير المسموح بها للأنشطة الاقتصادية والتنموية وهو يشمل عدة تخصصات تعمل كفريق وحد لتسجيل التغيرات التي تحدث أثناء التنفيذ واقتراح البدائل الملائمة لها، إذ يتم تقييم الأثر البيئي في الحفاظ على البيئة فيما يلي (آسيا، ٢٠١٨م، ٦٩):

أ- مدى ملاءمة موقع المشروع بيئياً وقدرة البيئة على تحمل الآثار السلبية للأنشطة السياحية والتنموية.

ب- تحديد الآثار السلبية على المجتمع من حيث صحة السكان، وعلى معتقداتهم الدينية والثقافية والاجتماعية.

ت- التنبؤ بالمشاكل المتوقع حدوثها نتيجة تنفيذ مشروعات التنمية السياحية والتعامل معها.

تنمية السياحة البيئية المستدامة:

لتحقيق التنمية السياحة البيئية المستدامة، سنورد بعض المبادئ والأنظمة التي لاقت نجاحاً في المواءمة بين رغبات ونشاطات السياح من جهة وحماية الموارد البيئية والاجتماعية والاقتصادية من جهة أخرى، وذلك بهدف تطبيقها وهي:

١. وجود مراكز دخول في المواقع السياحية لتنظيم حركة السياح وتزويدهم بالمعلومات الضرورية.
٢. ضرورة توفر مراكز للزوار تقدم معلومات شاملة عن المواقع، وإعطاء بعض الإرشادات الضرورية حول كيفية التعامل مع الموقع، ويفضل أن يعمل في هذه المراكز السكان المحليون الذين يدربون على إدارة الموقع والتعامل مع المعطيات الطبيعية.
٣. ضرورة وجود قوانين وأنظمة تضمن السيطرة على أعداد السياح الوافدين وتأمينهم بالخدمات والمعلومات وتوفير الأمن والحماية بدون إحداث أي أضرار بالبيئة.
٤. ضرورة وجود إدارة سليمة للموارد الطبيعية والبشرية في المنطقة، يمكنها أن تحافظ على هذه المكتنزات للأجيال القادمة من خلال عناصر بشرية مدربة.
٥. التوعية والتثقيف البيئي من خلال توعية السكان المحليين أولاً بأهمية البيئة والمحافظة عليها، فكثيراً ما نلاحظ أن السكان المحليين هم الذين يسعون إلى تخريب وتدمير بيئتهم لأسباب
٦. مادية، ولكن هؤلاء لا يعرفون أنهم يدمرون قوتهم ومستقبل أولادهم من خلال هذا التخريب، ولذلك يجب التركيز على التوعية والتثقيف البيئي للسكان المحليين وللعاملين في الموقع، مع الحرص على وجود اللوحات الإرشادية التي تؤكد على أهمية ذلك. تحديد القدرة الاستيعابية للمكان السياحي، بحيث يحدد أعداد السياح الوافدين للمنطقة السياحية بدون ازدحام واكتظاظ، حتى لا يؤثر ذلك على البيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة وعلى السياح من جهة أخرى فيرون بيئة جاذبة توفر لهم الخدمات والأنشطة.
٧. دمج السكان المحليين وتوعيتهم وتثقيفهم بيئياً وسياحياً.
٨. توفير مشاريع مدرة للدخل للسكان المحليين، مثل الصناعات الحرفية التقليدية ومرافقة الدواب لنقل السياح وتشجيع الزراعة العضوية فضلا عن العمل كمرشدين سياحيين.
٩. تضافر كل الجهود لنجاح السياحة البيئية من خلال تعاون كل القطاعات ذات العلاقة بالسياحة، مثل القطاع الخاص والحكومي والمؤسسات الرسمية والهيئات غير الحكومية والسكان المحليين.

سياسات تنمية السياحة البيئية:

١- سياسة إعداد وبناء المنتجعات البيئية:

في إطار الواقع المعاصر الذي تحياه دول العالم المختلفة وتنامي التهديد الناجم عن التلوث البيئي، واهتمام العالم بصحة البيئة برز الوعي الشامل بأهمية إقامة المحميات السياحية البيئية وأهمية قيام مشروعات سياحية بيئية متكاملة وذلك لما لها من دور في تحقيق السلامة وحماية الطبيعة ووسيلة فعالة للارتقاء بالسلوك الحضاري وتهذيب السلوك البشري(شاوش، ٢٠١١م، ١١).

سياسة تنمية المنتجعات البيئية:

تحتاج المنتجعات البيئية إلى خاصية التطور والتنمية الصحية البيئية سواء في إطارها العام أو المضمون، إذ يرتبط إنشاءها بعملية التحسين المتواصل من جانبين رئيسين هما:

أ- المحافظة على صورة وشكل الفطرة الطبيعية في المكان الذي تم اختياره لإنشاء المنتجع البيئي.

ب- زيادة فاعلية الآليات البيئية لاستعادة توازن الطبيعة في المكان وجعله أفضل مما هو عليه(عايب ٢٠١٦م، ١٥٩) ، وتتم تنمية المنتجعات البيئية خلال ثلاثة مناهج رئيسة وهي:

- ✓ منهج التطوير الوظيفي
- ✓ منهج التطوير والمضمون للسياحة البيئية

أهداف تنمية السياحة البيئية:

ارتبطت السياحة البيئية بمفهوم التنمية بصورة كبيرة حيث أصبحت تطبق التنمية المستدامة بعناصرها الثلاثة وهي (البيئة، الاقتصاد، المجتمع) إذ أنها تحقق عدداً من الأهداف يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- **الأهداف الاقتصادية:** وتعمل على توفير وظائف جديدة للسكان المحليين في مناطق السياحة البيئية مما يسهم في رفع مستوى دخل الفرد. كما أن الاستخدام الأمثل والرشيد للموارد الطبيعية والبيئية والتنبيه له دور مهم في جذب السياح (عبد الحكيم، ٢٠١٦م، ٢).

ب- **الأهداف البيئية:** تشجيع الإدارة المستدامة لمناطق السياحة البيئية، ورفع مستوى الوعي بأهمية الحياة الفطرية.

ت- **الأهداف الثقافية والاجتماعية:** وتتمثل تنمية الوعي الثقافي لدى السياح بعادات وتقاليد شعوب المناطق السياحية. كما والعمل على إشراك السكان المحليين في اتخاذ القرار المتعلق بعمليات التنمية لتجنب حدوث مقاومة أو معارضة أثناء تنفيذ مشروعات السياحة البيئية. كما والعمل على تنمية العلاقات الاجتماعية ونقل المجتمعات المنعزلة إلى مجتمعات منفتحة ونشر ثقافة المحافظة على البيئة(زعروع، ٢٠١٦م، ٢٠٩).

ث- **الأهداف العمرانية والمعمارية:**

يعتبر استخدام أدوات بناء غير ملوثة للبيئة مع الاستعانة بأنماط تخطيطية تتفق مع طبيعة البيئة المكانية، من الأهداف التي تسعى السياحة البيئية إلى تحقيقها، كما استخدام أساليب وطرق بناء بسيطة لا تسبب تشوهات بصرية وبيئية من أجل الحفاظ على الصورة البصرية للمواقع التراثية والتاريخية.

مقومات السياحة البيئية فى إقليم المحس

المقومات الطبيعية:

لا يمكن أن نتحدث عن مقومات السياحة البيئية دون أن نذكر المقومات الطبيعية في المنطقة، إذ أن هنالك كثير من البلدان والمراكز الحضارية صارت مراكز ثقافية كبرى وذلك لاهتمامها بالسياحة واستعملتها كأداة استثمار في مجال رأس المال الطبيعي، وأولت اهتمام كبير بالريف وما يحويه من مناظر طبيعية،(موفق و نبيل، ٢٠٠٦م، ٢٣) وأن المغريات الطبيعية يجب أن تكون ذات أولوية توجب تقديمها كعامل أساسي من عوامل التنمية، وفى كل بلد سياحي يوجد مزيج فردى مميز من العناصر الطبيعية والجمال الطبيعي (الموقع الجغرافي، المناخ، التضاريس، ....إلخ) ويبقى الاهتمام بسهولة الوصول لهذه المغريات الطبيعية من أهم ما يؤثر على الطلب السياحي، إضافة إلى جمال الطبيعة ومكوناتها ذات الأثر البالغ فى النشاط السياحي.

وتمتلك المنطقة رصيداً كافيا من المقومات الطبيعية بقليل من الاهتمام والتخطيط السليم سوف تكون من أهم المناطق السياحية الجاذبة في السودان مما ينعكس إيجاباً على السكان المحليين، وعلى اقتصاديات البلد بوجه عام. وتتمثل تلك المقومات في الآتي:

الموقع الجغرافي:

تقع منطقة المحس بين خطى العرض ٧٠ ٢٠ ١٨ و ش ٤١ ١٩ ٣٨ شمالا وخطى طول ٩٧ ٣٢ ٣٠ ق و ٣٠ ٢٤ ٠٥ق. وتقع منطقة المحس على ارتفاع ٣٠٠م فوق سطح البحر، على امتداد ٥٥كلم وتبدأ من منطقة أبو فاطمة جنوباً فى الضفة الشرقية لنهر النيل وحتى منطقة سعدن فنتي شمالا في محلية دلقو، وتمتد الضفة الغربية من هنك جنوباً وحتى جبل دوشة شمالاً بالقرب من صلب وبالتحديد فى قرية واوا، وتمتد الضفة الغربية بطول ١٠٠كلم تقريباً.(عبد المجيد، ٢٠٠٨م، ٦٠) ومنطقة المحس تعد موقعاً إستراتيجياً حيث تكون فى منحنى النيل، وهذا ما يتسبب فى وجود عدد من الظواهر الطبيعية الخلابة يمكن حصرها في الآتي:

المناخ:

تعتبر منطقة المحس جزء لا يتجزأ من شمال السودان تدخل فى نطاق الإقليم الصحراوي، ويتميز مناخه بانه حار جاف صيفا وبارد جدا فى الشتاء وتصل درجة الحرارة في هذا الإقليم حتى ٥٠ درجة، وفصل الصيف فيه طويل جداً تصل فيه درجة الحرارة إلى اقصاها، وفي فصل الشتاء تنخفض درجة الحرارة بقدر كبير، ويمتاز المناخ الصحراوي بقلة الأمطار بنسبة في العام تصل إلى أقل من ١٠ ملم (عبد المجيد، ٢٠٠٨م، ٣٦٠)، ويعتبر المناخ واحد من مكونات الطبيعة بالمنطقة يساعد على جذب السياح إذا وضعنا في الاعتبار فصل الشتاء الذى تسهل فيه الحركة بنشاط وحيوية دون سائر الفصول المناخية.

التربة:

تعتبر تربة المنطقة جزء من نطاق صحراوي واسع ممتد من الجنوب إلى الشمال وعلى جانبي نهر النيل إذ تغلب التربة الرملية على المنطقة بجانب سهل على ضفتي النيل يتميز بالتربة الطينية (الصلصال)،

وتتميز البيئة في المنطقة بالطبيعة الصحراوية وهى جزء لا يتجزأ من صحراء النوبة التي تمتد من الشمال إلى الجنوب، ومن النيل تمتد إلى الشرق حتى تلال البحر الأحمر(الجاك وحواية الله، ٢٠١٧م، ١٤)، وتعتبر تربة المنطقة الرملية في أغلب الأحيان لكونها جزء من إقليم صحراوي، من عوامل الجذب السياحي إذا ما تم استغلال ذلك في السياحة الصحراوية في أطراف الإقليم الشرقية والغربية.

التضاريس:

تتميز المنطقة بطبيعة بركانية على ضفتي النيل كما يتضح شكل الطبيعة البركانية على الجزر مثل جزيرة أردوان وجزيرة تمبس وجزيرة جوقل. وتتميز المنطقة بطبيعة صخرية إذ هنالك عدد من التركيبات الصخرية العالية والتي ترتفع فى بعض الأحيان ف شكل جبال وفى بعض الأحيان تتجمع فى شكل تلال صخرية عالية عن السطح الصحراوي المحيط على جانبي النيل مما جعل الارض الزراعية عبارة عن شريط ضيق، وقد ساعدت الطبيعة الصخرية على خلق العديد من الشلالات الصغيرة والجنادل التى تعترض مجرى النيل فى مناطق مختلفة من الإقليم، وقد ادت هذه الجنادل إلى إعاقة الملاحة النهرية عبر المنطقة، لكنها شكلت عنصر جذب سياحي طبيعي تمثل فى منظر المساقط المائية البديع فى منطقة كجبار وتمبس، كما تتميز المنطقة بوجود شبكة من الوديان والخيران على ضفتي النيل عددها حوالي (٢١ وادى). على أن التضاريس الجبلية فى أجزاء من الإقليم لها دور يمكن أن تلعبه كعامل جذب سياحي. إذ تتميز المنطقة بتضاريس جبلية فى معظمها عبارة عن هضاب صخرية متوسطة الارتفاع على جانبي النيل (أنظر خريطة رقم٢) إلا أن المنطقة لا تخلو من الجبال ذات الارتفاع الشديد نسبياً مثل جبل صلب ٢٨٨م، فى أقصى شمال الإقليم ، وجبل علي برسي فى الضفة الغربية جنوب الإقليم بارتفاع ٢٧٧م تقريباً.

الجزروالشلالات:

تتميز المنطقة بعدد من الجزر يبلغ عددها (٨) جزر تقريباً داخل النيل على طول المنطقة، أكبرها جزيرة أردوان وبدين ثم جزيرة سِمت، وهنالك بعض الجزر الرملية غير المأهولة وبمساحات مختلفة تصلح للاستثمار السياحى، كما أن هنالك جزر تتميز بغطاء نباتى وأنواع مختلفة من النباتات والأشجار، وبيئة الجزر تتميز بضفاف رملية غاية فى الروعة.

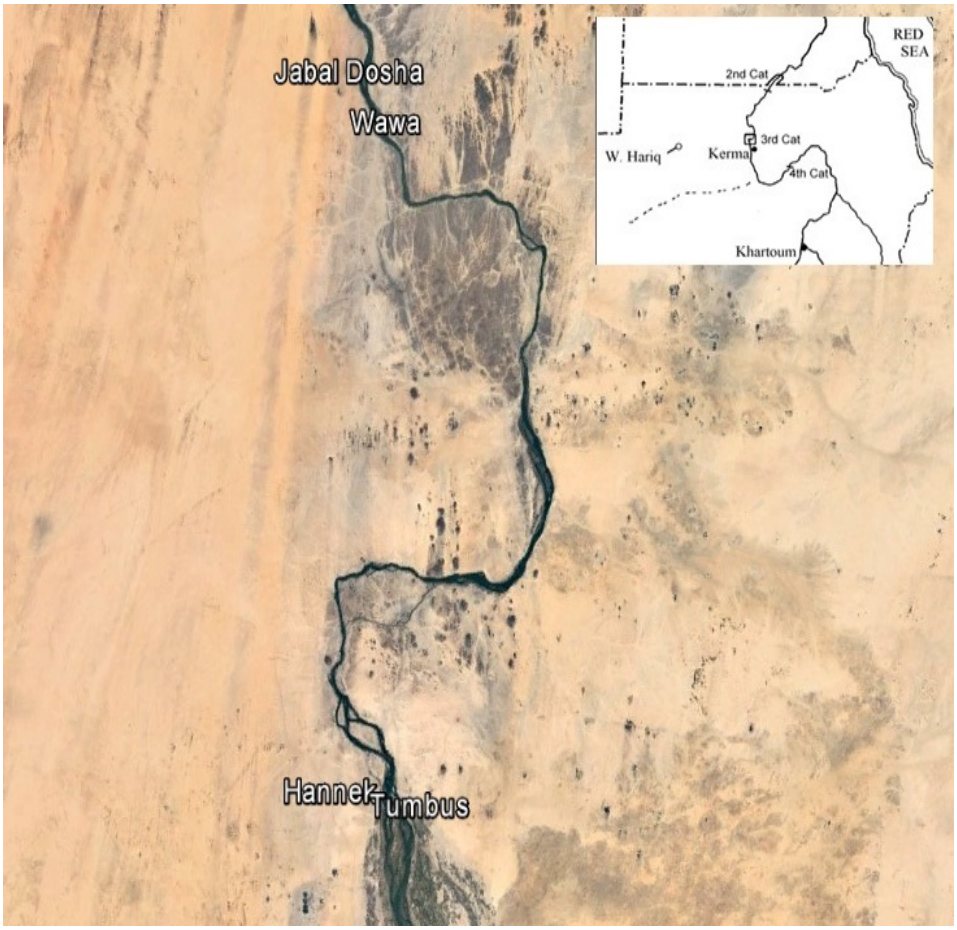

مظهر الأرض فى منطقة المحس، عن: بشير ٢٠٢٠م

الغطاء النباتي:

تتميز المنطقة بنباتات المناخ الصحراوي، التى لها القدرة على معايشة الوضع المناخي الصحراوي، إذ أن قلة الأمطار تتسبب فى نموء بعض النباتات ذات العمر القصير، كما أن هنالك الاشجار الشوكية التي تعتمد على طول جزورها فى عمق التربة وتعتمد على درجة الرطوبة للبقاء، وهنالك بعض الشجيرات القصيرة التي تقاوم الجفاف، والقليل من أشجار السرح، ويعتبر النخيل جزءاً مهما من الغطاء النباتي(أنظر صورة رقم) وهى أشجار تنمو على جانبي النيل وفى الواحات، وهى من الظواهر الطبيعية المميزة للمنطقة بكثافتها، وذات منفعة لإنسان المنطقة بإنتاجها من ثمار التمر بأنواع مختلفة، وتدخل أجزاء النخيل بغير الثمار فى كثير من الصناعات والحرف التقليدية .كذلك بالمنطقة شجر السنط والهشاب والكتر والطلح ونبات الحرجل الذى ينمو فى الوديان، ومن نباتات النهر الطرفة والسيسبان.

الغطاء النباتي في المنطقة، الباحث

الحياة البرية:

تشير السجلات الاثارية بشكل واضح عن البيئة السائدة قديماً فى المنطقة بحيث أظهرت الرسومات الصخرية فى منطقة سبو وجدي وفى بعض الأودية فى المنطقة عن عدد من اللوحات الصخرية حيث أظهرت عن دلائل لنوعية المناخ الذي كان سائداً فى عصور ما قبل التاريخ فى المنطقة حيث كان يسود مناخ السافنا والذي عكسته الحيوانات المصورة فى تلك المناطق، مثل الفيل والزراف والغزال ووحيد القرن، وغيرها من الحيوانات (صادق وطاهر، ٢٠١٤م، ٣٩). وتشكل الحياة البرية واحداً من العناصر المهمة كعامل جذب طبيعي فى الإقليم. ومن الحيوانات التي تعيش في بيئة المنطقة حيث يوجد الغزال فى الوديان المحيطة بالمنطقة، كذلك ثعلب الرمال (والضبع المخطط والبعشوم والأرنب الخلوي (الجاك وحواية الله، ١٥) ويشكل الغزال جزء من مكونات الحياة البرية فى المنطقة تضاءل وجوده بصورة كبيرة نتيجة للصيد الجائر وتدمير بيئة الأودية بسبب التعدين التقليدي. كما تشير مسوحات الإدارة العامة للحياة البرية فى الفترة من٢٠٠٨م- ٢٠١٣م وينتشر الغزال بصورة كبيرة فى الوديان وقرب الشريط النيلي. ويعتبر التمساح النيلي من الكائنات التي توجد فى المنطقة، حيث يوجد فى الجزر، وهنالك السحالي والضب الصحراوي (أنظر صورة رقم) وهى تحتاج لمزيد من التصنيف، كما توجد السلحفاة البرية وتعتبر من الأنواع التي تحتاج إلى دراسة وحماية من الصيد والتهريب.(نفس المرجع ،١١-١٤) وفيما يختص بالطيور فى المنطقة كجزء من مكونات الحياة البرية، فإن بيئة الجزر والشلالات تعتبر من الأراضي التي تعرف برطوبتها مما يجعلها بيئة ملائمة للطيور(أنظر صورة رقم) وبيئة جاذبة للطيور المهاجرة، وهنالك البط والأوز، وطير البقر، إضافة للقطا المرغوب من قبل هواة القنص، وتعتبر منطقة الشلال جزء من منطقة تقع على واحد من أهم طرق هجرة الطيور الأوروبية الاسيوية الأفريقية (نفس المرجع ،ص:١٤).

طائر بري، وادي سبو، الباحث ضب صحراوي، وادي سبو، الباحث

المقومات التاريخية والحضارية

أهم مو اقع الأثار بالضفة الشرقية:

قبة أبو فاطمة:

تقع هذه القبة فى منطقة أشكان - الحد الجنوبي لإقليم المحس - وقد بنيت فى موقع يرجع للفترة المسيحية، ويحمل كثير من الملامح المميزة للفترة المسيحية، كما وجدت فى المنطقة التى بنيت فيها القبة حجر عليه كتابة باللغة الهيروغليفية، وتم العثور فى الغرفة الشرقية التى بنيت عليها القبة على نص مكتوب باللغة العربية على قطعة دائرية من القرع عليها عبارة (لا إله إلا)

تمبس:

تقع تمبس على بعد ٢٠٠كلم جنوب وادى حلفا وعلى بعد ١٠٠كلم تقريباً شمال مدينة دنقلا، وهي المنطقة التي قام الفرعون تحتمس الأول بتحصينها بعد أن غزا النوبة العليا، وأقام فيها المحطة الحدودية للإمبراطورية المصرية خلال المملكة المصرية الحديثة (بيكي، ١٩٩٤م، :٢٤٨) وقد وصلتها جيوش المملكة المصرية الحديثة عندما تقدم أمنحتب الأول (ابن تحتمس الأول) (حسن، ٢٠٠٠م، ٢٣٣).وهنالك عدد من النقوش عددها(٨) موزعة على ثلاثة مجموعات وهى عبارة عن نقوش باللغة المصرية القديمة، أهمها نقش كبير يرجع للعام الثاني من حكم الفرعون تحتمس الأول ١٥٣٧ق.م وقد نقش على صخر فى مقابل جزيرة تمبس ويتحدث فيه الفرعون عن حملة قام بها لمد حدوده الجنوبية، وتضم منطقة تمبس وجود مستعمرة مصرية بعد سقوط مملكة كرمة، وبها عدد من المدافن المصرية، ومن بين اثار تمبس ما يعرف بتمثال (أوقجنوندى) وهو تمثال من الجرانيت يوجد فى أتجاه الشمال الشرقي من القرية، وربما يرجع تاريخه إلى عهد الأسرة (٢٥) ومن بين النقوش الـ(٨) التى ذكرناها سابقاً هنالك نقش للملك أمنحتب الثالث، يوضح انتصاره على الكوشيين.

قبة أبوفاطمة ، الباحث

نقش الملك تحتمس الأول، تمبس، الباحث

كنيسة خور مسيدة:

تقع فى نهاية وادى فرجا الذى يبدأ من شرق سمت، وهى كنيسة مكتملة البناء مبنية من الطوب اللبن ويمر بجانبها خور مسيدة والذى توجد به عدد من الرسوم الصخرية متعددة الاشكال وتحمل دلالات على نمط الحياة فى ذلك الزمان، وهى رسوم لإنسان يحمل رمحاً، ورسم فيل، وأسد، وتحيط بالمنطقة تلال صخرية على ارتفاعات متوسطة ،على أن تربة المنطقة رملية مما يكسبها عامل جزب سياحي.

كنيسة مسيدة، الباحث

قلعة أليكى، الباحث

قلعة ألّيكى:

تقع على هضبة غرب قرية ألّيكى، وهى قلعة مبنية من الحجر على مرتفعين من الهضبة ومحاطة بسور ، وتضم المنطقة موقع استيطان لمجتمع مسيحي .وإلى الشمال من قلعة ألّيكي عبر الخور توجد كنيسة كبيرة فى قرية دفي نوق، وبالقرب منها ثلاثة مباني يبدو أنها خصصت لرجال الكنيسة، وقد بنيت بطراز جميل من الحجر والطوب اللبن .على أن منطقتي ألّيكي ودفي نوق تعتبر من القرى المحصنة والمستوطنات المسيحية الكبيرة فى منطقة المحس.

مدينة نوري:

على سطح جبل نوري والمنطقة أسفل الجبل تقع عدد من المباني الاثارية إذ توجد قلعة نورى أعلى الجبل الغربي- أو جبل عيسى كما يسميه السكان المحليين- وهى مبنية من الحجر وترجع إلى فترة المملكة المصرية الحديثة وبها أربعة أبراج تتدرج من أسفل الجهة الشرقية إلى أعلى، كما توجد اعلى الجبل مستوطنة بنيت بعد قطع مساحة أعلى الجبل وتم استواءها وبنيت عليها عدد من المباني والغرف وتتميز بشكل القبو من أعلى وهو طراز بناء عرف فى الفترة المسيحية. كما تضم المنطقة أسفل الجبل الغربي قرية جير، وهي من القرى القديمة هجرها أهلها فى الستينيات، وعلى بعد ١١٠م يوجد جبل نوري الشرقي وهو الجبل التوأم للجبل الغربي، وبه نقش للملك المصري سيتي من الأسرة المصرية الـ ١٩، وهو نقش يحمل توضيح ضم حامية نوري. وتعتبر منطقة نوري من أجمل المناطق السياحية فى منطقة المحس لما تتميز به من عناصر جذب سياحي متمثل فى الارث المادي، والعناصر الطبيعة حول المنطقة (النيل، الجبال، الغطاء النباتي).

قرية نورى، الباحث

قرية جير، الباحث

الجبل الشرقي، قرية نوري، الباحث

موقع الرسوم الصخرية فى (سبو ـ جدى):

ومن المعالم البارزة التى تميزها منطقة المضيق أو (كيدن تكار) بالنوبية، والمنطقة عبارة عن هضبة صخرية متوسطة الارتفاع ويقسمها وادي سبو إلى قسمين وتضم عدد مقدر من الرسوم الصخرية يفوق الـ ٣٠٠٠ رسم موزع على الصخور فى المنطقة كأكبر مجمع رسوم صخرية فى السودان، على أن لتلك الرسوم الصخرية دلالات رمزية، إذ تعبر عن ملامح التاريخ الثقافي للسودان القديم وترجع تلك الرسوم إلى فترات ما قبل التاريخ (المجموعات النوبية وكرمة)، كذلك الفترة الفرعونية والفترة المسيحية والإسلامية. وقد احتوت تلك المنطقة على العديد من رسوم الحيوانات (زراف، غزال، أبقار، حمار، إبل، ماعز، كلاب، طيور) وتعتبر رسوم الحيوانات ذات دلالة رمزية على نوع المناخ الذي كان يسود المنطقة فى ذلك الزمان، كذلك ربما تدل على الأوضاع الاقتصادية والمعيشية للإنسان فى المنطقة فى ذلك الزمان. كذلك تحمل دلالات رمزية على الممارسات اليومية التى كان يمارسها الإنسان فى ذلك الزمان مثل حرفة الصيد، كذلك توجد فى الأودية الفرعية فى المنطقة عدد من الرسوم الصخرية لمقاتلين يتسلحون بأدوات الحرب التقليدية والمعروفة منذ القدم (عصا، سيف، درقة، سهام).

نماذج رسوم صخرية من منطقة سبو، الباحث

جبل وهابة:

يقع جبل وهابة عند مدخل منطقة المحس، وهو عبارة عن قمة يبلغ ارتفاعها حوالي ٤٠٠ قدم تقريباً، ويضم الجبل فى أعلى قمته مباني دفاعية، يرجع تاريخها إلى الفترة المسيحية المتأخرة، ربما تم بناء تلك التحصينات بواسطة ملوك مملكة المقرة المسيحية ورؤساء إداراتهم فى المنطقة، وذلك لصد هجمات المماليك المتكررة على المنطقة ،ولجعل منطقة جبل وهابة منطقة دفاع رئيسية ،كما أن أعلى قمته توجد عدد من الغرف ربما كانت ثكنات عسكرية (عبدالمجيد٢ ،٢٠٠٢م،٩٠)

حصن جبل وهابة، الباحث

أهم مو اقع الضفة الغربية:

حصن تنرى:

أخر موقع أثاري فى منطقة المحس من اتجاه الشمال عند قرية تنري، حيث يوجد حصن ضخم جداً وبه عدد ٥ أبراج مبنية من الحجر والطوب اللبن، وتوجد بالموقع مباني إسطبلات الحصين، ويرجع بناء الحصن إلى الفترة المسيحية، وتم استخدامه لأغراض عسكرية، والسيطرة على النيل كذلك لمراقبة التجارة واستخدم كمسكن فى فترات زمانية مختلفة (سعيد، ٢٠٠٥م، ١٣٩) ويقول عنه الرحالة إيليا شلبى١٦٧٢م: (فيها قلعة مبنية وهى تقترب أكثر من الضفة الغربية وتفتح إلى الشرق، وفوق بوابتها أسد، وبالقلعة مسجدان، ومقهى وسبعة متاجر لبيع البوظة، وتحت إمرة زعيمها ٨٠٠رجل، وسكانها يدينون بالمسيحية)(محمد صالح ٢٠٠٨م، ٢٢).

معبد صُلب:

يقع على الضفة الغربية لنهر النيل على بعد ١٢ ميل جنوب صادنقا، ويعتبر من أجمل المعابد التى بنيت فى بلاد النوبة، وقد بناه الملك أمنحتب الثالث ١٤٠٥ ق.م-١٣١٧ ق.م، وقد تم بناءه من الحجر الرملي فى العام ١٤٠٠ق.م (مهران،١٩٨٧ م ،ص:٢٨٧)، وقد كرس أمنحتب الثالث معبد صلب لنفسه وصورته الحية بجانب الإله أمون رع ، وبه عدد كبير من الأعمدة موزعة فى فناءه يفوق عددها ال٦٠ عموداً (بيكي، ٢٤٦)، وقد زُيّن المعبد بتماثيل سباع ضخمة وصقور وحيوانات أخرى مقدسة كانت تعبد فى المنطقة وقد نقل بعضها إلى جبل البركل.

البرج الشمإلى الغربى، قلعة تنرى، الباحث

بوابة معبد صلب، الباحث

سيسبى :

تقع جنوبي صلب، على الضفة الغربية للنيل مقابل مدينة دلقو، وقد شيد فيها أمنحتب الرابع (أخناتون) معابد وكون فيها نواة مدينة صغيرة مسورة تحتوي على مزار ديني للإله الجديد أتون

معبد بيربي، الباحث

جبل سيسبي، الباحث

قلعة شوفين:

من المباني الضخمة فى المنطقة، ويقع على منحدر صخري باتجاه النيل، بين قرية دفوى وكسكونجة، فى مقابل جبل نورى بالضفة الأخرى لنهر النيل ، المبنى شبه مكتمل به عدد من الأبراج والحوائط الضخمة التى يبلغ ارتفاعها فى بعض الأحيان ما بين ٥-٦ أمتار، ويبلغ عرض وسمك الحوائط في حدود ٤-٥ أمتار، ومبنية من الحجر. ونسبة لوقوعها بمحازاة النيل فإن الغرض منها ربما كان السيطرة على الطريق النيلي فى مواجهة أي هجوم على المنطقة، كما أنها ربما تعتبر مركز لمراقبة التجارة فى الفترة المسيحية.

قلعة مراكول:

تقع بين قريتى جوقل ومراكول والمبنى عبارة عن قلعة ضخمة على منحدر صخري على النيل وتفتح تجاه الشرق وبها عدد ٥ أبراج سمك الجدران مابين٣ ـ ٤ أمتار، ولميزة الموقع المطل على النيل فربما كان الغرض من بناءها مراقبة التجارة والسيطرة على الطريق النيلي والاستخدام العسكري والدفاعي ضد أي هجوم ،ويرجع تاريخ المبنى إلى الفترة المسيحية

حصن مراكول، الباحث

حصن شوفين، عن: على عثمان،٢٠١٥م

العمارة فى منطقة المحس

تعتبر العمارة واحدة من المقومات السياحة البيئية متمثلة في العمارة التقليدية(سكنية، دينية، دفاعية) كعنصر سياحي جاذب، وفى كثير من الأحيان يعتبر المعمار بكل أشكاله طلباً سياحيا وأحد المغريات بالنسبة للسياح سوى أن كان للسياحة الداخلية أو الخارجية.

العمارة العسكرية:

نشير إلى أن منطقة المحس تعتبر من أقدم المناطق التي شهدت استقرار واستيطان الإنسان، كما ومن أقدم المناطق التي شهدت معرفة الإنسان بأنماط العمارة بكافة أنواعها، وقد عثر على العديد من الأدلة لأشكال المباني فى المنطقة (هونقر، ٢٠٠٦م، ١٢). وقد عرفت فى المنطقة العديد من أشكال المباني الدفاعية والتحصينات كنمط من أنماط العمارة، وقد تم تسجيل عدد ٢٠ موقعاً بالضفة الغربية و١٢ موقعاً بالضفة الشرقية، عبارة عن تحصينات ومباني دفاعية ترجع إلى الفترة المسيحية. (عبد المجيد، :٢٦٣). وفى فترات لاحقة للفترة المسيحية خاصة فى فترة أنتشار المد العثماني في المنطقة حيث عرف نمط من البناء يعرف عند السكان المحليين بالدفي(البيت الحصن) وقد تعددت وظائف هذا النمط المعماري، وقد أستخدم كحصن، وتارة مسكن للزعماء من أهل المنطقة.

الدفيّ (البيت الحصن) قرية سعدنفنتي، الباحث

العمارة الدينية:

وجدت بالمنطقة العديد من المباني الدينية فى المنطقة ترجع إلى فترات تاريخية مختلفة، مثل المعابد التي ترجع إلى فترة الممالك المصرية وقد تحدثنا عنها فى موضع سابق، وفى فترة العصور الوسطى (المسيحية والاسلامية) شهدت المنطقة قيام أنماط جديدة من المعمار عرف بالمعمار الديني وتمثل في بناء الكنائس وهى دور للعبادة فى تلك الفترة، حيث تم تسجيل عدد (١٢) كنيسة بمنطقة المحس بالضفة الغربية، و(٢) فى الضفة الشرقية، و(٥) داخل الجزر (عبد المجيد، ٢٦٥).

العمارة السكنية (البيت التقليدي):

تميزت المنطقة بمزايا متنوعة فيما يختص بالعمارة السكنية وأنماطها ومواد بنائها منذ أقدم العصور حيث تم الكشف عن أول المساكن فى عصور ما قبل التاريخ أما البيت التقليدي فى العصر الحالي فقد حتمت عوامل المناخ الصحراوي أن ينتهج الإنسان نمط معين ونظام هندسي ونوعية مواد بناء تتلاءم مع المناخ الحار جداً فى المنطقة خاصة فصل الصيف. فقد عرفت مواد البناء المتمثلة فى الطين بعد أن يتم عجنه وتخميره لعدة أيام ، ويتم البناء فى شكل (سريقة) وقد بنيت جدران المنازل والغرف بارتفاع عالي نسبياً حتى يسمح بمرور أكبر سعة من تيار الهواء .ويكون السقف من سيقان أشجار الدوم والنخيل وجريد النخيل وبعض الأعشاب، ولا يوضع السقف على جدران الغرف بصورة مباشرة، إذ توضع قطع من الحجارة (حجر رملي أو جرانيت) ومن ثم يوضع عليها أجزاء السقف بحيث تكون هنالك مسافة مبين الجدار والسقف تقدر بـ٣٠ سم تسمح بدخول الهواء والضوء، وحتى يكون السقف بمأمن من حشرة الارضة التي تكثر فى المنطقة. واستخدمت الزخارف والتلوين في البناء وتزيين البيوت بفتحات في شكل مثلثات سوا أن كان أعلي الجدران أو في مواضع أخرى من الجدران، كذلك يستخدم نظام الأقواس في البناء وذلك للتقوية. البيت التقليدي فى المنطقة دائماً ما يكون فى

أتجاه شمال جنوب ولديه مدخلان فى الغالب، ويتميز المدخل الرئيس بنمط معين من البناء والزخارف) وفى الغالب يكون الباب من خشب السنط أو الدوم، ويعرف فى اللغة النوبية ب(كوبيد) وله قفل يعرف بالدقل (ومفتاحه يعرف بالكشر).

معوقات السياحة البيئية في المنطقة:

تعتبر منطقة الشلال الثالث من أكثر المناطق فى الولاية الشمالية وفى السودان ككل لا تتوفر فيها وسائل النقل الداخلي التي تسهل حركة التواصل بين المواقع المختلفة فى الإقليم، إذا وضعنا فى الاعتبار أن منطقة الدراسة تشتمل على جواذب سياحية بالضفتين الشرقية والغربية لنهر النيل وتمتد بطول ١٠٠ كلم من الشمال إلى الجنوب. كذلك عدم وجود الطرق المعبدة فى المنطقة مما يشكل عائق أمام حركة السياح الوافدين إلى المنطقة. كما إن صعوبة التنقل بين الضفتين للنهر لضعف الإمكانيات فى هذا الجانب وعدم وجود كبرى يربط بين الضفتين، وعدم الاهتمام بالصناعات التقليدية التي تساهم فى الدفع بالعملية السياحية، بالإضافة إلى النقص الكبير فى دور الإيواء وخدمات المياه فى المواقع السياحية وخدمات الصرف الصحي والتسوق(عبد القادر، ٢١٠٢) كما أن المنطقة تفتقر لمرافق الخدمات الصحية إذ أن الوفرة فى هذه المرافق من شأنها أن تساهم فى تطوير النشاط السياحي والإقبال على المنطقة. ويعتبر انخفاض مستوى الإيواء السياحي من أكبر المعوقات إذ أن توفير خدمات الإيواء شيء ضروري للسائح وبدونها لا تكتمل متعة السياحة ولا تحقق فائدة للمكان السياحي وقد يجعل الزيارة تجربة لا تتكرر ولا تشجع الأخرين على المجيء مستقبلاً، فالتجربة السياحية عادة تحكى للأخرين من المعارف والأصدقاء وبقدر الأثر العاطفي والنفسي تكون المبالغة فى الوصف، سلباً أو إيجاباً. وأن أول ما يفكر فيه السائح بعد جاذبية المكان وقبل التحرك نحوه هو توفير السكن وخاصة لدى السياح الذين يأتون بغرض الراحة والاستجمام. كما عماد الخصائص التي تجذب السياح هي الأمن والاستقرار فكثير من دول الشمال الكوني تحزر ابناءها ومواطنها فى وسائل الإعلام وغيرها من السفر إلى دولة بعينها لعدم استتباب الأمن فيها وعليه فإن تطور السياحة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور خدمات الإيواء السياحي بمختلف أنواعه واستقرار الأمن.

نماذج مختلفة لأشكال البوابات التقليدية للمنازل في منطقة المحس، وتظهر الزخارف. الباحث

نتائج الدراسة:

توصلت الدراسة إلي أن هنالك مقومات سياحية متنوعة ذات قيمة حضارية وتاريخية مما يعزز تلك القيم إن معظمها عبارة عن مزيج سياحي تتنوع فيه الظروف الجغرافية والطبيعية والعناصر البيئية يمكن استغلالها لخلق سياحة بيئية مستدامة بقليل من الجهد يمكن أن تحقق الفائدة للمجتمع المحلي والدولة، كما توصلت الدراسة إلي أن هنالك قصوراً فيما يختص بالبنية التحتية للسياحة البيئية مثل دور الإيواء، وتفتقد المواقع السياحية لأهم معايير السياحة العالمية ليكون المنتج السياحي ذا قيمة سياحية أو موقعا سياحياً جاذباً، وهو (أن يحقق الموقع المنافع القصوى للمجتمعات المحلية والزوار والثقافة والحد من الآثار البيئية). وأن هنالك عدد من عناصر الجذب الطبيعية متمثلة في الشلالات والجزر وشواطئ النيل وهي تمثل رصيد من عناصر الجذب السياحي ذات جمال طبيعي استثنائي.

المصادروالمراجع:

١. بيكى، جيمس، ١٩٩٤م. الآثار المصرية فى السودان (من فيلة للخرطوم)، ترجمة نصر الدين الرازي، الجزء الخامس.

٢. الجاك، عبد الحافظ عثمان، وحافظ حواية الله ٢٠١٧م، الحياة البرية في الولاية الشمالية، وسبل تطورها ورقة مقدمة بمناسبة اليوم العالمي للطبيب البيطري، الولاية الشمالية، مروي

٣. حسن، سليم، ٢٠٠٠م. مصر القديمة، الجزء الرابع، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

٤. حسن، سليم، ٢٠٠٠م، مصر القديمة، الجزء الخامس، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

٥. الخضيري، محسن أحمد، ٢٠٠٥م، السياحة البيئية، ط١، مجموعة النيل العربية، القاهرة.

٦. رجب، إسراء موفق، ٢٠٢١م. السياحة البيئية: مفهومها، أنواعها وأسس تنميتها، مكة.

٧. رحيم حسين وإبراهيم شاويش توفيق، ٢٠١١م، السياحة البيئية في المناطق الجبلية، الملتقى الوطني الجزائري حول السياحة البيئية.

٨. الرميدي، بسام وطلحي، وفاطمة الزهراء ،٢٠١٨م " التخطيط المستدام كمدخل لتحقيق التنمية السياحية المستدامة رؤية مصر"، مجلة اقتصاديات المال والأعمال، القاهرة. ص ص ٢٦٠-٢٦٨

٩. رواشدة، أكرم عاطف، ٢٠٠٨م. السياحة البيئية كأسس ومرتكزات، ط١، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان.
١٠.الرياضية، زياد عيد ،٢٠١٣م. السياحة البيئية: المفاهيم والأسس والمقومات، دار زمزم للطباعة والنشر، عمان، الأردن.
١١.زعروع، نعيمة، ٢٠١٦م، "البعد البيئي كعامل لتحقيق التنمية السياحية المستدامة"، مجلة رماح للبحوث والدراسات، الأردن. ٢٠٩-٢١٣
١٢.زكريا، آسيا، ٢٠١٨م، "تقييم الآثار البيئية لمشاريع حماية البيئة الحضرية"، مجلة تشريعات التعمير والبناء العدد ٢، جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر.٥٤- ٧٢
١٣.سعيد، عبد الرحمن إبراهيم، ٢٠٠٥م. الآثار العثمانية فى منطقة المحس ١٥٨٤م- ١٨٢١م، رسالة ماجستير، قسم الاثار، جامعة الخرطوم.
١٤.شراف، إبراهيمي، ٢٠١٧م، أثر الإدارة البيئية على كفاءة المشاريع الصناعية، دراسة حالة مؤسسة الأسمنت ومشتقاته بالشلف، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية العلوم الاقتصادية، جامعة محمد بن خضير، الجزائر.
١٥.شوقي، محمد، ٢٠١٤م كيفية أساليب التخطيط البيئي في المدن العربية من خلال تطبيق وتحليل التجارب العالمية، مؤتمر الإسكان العربي الثالث، الأردن. ٣-٥
١٦.صادق، أزهري، ويحيى طاهر، ٢٠١٤م. طبيعة جدران الأودية فى منطقة المحس في السودان، دراسة تحليلية مقارنة، مجلة أودوماتو، ص.ص:٣٩-٥٠
١٧.الطحلاوي، محمد رجائي، ٢٠١١م، "العلاقة بين البيئة والتنمية " مجلة أسيوط للدراسات البيئية، العدد الخامس والثلاثون. القاهرة. ص.ص ١٠٣- ١١١
١٨.العاني، وعد مجيد،٢٠٠٩م، فن سياسة المخيمات، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان.
١٩.عبد الحكيم وعبير مندور، ٢٠١٦م، "السياحة البيئية ودورها في تحقيق التنمية السياحية المستدامة"، المجلة العلمية للاقتصاد والتجارة، مصر. ٣٨٣-٤٠٣
٢٠.عبد القادر، علوية حسن ،٢٠١٨م. السياحة فى السودان، المقومات، والمعوقات، والمعالجات، شبكة المؤتمرات العربية، المؤتمر العلمي التاسع، تركيا
٢١.عبد المجيد، محمد أحمد ،٢٠٠٢م. تحصينات العصر الوسيط فى منطقة المحس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وادي النيل.
٢٢.عبد المجيد، محمد أحمد، ٢٠٠٨م. "سمات العمارة فى منطقة المحس فى السودان"، مجلة اثار الوطن العربي، المجلد(١١) العدد (١١) ٣٥٩- ٣٧٧
٢٣.عبودي، زيد منير سلمان، ٢٠٠٨م. السياحة في الوطن العربي (دراسة لأهم المواقع السياحية العربية)، ط١، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان.

٢٤.غرابية، خليفة مصطفى، ٢٠٠٧م. الجغرافية السياحية في العراق، الواقع والآفاق المستقبلية، دار ناشري للنشر الإلكتروني. العراق.
٢٥.الغيثي، علي غفير، ٢٠٠٧م. السياحة البيئية وأثرها على التنمية بمنطقة رأس الهلال بالجبل الأخضر، المؤتمر الخاص بقسم الجغرافية.
٢٦.القريشي، علي، ٢٠١٤م "جدوى التخطيط البيئي على تخطيط الموارد الاقتصادية في العراق"، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد ١٣، العراق. ص.ص١٦٢-١٨٢
٢٧.كفافي، مصطفى يوسف، ٢٠٠٩م. صناعة السياحة والأمن السياحي، ط١، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
٢٨.كفافي، مصطفى يوسف، ٢٠١١م. السياحة البيئية المستدامة (تحدياتها وأفاقها المستقبلية)، ط١، مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
٢٩.كوسام، أمينة، ٢٠١٧م، "التخطيط للسياحة البيئية كآلية لحماية البيئة وتخطيط التنمية المستدامة"، مجلة جيل حقوق الإنسان، مركز جيل للبحث العلمي، الجزائر.
٣٠.محمد صالح، على عثمان، ٢٠٠٨م. "دور الرحالة العرب والمسلمين في الاكتشافات الأثرية في السودان، رحلة إيليا شلبي إلى إقليم المحس١٦٧٠م-١٦٧١م"، مجلة الدراسات الإنسانية، جامعة دنقلا، العدد(١)
٣١.مهران، محمد بيومي، ١٩٨٧م. تاريخ السودان القديم، الجزء الـ(١٣)،
٣٢.موفق وآخرون، ٢٠٠٦م. الجغرافية السياحية فى القرن الحادي والعشرون، عمان
٣٣.هونيقر، ماثيو، ٢٠٠٦م، دراسات ما قبل تاريخية حول أصول كرمة من المجتمعات المدنية الأولى، إلى مملكة النوبة، مطبوعات المركز الثقافي الفرنسي، الخرطوم

آراءُ أبي الفِداء الأيوبي في أصولِ النحوِ من خِلالِ كتابهِ: الكناش في فني النحو والصَّرفِ (دراسة وصفية تحليلية)

د. حمزة آدم يوسف حسن(•)

أ. سارة النور عبد الله عوض الباري

المستخلص:

تناول هذا البحث آراء أبي الفداء الأيوبي (ت٧٣٢هـ) في أصول النَّحو من خلال كتابه الكناش في فني النَّحو والصَّرف، هدف إلى التعرُّف على آرائه في هذه الأصول وبيان الأدلة والشواهد التي ارتكز عليها في اختياراته وترجيحاته، تنبع أهمية هذا البحث من كونه تعرض لدراسة كتاب الكناش الذي يعد واحداً من أهم الكتب النحوية والصرفية، وأن مؤلفه كان من أبرز النحاة الذين اهتموا بأصول النحو، تتمثل مشكلة البحث في تحديد آراء أبي الفداء الأيوبي في أصول النحو من خلال كتابه الكناش في فني النحو والصرف ، اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وقد تمَّ التوصُّل إلى عدد من النتائج، منها: اعتمد أبو الفداء في تقعيده وتأصيله للنَّحو على السماع والقياس والتعليل، بيَّن البحث أهمية القياس والتعليل في ترسيخ القاعدة النَّحوية، إذ أنه لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة النَّحو، استخدم أبو الفداء الشاهد بمختلف ألوانه، ولكنه أكثر بصورة خاصة من الشواهد القرآنية؛ لأنَّه كان حافظاً للقرآن الكريم، كشف البحث عن مكانة كتاب الكناش بوصفه واحداً من المراجع النَّحوية التي ضمت في دفاتها شواهد ونصوص قيّمة، حيث أعمل فيها مؤلفه فكره ونظره ووجّهه أحسن التوجيه، أكَّد البحث تأثُّر أبي الفداء بالبصريين في عرض ومناقشة القضايا، فقد وافقهم في أغلبها إلَّا أنّ ذلك لم يمنعه من تأييد الكوفيين في بعض المسائل التي ناقشها البحث.

الكلمات المفتاحية: آراء - أبو الفداء - أصول النَّحو - الكناش

المقدمة

الحمدُ لله الذي أنزل الكتاب بلسانٍ عربيّ مبين، على أفصح العرب وخير الخلق أجمعين، سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطيبين وأصحابه الغُرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أمّا بعد:

فقد توالت جهود العلماء في خدمة العربية وضبط قواعدها وحفظ أصولها كابراً عن كابر، باعتبارها لغة القرآن ولسان الوحي، وكان من هؤلاء النفر، أبو الفداء الأيوبي (ت ٧٣٢هـ) الذي ألَّف كتابه الكناش في فني النَّحو والصَّرف وبلغ فيه من الاجتهاد في جمع قواعد العربية مبلغاً عظيماً، فجاء هذا البحث الموسوم بـ: (آراء أبي الفداء في أصول النَّحو من خلال كتابه (الكناش في فني النَّحو والصَّرف)، لإبراز هذه الجهود وإماطة اللثام عن هذا السِفر المتفرّد.

(•) جامعة كردفان، كلية التربية، قسم اللغة العربية

(*) باحث بقسم اللغة العربية

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى الآتي:

١ – التعرُّف على آراء أبي الفداء في أصول النَّحو من خلال كتابه (الكناش في فني النَّحو والصَّرف) وهي: السماع والقياس والتعليل.

٢ – إبراز قيمة ومكانة هذا الكتاب في الدرس النَّحوي.

٣ – الكشف عن شخصية أبي الفداء بوصفه واحداً من العلماء الأفذاذ والمتمكنين في اللُّغة العربية.

٤ – بيان الأصول الفكرية التي ارتكز عليها أبو الفداء في تأليف كتابه (الكناش في فني النَّحو والصَّرف).

أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في أنّه يدرس كتاب الكناش في فني النَّحو الصَّرف خاصةً وأنَّ أبا الفداء كان واحداً من بين النحاة الذين ولعوا واهتموا بأصول النَّحو؛ نظراً لأهمية هذه الأصول في معرفة القواعد التي وضعها النحاة الأوائل.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في تحديد آراء أبي الفداء الأيوبي في أصول النحو من خلال كتابه الكناش في فني النحو والصرف.

منهج البحث

اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بتتبُّع آراء أبي الفداء، حسب ورودها في الكتاب، ودراستها استناداً إلى أقوال العلماء ومن ثمَّ التعرُّف على رأي أبي الفداء في كلّ مسألة دون الخوض في موافقاته أو مخالفاته لهذه الآراء، لأنَّ الهدف من البحث هو بيان آراء أبي الفداء في أصول النَّحو العربي، وكيفية ترجيحه أو اختياره للرأي الذي يراه صحيحاً.

الدراسات السابقة

هنالك بعض الدراسات التي تناولت كتاب الكناش، ولكنها تختلف عن هذه الدراسة، منها:

١ – الآراء النَّحوية والصَّرفية للأخفش في كتاب الكناش، دراسة وصفية تحليلية، حسن إبراهيم أشتيوي، بحث منشور في المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الخامس، العدد الخامس عشر، ٢٠٢٠م.

٢ – العلة النَّحوية في كتاب (الكناش في فني النَّحو والصَّرف)، رسالة ماجستير للطالبة: إيناس محمّد راضي، جامعة بغداد، كلية العلوم الإسلامية، ٢٠٢١م.

٣ – الأمثال والأقوال النَّحوية في كتاب (الكناش في فني النَّحو والصَّرف) لأبي الفداء، دراسة تحليلية، محمّد مصطفى المرسي الطيب، جامعة المنصورة، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد الثاني، العدد الثلاثون، ٢٠١٤م.

أولاً: التعريف بأبي الفداء وكتابه

نسبه ومولده: هو عماد الدين بن إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي ابن الملك المظفر تقي بن الملك المنصور (أبو الفداء، ١٢/١)، كانت ولادته بحماة سنة (٦٧٢هـ) (ابن كثير، ١٩٨٨م، ٥٧٦/١٣).

كنيته ولقبه: كان يُكنى بأبي الفداء، وقد عُرف في كتب التراجم بـ(صاحب حماة) (الشوكاني، ١٥١/١-١٥٢).

وفاته: تُوفي في المحرم فجأة سنة ٧٣٢هـ عن عمر ناهز الستين سنة إلَّا ثلاثة أشهر (ابن العماد، ١٩٨٦م، ٨/ ١٧٣).

شيوخه وتلاميذه: درس أبو الفداء على شيوخ وعلماء غفلت عنهم كتب التراجم ولم تذكرهم (ابن تغري بردي، ٤٠٠/٢)، وقد ذُكر أنَّه تتلمذ على جمال الدين محمّد بن سالم بن واصل الشافعي (ت ٦٩٧هـ)، وأنَّه كان يتردد عليه وعمره خمسة وعشرين عاماً، وقد قرأ عليه شرحه لعروض ابن الحاجب، ويصحح عنه أسماء تُرجمت في كتاب (الأغاني) (أبو الفداء، ٢٠/١)، ولم تذكر المصادر له تلاميذاً.

مؤلفاته: لأبي الفداء عدة مؤلفات علمية منها: (أبو الفداء، ١٢/١، حاجي خليفة، ١٦٢٩/٢، الزركلي، ٢٠٠٢م، ٢١٩/١، ابن العماد، ١٩٨٦م، ١٧٢/٨-١٧٣)، المختصر في أخبار البشر، وتقويم البلدان، والكناش موضوع هذه الدراسة، والتبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك، وتاريخ الدولة الخوارزمية، ومختصر اللطائف السّنية في التواريخ الإسلامية، أمّا في الفقه فقد نظم كتاب الحاوي في الفقه الشافعي، وله في النَّحو والصَّرف شرح منظومة الكافية لابن الحاجب.

ثانياً: كتاب الكناش: الكناش مصطلح لمؤلفات أبي الفداء التي حوت كثيراً من العلوم، حيث جمع فيه ما تفرّق من مؤلفاته التي ذُكرت (ابن العماد، ١٩٨٦م، ٦٤/٧-٦٥).

مصادر الكتاب: اعتمد أبو الفداء في تصنيف الكناش على عددٍ كبير من المصادر، منها: الكتاب لسيبويه، وكتاب الجمل للزجاجي، والمفصّل للزمخشري، وشرح المفصّل لابن يعيش، وشرح الشافية الكافية للأسترأباذي (أبو الفداء، ٢٠٠٠م،١/٢٤).

أهمية الكتاب: تكمن أهمية هذا الكتاب في احتوائه على قدرٍ كبير من الشواهد من القرآن الكريم والشعر العربي لتأصيل وتقوية القواعد النَّحوية والصَّرفية، كما تكمن في تجويزه الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف للكشف عن أصل بعض الألفاظ وتوضيح بعض الظواهر النَّحوية والصَّرفية، واستخدامه لبعض الأمثال والأقوال العربية للكشف عن بعض الظواهر الشاذة عن القياس (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ١٦٥/١، ١٧١/١، ٢٧٠/١، ٣٧١/١، ١٠٢/٢-١٠٣).

منهجه: قام أبو الفداء بتقسيم كتابه إلى أربعة أجزاء احتوت على الاسم والفعل والحرف والمشترك، وفقاً لما جاء في تقسيم الزمخشري لمفصّله، حيث يورد الحد الذي يختاره من الكتب التي ذُكرت سابقاً من غير الإشارة إلى صاحبه صراحةً، وأحياناً كثيرة يمتزج كلامه بكلام ابن الحاجب وكذلك منصوص

المفصّل، ويظهر ذلك جلياً في عددٍ من صفحات الكناش (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٢٨٢/١-٣٤٢، ٢٩٢/٢-٢٩٣).

ثانياً: معنى أصول النَّحو

الأصل: أسفل الشيء وجمعه أصول، وأُصُلَ الشيءُ: صار ذا أصل، قال أمية الهذلي (السكري، ١٩٤٥م، ٥٣٦/٢):

وما الشُّغلُ إلَّا إنَّني متهيّبٌ * لِعرضِك ما لم تَجْعلِ الشيءَ يأْصُلُ

ويُقال: اسْتأصلت هذه الشجرة أي: ثبت أصلها (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ١٦/١١)، وقال الكسائي في قولهم: لا أصل له ولا فصل: (إنَّ الأصل الحسب والفصل اللسان) (ابن فارس، ١٩٧٩م، ١٠٩/١).

أمّا في الاصطلاح: فأصول النَّحو هي أدلة النَّحو التي تفرّعت منها فروع وفصول، كما أنَّ أدلة الفقه هي أدلة الفقهاء التي تنوعت عنها جملته وتفصيله، وفائدته إثبات الحكم على الحجة والتعليل بالاطلاع على الدليل، فالاعتماد على التقليد لا يُعرف به الخطأ من الصواب (الأفغاني، ١٤١٧هـ، ١٥٢)، وعند السيوطي هو علم بحث عن أدلة النَّحو الإجمالية وكيفية الاستدلال بها وحال المستدل، وأدلة النَّحو أربعة: قياس، إجماع، استصحاب حال، وسماع (السيوطي، ١٩٨٩م، ٢٥)، وقد نقل السيوطي عن ابن الأنباري قوله: (علوم الأدب ثمانية: اللُّغة، النَّحو، التصريف، العروض، القوافي، صنعة الشعر، أخبار العرب وأنسابهم، وألحقنا بها علمين وضعناهما: علم الجدل في النَّحو، وعلم أصول النَّحو، الذي يُعرف به القياس وتركيبه وأقسامه من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد) (السيوطي، ١٩٨٩م، ١٦-١٧).

وعلى ضوء هذه الأقوال تتبيَّن أهمية أصول النَّحو في إلحاق المسائل التي لم ترد لها قواعد بما يشابهها من أدلة حددها النحاة، حيث يتوصل بعلم أصول النَّحو إلى خصائص اللُّغة وأسرار النَّحو، فالأصل هو الأساس، ومعرفته تقود إلى صحة الفرع، قال الغزالي: (ولا مطمح في الإحاطة بالفرع وتقريره والاطلاع على حقيقته إلَّا بعد تمهيد الأصل، إذ مثار التخبط في الأصول ينتج عنه التخبط في الفروع (الغزالي، ١٩٩٨م، ٥٩).

ثالثاً: السماع والقياس عند أبي الفداء

السماع لغةً: من سمع سماعاً: إذا أنصت (إبراهيم مصطفى وآخرون، ٤٤٩/١)، والسميع: حَسن الأذن ومنه قوله تعالى: (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (ق/٣٧)، وأخذت ذلك منه سماعاً وسمعاً بمعنى: أنّهم جاءوا بالمصدر على غير فعله، وهذا غير مطرد، والسماع ما سمعت به (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ١٦٥/٨).

السماع اصطلاحاً: قال السيوطي: (وأعني به ما ثبت في كلام ممّن يُوثق بفصاحته، كلام الله تعالى، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل البعثة وبعدها (السيوطي، ١٩٨٩م، ٦٧)، كما عرّفه الجرجاني بأنَّه ما لم تُذكر فيه قاعدة كلية مشتملة على جزئياته (الجرجاني، ١٩٨٣م، ١٢١).

اعتمد أبو الفداء السماع بوصفه أصلاً من أصول التقعيد النَّحوي وحرص عليه وفقاً للمدرسة البصرية، وأشار إلى ذلك بقوله: (وغير المطرد، وهو ما يتوقف جزءٌ منه على السماع، والمراد بالواجب ما لا يجوز غيره) (أبو الفداء، ٤١/١).

وقد اتبع أبو الفداء البصريين في قلة الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف بدعوى أنَّ الحديث رُوي بالمعنى، وأنّ رواته كانوا من الأعاجم (السيوطي،١٩٨٩، ٥٢)، والرواية بالمعنى تغيّر الكلام المنقول، وقد أجاز ابن مالك وابن سيده من نحاة الأندلس الاستشهاد بالحديث، وحجتهم في ذلك أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم هو أفصح العرب، فمن باب أولى أن يُستشهد بكلامه، كما أنَّ الأحاديث أصحّ سنداً من الشعر الذي عوّل عليه النحاة كثيراً، وأنَّ المنقول لم يتغيّر؛ لأنَّه وقع قبل فساد اللُّغة، كما أنَّ الرواية بالمعنى لا تغيّر في الحديث شيئاً في مجال الاستشهاد النَّحوي (البغدادي،١٩٩٧م، ١٤/١-١٥)، وقالت خديجة الحدثي: (لكن الذي نؤكد عليه أن النحاة قد احتجوا بالحديث لإثبات مواد لغوية كثيرة جداً غالبها لم يرد فيما جمعوه من كلام العرب، ولا في ألفاظ القرآن الكريم (خديجة الحديثي، ١٩٨١م، ٨).

وقد جاء استنشاده بالحديث النبوي لأمرين (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٢٧٠/١):

١ – الكشف عن أصل بعض الألفاظ ذات الصلة بقضية نحوية أو صرفية.

٢ – توضيح بعض الظواهر النَّحوية والصَّرفية، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما) (أبو داؤد، ٥١/١)، أي: أحبب حبيبك حباً قليلاً، وكذلك أبغض بغيضك قليلاً، و(ما) هاهنا حرف يفيد التعليل، وقيل: زائدة (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٢٧٠/١).

كما استشهد بالقراءات القرآنية كقوله تعالى: (هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) (المائدة/١١٩)، بفتح (يوم) ورفعه، وكذلك المضاف إلى (إذ) نحو قوله تعالى: (لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ) (المعارج/١١) (أبو الفداء، ١٦٥/١)، وقد استشهد أبو الفداء بالقرآن الكريم وجعل غالب شواهده منه لأنّه كان حافظاً للقرآن الكريم، وذلك لتعضيد القواعد النَّحوية، مثال ذلك استشهاده بقوله تعالى: (مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) (الجاثية/٢٤)، على أنّ الواو للجمع المطلق ليست فيه دلالة على أنّ الأول قبل الثاني ولا العكس، ولا أنّهما معاً، بل كل ذلك جائز (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ١٠٢/٢-١٠٣). وكذلك استشهد بالشواهد الشعرية وأكثر من ذلك مراعياً ما وضعه البصريون من قواعد الاستشهاد من حيث الزمان والمكان، كما ساق بعض الأمثال العربية وأقوال الصحابة والتابعين لتوضيح بعض الظواهر الشاذة، وكان دائم التأكيد أن الأمثال يجوز فيها الحذف والتخفيف ما لا يجوز في غيرها (ابو الفداء، ٢٠٠٠م، ١٧١/١).

ومن الأمثلة على استعمال أبي الفداء للأمثال، قول العرب: (شرٌّ أهرّ ذا نابٍ) (الميداني، ٣٧٠/١)، دليلاً على جواز الابتداء بالنكرة لأنّها في معنى النفي، أي: ما أهرّ ذا ناب إلَّا شرّ (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ١٤٥/١).

ومن الأقوال عرضه لقول النحاة: (ليس الطيبُ إلَّا المسكُ) في الاستدلال على حرفية (ليس) لوقوعها موقع (ما) في باب الحروف التي أُجريت مجرى حروف الاستفهام (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٤٤/٢، ابن مالك، ١٩٨٢م، ٤٢٥/١).

القياس لغةً: وهو من قياس الشيء يقيسه قيساً وقياساً إذا قدّره على مثاله، ويُقال هو يخطو قيساً أي: يجعل هذه الخطوة بميزان هذا (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ١٨٧/٦-١٨٨).

القياس اصطلاحاً: هو حمل غير منقول على منقول إذا كان في معناه (السيوطي، ١٩٨٩م، ٣٥)، كما يعني حمل فرع على أصل بعلة، وإجراء حكم الأصل على الفرع (ابن الأنباري، ٤٢).

وقد حرص أبو الفداء على بيان القياس في كتابه ووفق الأسس العامة التي وضعتها مدرسة البصرة النَّحوية وقد ظهر حرصه وتشدّده فيه من خلال المسائل التالية:

١/ زيادة (مِنْ)

اختلف النحاة في زيادة (مِنْ)، فرأى سيبويه وجمهور البصريين أنَّها لا تُزاد إلَّا في النفي، مخلصةً للجنس مؤكدةً معنى العموم، وقد اشترط لزيادتها شروطاً ثلاثة: الأول: أن تكون مع النكرة، الثاني: أن تكون عامة، الثالث: أن تكون في غير الموجب، وذلك نحو: ما جاءني من أحدٍ (سيبويه، ١٩٨٨م، ٣٢٥/٤)، وقد وافق أبو الفداء هذا الرأي، حيث قال: (وتقع (من) زائدة، وتُعرف بأنّك لو حذفتها لكان المعنى الأصلي على حاله) (أبو الفداء، ٢٠٠٠م/ ٤٣/١).

مما اختار هذا الرأي أيضاً الزمخشري (الزمخشري، ١٩٩٣م، ٣٨٠)، وابن يعيش (ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٤٥٨/٤)، والرضي (الرضي، ٢٦٨/٤)، وجوّز الكوفيون والأخفش زيادتها في الواجب، نحو: جاءني من رجلٍ وقد كان من مطرٍ، واستشهدوا بقوله تعالى: (فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ) (المائدة/٤)، و(من) هنا غير زائدة بل هي للتبعيض، أي: كلوا من اللحم دون الفرث والدم؛ فإنّه محرّم عليكم (أبو الفداء، ٢٠٠٠، ٥٠٧٤/٢)، أمّا قوله تعالى: (وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ) (البقرة،٢٧١)، فإنَّ (من) أيضاً للتبعيض (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٣١٠/١، ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٤٦٠/٤).

اختار أبو الفداء مذهب البصريين في كون (من) الزائدة لا تُزاد إلَّا بعد غير الموجب، حيث يطرد ذلك مع القياس الصحيح، وهو القول الراجح، لأنَّ ما احتج به الكوفيون والأخفش يحتمل التأويل، والدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

٢/ القول في أصل (لَنْ)

زعم الخليل أنَّ (لن) مركبة من (لا) و(أنْ)، ولكنّهم حذفوا لكثرته في كلامهم قياساً على (يومئذٍ) و(هلا)، جعلوها بمنزلة حرفٍ واحد، فإنّما هي (يوم) و(إذ)، و(هل) و(لا)، أمّا سيبويه فقد نصَّ على أنّها غير مركبة، والذي يدلُّ على أنَّها غير مركبة من (لا) و(أن)، أنّه يجوز أن يُقال: أمّا زيداً فلن أضرب، لأنّ (أضرب) من صلة (لن) المركبة، ولو كان كما رأى الزاعمون لما جاز ذلك؛ لأنَّ ما بعد (أن) لا يجوز أن يعمل فيما قبلها، كما أنّ حكم النفي باقٍ في (لن)، فينبغي ألا يتغير حكمها، فهي لا تُقاس على (هلا)، لأنّ (هلا) ذهب منها الاستفهام بعد التركيب (سيبويه، ١٩٨٨م، ٥/٣)، واختاره ابن الأنباري (ابن الأنباري، ٢٠٠٠م، ١٧٥/١٢).

وقد رجّح أبو الفداء أنّ (لَنْ) حرفاً برأسه وليس مركباً من (لا) و(أن)، قال: (ولن لتأكيد ما تعطيه لا من نفي المستقبل، تقول: لا أبرح اليوم مكاني، فإذا أكّدت قلت: لن أبرح، والصحيح أنّها حرف برأسها لا أنّها من (لا) و(أن) (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٤٥/١-٤٦)، واستحسنه ابن يعيش بقوله: (وما أحسنه من قول) (ابن يعيش،٢٠٠١م، ٣٧/٥)، ووافقه ابن الحاجب (ابن الحاجب، ١٩٨٩م، ٧١١/٢).

أيّد أبو الفداء سيبويه في كون (لن) غير مركبة وهو القول الراجح لشهرته.

٣/ النصب بـ(كي)

للعرب في (كي) مذهبان: **أحدهما**: أن تكون ناصبة للفعل بنفسها بمنزلة (أنْ)، وتكون مع ما بعدها بمنزلة اسم كما كانت (أنْ) كذلك، وهذا مذهب الكوفيين، وافقهم سيبويه وابن يعيش واختاره ابن مالك (ابن مالك، ١٩٨٢م، ١٥٣١/٣)، وابن الناظم (ابن الناظم، ٢٠٠٠م، ٥٧٥/١)، وإليه ذهب أبو الفداء (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٤٥/١)، قال ابن يعيش: (ولكن قياس (كي) هذه أن تكون بمنزلة (أنْ)، ولولا ذلك لما جاز دخول حرف اللام عليها؛ لأنَّ حرف الجر لا يدخل على مثله) (ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٢٢٨/٤).

الثاني: أن تكون حرف بمنزلة اللام، وينتصب الفعل بعدها بإضمار (أنْ) كما ينتصب بعد (اللام)، فإذا كانت بمنزلة (أنْ)، جاز دخول حرف الجر عليها كما في قوله تعالى: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ) (الحديد/٢٣)، وجئتك لكي تكرمني (ابن يعيش، ٢٠٠١م، ٢٢٨/٤)، وإليه ذهب البصريون وابن السراج (ابن السراج، ١٤٧/٢)، وابن الأنباري (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٤٧٠/٢).

أيَّد أبو الفداء الكوفيين في كون (كي) هي الناصبة للفعل المضارع، وليس بـ(أنْ) مضمرة (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٤٥/١).

ومن هنا يلاحظ الباحثان أنَّ أبا الفداء أحياناً يخالف البصريين ولم يبالِ في تأييده للكوفيين، مما يدلُّ على أنّ تأييده أو رفضه مبنيّ على مبادئ أصول النَّحو، وبما يتفق مع قواعد الاحتجاج.

٤/ اشتقاق اسم الفاعل من اسم العدد

المشهور عند قدامى النحاة هو جواز اشتقاق اسم الفاعل من اسم العدد، للدلالة على التعبير مما زاد على العشرة، فقاسوا حادي عشر وخامس عشر على قولهم: هذا خامس وسادس؛ لأنَّهما اسمان حالهما كحال خمسة عشر، وعلى هذا القياس يجري هذا العدد، فإذا قلت: هذا رابع ثلاثة وخامس أربعة، فقد قاسوا عليه أيضاً هذا رابع ثلاثة عشرة وهذه خامس أربعة عشر، وهذه خامسة أربع عشرة، وهذا خامس أربع، هذا رأي سيبويه (سيبويه، ١٩٨٨م، ٥٦١/٣)، والمازني والمبرد (المبرد، ١٨٢/٢)، وأجازه ابن السراج سماعاً وقياساً، فقال: (ففي قولك: هذا خامس أربعة، يعني: هذا الشيء خمس الأربعة، وفي المؤنث: هذه خامسة أربع) (ابن السراج، ٤٢٦/٢)، ومنه قوله تعالى: (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) (التوبة/٤٠)، وقد منعه الأخفش (ابن السراج، ٤٢٦/٢)، لأنَّك إذا قلت: رابع ثلاثة، فإنّما تجريه مجرى ضارب ونحوه، لأنّك كنت تقول: وكانوا ثلاثة فربعهم، وكانوا خمسة فسدسهم، وهذا لا يجوز أن تبني فاعلاً من خمسة وعشرة جميعاً (المبرد، ١٨٢/٢)، وافقه أبو الفداء بقوله: (ويشتق من اسم العدد اسم فاعل كقولك: ثالث ورابع وخامس ونحوه ... ولا يتجاوز فيه عن العاشر والعاشرة،

فلا يُقال: خامس عشر، أربعة عشرة، وسيبويه والمتقدمون يجيزون: هذا خامس أربع عشر، والصحيح عدم ذلك) (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٤٧/١، ٣٠٥/١).

فقد أيَّد أبو الفداء رأي الأخفش المانع لاشتقاق اسم الفاعل من اسم العدد الذي يتجاوز عن العاشر والعاشرة، وهو الرأي الذي اقتنع به وارتآه صحيحاً.

٥/ القول في الجرّ بواو (ربّ)

انقسم النحاة في مسألة الجرّ بواو (ربّ) إلى فريقين: يرى الفريق الأول أنَّ واو (ربّ) يجرُّ ما بعدها، وهذا رأي الكوفيين والمبرد (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٣١١/١، المبرد، ٣٢٧/٢-٣٤٨)، وحجتهم أنَّ الواو تنوب عن (ربّ) فتعمل عملها قياساً على (واو) القسم، لما نابت عن الباء، عملت الخفض كالباء، وأنّ الواو ليست عاطفة والدليل على أنّها ليست عاطفة؛ افتتاح القصائد بها، لأنّ حرف العطف لا يجوز الابتداء به (ابن الأنباري، ١٩٨٨م، ٣١١/١)، كما في قول رؤبة (رؤبة، ١٠٤):

وقاتِمَ الأَعْماقِ خاوِي المُخْتَرَقْ * مُشْتَبِه الأَعْلامِ لَمّاعِ الخَفَقْ

والشاهد فيه قوله: (وقاتم)، والتقدير: وربّ قاتمٍ (ابن يعيش، ٢٠٠١م، ١٢٤/٢، ابن هشام، ٤٤٨)، والقاتم: المغبّر، الخاوي: الخالي، المخترق: مهب الريح، الأعماق: أطراف المفاوز، واختار أبو الفداء رأي الكوفيين والمبرد بقوله: (أمّا واو (ربّ) فهي التي يُبتدأ بها في أول الكلام بمعنى (ربّ)) (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٤٨/١)، أمّا الفريق الثاني، فيرى أنَّ الجرّ بـ(ربّ) محذوفة، والعمل لها مقدرة، والواو غير عاملة، لأنَّ الواو حرف عطف، وحروف العطف لا تعمل شيئاً، وهذا هو القياس، وهذا رأي سيبويه والبصريين (سيبويه، ١٩٨٨م، ١٦٣/٢، ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٣١١/١)، والدليل على كونها عاطفة أنَّ (واو) العطف لا تدخل عليها كما تدخل على (واو) القسم وأنَّ العرب تستعمل هذه الواو مبتدأة بمعنى (ربّ)، ويقولون: وبلدٍ قطعت، يريدون: وربّ بلدٍ، فـ(ربّ) مضمرة بعدها، فيجوز ظهورها معها نحو: ربّ بلدٍ (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٣١١/١)، واختار ابن الأنباري هذا الرأي (ابن يعيش، ١٢٤/٢)، وأبو حيان (أبو حيان، ١٩٩٨م، ١٧١٧/٤، ١٧٤٦/٤).

يرى أبو الفداء أنّ الواو بمعنى (ربّ)، التي تنوب عنها في العمل، وهو بهذا يوافق الكوفيين والمبرد.

وهنا يلاحظ الباحثان أنَّ أبا الفداء لا يلتزم بمذهب البصريين ولا يؤيدهم في كل أمرٍ وربما خالف رأياً إذا ارتآه خارج القياس واستخدام الفصحاء.

٦/ الجزم بـ(كيفما)

(كيفما) مركبة من (كيف) الاستفهامية و(ما) النافية، ومعنى كيفما تكن أكن: في أي حال تكن أكن، قياساً على (أين) و(متى) وما أشبههما، وتقول: أينما تكن أكن، أي: في أي مكان تكن أكن، فلذلك قال الخليل: (مخرجها مخرج الجزاء، وإن لم يقل: إنّما هي من حروف الجزاء) (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٥٢٩/٢)، وعند الكوفيين والزجاج أنَّ (كيفما) يُجازى بها ورفضه البصريون وقد وافق أبو الفداء البصريين حيث اعترض على المجازاة لخروجه عن شروط القياس، وإن جاء ذلك فعلى وجه الندور والشذوذ (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٢٨٩/١)، وقد منع البصريون وتابعهم ابن الأنباري المجازاة بـ(كيفما) لثلاثة أوجه، أحدها: نقصانها عن سائر أخواتها، لأنَّ جوابها لا يكون إلَّا نكرة؛ لأنّها سؤال عن الحال،

والحال لا يكون إلَّا نكرة، وسائر أخواتها تارةً تُجاب بالمعرفة وتارةً بالنكرة، فلما قصُرت عن أحد الأمرين ضعف عن تصريفها في مواضع نظائرها من المجازاة. الوجه الثاني: وإنّما لم تجز المجازاة لها لأنّها يجوز الإخبار عنها، ولا يعود إليها الضمير كما يكون ذلك في (من وما وأي ومهما). الوجه الثالث: أنَّ الأصل في الجزاء أن يكون بالحرف وهي ليست بحرف (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٥٢٩/٢-٥٣١).

اعترض أبو الفداء على تجويز الجزم بـ(كيفما) لتعارضه مع القياس وحكم له ولأمثاله بالشذوذ، بناءً على شروط المجازاة التي أقرّها جمهور البصريين، وعليه يمكن القول أنَّ أبا الفداء قد أصاب في رفضه مذهب الكوفيين وتأييده للبصريين؛ لأنَّه لو صحّ أنّها تشابه أخواتها في المعنى، فليس معناه أنّها تفيد الجزاء.

٧/ القول في فعلية (ليس) وحرفيتها

اختلف النحاة في فعلية (ليس) وحرفيتها على قولين:

القول الأول: أنّها فعلٌ، وهو رأي جمهور البصريين لاتصالها بالضمائر مثل: لستُ وليسوا ولسن قياساً على (عسى) تقول فيها: عساك وعساه، وافقهم ابن هشام (ابن هشام،١٩٨٥م، ٣٨٧)، وقد اختار أبو الفداء مذهب البصريين وصححه حيث قال: (والصحيح أنّها فعلٌ؛ لاتصال الضمائر بها نحو: لستُ ولستَ ولستم وما أشبه ذلك، وذلك من خواص الأفعال (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٤٤/٢).

القول الثاني: أنَّ (ليس) ليست فعلاً، بل هي حرفٌ؛ لأنَّها لا تدلُّ على الحدث وأحد الأزمنة الثلاثة، أو دالة على الأزمنة الثلاثة مجردة من الحدث فهي تشبه (ما) في اختصاصها بنفي الحال ودخولها على المبتدأ والخبر، كما تشبهها في أنّه إذا توسطت (إلَّا) بين اسمها وخبرها لم يكن إلَّا الرفع، أمّا اتصالها بالضمائر فليس دليلاً كافياً وقاطعاً على أنّها فعل، وهذا قول ابن السراج (ابن السراج،٢٧/١)، كما زعم أبو علي الفارسي أنّها حرفٌ وافقه المرادي بقوله: (والذي ينبغي أن يُقال فيها، إذا وُجدت بغير خاصية من خواص الأفعال وذلك إذا دخلت على الجملة الفعلية أنّها حرف لا غير (أبو علي الفارسي، ١٩٨٧م، ٢١٠، المرادي، ١٩٩٢م، ٣٩٤).

اعترض أبو الفداء على القول بحرفية (ليس) مؤيداً البصريين في ذلك.

ويرجّح الباحثان القول الثاني، لأنَّ اتصال الضمائر بـ(ليس) ليس دليلاً كافياً على فعليتها، فقد اتصلت الضمائر ببعض الحروف ولا يخرجها ذلك عن كونها حروفاً.

٨/ الخلاف في دلالة (لكن) على العطف

(لكن) ضربان: مخففة من الثقيلة، وهي حرف ابتداء عامل، وخفيفة بأصل الوضع، وتأتي (لكن) حرف عطف إذا توافرت فيها ثلاثة شروط: أولها: أن يكون المعطوف بها مفرداً لا جملة نحو: ما قطعت الزهرَ لكن الثمَر، وإن لم يكن مفرداً وجب اعتبار (لكن) حرف ابتداء واستدراك معاً وليس حرف عطف، والجملة التي بعدها مستقلة في إعرابها، لأنَّ (لكن) الابتدائية لا تدخل إلَّا على جملة جديدة من الناحية الإعرابية (عباس حسن، ٣١٦/٣)، ثانيها: أن تُسبق بنفي أو نهي كقولك: ما جاء زيدٌ لكن عمرٌو، ولا يجوز: جاءني زيدٌ لكن عمرٌو، لأنَّه يجب أن يكون الثاني فيها على خلاف الأول من غير اقتراب عن الأول ولكن تقول: جاءني زيدٌ لكن عمرٌو لم يأت. وهذا مذهب البصريين فقد ذهبوا إلى أنّه لا يجوز

العطف بها في الإيجاب، فإذا جيء بها في الإيجاب وجب أن تكون الجملة التي بعدها مخالفة للجملة التي قبلها نحو: أتاني زيدٌ لكن عمرٌو لم يأت، وأجمعوا على أنّه يجوز العطف بها في النفي (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٣٩٦/٢)، وقد ذهب أبو الفداء إلى الرأي نفسه واحتج بما احتجّ به البصريون (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ١٠٦/٢)، أمّا الكوفيون فقد خالفوا هذا المذهب ورفضوه، وجوَّزوا العطف بـ(لكن) في الإيجاب نحو: أتاني زيدٌ لكن عمرٌو لم يأت ، قياساً على (بل)، وردّة ابن الأنباري، لأنَّ (بل) تشارك (لكن) في النفي ولكن ليس في الغلط والنسيان، فإذا قلت في النفي: ما جاءني زيدٌ لكن عمرٌو، لم توجب نسياناً ولا غلطاً، كما لو قلت: ما جاءني زيدٌ بل عمرٌو، كما أنّ (بل) لا يحسن دخول الواو عليها، أمّا (لكن) فيحسن دخوله عليها (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٣٩٦/٢)، وقد ردّه الرضي أيضاً معللاً لذلك بقوله: (وليس لهم من شاهد، وكون وضع (لكن) لمغايرة ما بعدها لما قبلها يدفع بذلك، إلَّا ألا يُسلموا هذا الوضع (الرضي، ١٩٩٦م، ٤٢٠/٢). ثالثها: ألا تكون مسبوقة بالواو مباشرة، وهذا ما ذهب إليه أكثر النحاة ومنهم الفارسي (الفارسي، ٢٠٠٤م، ١٩٣)، ورأى الجزولي، أنّ (لكن) في المفرد عاطفة إذا تجردت عن الواو، وأما مع الواو، فالعاطفة هي الواو، و(لكن) لمجرد الاستدراك (الشلوبين، ١٩٨٤م، ١٢٣)، فإذا وليها الواو نحو: ما قام زيدٌ ولكن عمرٌو، فللنحاة في ذلك عدة أقوال:

الأول: أنّها ليست عاطفة، بل هي حرف استدراك، وهذا مذهب يونس وأيّده بعض النحاة منهم ابن مالك (ابن مالك، ١٩٦٧م، ١٧٤)، وصححه أبو حيان بقوله: (وذهب يونس إلى أنّها ليست من حروف العطف، وهو الصحيح، لأنَّه لا يُحفظ من ذلك من لسان العرب) (أبو حيان، ١٩٩٩م، ٣٢٧/١)

الثاني: أنّ (لكن) تكون عاطفة سواء تقدمها الواو أو لا، فالعطف بها مخير بين أن تأتي الواو قبلها أو لا، وهو مذهب ابن كيسان (المرادي، ١٩٩٢م، ٥٣٤، والأشموني، ١٩٩٨م، ٤١٦/٢).

الثالث: أنّها عاطفة بنفسها، ولكن لا بدّ أن تُسبق بالواو وتكون الواو قبلها زائدة لازمة، وهو مذهب ابن عصفور (ابن عصفور، ١٩٧١م، ٢٣٣/١).

الرابع: أنّها عاطفة والواو قبلها عاطفة أيضاً، فكلا الحرفين يفيد معنى العطف، وإليه ذهب المالقي (المالقي، ٣٥). وقد ردّ السهيلي قوله بأنّه لا يجوز أن يجتمع حرفان عاطفان ويفيد كلاهما العطف في موضع واحد (السهيلي، ١٩٩٢م، ٢٥٧).

وخلاصة القول أنَّ (لكن) حرف يفيد الاستدراك دائماً سواء كان عاطفاً أم غير عاطف، ولا يصح العطف به مع إفادة الاستدراك إلَّا إذا توافرت فيه الشروط المذكورة سابقاً، وقد مال أبو الفداء إلى رأي البصريين راداً ما ادعاه الكوفيون في قياسهم (لكن) على (بل) من حيث مشاركة (بل) لـ(لكن) في الغلط والنسيان، لأنَّ الغلط والنسيان في الإيجاب مع (بل) أما مع (لكن) فلا يحسن.

خامساً: التعليل عند أبي الفداء

العلة لغةً: هي سبب الشيء، كما تعني ما تغيّر حكم غيره به (أبو هلال العسكري، ١٧٨).

العلة اصطلاحاً: هي الجواب على حكم إعرابي أو بنائي يُسأل عنه نحو: وقف الخطيبُ، السؤال، لم ارتفع الخطيبُ؟ جوابه: لأنّه فاعل (علة) (محمد سمير اللبدي، ١٩٨٨م، ٢٨٢).

اهتم أبو الفداء بالعلل النَّحوية في تفسيره لبعض الظواهر النَّحوية، والوقوف على الحكم الدقيق من ورائها، ومن الأمثلة على ذلك:

١/ تقديم خبر ما أوله (ما) من أخوات (كان)

الأفعال الناسخة التي تتصدرها (ما) النافية هي: زال ودام وبرح وفتئ وغيرها، وأجاز بعض النحاة تقديم خبر (ما) النافية عليها، وإليه ذهب الكوفيون، لأنَّ (ما) عندهم لا يلزم تصديرها (ابن الأنباري،٢٠٠٣م، ١٢٦/١-١٢٧)، ومنع البصريون تقديم خبر ما أوله (ما) عليه، لأنّها من ذوات الصدور (الأزهري، ٢٠٠٠م، ٢٤٥/١)، وأشار ابن الأنباري إلى علة عدم تقديم خبر ما أوله (ما) عليه بقوله: (أنّ في (ما) للنفي، والنفي له صدر الكلام يجري مجرى حرف الاستفهام في التقدير، فكما أنَّ الاستفهام لا يعمل ما بعده في ما قبله نحو: أعمراً ضرب زيدٌ، فكذلك النفي لا يعمل ما بعده في ما قبله نحو: قائماً ما زال زيدٌ (ابن الأنباري، ١٩٩٩م، ٧٧)، وإلى الرأي نفسه ذهب أبو الفداء، حيث علل لمنع ذلك أن ما له الصدر يجوز تقديمه في الكلام لأنّ (ما))إما نافية أو مصدرية ويمتنع تقديم ما في حيز النفي عليه وتقديم معمول المصدر على المصدر (أبو الفداء،٢٠٠٠م، ٤٣/١)، والقول بالتقديم مطلقاً هو اختيار ابن كيسان، والقول بالمنع مطلقاً هو رأي الفراء، إلَّا أنَّ هذا التعميم الذي أقرّه الفراء، رُدَّ بقول الشاعر (ابن منظور،١٤١٤هـ،١٣٥/٣):

ورجّ الفتى للخيرِ ما إن رأيْتَه * على السنّ خيراً لا يزالُ يزيدُ

والشاهد فيه قوله: خيراً لا يزال، حيث قدّم معمول الخبر وهو (خيراً) على (لا يزال) نفسها (الأشموني، ١٩٨٨م، ٢٣٢/١ -٢٣٣)، أمّا (ما دام) فلا يجوز فيها تقديم معمول الخبر على (ما)، وذلك لأنّ (ما) فيها مع الفعل بمنزلة المصدر، ومعمول المصدر لا يتقدم عليه (ابن الأنباري، ١٩٩٩م، ١١٧)، رجّ: أمر من الرجاء. السن: العمر.

وإلى اختيار مذهب البصريين والفراء أشار ابن مالك بقوله:

كَذَاكَ سَبقُ خَبَرٍ (مَا) النَّافِيَة * فَجِيء بِهَا مَتلُوَّةً لاَ تَالِيَة

قال ابن مالك: (أي متبوعة لا تابعة، لأنَّ لها الصدر، ولا فرق في ذلك بين أن تكون ما دخلت عليه يشترط في عمله تقدم النفي كزال أو لا ككان، فلا تقول: قائماً ما كان زيدٌ، ولا قاعداً ما زال عمرٌو (الأشموني، ١٩٩٨م، ٢٣٢/١) كما ذهب إلى جوازه ابن يعيش (ابن يعيش،٢٠٠١م، ٣٩٨/٤)، واختاره الأزهري بقوله: (وإذا نفي الفعل بـ(ما) النافية، جاز توسط بين النافي وهو (ما) وبين الفعل المنفي مطلقاً، سواء كان النفي شرطاً في العمل أم لا نحو: ما قائماً كان زيدٌ ونحو: ما قائماً زال زيدٌ (الأزهري، ٢٠٠٠م، ٢٤٥/١).

وافق أبو الفداء البصريين فيما ذهبوا إليه في تقديم خبر (ما) النافية على هذه الأفعال. ويرى الباحثان أنَّ ما أجمع عليه النحاة هو عدم جواز تقديم خبر هذه الأفعال عليها هو الراجح.

٢/ القول في المنادى المفرد العلم أمبنيٌ أم معربٌ

اختلف النحاة في علة بناء أو إعراب المنادى المفرد العلم على رأيين: أحدهما: ما ذكره أبو الفداء، وهو أنَّ المنادى مبنيّ، وبناؤه على ما يُرفع به نحو: يا زيدُ، وإنّما يُبنى لشبهه بالمضمر؛ لأنّه لا ينفك في المعنى

عن كونه مخاطباً معيناً، وحكم المخاطب أن يكون مضمراً، والأصل في يا زيدٌ: يا إيّاك ويا أنت، ووجه الشبه بينهما من ثلاثة أوجه: الخطاب والتعريف والإفراد، فلما أشبه (كاف) الخطاب من هذه الأوجه، وجب أن يكون مبنياً، وهو مذهب البصريين واختاره ابن مالك (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ١٦١/١، ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٢٦٥/١، ابن مالك،١٩٨٢م، ١٢٩٤/٣-١٢٩٥)، وذلك لأنَّ المنادى لما كان مخاطباً كان ينبغي أن يُستغنى عن ذكر اسمه ويُؤتى باسم الخطاب، واختاره خالد الأزهري والصبان (الأزهري، ٢٠٠٠م، ٢١١/٢، الصبان، ١٩٩٧م، ٢٠٢/٣).

الرأي الثاني: أنَّ المنادى المفرد المعرف معربٌ مرفوع بغير تنوين، وهو مذهب الكوفيين (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٢٦٥/١)، وقد رُفض هذا الرأي، لأنَّ المنادى إذا اجتمع فيه التعريف والإفراد، فحقه الرفع، وإذا لم يجتمع فيه التعريف والإفراد، فهو منصوب نحو: يا رجلاً خذ بيدي، ويا أبانا في المضاف، ونحو: يا لطيفاً بالعباد في الشبيه بالمضاف، ويا زيداً وعمراً في العطف (ابن مالك، ١٩٩٢م، ١٢٩٥/٣-١٢٩٦).

وافق أبو الفداء البصريين في تعليل بناء المنادى؛ لأنّه أشبه (كاف) الخطاب، فكلاهما مبنيان، فلما أشبه (كاف) الخطاب، وجب أن يكون مبنياً.

ويرى الباحثان أنّ ما ذهب إليه أبو الفداء في اختياره لبناء المنادى المفرد العلم هو الراجح بناءً على وجاهته وقوة الحجج الواردة فيه.

٣/ دخول (يا) النداء على ما فيه (أل)

المشهور أنَّ حرف النداء لا يدخل على ما فيه (أل)، وقد منع البصريون وسيبويه الجمع بينهما وأجازوا اجتماع (ياء) النداء و(أل) في نداء اسم الجلالة أو ما يسمى به نحو: الرجلُ منطلقٌ، يعني إذا سميته رجلاً: الرجلُ منطلقٌ، جاز أن تناديه فتقول: يالرجلُ منطلقٌ، نداء ما فيه الألف واللام، وقد علّل الخليل سبب عدم دخول الألف واللام في النداء من قبل أنّ كل اسم في النداء مرفوع معرفة، فإذا قلت: يا رجلُ ويا فاسقُ، فمعناه كمعنى: يا أيّها الفاسقُ، فصار معرفةً، لأنّك أشرت إليه وقصدت قصده، واكتفيت بهذا عن الألف واللام (سيبويه، ١٩٨٨م، ١٨٥/١)، كما ذهب إلى الرأي نفسه الزمخشري (الزمخشري، ٦٦)، وابن يعيش (ابن يعيش، ٢٠٠٣م، ٢٧٥/١)، فحروف النداء لا تجامع ما فيه الألف واللام، وإذا أُريد ذلك يُوصل إليه بـ(أيّ) و(هذا) والعلة في ذلك أمران (ابن يعيش، ٢٠٠٣م، ٢٧٥/١):

أحدها: أنَّ الألف واللام تفيدان التعريف، والنداء يفيد تخصيصاً.

الثاني: أنَّ الألف واللام تفيدان تعريف العهد وهي بمعنى الغيبة، وذلك أنَّ العهد يكون بين اثنين في ثالث غالباً، والنداء خطاب لحاضر، فلم يُجمع بينهما لتنافي التعريفين.

وقد اتفق أبو الفداء مع البصريين فيما ذهبوا إليه، وقال: (إنَّ دخول (ياء) النداء على ما فيه (أل) لا يجوز إلَّا في اسم الجلالة، إمّا لكثرته، وإمّا لأنَّ اللام ليست للتعريف، أمّا ما احتج به المجوّزون من قول الشاعر (البغدادي،١٩٩٧م، ٢٩٣/٢، سيبويه، ١٩٨٨م، ١٩٦/٢):

من أجْلِكِ يا التي تيّمتِ قلبي * وأنت بخيلةٌ بالودِّ عنّي

والشاهد فيه قوله: يا التي، حيث دخلت (ياء) النداء على ما فيه الألف واللام (ابن يعيش، ٢٠٠٣م، ٣٣/٣)، فشاذٌ لا يُعتد به، ولا لمن يأتي من ذلك، ودخول (ياء) النداء هنا للضرورة (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ١٦٦/١).

وأجاز الكوفيون نداء ما فيه الألف واللام نحو: يا الغلام، واحتجوا بقول الشاعر (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٢٧٤/١، البغدادي، ١٩٩٧م، ٢٩٤/٢):

فيا الغلامانِ الّذانِ فرّا * إيّاكُما أنْ تكْسِباني شرّا

وموضع الشاهد قوله: فيا الغلامان، حيث جمع بين حرف النداء و(أل) (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٢٧٤/١)، وقد رُدّ هذا الرأي بما تمّ بسطه من أقوال النحاة، وهو أنَّ النداء والألف واللام لا يجتمعان إلَّا في نداء اسم الجلالة في نحو: يا الله، وفيما يُحكى من الجمل نحو أن تسمي رجلاً: الرجلُ منطلقٌ (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٢٧٤/١).

وافق أبو الفداء رأي البصريين في منع نداء ما فيه الألف واللام، ووصف ما ذهب إليه غيرهم بالشاذ.

٤/ تقديم ألفاظ التوكيد المعنوي على (أجمع)

المشهور أنَّ ألفاظ التوكيد المعنوي، وهي: أكتع أتبع وأبصع وجمع وجمعاء وأجمعون، تأتي بعد (أجمع)؛ لأنّها توابع لها، وقد جوَّز بعض النحاة الابتداء بكل واحد منها دون ترتيب، ومنهم ابن كيسان من الكوفيين ومنعه آخرون (الزمخشري، ١٩٩٣م، ١٤٨).

وعند أغلب النحاة أنْ يجاء بـ(أجمع) بعد (أكتع) و(أبصع) وغيرهما من ألفاظ التوكيد (ابن مالك، ١٩٨٢م، ١١٧٢/٣)، وإليه ذهب ابن السراج (ابن السراج، ٢٣/٢)، وابن عصفور (ابن عصفور، ١٩٧١م، ٣٤٠/١)، وابن عقيل (ابن عقيل، ١٩٨٠م، ١٠/٣)، والسيوطي (السيوطي، ١٦٥/٣-١٦٧)، وقال ابن مالك: (وشذّ قول بعضهم: أجمع أكتع، وإنّما حقّ (أجمع) أن يجيء بعد (أكتع) (ابن مالك، ١٩٨٢م، ١١٧٢/٣)، واختاره أبو الفداء حيث قرّر أنَّ ألفاظ التوكيد المعنوي تأتي بعد (أجمع) خلافاً لمن أجاز الابتداء بكل واحد منها (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٢٢٢/١)، وقال الزمخشري: (وأكتعون وأبصعون، اتباعات لأجمعين ولا يجيء إلَّا على إثره (الزمخشري، ١٩٩٣م، ١٤/١). ولا يؤكد بهذه الألفاظ دون (أجمع) لأنّها توابع لها، وقد أجاز الكوفيين ذلك، ودليلهم عليه قول الراجز (ابن عقيل، ١٩٨٠م، ٣١١/٣، السيوطي، ١٦٥/٣-١٦٧):

تحْملني الذَّلفاءُ حولاً أكتعاً

والشاهد فيه قوله: حولاً أكتعاً، حيث استعمل (أكتع) من غير (أجمع) للضرورة (السيوطي، ١٦٧/٣).

وافق أبو الفداء جمهور النحاة في منعهم تقديم (أجمع) على ألفاظ التوكيد المعنوي، وهو الرّاجح، أمّا استعمال هذه الألفاظ من غير مراعاة للترتيب أو استعمالها بدون (أجمع) فهو ضرورة.

٥/ الجمع بين الفاعل والنكرة في قولهم: (نعم الرجلُ رجلاً)

اختلف النحاة في مسألة تعليل الجمع بين الفاعل والنكرة في قولهم: (نعم الرجلُ رجلاً)، فمنع سيبويه والبصريون ذلك محتجين بأنّ المقصود من المنصوب والمرفوع الدلالة على الجنس، وأحدهما كافٍ عن الآخر، وكذلك ربّما أوهم ذلك أنَّ الفعل الواحد له فاعلان، ووافقهم ابن السراج (ابن

السراج،١١٧/١)، والسيرافي (السيرافي، ٢٠٠٨م، ٣٧٤/١)، واختاره ابن يعيش (ابن يعيش، ٢٠٠٠م، ٣٩٦/٤)، وأجازه المبرد (المبرد، ١٥٠/٢)، وحجته في الجواز، الغلو في البيان والتأكيد، واختاره الزمخشري (الزمخشري، ١٩٩٣م، ٣٦٢)، مستدلاً بقول جرير (جرير، ١٠٧):

تزوّد مثلَ زادِ أبيك فينا * فنعمَ الزادُ زادُ أبيك زادا

والشاهد فيه قوله: نعم الزاد زاد، حيث جمع بين الفاعل (الزاد) والمميز (زادا) للتوكيد (الزمخشري، ١٩٩٣م، ٣٦٤)، ورجّحه أبو الفداء قائلاً: (واعلم أنّه يجوز الجمع بين الفاعل الظاهر وبين النكرة المميزة تأكيداً للفاعل الظاهر فتقول: نعم الرجلُ رجلاً زيدٌ، وهو جمع بين المفسِّر والمفسَّر) (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٥٤/٢).

أجاز أبو الفداء الجمع بين الفاعل الظاهر وبين النكرة المميزة، وهو القول الرّاجح؛ لاستناده إلى حجج قوية في التعليل والتنبيه إلى أنَّ هذا هو الأصل (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٥٤/٢).

وهنا يلحظ الباحثان أنَّ أبا الفداء قد خالف البصريين، وهذا دليل على أنّه لا يؤيد إلَّا ما يراه صحيحاً وموافقاً لأصول النَّحو.

٦/ اختصاص (ربّ) بالنكرة الموصوفة

رأي النحاة القدامى وعلى رأسهم ابن السراج أنَّ (ربّ) يجب أنْ تختص بالنكرة وتكون موصوفة بها على الأرجح لتحقيق التعليل الذي هو مدلول (ربّ)، لأنَّه إذا وُصف الشيء صار أخص ممّا لم يُوصف، كما أنَّ اتصال الصفة بالموصوف يغني عن الإضافة (ابن السراج، ٤١٧/١-٤١٨)، وقد مال أبو الفداء إلى هذا الرأي الذي يشترط اختصاص (ربّ) بالنكرة، وأن تكون موصوفة بها (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٧٢/٢)، أمّا عند سيبويه والكوفيين فلا يُشترط ذلك، قال سيبويه: (إذا قلت: ربّ رجلٍ يقول ذاك، فقد أضفت القول إلى الرجل) (سيبويه، ١٩٨٨م، ٤٢١/١)، أي: فقد تحتاج إلى صفة من مفرد أو جملة أو شبهها (ابن هشام، ٤٧/٢-٤٨)، ومنه قول الشاعر (ابن هشام، ١٤٥/٢، الأزهري، ٢٠٠٠م، ١٨/٢، البغدادي، ١٩٩٧م، ٣٨١/٢):

فيا ربّ مَوْلُودٍ ليس له أبٌ * وذي ولدٍ لم يَلَدْه أبوانِ

والشاهد فيه قوله: فيا ربّ مولودٍ، حيث إنَّ الوصف غير لازم (سيبويه، ١٩٨٨م، ٤٢١/١).

وافق أبو الفداء على مجيء (ربّ) مختصة بنكرة وموصوفة بها، وهو الرأي الأرجح الذي يتحقق فيه التعليل الصحيح.

٧/ القول في نصب خبر (كان)

ذهب البصريون إلى أنَّ خبر (كان) نُصب نصب المفعول لا على الحال، لأنَّهما يقعان ضميراً في نحو قولهم: كناهم، وإذا لم تكنهم فمن ذا يكنوهم، ومنه قول الشاعر (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٣٩٦/٢):

تَنْفكُ تسمعُ ما حِييتَ بهاللكِ حتى تكونه

والشاهد فيه قوله: حتى تكونه، حيث جاء بخبر (كان) ضميراً متصلاً (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٦٧٩)، وقد وافقهم ابن هشام، زاعماً أنَّ الصواب ما ذهب إليه البصريون، حيث لا يُعدُّ خبر (كان) حالاً، لأنَّ الأصل في الحال أن يكون نكرة (ابن هشام، ٢٢٦/١)، وقال خالد الأزهري: (والصحيح مذهب

البصريين، لوروده مضمراً، ومعرفةً وجامداً، ولكونه لا يُستغنى منه، وليس ذلك في شأن الحال (الأزهري، ٢٠٠٠م، ٢٣٣/١)، ويرى أبو الفداء أنّ نصب خبر (كان) تشبيهاً له بالمفعول، لأنّها رُفعت إلى فعل تستند إليه كسائر الأفعال، فلما رفعت الأول نصبت الثاني على التشبيه بالمفعول (أبو الفداء، ٢٠٠٠م، ٧٦/٢). وإلى اختيار مذهب البصريين أشار ابن الناظم بقوله (ابن الناظم، ٢٠٠٠م، ٩٢):

ترفعُ كان المبتدأ اسماً والخبر * وتنصبه ككان سيداً عمر

أمّا الكوفيون والفراء فيرون أنّه منصوب على الحال، ووجه الدليل على ذلك أنَّ (كان) فعلٌ غير متعدٍّ كـ(ضرب)، فإنّه يقع على الواحد والجمع، تقول: ضرباً رجلاً وضرباً رجالاً، ولا يجوز ذلك في (كان)، فإن لم يكن متعدياً، وجب أن يكون منصوباً نصب الحال، كما أنّه يجوز أن يُكنى عن الفعل الواقع نحو: ضربتُ زيداً، فتقول فيه: فعلتُ بزيد، ولا تقول في كنت أخاك: كنتُ بأخيك (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٢٧٦/٢). وقد اعترض ابن الأنباري والصبان على دعوى الكوفيين، لأنَّ (كان) ليست بمنزلة (ضرب) فإنّ (ضرب) فعل حقيقي يدلُّ على حدث وزمان والمرفوع به فاعل حقيقي، أمّا (كان) فليست فعلاً حقيقياً، بل يدلُّ على الزمان المجرد عن الحدث، وأيضاً إنَّ شروط الحال لا تتوافر في (كان) الناقصة دون التامة التي بمعنى (وقع) (ابن الأنباري، ٢٠٠٣م، ٢٧٦/٢، الصبان، ١٩٩٧م، ٣٣١/١).

وافق أبو الفداء البصريين في تعليله لنصب خبر (كان) تشبيهاً له بالمفعول، وهو القول الراجح لاستناده إلى الأدلة الصحيحة.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وصحبه مع التسليم، وبعد هذه الرحلة مع شخصية أبي الفداء النَّحوي وآرائه في أصول النَّحو، يجدر بنا إيجاز أهم النتائج التي تمّ التوصُّل إليها فيما يلي:

١ – وقف البحث على (خمس عشرة مسألة)، وافق فيها أبو الفداء البصريين في (أحد عشر) مسألة.

٢ – أكَّد البحث تأثُّر أبي الفداء بالبصريين في عرض ومناقشة القضايا، إلَّا أنَّ تأثُّره وتأييده للبصريين لم يمنعه من اختيار مذهب الكوفيين في بعض المسائل، التي تناولها البحث، وهذا دليل على أنّه كان يقف مع ما يراه صواباً وهادياً له من الدليل والحجة.

٣ – اعتمد أبو الفداء في تأصيله لقواعد النَّحو على السماع والقياس والتعليل.

٤ – أوضح البحث أهمية القياس والتعليل النَّحوي في ترجيح القاعدة النَّحوية، إذ لا يمكن الاستغناء عنها ولا تكون دراسة النَّحو العربي إلَّا من خلالها.

٥ – بيَّن البحث مكانة أبي الفداء بوصفه واحداً من كبار العلماء في عصره.

٦ – أثبت البحث تداخل السماع والقياس في تصنيف بعض الظواهر النَّحوية، ولكنها يفترقان في كون الصيغ التي لم ترد في السماع لا يجوز قياسها.

٧ – يُعدُّ كتاب (الكناش) في النَّحو والصَّرف من المراجع النَّحوية التي ضمت في طياتها شواهد ونصوصاً قيّمة، حيث أعمل فيها أبو الفداء فكره ونظره ووجّهها أحسن التوجيه.

٨ – استخدم أبو الفداء الشاهد بمختلف ألوانه، ولكنه أكثر من الشواهد القرآنية، لأنَّه كان حافظاً للقرآن الكريم.

٩ – اعتمد أبو الفداء على التعبير السهل في بيان وشرح القواعد النَّحوية.

المصادروالمراجع

١. إبراهيم مصطفى وآخرون، د.ت، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة.

٢. ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمّد بن عبيد الله، ١٩٩٩م، أسرار العربية، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١.

٣. ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمّد بن عبيد الله، ٢٠٠٣م، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النَّحويين البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، ط١.

٤. ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمّد بن عبيد الله، د.ت، لمع الأدلة في النّحو.

٥. ابن الحاجب، عثمان بن عم بن أبي بكر، ١٩٨٩م، أمالي ابن الحاجب، دار العماد، الأردن، دار الجيل، بيروت.

٦. ابن الحاجب، عثمان بن عمر بن أبي بكر، ٢٠١٠م، الكافية في علم النّحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١.

٧. ابن السراج، أبو بكر محمّد بن السري بن سهل، د.ت، الأصول في النَّحو، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٨. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمّد، ١٩٨٦م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، ط١.

٩. ابن الناظم، بدر الدين محمّد بن الإمام جمال الدين ابن مالك، ٢٠٠٠م، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، ط١.

١٠. ابن تغري بردي، يوسف تغري بردي، د.ت، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، مركز تحقيق التراث.

١١. ابن عصفور، علي بن مؤمن، ١٩٧١م، المقرب، مطبعة العاني، بغداد، ط١.

١٢. ابن عقيل، عبدالله بن عبد الرحمن، ١٩٨٠م، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار التراث، القاهرة، ط٢٠.

١٣. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، ١٩٧٩م، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر.

١٤. ابن كثير، الحافظ عماد الدين إسماعيل، ١٩٩٨م، البداية والنهاية، دار المعرفة، بيروت، ط٣.

١٥. ابن مالك، محمّد بن عبدالله، ١٩٦٧م، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، دار الناشر العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

١٦. ابن مالك، محمّد بن عبدالله، ١٩٨٢م، شرح الكافية الشافية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ط١.
١٧. ابن مالك، محمّد بن عبدالله، شرح تسهيل الفوائد، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١.
١٨. ابن منظور، محمّد بن مكرم بن علي، ١٤١٤هـ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣.
١٩. ابن هشام، عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله، ١٣٨٣هـ، شرح قطر الندى وبل الصدى، القاهرة، ط١١.
٢٠. ابن هشام، عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله، ١٩٨٥م، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار الفكر، دمشق، ط٦.
٢١. ابن هشام، عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله، د.ت، أوضح المسالك إلى شرح ألفية ابن مالك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٢. ابن يعيش، يعيش بن علي بن يعيش، ٢٠٠١م، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٢٣. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود، ٢٠٠٠م، الكناش في فني النّحو والصّرف، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٢٤. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود، د.ت، المختصر في أخبار البشر، دار المعارف، القاهرة، ط١.
٢٥. أبو حيان، محمّد بن يوسف بن علي، ١٩٩٧م، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، دار القلم، دمشق، ط١.
٢٦. أبو حيان، محمّد بن يوسف بن علي، ١٩٩٨م، ارتشاف الضرب من لسان العرب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١.
٢٧. أبو حيان، محمّد بن يوسف بن علي، ١٩٩٩م، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، ط١.
٢٨. أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، ١٩٨٧م، المسائل الحلبيات، دار المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١.
٢٩. أبو علي الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، ٢٠٠٤م، المسائل المنثورة، دار عماد للنشر، الأردن، ط١.
٣٠. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد، ١٩٧١م، كتاب الصناعتين، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
٣١. الأزهري، خالد بن عبدالله بن أبي بكر، ٢٠٠٠م، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النَّحو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

٣٢. الأسترأباذي، محمّد بن الحسن الرضي، ١٩٧٥م، شرح شافية ابن الحاجب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.
٣٣. الأشموني، علي بن محمّد بن عيسى أبو الحسن، ١٩٩٨م، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٣٤. الأفغاني، سعيد بن محمّد بن أحمد، ١٩٩٦م، من تاريخ النّحو العربي، مكتبة الفلاح.
٣٥. البغدادي، عبد القادر بن عمر، ١٩٩٧م، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤.
٣٦. الجرجاني، علي بن محمّد بن علي الزين الشريف، ١٩٨٣م، كتاب التعريفات، دار الكتب العليمة، بيروت، ط١.
٣٧. جرير، ابن عطية الخطفي، د.ت، ديوانه، دار صادر، بيروت.
٣٨. حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٩. خديجة الحديثي، ١٩٨١م، موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية.
٤٠. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمّد، ٢٠٠٢م، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥.
٤١. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، ١٩٩٣م، المفصّل في صنعة الإعراب، مكتبة الهلال، بيروت، ط١.
٤٢. السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين، ١٩٤٥م، شرح أشعار الهذليين، مكتبة دار العروبة، القاهرة.
٤٣. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله، ١٩٩٢م، نتائج الفكر في النّحو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٤٤. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، ١٩٨٨م، الكتاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣.
٤٥. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، ١٩٨٩م، الاقتراح في أصول النّحو وجدله، دار القلم، دمشق، ط١.
٤٦. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، د.ت، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، المكتبة التوفيقية، مصر.
٤٧. الشلوبين، أبو علي عمر بن محمّد، ١٩٨٤م، شرح المقدمة الجزولية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢.
٤٨. الشوكاني، محمّد بن علي، د.ت، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٤٩. الصبان، أبو العرفان محمّد بن علي، ١٩٩٧م، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

٥٠. عباس حسن، د.ت، النّحو الوافي، دار المعارف للنشر، ط١٥.
٥١. الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد، ١٩٩٨م، المنخول في تعليقات الأصول، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٣.
٥٢. المالقي، أحمد بن عبد العزيز، ١٩٨١م، رصف المباني في شرح حروف المعاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١.
٥٣. المبرد، محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر، د.ت، عالم الكتب، بيروت.
٥٤. محمد سمير نجيب اللبدي، ١٩٨٨م، معجم المصطلحات النّحوية والصّرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمان.
٥٥. المرادي، أبو محمّد بدر الدين حسن بن قاسم عبدالله، ١٩٩٢م، الجنى الداني في حروف المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٥٦. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمّد بن إبراهيم، د.ت، مجمع الأمثال، دار المعرفة، بيروت.

استخدام تحليل الانحدار لمعرفة أثر التضخم والإنفاق الحكومي على انخفاض سعر الصرف في السودان (1989- 2019م)

د. سيف الدين حسن عبيد إبراهيم
د. عبد الخالق دينار عبد الله إبراهيم
د. خالد رحمة الله خضر قناوي

المستخلص:
تنبع أهمية الدراسة من أنه يتناول أثر العوامل على انخفاض سعر صرف الجنيه السوداني مقابل العملة الاجنبية الدولار، والذي يؤثر على اقتصاد الدولة وهو موضوع مهم وحديث وذلك من خلال تتبع معدلات تغيير السياسات المالية والنقدية في بنك السودان المركزي باعتباره الركيزة الأساسية فى الدولة والتي يعتمد عليها الاقتصاد بصورة مباشرة. وتتمثل أهداف الدراسة في معرفة الأسباب التي تؤدى الى ارتفاع اسعار العملة الأجنبية ومحاولة معالجتها وتحليل ابعاد الحلول الممكنة لاستقرار العملة الأجنبية. استخدم الباحث المنهج الوصفي على متغيرات متمثلة فى التضخم، الإنفاق الحكومي واثرها على العملات الأجنبية، استخدم الباحث المنهج التحليلي عن طريق تحليل الانحدار والانحدار المتدرج لتتبع ارتفاع اسعار الملات الأجنبية لإيجاد اثر العوامل على ارتفاع سعر صرف الجنية السوداني مقابل العملة الأجنبية (الدولار). توصلت الدراسة الي ان هنالك ارتباط طردي موجب بين المتغيرات التي قيد الدراسة متمثلة فى (الانفاق الحكومي والتضخم) وسعر الصرف وهنالك علاقة طردية بين الناتج المحلي الإجمالي وسعر الصرف.

الكلمات المفتاحية: التضخم - الانفاق الحكومي - سعر الصرف.

المقدمة:

إن ارتفاع وانخفاض الدولار يعني قدرة الدولة على حشد وامتلاك القوة الشاملة وتهيئة الأوضاع المطلوبة لتحقيق المصالح الوطنية فبالتالي فإن التحكم فى ارتفاع وانخفاض الدولار يهدف لتحقيق المصلحة العامة وبهذا يتضمن بلورة المسار الاقتصادي للدولة التي يجعلها تسير بانتظام طول فترة استقرار اسعار الدولار بالتالي فإن أسلوب تحليل الانحدار من الاساليب التي تستخدم لمعرفة العلاقة بين بين المتغيرات التي قيد الدراسة ومن خلاله يمكن التوصل الى المتغيرات التي تعيق تطور وتقدم الدول النامية ، السودان يعتبر من الدول النامية على الرغم من وفرة الموارد التي يمكن ان ينعم بها المواطن اذا تم استخدامها بالصورة الصحيحة ، او الاستخدام الامثل للموارد.

ويعتبر الدولار من أكثر العملات النقدية المتداولة حول العام وهو من الركائز الأساسية في استقرار الدولة إذا تم استخدامه بالصورة المطلوبة لذا باستقراره يكون الاقتصاد فى استقرار تام مما يؤثر ايجابياً على المواطن السوداني.

تكمن مشكلة البحث في المحاور التالية:

١. ارتفاع أسعار العملة الاجنبية الدولار بصورة ملحوظة منذ العام ١٩٨٩م.

٢. الاستخدام الغير سوي للموارد المتاحة فى الدولة والتي لها علاقة مباشرة باستقرار العملة الأجنبية الدولار.

أهمية البحث: تأتي أهمية البحث من أنه يتناول أثر العوامل على انخفاض سعر صرف الجنيه السوداني مقابل العملة الاجنبية الدولار، والذي يؤثر على اقتصاد الدولة وهو موضوع مهم وحديث وذلك من خلال تتبع معدلات تغيير السياسات المالية والنقدية فى بنك السودان المركزي باعتباره الركيزة الاساسية فى الدولة والتي يعتمد عليها الاقتصاد بصورة مباشرة.

تتمثل أهداف الدراسة في الآتي: معرفة الأسباب التي تؤدى الى ارتفاع أسعار العملة الأجنبية ومحاولة معالجتها. وتحليل أبعاد الحلول الممكنة لاستقرار العملة الأجنبية.

تمثلت فروض الدراسة فى الفرع الرئيس التالي:

هنالك علاقة ذات دلالة إحصائية بين عوامل سعر الصرف وسعر الصرف **وتتفرع منه الفرضيات الفرعية التالية:**

١. هنالك علاقة ذات دلالة إحصائية بين الإنفاق الحكومي وارتفاع سعر الصرف.
٢. هنالك علاقة ذات دلالة إحصائية بين التضخم وارتفاع سعر الصرف.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي علي متغيرات متمثلة فى الصادر والواردات، التضخم، الميزان التجاري، السياسات المالية والناتج المحلى والدخل القومي الإجمالي واثرها على العملات الأجنبية، استخدم الباحث المنهج التحليلي عن طريق تحليل الانحدار والانحدار المتدرج لتتبع ارتفاع أسعار الملات الأجنبية لإيجاد أثر العوامل على ارتفاع سعر صرف الجنيه السوداني مقابل العملة الأجنبية (الدولار).

الدراسات السابقة:

١. دراسة عباس عبدالله (٢٠٠٦):

هدفت هذه الدراسة للتعرف على أثار سياسات سعر الصرف على القطاع المصرفي السوداني من خلال دراسة حالة بنك التضامن الإسلامي والنبك الفرنسي السوداني ومصرف المزارع التجاري، وذلك بالتركيز على الودائع والتمويل المصرفي خلال الفترة (٢٠٠٠م-٢٠٠٦م) .(عباس ،٢٠٠٦.) وتوصلت إليها الدراسة:

١. عدم تأثر الودائع الجارية بالعملتين المحلية والأجنبية بتغيرات سعر الصرف للمصارف محل الدراسة.
٢. تباين حجم الودائع الاستثمارية بالعملة الأجنبية للبنك السوداني الفرنسي وتزيدها لبنك التضامن الإسلامي ومصرف المزارع التجاري خلال اكتوبر٢٠٠٤م ومارس ٢٠٠٦م.
٣. انخفاض حجم تمويل القطاع الصادر للمصارف محل الدراسة وتباين قطاع الاستيراد بنك التضامن الإسلامي ومصرف المزارع التجاري ويقوم بنك التضامين الإسلامي بتمويل هذا القطاع عن طريق المرابحات الدولارية.

من أهم التوصيات التي جاءت بها الدراسة:

١. ضرورة ضخ موارد كافية من النقد الأجنبي للمصارف التجارية مع تخفيض القيود المفروضة عليها وتسهيل إجراءات السحب والإيداع من حساباتها طرف البنك المركزي.

٢. ضرورة معالجة مشاكل تحويل الودائع بالعملات الأجنبية إلى عملات محلية لتمويل الاستيراد بالعملة الأجنبية وتفعيل دورها في تطبيق الصيغ الأخرى كالإجارة والمقاولة والاستصناع والسلم.

٢. دراسة رانيا عثمان (٢٠٠٦م):

وتلخصت مشكلة الدراسة في (رانيا، ٢٠٠٦)

تعدد وتنوع السياسات المتبعة من قبل البنك المركزي تجاه سعر الصرف والبحث عن مدى إسهام تلك السياسات في:

١. استقرار سعر الصرف.
٢. خلق سوق موحد للنقد.
٣. تحقيق التوازن الخارجي في الاقتصاد السوداني وذلك من خلال تسليط الضوء على تلك السياسات خلال الفترة من ١٩٩٢م -٢٠٠٢م.

وتوصلت الدراسة للنتائج التالية:

١. الطرق والأساليب التي اتبعها البنك المركزي في تحديد سعر الصرف مدت بتجارب عديدة خلال الفترة من عام ١٩٩٢م -٢٠٠٢م وذلك وفقاً لمتطلبات كل مرحلة من مراحل المتعلقة بإدارة سعر الصرف.
٢. دخول الصرافات كآلية جديدة في سوق النقد الأجنبي أسهم في استقرار سعر الصرف فأصبح لها دور مؤثر في سوق النقد الأجنبي إلى جانب المصارف التجارية والمصدرين والمستوردين.
٣. استطاع بنك السودان من خلال السياسات التي تبناها أن يضيق الفجوة بين سعر الصرف الرسمي والموازي.

وأوصت الدراسة بالآتي:

١. لا بد أن يتوافر احتياطي كافي من النقد الأجنبي لدى البنك المركزي حتى يستطيع مقابلة طلبات البنوك والصرافات وبالتالي يستطيع من خلال ذلك القضاء على السوق الموازي أو تضيق الفجوة بينه وبين السوق الرسمي.
٢. على البنك المركزي أن يواصل في سياسة الفعالة للمحافظة على استقرار سعر الصرف واتخاذ كافة السبل والوسائل لتلافي كل الأثار السالبة التي قد تنتج من ارتفاع قيمة العملة المحلية.
٣. تؤثر سياسات الصادر والوارد بشكل مباشر على سعر الصرف؛ لذا على البنك المركزي إتباع السياسات التي تحقق له التوازن والخارجي في الاقتصاد والاستقرار في سعر الصرف.
٤. لا بد من تحفيز وتشجيع شركات الصرافة لأنها تمثل أحد العوامل التي أدت إلى استقرار سعر الصرف في الفترة التسعينات.
٥. استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي التاريخي.

دراسة عبد السلام أحمد (٢٠٠٦): (عبد السلام، ٢٠٠٦)

اتبع الدراس المنهج التحليلي الكمي والوصفي والتاريخي.

وتلخصت مشكلة الدراسة في:

إن السودان خلال يعاني ولفترات طويلة من تعدد سعر الصرف، الأمر الذي أدى إلى اختلالات في بنوية (هيكلية) في ميزان المدفوعات وانعكس ذلك سلباً على مجمل الأداء الاقتصادي في البلاد، وذلك بتأثير على الحساب التجاري بشقيه السلعي وغير السلعي.

توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

١. وجود علاقة طردية بين قيمة الصادرات وسعر الصرف.
٢. وجود علاقة عكسية بين قيمة الصادرات وسعر الصرف.
٣. وجود علاقة طردية بين الإيرادات غير المنظورة وسعر الصرف.

وأوصت الدراسة بـ:

١. العمل على استقرار سعر الصرف للجنيه السوداني؛ إذ أن التغيرات المستمرة أثرت على حركة الحساب الجاري بشقيه السلعي وغير السلعي.
٢. العمل على إيجاد بدائل أخرى لتركيبة الصادرات غير البترولية، مثلاً: التوجه إلى الصادرات الصناعية نسبة لأن الصادرات غير البترولية توصف بأنها صادرات زراعية بشقيها الحيواني والنباتي سواء كانت مصنعة أو غير مصنعة.

الانفاق الحكومي:

يمكن أن يشكل الإنفاق الحكومي أداة مفيدة للسياسة الاقتصادية للحكومات. ويمكن تعريف السياسة المالية على أنها استخدام الإنفاق الحكومي أو الضرائب كآلية للتأثير على الاقتصاد. هناك نوعان من السياسة المالية: السياسة المالية التوسعية والسياسة المالية الانكماشية. السياسة المالية التوسعية هي زيادة في الإنفاق الحكومي أو انخفاض الضرائب، والسياسة المالية الانكماشية هي انخفاض في الإنفاق الحكومي أو زيادة في الضرائب. يمكن أن تستخدم الحكومات السياسة المالية التوسعية لتحفيز الاقتصاد أثناء الركود. على سبيل المثال: تؤدي الزيادة في الإنفاق الحكومي إلى زيادة الطلب على السلع والخدمات بشكل مباشر، الأمر الذي يمكن أن يساعد في زيادة الإنتاج والعمالة. من ناحية أخرى: يمكن للحكومات استخدام السياسة المالية الانكماشية لتهدئة الاقتصاد خلال النمو الاقتصادي. يمكن أن يساعد انخفاض الإنفاق الحكومي في السيطرة على التضخم. يمكن تغيير الإنفاق الحكومي على المدى القصي إما عن طريق الاستقرار التلقائي أو الاستقرار التقديري خلال فترات الركود الاقتصادي. يحدث الاستقرار التلقائي عندما تقوم السياسات الحالية بتغيير الإنفاق الحكومي أو الضرائب تلقائيًا استجابة للتغيرات الاقتصادية دون إقرار قوانين جديدة. يعتبر التأمين ضد البطالة مثالًا على عامل الاستقرار التلقائي، إذ يوفر مساعدة مالية للعاطلين عن العمل. يحدث الاستقرار التقديري عندما تتخذ الحكومة إجراءات لتغيير الإنفاق الحكومي أو الضرائب كاستجابة مباشرة لتغيرات الاقتصاد. على سبيل المثال: قد تقرر الحكومة زيادة الإنفاق الحكومي

نتيجة للركود. يجب على الحكومة في حالة الاستقرار التقديري إقرار قانون جديد لإجراء تغييرات في الإنفاق الحكومي.

كان جون مينارد كينز من أوائل علماء الاقتصاد الذين دافعوا عن فكرة الإنفاق الحكومي على العجز كجزء من استجابة السياسة المالية للانكماش الاقتصادي. ووفقًا له ترفع زيادة الإنفاق الحكومي الطلب الكلي وتزيد الاستهلاك مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج وتعافي سريع من الركود. يعتقد علماء الاقتصاد الكلاسيكي أنَّ زيادة الإنفاق الحكومي يفاقم الانكماش الاقتصادي عن طريق تحويل الموارد من القطاع الخاص الذي يعتبرونه منتجًا إلى القطاع العام الذي يعتبرونه غير منتج.

الاستخدام الحالي: نفقات الاستهلاك النهائي:

تسمى نفقات الحكومة على السلع والخدمات لتلبية الاحتياجات الفردية أو الجماعية لأفراد المجتمع بشكل مباشر نفقات الاستهلاك النهائي الحكومية. وهو شراء السلع والخدمات من الحسابات القومية واستخدام حساب الدخل تلبية للاحتياجات الفردية مباشرة (الاستهلاك الفردي) أو الاحتياجات الجماعية لأفراد المجتمع (الاستهلاك الجماعي).

إنفاق الدفاع الوطني:

تنفق الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من أية دولة أخرى على الدفاع الوطني. إذ تشير البيانات إلى إنفاق الولايات المتحدة الأمريكية ما يقرب من ٣ أضعاف ما تنفقه الصين على الجيش وهي ثاني دولة في أكبر إنفاق عسكري.

الرعاية الصحية والابحاث الطبية:

وجدت مؤسسة الأبحاث الأسترالية أنَّ ٩١٪ من الأستراليين يعتقدون أن تحسين المستشفيات والنظام الصحي يجب أن يكون على رأس أولويات الإنفاق للحكومة الأسترالية.

تسمى النفقات الحكومية التي لا تستهدف السلع والخدمات (والتي تمثل تحويلات الأموال مثل مدفوعات الضمان الاجتماعي) مدفوعات تحويلية. تعتبر هذه الدفعات غير محصورة لأنها لا تستهلك الموارد بشكل مباشر ولا تنتج المخرجات. أي تجرى التحويلات دون تبادل السلع أو الخدمات. تشمل بعض المدفوعات التحويلية الرفاهية (المساعدة المالية) والضمان الاجتماعي وتقديم الدعم الحكومي لبعض الشركات.

نصيب الفرد من الإنفاق:

أنفقت الحكومات الوطنية وسطياً ٢٣٧٦ دولاراً للشخص الواحد في عام ٢٠١٠م، في حين أنَّ متوسط الاقتصادات العشرين الأكبر في العالم (من حيث الناتج المحلي الإجمالي) كان ١٦١١٠ دولارًا للشخص الواحد. أنفقت النرويج أكثر من ٤٠٩٠٨ دولارًا والسويد ٢٦٧٦٠ دولارًا للفرد. أنفقت الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية ١١٠٤١ دولارًا للفرد. تشمل أرقام إنفاق الدول ذات الاقتصادات الكبيرة الأخرى كوريا الجنوبية (٤٥٥٧ دولارًا) والبرازيل (٢٨١٣ دولارًا) وروسيا (٢٤٥٨ دولارًا) والصين (١٠١٠ دولارًا) والهند (٢٢٦ دولارًا).

الإنفاق الحكومي كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي:

هذه هي قائمة البلدان حسب الإنفاق الحكومي كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي، للبلدان المذكورة، وفقا لمؤشر الحرية الاقتصادية ٢٠١١، من قبل مؤسسة هيريتاج الإنجليزية، وصحيفة وول ستريت جورنال. يتم تضمين ضريبة الدخل لأغراض المقارنة.

التضخم:

يعتبر التضخم انعكاسا نتيجة للسياسات الاقتصادية المتبعة، وفي واقع الأمر فإن وجود التضخم في الاقتصاد يعني فشل السياسات الاقتصادية في تحقيق أحد أهم أهدافها ألا وهو هدف الحفاظ على الاستقرار العام للأسعار.

عرفت البشرية ظاهرة ارتفاع الأسعار من أقدم العصور إبان حضارات الشرق الأوسط إذ كانت قيمة العملة من المعدن الثمين تتأثر بكمية الذهب المتوفرة، فتتعرض قيمة النقود إلى الانخفاض عند اكتشاف مناجم ذهب جديدة أو نتيجة تطور طرق تعدين الذهب وزيادة كميته، ولم يجد الاقتصاديون الحلول المتعلقة بهذه الظاهرة اذ كثيراً ما نسمع في العصر الحاضر لفظ التضخم يتردد حيث شغلت هذه الظاهرة بال رجال السياسة والاقتصاد على السواء، نظرًا للأثار السلبية التي قد تخلفها سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الاجتماعية في الدول المتقدمة والدول النامية.

توصل كنيز إلى أن التضخم هو زيادة حجم الطلب الكلي على حجم العرض الحقيقي زيادة محسوسة مستمرة، مما يؤدي إلى حدوث التضخم.

ماهية التضخم:

يعرف التضخم على أنه الارتفاع المستمر والملموس في المستوى العام الأسعار في دولة ما ويحسب ما يسمى بمعدل التضخم وفقا للمعادلة التالية:

معدل التضخم = المستوى العام للأسعار (في سنة ما) – المستوى السنوي العام (في السنة السابقة) / المستوى العام للأسعار للسنه السابقة * ١٠٠

بيد أن العودة إلى التعريف السابق توحي بوجود ركنين رئيسين لظاهرة التضخم وهذان هما:

١- المستوى العام للأسعار: إن التضخم يقاس بمعيار ما يسمي المستوى العام للأسعار على أنه المتوسط الترجيحي لأسعار مجموعة. السلع والخدمات المستخدمة أو المستهلكة في بلد ما.

٢- أن التضخم هو ارتفاع ملموس ومستمر في المستوى العام للأسعار والمقصود هنا أمران: الأول، أن يكون ارتفاع الأسعار واضحا ومحسوساً في المجتمع والثاني، أن يكون ذلك الارتفاع الملموس ممتداً على فترة من الزمن. فقد بات من المتعارف عليه أن معدلات التضخم التي تقل من (٥٪) تعتبر ضمن الإطار المقبول لزيادة الأسعار. بيد أن ارتفاعها فوق ذلك الحد يترك أثراً ملموسا على ما يسمى بالقوة التي يتعامل معها المواطن العادي. والقوة الشرائية للنقود أو الدخل هي كمية السلع والخدمات التي يمكن الحصول عليها مقابل مبلغ معين، فالقوة الشرائية لمئة دينار مثلاً هي مجموعة السلع، مثل الخبز والدجاج والأدوات الكهربائية، وكذلك الخدمات، مثل النقل الكهرباء المياه، التي يمكن للفرد الحصول عليها مقابل هذا المبلغ. والموارد قوله هنا أن الارتفاع المستمر والملموس في المستوى العام

للأسعار سيترك شعوراً حقيقياً بتأرجح قدرة الأفراد في مجتمع ما على الحصول على احتياجاتهم بشكل عام. ومن هنا فإن مفهوم التضخم يقضي أيضا بأن يكون ذلك الارتفاع مستمراً وعلى مدى فترة من الزمن. فإذا ارتفعت الأسعار لسبب ما في سنة معينة ثم عادت إلى المستوى المقبول لها فإن ذلك لا يمكن أن يعني أن هنالك مشكلة تضخم حقيقة. وأخيراً وليس آخراً يشير هذا الركن من تعريف التضخم إلى أن التضخم هو ارتفاع ملموس أو كبير في الأسعار، ذلك أن الارتفاع البسيط أو المتواضع لن يشكل عبئا حقيقيا على دخول الأفراد ولن يشعر به عامة الناس (خالد، ٢٤٩ -٢٥٢).

أسباب و أنواع التضخم ;types of Inflation

يصنف الاقتصاديون ثلاثة اسباب للتضخم تعتبر انواع التضخم في الأدبيات الاقتصادية. أما النوع او السبب الأول فهو التضخم العائد لحجم الطلب او ما يعرف بتضخم سحب الطلب أما النوع الثاني فهو التضخم العائد للنفقة وهناك نوع ينجم عن السببين السابقين سوياً ويسمي، دفع التكلفة (خالد، ٢٥٦) ثم هناك أخيراً التضخم المستورد التضخم المشترك تضخم سحب الطلب demand pull inflation ينشأ هذا النوع من التضخم نتيجة لزيادة حجم النقود لدى الأفراد مع ثبات حجم السلع والخدمات المتاحة فى المجتمع. ويقال هنا أن هناك نقودا كثيرة تطارد سلعا قليلة. وهذا بدورة يؤدي إلى الأسعار بشكل مستمر ومتزايد مما يخلق تضخماً ملموساً. ولعل أهم الأسباب المؤدية إلى مثل هذا النوع هي ما يسمى بعجز الموازنة العامة، Fiscal Deficit أو العجز المالي فعندما يفوق الإنفاق الحكومي الايرادات الحكومية ينشأ العجز المالي، وعند قيام الدولة بتغطية العجز عن طريق إصدار النقود أو طبع النقود من خلال البنك المركزي فإن ذلك سيؤدي إلى حقن الاقتصاد بكميات من النقود لا يقابلها توسع فى القاعدة الإنتاجية للبلاد، مما يخلق أحجاماً كبيرة مع ثبات الإنتاج، وهذا بدوره سينعكس فى شكل زيادة أسعار وحدوث التضخم.

التضخم فى السودان:

أهم مؤثر على معدلات التضخم هو اداء الميزانية العامة خاصة حجم عجز الميزانية ومصادر تمويله. أن اللجوء من الاستناد من النظام المصرفي او تسير الأرصدة الاجنبية بهدف تمويل عجز الميزانية يشكل المصدر الرئيس لضخ السيولة النقدية في الاقتصاد، وبالتالي السبب الرئيس لمعدلات التضخم العالية، ان معدلات التضخم أخذت فى تصاعد منذ ١٩٧٠م الى بلغ المعدل ١٢١٪ فى عام ١٩٩١م مما يشير الى التدهور المتسارعة والمستمر فى الاقتصاد. ولزام هذا التصاعد فى معدلات التضخم وتوسع المستمر فى عجز الميزانية العامة وتمويلها من النظام المصرفي، اذ بلغ متوسط العجز فى الميزانية خلال العام ١٩٧٦م-١٩٨٩م ١٠٪ من الناتج المحلى الإجمالي مما يؤكد الخلل فى السياسات المالية. قد تدهور الأداء المالي كثيراً بعد عام ١٩٨٤م نتيجة لتدهور الحاد فى الإيرادات العامة فى حين احتفظت المصرفات العامة بالمستوى نموها البالغة نسبته حوالي ٢٢٪ من الناتج المحلى الاجمالي. بذلك ارتفعت نسبة العجز الى الناتج المحلى الاجمالي من متوسط ١٠٪ فى الفترة ١٩٧٦م-١٩٨٤م الى حوالي ١٣٪ فى الفترة ١٩٨٥م- ١٩٨٩م وللوقوف على أسباب الخلل المالي لا بد من الرجوع الى هيكل الميزانية العامة خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات والعوامل التي أثرت على جانبي الإيرادات والمصرفات.

سعر الصرف

إن تشابك العلاقات الاقتصادية والنشاط التجاري بين دول العالم المختلفة والتي لكل منها عملة وطنية مختلفة أدى إلى وجود ما يسمى بسعر الصرف الأجنبي، حيث ترتب على تداخل مصالح الدول واتساع المبادلات التجارية، وقيام التبادل بين مختلف دول العالم القيام بعلاقات دائنة ومدينة متبادلة ومن أهم المشكلات التي تبرز في التبادل الدولي خاصة بعد اتجاه العديد من دول العالم إلى تعويم عملاتها هي مشكلة العلاقة بين العملة المحلية والعملات الأجنبية، وهو ما أدى إلى نشوء أسواق الصرف الأجنبية حيث تباع وتشترى العملات، وعادة ما تتعرض عملات الأقطار المختلفة لتقلبات وتغيرات مستمرة نتيجة تشابك عوامل عديدة تنجر عنها مخاطر في المعاملات الاقتصادية الدولية، فيصعب على المتعاملين الاقتصاديين في كثير من الأحيان تفاديها أو تغطيتها مما يتسبب في حدوث خسائر كبيرة.

ومن هنا تظهر أهمية دراسة سعر الصرف، كل تأثيراته المختلفة على الاقتصاد الوطني كونه يؤثر على كل المتغيرات الاقتصادية الكلية وحجم التجارة الخارجية وبالتالي على وضعية الميزان التجاري وميزان المدفوعات.

مفاهيم حول سعر الصرف:

يعتبر سعر الصرف من أهم المتغيرات الاقتصادية التي تؤثر على مجال المعاملات الاقتصادية الدولية، إذ يعكس العلاقات المترابطة بين الاقتصاديات الدولية كما يعبر عن المكانة الاقتصادية للدول ويتم تحديد سعر الصرف كأي سلعة وفقا لقوى السوق(العرض و الطلب) في سوق الصرف بدلالة نظام الصرف المعتمد من الأنظمة المتعارف عليها، ولقد تعددت النظريات المفسرة لتغيرات سعر الصرف تبعا لتعدد أنظمته ، دون أن تستطيع إعطاء تفسير دقيق و محدد لهذا التغير، وذلك لارتباط سعر الصرف بالعديد من العوامل كالتضخم وأسعار الفائدة قد تتسبب في خسائر كبيرة للصرف، مم استوجب اللجوء إلى مجموعة من التقنيات لتجنب هذه المخاطر وتأثيراته على المبادلات التجارية، وبالتالي على الاقتصاد الوطني للدول الذي يتأثر مباشرة بمختلف التقلبات من خلال أسعار الصادرات والواردات في صورة الميزان التجاري مما ينعكس على التنمية في هذه الدول .

ماهية سعر الصر:

إن قيام التجارة الدولية وتزايد عمليات التبادل التجاري بين الدول عن طريق التصدير والاستيراد استوجب وجود نسبة تبادل بين عملتي الدولتين، أو وجود ثمن لعملة كل دولة مقومة بغيرها من العملات وذلك من أجل تقدير أسعار السلع والخدمات في كل دولة، وهذا الثمن يسمى بسعر الصرف الأجنبي.

مفهوم سعر الصرف:

يعرف سعر الصرف بانه أداة ربط بين اقتصاد مفتوح وباقي اقتصاديات العالم من خلال معرفة التكاليف والأسعار الدولية، وبذلك يقوم هذا الأخير بتسهيل المعاملات الدولية المختلفة وطرق تسويقها.

وتتغير أسعار الصرف يوميا استجابة لتغيرات في ظروف العرض والطلب في أسواق الصرف وما يمكن استنباطه من مفهوم سعر الصرف أنه يشمل على أربعة عناصر هامة هي:

-العملية: وهي تحويل عملة بلد ما إلى عملة أخرى.

-المكان: يقصد به سوق الصرف.

-الهدف: وهو تسوية المدفوعات الدولية.

-السعر: هو علاقة التحويل الذي من خلاله يمكن الحصول على العملة الأجنبية مقابل العملة المحلية. نلاحظ أن سعر الصرف يتحدد شأنه شأن أي سعر آخر في الاقتصاد بتفاعل قوى العرض والطلب، إلا أنه ينفرد بأهمية خاصة تميزه عن سائر الأسعار في الاقتصاد المحلي، إذ يترتب على تغير هذا السعر، تغير كل الأسعار والأجور، وكل المتغيرات الاقتصادية الأخرى الجزئية منها والكلية إزاء العالم الخارجي، أي تغيير الأسعار للبلد المعني على المستوى الدولي.

أساليب تسعير العملات: يوجد طريقتان لتسعير العملات الأجنبية هما:

الطريقة الأولى: طريقة التسعير المباشر.

تبين هذه الطريقة عدد الوحدات من العملة الوطنية الواجب دفعها لشراء وحدة واحدة من العملة الأجنبية مبلغها ثابت تسمى بعملة الأساس (الطاهر، ٢٠٠٩م، ٢٢)

الطريقة الثانية: طريقة التسعير غير المباشر.

وتبين هذه الطريقة عدد الوحدات من العملة الأجنبية التي تشترى مقابل وحدة واحدة من العملة الوطنية والتي تعتبر في هذه الحالة هي المبلغ الثابت (عملة الأساس) في حين العملة الأجنبية تمثل المبلغ المتغير (مدحت، ٢٠٢١، ٩١).

حيث أن معظم دول العالم تستعمل طريقة التسعير غير المباشر في تسعير العملات بما في ذلك الجزائر، حيث يقاس الدولار الامريكي بعدد الوحدات من الدينار الجزائري كما يلي:

7دولار أمريكي 12.97 = دينار جزائري. حيث يعرض المتعاملون في الصرف الأجنبي سعرين لكل عملة، سعر البيع وسعر الشراء والفرق بين السعرين هو هامش الربح الذي يحصل عليه المتعامل، ويمثل السعر الأقل هو سعر الشراء والسعر الأعلى سعر البيع .

سعر الصرف الإسمي:

يعرف سعر الصرف الإسمي على أنه سعر عملة أجنبية بدلالة وحدات عملة محلية أو العكس، أي سعر عملة محلية بدلالة وحدات من العملة الأجنبية (بلقاسم، ٢٠٠٩، ٩) نلاحظ من هذا التعريف أهمل جانب القوة الشرائية للعملة .

يتم تحديد سعر الصرف الإسمي تبعا لقوى العرض والطلب في سوق الصرف في لحظة زمنية معينة وبدلالة نظام الصرف المعتمد في البلد، وينقسم سعر الصرف الإسمي إلى سعر الصرف الرسمي وهو السعر المعمول به فيما يخص المبادلات الجارية الرسمية، وسعر الصرف المعمول به في الأسواق الموازية، بمعنى أنه يمكن أن يوجد أكثر من سعر صرف اسمي في نفس الوقت لنفس العملة وفي بلد

واحد. (عبد المجيد، ٩٠٠٩، ٧٠٩) نستنتج أن سعر الصرف الإسمي لا يأخذ بعين الاعتبار معدلات التضخم للدول، ونتيجة لإهماله هذا الأخير فهو إذن لا يبين حقيقة العملة، ولا يعتبر معيار يعتمد عليه لقياس تنافسية الدول في الأسواق الخارجية.

سعر الصرف الحقيقي:

سعر الصرف الحقيقي هو السعر الذي يمنح العملة المحلية قيمتها الحقيقية، فهو يعبر عن الوحدات من السلع الأجنبية اللازمة لشراء وحدة واحدة من السلع المحلية (عبد المجيد، ٩٠٠٩، ٧٠١) إذ يقيس قدرة البلد على المنافسة كما يساهم في عمليةh تخاذ القرارات.

كمها أن سعر الصرف الحقيقي يقيس معدل التضخم في البلد، حيث كلما كان الفرق بين سعر الصرف الحقيقي وسعر الصرف الإسمي قليل كلما كان معدل التضخم منخفض. (حامد، ٢٠١١، ٩).

نستنتج أن سعر الصرف الحقيقي هو السعر الذي يبرز القوة الشرائية للعملة، ويفيد المتعاملين الاقتصاديين في اتخاذ قراراتهم.

إن اتجاه وميل مؤشر سعر الصرف الحقيقي نحو الارتفاع يؤدي إلى ضعف القدرة التنافسية للسلع المصدرة من حيث الأسعار، وبالمقابل فإن انخفاض هدا المؤشر يعتبر عامل إيجابي يؤدي إلى ارتفاع القدرة التنافسية وبالتالي تشجيع الصادرات، لهذا فإن لاتجاهات هذا المؤشر الحقيقي للصرف أهمية كبيرة بالنسبة لميزان المدفوعات وكذلك تطورات الأسواق السلعية والنقدية والمالية (نزار، ٢٠١٢، ١٠).

تحليل الانحدار المتعدد:

نموذج الانحدار المتعدد ويسمى أحيانا النموذج الخطي العام هو امتداد للنموذج البسيط حيث إنه يتضمن أكثر من متغير مستقل واحد، في حالة النموذج البسيط كان الأمر يعتمد على متغيرين متغير تابع والآخر متغير مستقل، لكن في حالة النموذج العام قد يتضمن عدد من المتغيرات من بينها قد يكون هناك تابع واحد والعديد من المتغيرات المستقلة.

$$Y_i = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + \ldots\ldots + \beta_k X_k + u_i$$

المتغيرات المستقلة هي X1 X2 الى X_k و β_0 هي القاطع. أي نموذج يتضمن أكثر من متغيرين يعتبر نموذج انحدار متعدد مثل نموذج الاستهلاك قد يتضمن التالي:

$$Y_i = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + \beta_3 X_3 + u_i$$

حيث YI تمثل الاستهلاك و X1 تمثل الدخل وX2 تمثل السعرX 3 الثروة. أن النماذج المتعددة تكون هي الحالة السائدة بالاقتصاد حيث انه من العسير إن تجد متغير نحدده بأنه هو المتغير التابع ومفسر من قبل متغير مفسر واحد هو الذي يؤثر على المتغير التابع، ففي العادة يتوقع كثير من التأثيرات.

في العادة تكون $\beta 1$ مضروبة في ١ وذلك للحصول على القاطع. وتمثل $\beta 3$ $\beta 2$ $\beta 1$ معلمة الميل والتي تمثل مدى استجابة المتغير التابع للتغيرات في و X1 وX2 وX 3. يتضمن نموذج الانحدار عدد من المتغيرات المستقلة يساوي K-1.

تكثر النماذج المتعددة في الاقتصاد لا نه من العسير أن نجد متغير تابع مفسر من قبل متغير واحد فقط أي متغير واحد هو الذي يؤثر على المتغير التابع. نتوقع كثير من التأثيرات فدوال الاستهلاك على سبيل المثال تتأثر بمتغير الدخل، الثروة والسعر. فتكاد تكون نماذج الانحدار المتعدد أو العام هي الحالة العامة وليس الاستثناء، الاستثناء هو النموذج البسيط.

الفروض الأساسية للنموذج العام:

هي نفس الفروض التي يستند عليها النموذج البسيط لكي نتحصل على النموذج المقدر:

١- u_i يتوزع طبيعيا.

٢- $E(u_i) = 0$ وسط يساوي الصفر. أي أنه ليس هناك خطأ تحديد، وبالتالي نتوقع أن تكون المقدرات غير متحيزة.

٣- يضيف الى افتراض افتراض ثبات التباين فرض يشمل ثبات التباين وانعدام التغاير $COV(u_i, u_j) = 0$ عندما تكون i≠j . وبالمقابل لو كانت i =j فان $COV(u_i,u_j) = COV(u_i,u_j) = V(u_i)^2$

٤- المتغيرات المستقلة غير عشوائية إي ثابتة في المعاينات المتكررة.

٥- عدد المشاهدات n يفوق عدد المتغيرات k أي أن n>K ويؤدي هذا إلى درجات حرية في حالة نموذج المتغيرين: يكون التباين $V(u_i) = \frac{\sigma^2}{n-2}$ في الحالة العامة يكون التباين $V(u_i) = \frac{\sigma^2}{n-k}$ بحيث تقيس K عدد المتغيرات المتضمنة في النموذج كافة، وكلما كانت n>k يؤدي إلى المزيد من درجات الحرية وبالتالي إلى المزيد من دقة القياس. حيث يستعمل التباين في قياس دقة المقدرات فكلما كان التباين قليل كلما كان الأمر أفضل، إذا كانت n>k النتيجة سيكون المقام كبير وتقل قيمة مقدرة التباين $\hat{\sigma}^2$ وكلما قل تباين $\hat{\beta}^2$ كلما تحسن قياسها.

٦-لا توجد علاقة خطيه بين المتغيرات المستقلة، على سبيل المثال لا توجد علاقة بين X_2،X_1 كالتالي:

$$X_2 = X_3 \quad \text{أو} \quad X_3 = 2X_4 \quad \text{أو} \quad X_2 = X_3 + X_4$$

هذه علاقات خطيه يفترض أنها لا توجد لاحظي أننا نحدد المتغيرات المستقلة فقط وبعلاقة خطيه أي أنه لا يوجد اعتراض على العلاقات الغير خطيه. ولا يوجد اعتراض على العلاقة القوية بين المتغير المستقل والمتغير التابع في الواقع يفض أن يكون هناك علاقة قوية بين المتغير المستقل والمتغير التابع، ولكن لا يكون هناك علاقات قوية تربط بين المتغيرات المستقلة بعضها مع بعض لأنه يترتب عليها شيء في غاية الخطورة وبالحد الأقصى يمكن أن يؤدي إلى انهيار طريقة المربعات الصغرى.

لا توجد علاقة خطيه محدده بين المتغيرات المفسرة. على سبيل المثال إذا كانت $2X_1 + X_2 = 4$ فإننا نستطيع أن نعبر عن X_2 بقيمة لـ X_1 ويمكن استخدامها في علاقة الانحدار $X_2 = 4 - 2X_1$

$$Y = \alpha + \beta_1 X_1 + \beta_2 (4 - 2X_1) + u$$

$$Y = (\alpha + 4\beta_2) + (\beta_1 - 2\beta_2)X_1 + u$$

نستطيع أن نقدر القيم بين الأقواس ولا نستطيع أن نقدر المعالم β_1, β_2, α بمفردها.

للحصول على النموذج المقدر نتبع إحدى الطرق التالية:

١-طريقة المربعات الصغرى.

٢-طريقة الإمكانية العظمى.

طريقة المربعات الصغرى وتطبيقها على النموذج العام:

المعيار الذي تعتمد علية المربعات الصغرى في الحصول على المقدرات حيث يتطلب المعيار تصغير مجموع مربعات البواقي ألي أدنى قيمه لها. اختبار مقدرات تعطي مربعات بواقي تعطي أدنى مجموع من بين هذه المجاميع أي أن المعيار تصغير $\sum u_i^2$

أي تحويل مربعات البواقي ألي شكل تظهر فيه المقدرات المراد الحصول عليها ويتسنى ذلك بإعادة كتابة المعيار على النحو التالي:

$$\sum u_i^2 = \sum (Y_i - \hat{\beta}_0 - \hat{\beta}_1 X_1 ..... \hat{\beta}_k X_k)^2$$

تفاضل البواقي بالنسبه لـ $\hat{\beta}_0$ ويساوى بالصفر ويعاد كذلك لقيم $\hat{\beta}_1, \hat{\beta}_2 \ldots \hat{\beta}_k$ وهكذا

$$\frac{\partial \sum u_i^2}{\partial \hat{\beta}_0} = +2\sum (Y_I - \hat{\beta}_1 X_1 - \hat{\beta}_2 X_2 ... \hat{\beta}_K X_K) = 0$$

$$\frac{\partial \sum u_i^2}{\partial \hat{\beta}_1} = -2\sum X_{I1} (Y_I - \hat{\beta}_0 - \hat{\beta}_2 X_2 - \hat{\beta}_3 X_3 ... \hat{\beta}_K X_K) = 0$$

.

.

$$\frac{\partial \sum u_i^2}{\partial \hat{\beta}_K} = -2\sum X_{IK} (Y_I - \hat{\beta}_0 - \hat{\beta}_2 X_2 - \hat{\beta}_3 X_3 ... \hat{\beta}_K X_K) = 0$$

بفك الأقواس والقسمة على 2 وإعادة كتابة المعادلات الطبيعية مقابلة للنموذج الخطي العام

$$Y_i = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + u_i$$

$$\sum u_i^2 = \sum (Y_i - \hat{\beta}_0 - \hat{\beta}_1 X_1 - \hat{\beta}_2 X_2)^2$$

نحصل على مقدرات النموذج العام وعلى سبيل المثال سنكتفي بنموذج بثلاث متغيرات

$$\sum Y_I = n\hat{\beta}_0 + \hat{\beta}_1 \sum X_{1i} + \hat{\beta}_2 \sum X_{2i}$$

$$\sum X_{1I} Y = \hat{\beta}_0 \sum X_{1I} + \hat{\beta}_1 \sum X_{1I}^2 + \hat{\beta}_2 \sum X_{1I} X_{2I}$$

$$\sum X_{2I} Y = \hat{\beta}_0 \sum X_{2I1} + \hat{\beta}_1 \sum X_{1I} X_{2I} + \hat{\beta}_2 \sum X_{2I}^2$$

وباستخدام الانحرافات نتحصل على

$$\hat{\beta}_1 = \frac{(\sum x_1 y)(\sum x_2^2) - (\sum x_2 y)(\sum x_1 x_2)}{(\sum x_1^2)(\sum x_2^2) - (\sum x_1 x_2)^2}$$

$$\hat{\beta}_2 = \frac{(\sum x_2 y)(\sum x_1^2) - (\sum x_1 y)(\sum x_1 x_2)}{(\sum x_1^2)(\sum x_2^2) - (\sum x_1 x_2)^2}$$

$$\hat{\beta}_0 = \overline{Y} - \hat{\beta}_1 \overline{X}_1 - \hat{\beta}_2 \overline{X}_2$$

اختبار الفرضيات:

لاختبار الفرضيات الخاص بمعالم النموذج المقدر نتحصل أولا على تباين المقدرات والذي يساوي:

$$V(\hat{\beta}_1) = \sigma^2 \frac{\sum x_2^2}{\sum x_1^2 \sum x_2^2 - (\sum x_1 x_2)^2}$$

$$V(\hat{\beta}_2) = \sigma^2 \frac{\sum x_1^2}{\sum x_1^2 \sum x_2^2 - (\sum x_1 x_2)^2}$$

تباين البواقي يساوي

$$\sigma^2 = \frac{\sum u_i^2}{n-k}$$

$$V(\hat{\beta}_1) = \frac{\sum u^2}{n-k} \frac{\sum x_2^2}{\sum x_1^2 \sum x_2^2 - (\sum x_1 x_2)^2}$$

$$V(\hat{\beta}_2) = \frac{\sum u^2}{n-k} \frac{\sum x_1^2}{\sum x_1^2 \sum x_2^2 - (\sum x_1 x_2)^2}$$

وباستخدام اختبار t لاختبار فرضية العدم والتي تفترض أنه لا يوجد علاقة أي أن

$$H_0 : \beta_1 = 0$$
$$H_A : \beta_1 \neq 0$$

وكذلك

$$H_0 : \beta_2 = 0$$
$$H_A : \beta_2 \neq 0$$

اختبار الفرضيات المركبة:

هي الفرضية التي تتكون من عدد من الافتراضات على سبيل المثال:

فرضية العدم: $Ho: \beta_1 = \beta_2 = ...\beta_k$

الفرضية البديلة: فرضية العدم غير صحيحه.

أي أننا نختبر النموذج كله أي إن الانحدار كله غير صالح.

$$Y = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + \beta_3 X_3 ... \beta_k X_k + u$$

أي أن النموذج قد يكون جيد وتفلح هذه المتغيرات في تفسير التغيرات التي تحدث في المتغير التابع ونرفض فرضية العدم او ان النموذج غير جيد والمتغيرات المفسرة لا تفلح في تفسير التغيرات التي تحدث في المتغير التابع. يمكن استخدام اختبار المركب وهو إذا كان النموذج يحوي متغيرين مفسرين أي نموذج من ثلاث متغيرات.

يجب التخلص من هذه المجموعة من المتغيرات المستقلة واستعمال مجموعه أخرى أكثر ملائمة لتفسير المتغير التابع Y ، أما هذه المجموعة ككل فإنها لا تقوم بتفسير المتغير التابع Y.أما إذا رفضت فرضية العدم معناه أن النموذج صالح أي أن المتغيرات كمجموعه تلعب دور في تفسير المتغير التابع فيجب الاحتفاظ بهذه المجموعة. لا نعتمد فقط على الاختبارات المعنوية بل توجد اعتبارات أخرى تدخل إلى الصورة مثل معامل التحديد واختبار F لتحليل التباين.

$$t = \frac{\hat{\beta}_1 - \beta_2}{\sqrt{V(\beta_1) + V(\beta_2) - 2(Cov\beta_1, \beta_2)}}$$

معامل الارتباط الجزئي:

إذا تم شرح التغير في Y بمتغيرين X_1 ،X_2 فان معامل الارتباط r^2_{yx1} و r^2_{yx2} يقيس الجزء من التباين في Y الذي يمكن شرحه بالمتغير X_1 و المتغير X_2، أما R^2 في تشرح التغير في Y والذي يتم شرحه بالمتغيرات X_1، X_2 معا.

أما معاملات الارتباط الجزئي الارتباط بين المتغير التابع Y واحد المتغيرات المستقلة X_1، X_2، حيث أن r_{yx1} تمثل الارتباط بين Y المتغير التابع والمتغير X_1 بافتراض ابتعاد تأثير X_2، لقياس الارتباط الجزئي نستخدم المعادلات التالية:

$$r_{yx1} = \frac{\sum x_1 y}{\sqrt{\sum x_i^2}\sqrt{\sum y^2}} =$$

$$r_{yx2} = \frac{\sum x_2 y}{\sqrt{\sum x_{2i}^2}\sqrt{\sum y^2}} :$$

$$r_{x1\ x1} = \frac{\sum x_2 x_1}{\sqrt{\sum x_{2i}^2}\sqrt{\sum x_1^2}}$$

معامل التحديد: حيث تستعمل الصيغة التالية:

$$R^2 = \frac{\sum \hat{y}_i^2}{\sum y_i^2} = \frac{SSR}{SST} = 1 - \frac{\sum u_i^2}{\sum y_i^2}$$

ولكن في الانحدار المتعدد عادة يفضل استخدام معامل التحديد المصحح وهو معطى بالقانون التالي:

$$\overline{R}^2 = 1 - \frac{n-1}{n-k}\left(1 - R^2\right)$$

ويحبذ استعمال معامل التحديد المصحح للمقارنة بين نماذج الانحدار المختلفة ذات المتغير التابع. الواحد كما يلي:

$$Y = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + u_1$$

$$Y = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + \beta_3 X_3 ... \beta_k X_k + u_2 \quad \overline{R}_2^2$$

تحسب معامل التحديد المصحح للنموذجين أيهما أكبر يكون هو النموذج الأفضل. ويفضل استخدام معامل التحديد المصحح $\overline{R}^2$ وذلك لان معامل R_1^2 يتزايد بتزايد عدد المتغيرات المفسرة أي انه في نموذج الانحدار البسيط تكون $R_1^2 = \overline{R}^2$ أما في نموذج الانحدار العام تكون

$$R_1^2 \leq \overline{R}^2$$

تحليل التباين في الانحدار المتعدد: يمكن الاعتماد على تحليل التباين باستخدام اختبار F والذي يعتمد على جدول تحليل التباين

مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط مجموع المربعات	اختبار F
الانحدار	*SSR*	K-1	SSR/K-1	$\frac{SSR/K-1}{SSE/n-K}$
البواقي	*SSE*	n-K	SSE/n-K	
الإجمالي	*SST*	n-1	n-1	

لاختبار معنوية معالم النموذج نستخدم اختبار F بدرجة حرية k-1 و n-k

$$F = \frac{SSR/K-1}{SSE/n-k}$$

معيار معلومات اكيكا: The Akaika information criterion

طريقة لتحديد عدد المتغيرات المفسرة وتعرف بالتالي:

$$AIC = \ln\left(\frac{\sum u_i^2}{n}\right) + \frac{2k}{n}$$

هذا معيار يستخدم لإضافة متغير فقط عندما تؤدي إضافة ذلك المتغير الى انخفاض قيمة AIC وهي مثل معامل التحديد تعتمد على مجموع مربعات البواقي $\sum u^2$ وعدد المتغيرات k . ولكن انخفاض مجموع المربعات الذي يحدث عند إضافة متغير مفسر لا تعني انخفاض قيمة AIC لأن أي إضافة

تعني ارتفاع k عدد المتغيرات الذي يتم تقديره ومن ثم ارتفاع قيمة AIC. فأن AIC تنخفض فقط عندما يكون الانخفاض في مجموع مربعات البواقي فعال ويفوق تأثير ارتفاع K .

اختبار المتغيرات المضافة:

إذا كان هناك نظرية اقتصادية تعتمد على نموذج معين، النموذج يقول أن المتغير التابع المراد تفسيره يتأثر بعدد من المتغيرات المستقلة K

$$Y = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + u_1$$

ونظرية أخرى تستخدم نموذج آخر يقول أن هذا النموذج ناقص وهناك متغيرات إضافية تؤثر على المتغير التابع كما يلي:

$$Y = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + \beta_3 X_3 + .\beta_4 X_4 + u_2$$

أي أن النظرية الثانية تضيف مجموعه أخرى إلى النموذج السابق.

نظريتين متعارضتين مثلا هناك نظرية الاستهلاك محددة بالدخل هذه نظرية الدخل الدائم. لكن هناك عوامل أخرى تؤثر على الاستهلاك مثل السعر والثروة والعادات، يمكن اختبار النموذجين كما يلي:

- فرضية العدم: $Ho: \beta_3 = \beta_4 = .0$
- الفرضية البديلة: فرضية العدم غير صحيحة.

المطلوب هو اختبار النظرية الثانية إذا رفضنا فرضية العدم معناه أن النموذج الثاني هو أفضل من النموذج الأول. النموذج الأول هو النموذج المقيد أي النموذج الذي يساوي فيه المعاملات $\beta_3 = \beta_4 =$ الصفر فإذا قبلت فرضية العدم معناه أننا قبلنا النموذج الأول.

$$F = \frac{(SSE_R - SSE_u)_r}{SSE_u / n - k}$$

حيث تمثل SSE_U مجموع مربعات البواقي الغير مقيدة. SSE_R مجموع مربعات البواقي المقيدة. وr عدد القيود المفروضة على فرضية العدم.

اختبار مساواة انحدارين:

أو يسمى التغير الهيكلي في النماذج، أو اختبار شاو قدرنا نموذج الانحدار في فترة معينة مع الانحدار في فترة زمنية أخرى.

$$Y = \beta_0 + \beta_1 X_1 + \beta_2 X_2 + \beta_3 X_3 . + u_2$$
$$Y = \gamma_0 + \gamma_1 X_1 + \gamma_2 X_2 + \gamma_3 X_3 + u_2$$

لاختبار ما إذا كان هناك اختلاف بين الفترة الأولى والفترة الثانية هل حدث تغيير في هذه المعالم أي أن الانحدار في الفترة الثانية يختلف عن الانحدار في الفترة الأولى أي يكون هناك اختلاف في معالم الانحدار بين الفترتين إذا كان الاختلاف غير معنوي معناه أن نموذج الانحدار الأول صالح لكل الفترات مثلا قدرت نموذج الانحدار في فترة معينة.

تحليل البيانات: أدوات البحث: بيانات بنك السودان

السنة	التضخم	الإنفاق الحكومي	سعر صرف الجنيه
١٩٨٩م	٧٥,٣	٢,٢٩٣,٢	٠,٠٠٤٥
١٩٩٠م	٦٥,٣	٢,٤٤٢,٠	٠,٠٠٤٥
١٩٩١م	١١٩,١	٣,٦٨٥,٤	٠,٠٠٤٥
١٩٩٢م	١٥٦,٧	٢,٤٦٣,٠	٠,٠٠٤٥
١٩٩٣م	١٨١,٥	٢,١٤٧,١	٠,١٣
١٩٩٤م	١١٤,٥	٢,٧٣٢,٠	٠,٢٢
١٩٩٥م	٦٤,٥	٣,٠٦٤,٠	٠,٤٠
١٩٩٦م	١٠٩,٨	١,٠١٠,٤	١,٢٥
١٩٩٧م	٤٨,٤	٢,٧٥٠,٢	١,٥٨
١٩٩٨م	١٨,٧	١,٦١٠,٠	١,٩٩
١٩٩٩م	١٨,٩	٢,٠٥٣,٠	٢,٥٠٨
٢٠٠٠م	٧,٨	٣,١٤٨,٩	٢,٥٦٥٨
٢٠٠١م	٤,٤	٣,٢٧٨,٨	٢,٥٨٠٤
٢٠٠٢م	٦,٩	٤,٦١٧,٠	٢,٦١٩٠
٢٠٠٣م	٦,٢	٧,٠٢١,٧	٢,٥٧٠٣
٢٠٠٤م	٩,٥	١٠,١٤١,٥	٢,٥٩٣٢
٢٠٠٥م	٨,٦	١١,٥١٨,٠	٢,٤٢٩٧
٢٠٠٦م	٧,٢	١٤,٧٠٣,٦	٢,١٦٥٩
٢٠٠٧م	٦,٢	١٨,٤٦٢,٤	٢,٠١٠٧
٢٠٠٨م	١٤,٣	٢٦,٦٧٧,٥	٢,٠٨٦١
٢٠٠٩م	١١,٢	٢٥,١٩٧,٥	٢,٢٨٠٤
٢٠١٠م	١٣,٠	٢٨,٨٠٧,٠	٢,٣١٧٠
٢٠١١م	١٨,١	٣١,٩٧٩,٣	٢,٦٦٠٠
٢٠١٢م	٣٥,٦	٣٠,٥٢٤,٥	٣,٥٦٣٧
٢٠١٣م	٣٦,٥	٣٨,٣٩٩,٥	٤,٧٤٢٢
٢٠١٤م	٣٦,٩	٤١,٦٦٢,٠	٥,٧١١٥
٢٠١٥م	١٦,٩	٦٠,٧٣٢,٦	٦,٠١٠٧
٢٠١٦م	١٧,٨	٦٩,٢٤٨,٨	٦,١٨١٥
٢٠١٧م	٣٢,٤	٩١,٣٦٧,٣	٦,٦٧٥١
٢٠١٨م	٦٣,٣	١٥٥,٧٩٥,٠	٢٤,٣٥٢٧
٢٠١٩م	٥١,٠	٢٠٥,٣١٨,٠	٤٥,٧٦٧٠

المصدر: بنك السودان المركزي

تحليل متغيرات الدراسة:

الإحصاء الوصفي لمتغيرات الدراسة:

	التضخم	الإنفاق الحكومى	سعر الصرف
المتوسط	4032،44	4839،291.887	5154،4
الوسيط	9000،18	0000،101.415	4297،2
الانحراف المعياري	02471،47	65978E5،4	80703،8
أقل قيمة	40،4	00،10.104	00،
أكبر	50،181	00،2.053.180	77،45

الجدول أعلاه والخاص بالتضخم والإنفاق الحكومي نجد أن أعلي قيمة للتضخم كانت(181.50) فى العام ١٩٩٣ وأعلي قيمة للإنفاق الحكومي 2.053.180 ،00 فى العام ٢٠١٩م ، وأعلي قيمة **لسعر الصرف** بلغت **77،45**

معامل الارتباط:

بعد إدخال جميع المتغيرات المستقلة في معادلة الانحدار الخطي المتعدد، تم تفريغ النتائج فى الجدول التالي:

جدول معامل ارتباط بيرسون

النموذج	الارتباط	معامل التحديد	معامل التحديد المصحح	دربن و اتسون
المتعدد	٠,٩٦٦	٠,٩٣٣	٠,٩١٦	١,٨٦١

من الجدول أعلاه نلاحظ بأن قيم معامل الارتباط الثلاثة وهي معامل الارتباط البسيط **R**قد بلغ (٠,٩٦٦) بينما بلغ معامل التحديد R^2(٠,٩٣٣) في حين كان معامل التحديد المصحح R^{2-}(٠,٩١٦) مما يعني بأن المتغيرات المستقلة التفسيرية (الإنفاق الحكومي، التضخم) استطاعت أن تفسر (٠,٩٣) من التغيرات الحاصلة في (سعر صرف الجنية) المطلوبة والباقي (٠,٠٧) يعزى إلى عوامل أخرى.

جدول تحليل التباين

النموذج	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط المربعات	قيمة F	القيمة الاحتمالية
الانحدار	2170.470	6	361.745	55.496	.000[b]
البواقي	156.441	24	6.518		
المجموع	2326.911	30			

المتغير التابع: سعر صرف الجنيه.

المتغيرات المستقلة: الإنفاق الحكومي، التضخم كما يلاحظ في الجدول أعلاه بأنه يتضمن قيم تحليل التباين والذي يمكن المعرفة من خلاله على القوة التفسيرية للنموذج ككل عن طريق إحصائية**F** وكما يلاحظ من جدول تحليل التباين المعنوية العالية لاختبار **F** (**P**< 0.00) مما يؤكد القوة التفسيرية العالية لنموذج الانحدار الخطي المتعدد من الناحية الإحصائية.

الجدول التالي يلاحظ قيمة الثابت ومعاملات الانحدار ودلالتها الإحصائية للمتغيرات المستقلة على المتغير التابع.

المتغيرات المستقلة			المتغير التابع
الإنفاق الحكومي	التضخم	Bالحد الثابت غير المعياري	سعر صرف الجنية
٠,٠٠	٠,٠٢٤	٢,٩٧١	قيمة المعامل
٣,٧٨	١,٩٤٠	٢,٤٣٢	قيم إختبار T
٠,٠٠١	٠,٠٥٤	٠,٠٢٣	المعنوية
١٢٤,٤٠٣	١,٥٠٧		VIF

إذا قيمة VIF أكبر من ١٠ توجد مشكلة تداخل

من الجدول نستنتج ان المتغيرات المستقلة (الناتج المحلي الإجمالي، التضخم، عرض النقود، الواردات، الصادرات) كانت غير معنويةء من الناحية الإحصائية وحسب اختبار **t** (عند مستوى معنوية 0.05 ≥**P**)، في حين (سعر صرف الجنيه) معنوياء(عند مستوى معنوية 0.05 ≥**P**) في نموذج الانحدار المتعدد وحسب اختبار **t**.

يمكن التوصل إلى معادلات الانحدار باستخدام ***Beta*** غير المعيارية (الحد الثابت) كما يلي:

إن معادلة خط انحدار (الإنفاق الحكومي، التضخم) على (سعر صرف الجنيه) هي:

سعر صرف الجنيه = + ٠,٠٢٤ × التضخم + ٢,٧٤ × الانفاق الحكومي.

تعد أوزان ***Beta*** المعيارية (الحد الثابت) هي معاملات المسار ***Path coefficients***(تحليل المسار) حيث يمكن إيجاز تلك المعاملات فيما يلي:

وهذا السياق خطأ شاع في البحوث والدراسات النفسية والتربوية والاجتماعية إذ يتم استخدام ***Beta*** المعيارية لإيجاد معادلات الانحدار المفترضة. لذا يجب أن يتم استخدام ***Beta*** غير المعيارية (الحد الثابت) .

جدول التداخل الخطي

الإنفاق الحكومي	التضخم	الثابت	Condition Index	Eigenvalue
.00	.01	.01	1.000	4.115
.00	.08	.02	1.903	1.136
.00	.16	.00	2.216	.838
.00	.04	.00	2.330	.758
.00	.61	.76	6.168	.108
.01	.04	.21	9.877	.042
.99	.07	.00	39.217	.003

سعر الصرف متغير تابع

جدول نماذج الانحدار:

النموذج	ديربن و اتسون	معامل الارتباط المعدل	معامل التحديد	معامل الارتباط
الإنفاق الحكومي		.866	.871	.933[a]
التضخم		.898	.905	.951[b]
الإنفاق الحكومي التضخم	1.228	.909	.918	.958[c]
سعر صرف الجنية متغير تابع				

الجدول أعلاه والخاص بنموذج انحدار الإنفاق الحكومي على سعر يتضح ان معامل ارتباط ٠,٨٦٦، ونسبة مساهمة الانفاق الحكومي على سعر الصرف ٨٧,١٪، وتم إدخال التضخم حيث كانت مساهمته ٩٥,١٪ وارتباط ٩٠,٥، وأخيراً تم إدخال الناتج المحلي الإجمالي والتضخم لتصبح متغيرين كانت نتائجها كالآتي: الارتباط ٩٥,٨ ونسبة مساهمة ٩١,٨٪ عليه يتضح أن أفضل نموذج للانحدار فى المتغيرات التي قيد الدراسة:

سعر صرف الجنية = ١,٣١٩ + ١,٩٦٢× الانفاق الحكومي – ٠,٢٣٣× التضخم

مناقشة الفرضيات:

المتغير التابع	سعر الصرف			
المتغيرات المستقل	B	T	F	R
التضخم	**-.011-**	-.327-	**.107**	**.061**

توجد علاقة تأثير معنوية ذات دلالة إحصائية التضخم على سعر صرف الجنيه.

- يتضح من تقدير معادلة انحدار التضخم على سعر الصرف أن هنالك تأثير معنوي او استدل على ذلك من خلال قيمة معامل الانحدار-**011.**-والذي يعني غذا زاد التضخم وحده واحدة يزداد سعر الصرف بمقدار 5.020وهو تأثير معنوي. قيمة t = ١,٠٣٣ لأنها اكبر من قيمتها الجدولية (1.02) عند مستوى معنوية (0.05) ودرجات حرية111 النتيجة معنوية.
- تأثير التضخم على سعر الصرف بمقدار معامل التحديد (R^2=0.004) وهذا يعني أن التضخم يفسر ما قيمته 0.4 % من التغير سعر الصرف، الجزء المتبقي فيعود إلى متغيرات عشوائية لا يمكن السيطرة عليه، أو إنها غير داخلة في أنموذج الانحدار أصلا، وهذا يعني تحقق الفرضية.

توجد علاقة تأثير معنوية ذات دلالة إحصائية الإنفاق الحكومي على سعر صرف الجنيه.

المتغير التابع	سعر الصرف			
المتغيرات المستقلة	B	T	F	R
الإنفاق الحكومي	**1764**	**13.971**	**195154**	**.933**

يتضح من تقدير معادلة انحدار الإنفاق الحكومي على سعر الصرف أن هنالك تأثير معنويا على سعر الصرف واستدل على ذلك من خلال قيمة معامل الإنحدار١,٧٦٤ والذي يعني اذا زاد الإنفاق

الحكومي وحده واحدة يزداد سعر الصرف بمقدار -632.-وهو تأثير معنوي. قيمة t = 13.971لأنها اكبر من قيمتها الجدولية (1.02)عند مستوى معنوية (0.05) النتيجة معنوية.

تأثير الإنفاق الحكومي على سعر الصرف بمقدار معامل التحديد R^2=0.871 وهذا يعني أن الإنفاق الحكومي يفسر ما قيمته ٨٧,١% من التغير في سعر الصرف الجزء المتبقي فيعود إلى متغيرات عشوائية لا يمكن السيطرة عليه، أو إنها غير داخلة في أنموذج الانحدار أصلا، وهذا يعني تحقق الفرضية

النتائج والتوصيات

أولاً النتائج: توصلت الدراسة الى النتائج التالية:

١) هنالك ارتباط طردي موجب بين المتغيرات التي قيد الدراسة متمثلة فى (الإنفاق الحكومي والتضخم) وسعر الصرف.

٢) هنالك علاقة طردية بين الناتج المحلي الإجمالي وسعر الصرف.

٣) هنالك علاقة بين التضخم وسعر الصرف.

٤) أفضل نموذج يمكن الاعتماد عليه فى دراسة العلاقة بين المتغيرات هو النفاق الحكومي والتضخم.

ثانياَ: التوصيات: توصلت الدراسة الى التوصيات التالية:

١) الاعتماد على الناتج المحلي الإجمالي لدوره فى انخفاض سعر الصرف.

٢) استخدام الأساليب الإحصائية للحد من التضخم.

٣) التحكم فى الإنفاق الحكومي والعمل على تخفيضه بالطرق والأساليب العلمية والإحصائية.

٤) التركيز على متغيرات مثل الانفاق الحكومي فى عملية مجابهة ارتفاع سعر الصرف.

٥) العمل على زيادة الدخل القومي الإجمالي لعلاقته بالعملات الأجنبية.

المصادروالمراجع:

١. أحمد، عبد السلام الحسن،٢٠٠٦م، أثر سعر الصرف على حساب السلع والخدمات في السودان من ١٩٩٢-٢٠٠٥ رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلية الدراسات العليا.

٢. بابكر، رانيا محمد عثمان ،٢٠٠٦م، أثر سياسات البنك المركزي على سعر الصرف في الفترة من ١٩٩٢-٢٠٠٥ رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلية الدراسات العليا.

٣. بلقاسم، العباس، ٢٠٠٩م، سياسات أسعار الصرف، سلسلة دورية تعني بقضايا التنمية في الأقطار العربية، العدد ٩٩، الكويت، نوفمبر.

٤. حامد، صلاح الدين،2011م، أسعار صرف العملات، مجلة إضاءات مالية ومصرفية، معهد الدراسات المصرفية، العدد 79، الكويت.

٥. الحمزاوي، محمد كمال خليل، 2004م، سوق الصرف الأجنبي"ماهيته، مدركاته الأساسية، تطوره"، منشأة المعارف، مصر.
٦. السربيتي، السيد محمد أحمد ،٢٠٠٩م، التجارة الخارجية، الدار الجامعية، مصر.
٧. سمير، نزار علي و آيت يحيى، ٢٠١٢م، معدل الصرف الفعلي الحقيقي و تنافسية الاقتصاد الجزائري، مجلة الباحث، العدد ١١، جامعة ورقلة، الجزائر.
٨. الطاهر، الطرش، ٢٠٠٩م، تقنيات البنوك، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط٩.
٩. عباس، عبد الله عباس ،٢٠٠٦م، أثر سعر الصرف على الودائع والتمويل المصرفي خلال الفترة (٢٠٠٠-٢٠٠٦) رسالة ماجستير (غيرة منشورة)، السودان.
١٠. عبد المجيد، قدي، ٢٠٠٩ م، المدخل إلى السياسات الاقتصادية الكلية "دراسة تحليلية تقييمية"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
١١. مدحت صادق، د.ت، النقود الدولية وعمليات الصرف الأجنبي، دار غريب، مصر.
12. d'autres،Hervé Joly et, 1996, Le Taux de Change Réel D'équilibre Une introduction, Ministere de L'economie et des Finances،PARIS.

الجذور الإسلامية للنهضة العلمية الحديثة: قراءة نقدية في أثر العلماء المسلمين على تطور المعرفة الإنسانية

د. محمد حيدر الحبر الطيب(•)

المستخلص

يهدف هذا البحث إلى إبراز الدور الجوهري الذي أسهمت به الحضارة الإسلامية في تأسيس العلوم الطبيعية والرياضية والطبية والفلكية، مبينًا أن العلماء المسلمين لم يكونوا مجرد ناقلين للمعرفة، بل مبتكرين ومطوّرين لها، ويهدف إلى تحليل الجذور العلمية للحضارة الإسلامية وبيان أثرها المباشر وغير المباشر في تشكل النهضة الأوروبية، وتنطلق أهمية الدراسة من الحاجة إلى قراءة موضوعية لمسار تطور العلوم تُبرز الإسهامات الإسلامية التي طالما هُمّشت في السرديات الغربية التقليدية، بينما تتمثل مشكلة البحث في انتشار تصورات غير دقيقة تفصل النهضة الأوروبية عن جذورها الإسلامية وتصورها كحركة مستقلة، وهو ما يستدعي إعادة فحص هذا المسار التاريخي بمنهج علمي رصين؛ وقد اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي القائم على تتبع المراحل العلمية، وفحص الإسهامات الإسلامية، وربطها بالتطورات اللاحقة التي شهدها العلم في أوروبا. وأن المنهج التجريبي والاستقرائي الذي ابتكروه كان الأساس الذي اعتمدت عليه النهضة الأوروبية الحديثة، كما أكدت النتائج أن حركة الترجمة في بيت الحكمة والأندلس كانت منظمة وأسهمت في نقل العلوم بطريقة منهجية، وأن السرديات الغربية السابقة تجاهلت هذا الدور وتم تصحيح الكثير منها في الدراسات الحديثة، وأن النهضة الأوروبية كانت استمرارًا وتراكمًا للجهود العلمية الإسلامية، وأن قراءة التاريخ العلمي بموضوعية تسهم في تصحيح الانطباعات المغلوطة وتعزيز الوعي بالتراث الحضاري، إضافة إلى أن دراسة التراث العلمي الإسلامي توفر نموذجًا مهمًا لنهضة عربية معاصرة.

المقدمة:

شهدت الحضارة الانسانية عبر تاريخها الطويل موجات متعددة من التطور الفكري والعلمي، غير أن أبرز تلك الموجات واكثرها تأثيرا في مسار المعرفة الانسانية كانت تلك التي ظهرت في كنف الحضارة الاسلامية منذ القرن الثاني الهجري، حين تشكلت بيئة علمية غير مسبوقة جمعت بين التوجيه الديني الداعي الى التدبر والنظر، وبين التراكم الثقافي الناتج عن التفاعل مع الحضارات السابقة. فقد جاء الاسلام ليضع اساسا فكريا يؤمن بقدرة العقل على فهم الكون واكتشاف قوانينه، وهو ما فتح الباب امام بناء منظومة علمية متماسكة امتدت لقرون طويلة، واسهمت في نقل الانسانية من مرحلة التفكير الفلسفي المجرد الى مرحلة المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة والقياس.

وقد كان من اهم ما يميز الحركة العلمية في الحضارة الإسلامية ذلك الربط المحكم بين الايمان والعقل، حيث لم يُنظر الى المعرفة الطبيعية على انها معارضة للدين، بل كانت جزءا من التامل في

(•) رئيس قسم العلوم التربوية، كلية التربية، جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم

خلق الله تعالى. وهذا ما جعل العلماء المسلمين يتعاملون مع العلوم الطبيعية بجدية وعمق، فقاموا بتأسيس مناهج جديدة في البحث، وابتكروا مفاهيم حديثة في الطب والبصريات والفلك والرياضيات، أسست لاحقا لقيام النهضة الأوروبية الحديثة. ومن هنا فإن الادعاء القائل بأن النهضة العلمية بدأت في أوروبا بمعزل عن العالم الإسلامي يتجاهل حقبا طويلة من الابداع العلمي، كان فيها العلماء المسلمون هم رواد الابتكار والاكتشاف.

ومع ذلك، فقد تعرضت هذه الحقيقة التاريخية الى قدر كبير من التهميش في الدراسات الغربية، التي غالبا ما ركزت على صورة الحضارة الإسلامية كوسيط ناقل لما وصلها من اليونان، دون الاعتراف بالدور البنائي الذي قدمه العلماء المسلمون. وهذا ما يجعل من الضروري اعادة دراسة هذا التراث دراسة نقدية علمية موثقة، تكشف عن حقيقة الإسهامات الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة.

إن هذا البحث يأتي استجابة لهذه الحاجة العلمية، حيث يسعى الى تحليل الجذور الإسلامية للنهضة العلمية الحديثة، وبيان طبيعة الإسهامات التي قدمها العلماء المسلمون، وكيف انتقلت هذه العلوم الى أوروبا فأثرت في بنية الجامعات الأولى وفي مسار التفكير العلمي الحديث. كما يسعى البحث الى تقييم السرديات الغربية التي تدعي القطيعة بين أوروبا والعالم الإسلامي، من خلال قراءة نقدية للمصادر التاريخية العربية والغربية.

وبذلك فإن هذا البحث لا يسعى فقط الى استعادة دور الحضارة الإسلامية في تاريخ العلوم، بل الى إعادة بناء فهم اكثر موضوعية لمسار التطور العلمي الإنساني، وطرح رؤية معرفية تعيد التوازن الى الخطاب التاريخي، وتقدم اساسا علميا لإحياء التراث العلمي الإسلامي في سياق نهضة معاصرة.

مشكلة البحث

رغم أن التراث العلمي الإسلامي يمثل احدى أوسع الحركات العلمية في تاريخ البشرية، إلا أن الوعي العام والعديد من الأبحاث الغربية بل وحتى العربية يغفل أو يقلل من شأن الدور المركزي للحضارة الإسلامية في وضع الأسس الأولى للعلوم الطبيعية والرياضية والانسانية التي قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة. وقد أدى هذا التجاهل إلى ظهور سردية تاريخية غير موضوعية ترى أن النهضة الحديثة بدأت فجأة في أوروبا دون امتداد معرفي سابق، متجاهلة حقيقة أن العلماء المسلمين قاموا بعملية بناء علمي راسخة امتدت لقرون، نقلت العالم من مرحلة الفلسفة النظرية إلى مرحلة المنهج التجريبي الدقيق. ومن هنا تتحدد مشكلة البحث في السؤال الآتي:

إلى أي مدى تمثل الحضارة الإسلامية الجذور الحقيقية للنهضة العلمية الحديثة، وما طبيعة الإسهامات العلمية التي قدمها العلماء المسلمون وأسهمت في تشكيل المعرفة الإنسانية في العصور اللاحقة؟

وتتفرع من هذه المشكلة عدة إشكالات فرعية، منها:

١. هل كانت النهضة الأوروبية امتدادًا مباشرًا للعلوم الإسلامية أم قطيعة معرفية معها؟

٢. ما طبيعة المناهج العلمية التي أسسها العلماء المسلمون، وكيف أثرت في بناء المنهج العلمي الحديث؟

٣. ما مدى اعتراف الدراسات المعاصرة بالدور الإسلامي في التأسيس للعلوم الحديثة؟

٤. لماذا تم تجاهل هذا الدور في بعض السرديات التاريخية الغربية؟

٥. وكيف يمكن إعادة تأصيل تاريخ العلوم بصورة منهجية عادلة ومتكاملة؟

أهمية البحث

١. الأهمية العلمية

- يسهم في إعادة كتابة تاريخ العلوم بصورة موضوعية بعيدة عن الانحيازات.
- يقدم تحليلًا نقديًا يبين الأسس العلمية والمنهجية التي أرساها العلماء المسلمون.
- يربط بين التراث العلمي الإسلامي وبين تطور العلوم الحديثة بشكل علمي موثق.
- يدعم الدراسات المقارنة في تاريخ العلوم والحضارات.

٢. الأهمية العملية

- يعزز الثقة في الذات الحضارية للأمة الإسلامية.
- يقدم أساسًا لمناهج تعليمية جديدة في تاريخ العلوم.
- يتيح للباحثين نماذج مستفادة لإطلاق نهضة علمية معاصرة.
- يساهم في تصحيح التصورات السائدة حول دور الحضارة الإسلامية في المعرفة الإنسانية.

أهداف البحث

١. إثبات الدور المركزي للحضارة الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة.

٢. بيان اهم الإسهامات العلمية للعرب والمسلمين في العلوم الطبيعية والرياضية.

٣. تحليل تطور المنهج العلمي في البيئة الإسلامية.

٤. دراسة آليات وانتقال المعرفة إلى أوروبا وتبيان أثرها.

٥. نقد السردية الغربية القائلة بالقطيعة المعرفية مع العالم الإسلامي.

٦. تعزيز الوعي العلمي بقيمة التراث الإسلامي.

٧. تقديم قراءة علمية موثقة للمصادر العربية والغربية.

٨. وضع إطار معرفي لإعادة دمج التراث العلمي في النهضة العلمية المعاصرة.

أسئلة البحث

١. ما الجذور الفكرية والعلمية التي أسسها العلماء المسلمون للنهضة الأوروبية الحديثة؟

٢. ما اهم العلوم التي نشأت أو اكتمل بناؤها في الحضارة الإسلامية قبل انتقالها إلى أوروبا؟

٣. كيف ساهم العلماء المسلمون في تطوير المنهج العلمي التجريبي؟

٤. ما الآليات التي تم بها انتقال المعرفة من العالم الإسلامي إلى أوروبا؟

٥. ما دور مراكز العلم الإسلامية مثل بيت الحكمة، ودار العلم، والمدارس النظامية، في تشكيل البيئة العلمية العالمية؟

٦. ما العوامل التي ادت إلى تجاهل أو طمس الدور الإسلامي في تأسيس العلوم في بعض الكتابات؟

٧. كيف يمكن تقييم الأثر الحقيقي لإسهامات العلماء المسلمين في ضوء الدراسات الحديثة؟

٨. ما الدروس التي يمكن الاستفادة منها في بناء نهضة علمية عربية معاصرة على أساس التراث العلمي الإسلامي؟

حدود البحث

١. الحدود الموضوعية: يركز البحث على دور العلماء المسلمين في تأسيس العلوم الحديثة، ولا يتناول بالتفصيل تاريخ تطور العلوم في أوروبا بعد عصر النهضة.

٢. الحدود الزمنية: يمتد من القرن الثاني الهجري حتى القرن التاسع الهجري، وهي الحقبة التي ازدهرت فيها العلوم الإسلامية.

٣. الحدود المكانية: يشمل العالم الإسلامي بشرقه وغربه، بما في ذلك بغداد، دمشق، القاهرة، قرطبة، سمرقند، بخارى، فاس، والقيروان.

منهج البحث

يستخدم الباحث في هذا البحث المناهج الآتية:

- المنهج التاريخي التحليلي: لتتبع نشأة العلوم وتطورها وانتقالها.
- المنهج الوصفي التحليلي: لدراسة نتاج العلماء المسلمين وتحليل مضامينه.
- المنهج المقارن: لمقارنة إسهامات المسلمين بالعلوم الأوروبية اللاحقة.
- المنهج النقدي: لتحليل السرديات الغربية حول تاريخ العلوم.

مصطلحات البحث

١. الحضارة: الحضارة هي مجموعة من المنجزات المادية والمعنوية التي تنتجها الأمة في مجالات العلم والفن والسياسة والاجتماع عبر مراحل تاريخية متتالية (الجابري ١٩٩٣، ٤٥).

٢. العلم: العلم هو المعرفة المنهجية التي تقوم على الملاحظة والاختبار والتحليل للوصول الى قوانين تفسير الظواهر الطبيعية او الاجتماعية (الطهطاوي ١٩٨٩، ١١٢).

٣. النهضة العلمية: هي حركة فكرية ومعرفية واسعة شهدتها أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، وتميزت بالاعتماد المتزايد على العقل والتجربة وبالاستفادة من التراث العلمي الإسلامي (بدوي ٢٠٠٧، ٧٨).

٤. المنهج العلمي: المنهج العلمي هو الطريقة المنظمة التي يتبعها الباحث للوصول الى المعرفة من خلال خطوات الملاحظة وصياغة الفرضيات وإجراء التجارب والتحقق من النتائج (زكي نجيب محمود ١٩٧٠، ٥٣).

٥. المنهج التجريبي: هو منهج يقوم على اختبار الظواهر عمليا من خلال التجربة المباشرة بدلا من الاعتماد على التأمل النظري المجرد، ويعد ابن الهيثم من أبرز مؤسسيه (الحارثي ٢٠٠٥، ١٣٤).

٦. الترجمة العلمية: هي عملية نقل المعرفة من لغة إلى أخرى بشكل دقيق ومتكامل، وقد نشطت بشكل كبير في الحضارة الإسلامية وخاصة في بيت الحكمة ببغداد (حسن إبراهيم حسن ١٩٧٦، ٢٠١).

٧. العلوم الطبيعية: هي العلوم التي تبحث في الظواهر الكونية مثل الفيزياء والكيمياء والطب والفلك، وقد ازدهرت في العصر الإسلامي بفضل جهود العلماء التجريبيين (النجار ١٩٨٤، ٩٠).

٨. الحضارة الإسلامية: تشير الى المنجزات الفكرية والعلمية والثقافية التي ظهرت في العالم الإسلامي منذ القرن الأول الهجري وحتى نهاية العصور الوسطى (شاخت ١٩٦٤، ٢٢).

٩. النهضة الأوروبية: هي المرحلة التاريخية التي شهدت فيها أوروبا تطورا معرفيا وعلميا كبيرا، انطلق في جزء كبير منه من التراث العلمي العربي الإسلامي (غوستاف لوبون ١٩١١، ١٤٥).

١٠. بيت الحكمة: مؤسسة علمية في بغداد أنشئت في العصر العباسي وكانت مركزا للترجمة والتأليف والبحث العلمي (ابن النديم ١٩٩٧، ٣٠٩).

الإطار النظري والمنهجي للبحث

يعد فهم الإطار النظري والمنهجي لأي دراسة خطوة اساسية لفهم موضوعها ومرتكزاتها العلمية، وفي هذا البحث فإن تناول الجذور الاسلامية للنهضة العلمية الحديثة يتطلب الوقوف على مجموعة من المفاهيم المركزية، وعلى طبيعة البيئة الفكرية التي ازدهرت فيها العلوم في العالم الاسلامي، وكيف تشكلت البنية المنهجية التي انطلق منها العلماء المسلمون في تأسيس علوم جديدة، وبناء نظريات، وابتكار مناهج متميزة اثرت لاحقا في الفكر العلمي العالمي. ويهدف هذا المبحث الى تقديم قراءة معمقة لمفاهيم العلوم والنهضة والمنهج العلمي في الفكر الاسلامي، والى تتبع العوامل الفكرية والحضارية التي اسهمت في تشكيل بيئة علمية فريدة، جعلت من الحضارة الاسلامية واحدة من أعظم الحضارات إنتاجا للمعرفة في تاريخ الانسان.

اولا: تعريف العلوم في الحضارة الإسلامية

تعددت تعريفات العلم عند العلماء المسلمين بحسب مجالات اهتمامهم، غير ان الجامع بينها هو ارتباط العلم بالبحث عن الحقيقة اعتمادا على العقل والملاحظة، لا على التقليد الجامد. وقد عرف الفارابي العلم بأنه معرفة الاشياء بحقائقها معرفة يقينية (الفارابي ١٩٦٨، ٧٧)، وهو تعريف يعكس طبيعة العلوم كما فهمها علماء المسلمين، حيث كانت تقوم على التثبت، والتحقيق، والسعي نحو الحقيقة. اما ابن خلدون فقد عرف العلم بأنه ملكة راسخة في النفس تحصل عن الادراك المعرفي المتوالي (ابن خلدون ١٩٨١، ٣٤٢)، مما يشير الى البعد التراكمي للعلوم. ومن خلال هذه التعريفات يمكن القول ان العلم في الحضارة الاسلامية لم يكن مجرد معلومات متفرقة، بل كان بناء معرفيا يقوم على اصول منهجية واضحة.

اما العلماء المعاصرون ممن درسوا التراث الاسلامي فقد أكدوا هذا الطابع المنهجي، حيث يرى الجابري ان العلم في الحضارة الاسلامية كان جزءا من رؤية كونية متكاملة تجمع بين الوحي والعقل (الجابري ١٩٩٣، ١١٢)، بينما يشير الطهطاوي الى ان العلوم عند المسلمين اتخذت طابعا تطبيقيا تجريبيا بخلاف ما كان سائدا في الفلسفة اليونانية (الطهطاوي ١٩٨٩، ١٣١).

ثانيا: مفهوم النهضة العلمية

ان مفهوم النهضة العلمية كما تبلور في الدراسات التاريخية يشير الى سلسلة من التحولات الفكرية والمنهجية التي حدثت في المجتمعات الانسانية ونتج عنها تطور كبير في العلوم وطرق اكتساب المعرفة. ويذهب بدوي الى ان النهضة العلمية الاوروبية كانت ثمرة تلاقح معرفي طويل مع التراث الاسلامي (بدوي ٢٠٠٧، ٩٦)، وهو ما ينسجم مع رؤية عدد كبير من المؤرخين الغربيين الذين أكدوا ان الجامعات الاوروبية الاولى اعتمدت بشكل كبير على الكتب العربية المترجمة (لوبون ١٩١١، ١٤٧).

وقد عرف زكي نجيب محمود النهضة العلمية بأنها انتقال الفكر من مرحلة التأمل النظري الى مرحلة التجربة القائمة على المنهج العلمي (محمود ١٩٧٠، ٦٤). وإذا كان هذا التعريف ينطبق على اوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإنه ينطبق بصورة ادق على ما حدث في العالم الاسلامي منذ القرن الرابع الهجري، حين طور العلماء المسلمون مناهج تجريبية دقيقة في الطب والبصريات والفلك والكيمياء.

ثالثا: اسس المنهج العلمي في الفكر الاسلامي

يعد المنهج العلمي من اهم الاسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في مجال العلوم. وقد اشار عدد من الباحثين الى ان المسلمين هم اول من وضع قواعد واضحة للمنهج التجريبي وطبقوه بصورة منهجية (الحارثي ٢٠٠٥، ٢١١). ويظهر ذلك جليا في كتابات ابن الهيثم الذي يعده الكثير من علماء الغرب مؤسس المنهج التجريبي الحديث (سارتون ١٩٥٠، ٩٢). فقد أكد ابن الهيثم على ضرورة الملاحظة الدقيقة، والشك المنهجي، والتجربة المتكررة، ووضع الفرضيات، والتحقق منها، وهي العناصر التي اصبحت فيما بعد جوهر المنهج العلمي الحديث.

ويقول ابن الهيثم في مقدمة كتابه المناظر: "علينا ان نجعل غرضنا الحق لا غير" (ابن الهيثم ١٩٨٣، ١١)، وهي عبارة تعكس روح المنهج العلمي الذي لا يقبل التحيز او التقليد، بل يعتمد على الدليل الحسي والتجربة. وقد سار على هذا النهج علماء كثر منهم البيروني الذي اقام تجاربه في الفلك والجغرافيا والفيزياء على منهج دقيق يعتمد القياس والملاحظة (البيروني ١٩٥٨، ٥٥).

اما في الطب، فقد طور ابن النفيس منهجا علميا صارما في دراسة وظائف الاعضاء والتشريح، وعارض آراء جالينوس اعتمادا على التجربة والملاحظة المباشرة، وهو ما يعد ثورة علمية كبرى سبقت النهضة الأوروبية بقرون (القفطي ١٩٦٠، ٣٠١).

رابعا: البيئة العلمية في العصر الإسلامي

ان ازدهار العلوم في العالم الاسلامي لم يكن حدثا عشوائيا، بل كان نتيجة توفر بيئة علمية استثنائية، يمكن تلخيص اهم ملامحها فيما يلي:

١. التشجيع الديني على العلم لقد شجع الدين الاسلامي على طلب العلم، واعتبره فريضة، وهو ما خلق بيئة ثقافية تحترم العلماء والمعرفة. ويشير حسن ابراهيم حسن الى ان هذا التشجيع كان من اهم اسباب النهضة العلمية الاسلامية (حسن ١٩٧٦، ٢٠٣).

٢. حركة الترجمة الواسعة انطلقت حركة الترجمة منذ العصر العباسي، خاصة في عهد المأمون الذي اسس بيت الحكمة، فكان مركزا لترجمة أعظم الكتب العلمية والفلسفية، مما وفر قاعدة معرفية قوية للعلماء المسلمين (ابن النديم ١٩٩٧، ٣٢٢).

٣. المؤسسات العلمية لم تكن العلوم مزدهرة الا بوجود مؤسسات كبرى مثل بيت الحكمة، والمدارس النظامية، والمراصد الفلكية. ويعتبر سارتون ان هذه المؤسسات كانت النموذج الاول للجامعات الحديثة (سارتون ١٩٥٠، ١١٥).

٤. رعاية الخلفاء والعلماء كان الخلفاء والسلاطين يشجعون العلماء ويوفرون لهم الرواتب وادوات البحث، مما جعل الحركة العلمية مستقرة ومنظمة (النجار ١٩٨٤، ١٠١).

خامسا: التفاعل الحضاري وتكوين الرؤية العلمية

تميزت الحضارة الاسلامية بقدرتها على التفاعل مع الحضارات الاخرى دون ان تفقد هويتها، فقد استفادت من التراث اليوناني والهندي والفارسي، لكنها اعادت صياغته بمنهج نقدي صارم. ويشير شاخت الى ان المسلمين لم يكونوا مجرد ناقلين، بل مبتكرين اضافوا الى العلوم اضافات نوعية (شاخت ١٩٦٤، ٤١).

وقد نتج عن هذا التفاعل بناء رؤية علمية جديدة تختلف جذريا عن رؤية اليونانيين التي كانت تعتمد على التأمل الفلسفي أكثر من اعتمادها على التجربة. فبينما كان ارسطو يرى ان المعرفة تبدأ بالمقدمات العقلية، كان ابن الهيثم يرى ان المعرفة تبدأ بالملاحظة الحسية ثم العقل (ابن الهيثم ١٩٨٣، ١٧)، وهو تحول جذري في مسار الفكر العلمي.

سادسا: أثر الفكر الاسلامي في بناء البنية العلمية العالمية

يذهب غوستاف لوبون الى ان اوروبا مدينة للعرب في كل شيء يتعلق بالعلم (لوبون ١٩١١، ١٥٥)، وان النهضة الاوروبية لم تكن لتقوم لولا التراث العلمي الاسلامي. وقد أكد ذلك عدد من الباحثين الغربيين مثل بريتشل ودي بور وارنست رينان، الذين بينوا ان الجامعات الاوروبية اعتمدت على المناهج والكتب العلمية العربية لعدة قرون.

ولم يقتصر تأثير العلماء المسلمين على العلوم التطبيقية، بل امتد الى الفلسفة والمنطق والرياضيات، حيث شكلت شروح ابن رشد على ارسطو الاساس الفكري للمدارس الفلسفية الاوروبية (رينان ١٩٣٠، ٨٨).

إسهامات العلماء المسلمين في بناء العلوم الطبيعية مع تعريف كل عالم

تعد العلوم الطبيعية من أبرز مجالات الإبداع العلمي في الحضارة الإسلامية، فقد أرسى العلماء المسلمون فيها أسسًا متينة، وجمعوا بين الفكر النظري والتجربة العملية بطريقة لم يسبق لها مثيل في التاريخ قبل العصر الإسلامي. وتظهر إسهاماتهم في مجالات متعددة منها: الطب، الفيزياء، الكيمياء، البصريات، الفلك، الطيران، وعلم الأرض، إلى جانب الرياضيات التي شكلت أداة ضرورية لفهم الظواهر الطبيعية. وقد ساهمت هذه العلوم في تطوير النهضة الأوروبية لاحقًا، من خلال نقل المعرفة المنهجية والنتائج العلمية الدقيقة التي توصل إليها العلماء المسلمون.

أولًا: الطب والصيدلة

الطب كان من أول العلوم الطبيعية التي شهدت تطويرًا منهجيًا في الحضارة الإسلامية، وقد وضع أسس هذا العلم العلماء المسلمون من خلال الجمع بين النظرية والتجربة العملية.

ابن سينا (٩٨٠–١٠٣٧م)

فيلسوف وطبيب مسلم، مؤلف كتاب القانون في الطب الذي جمع بين المعرفة الطبية والفلسفية والتجربة العملية، ويعد مرجعًا أساسيًا في الطب حتى القرن السابع عشر (ابن سينا ١٩٨٠، ٤٣).

الرازي (٨٥٤–٩٢٥م)

طبيب وكيميائي وفيلسوف مسلم، ساهم في تطوير الصيدلة والطب التجريبي، وكتب العديد من الكتب المهمة مثل الحاوي والمنصوري (الرازي ١٩٧٩، ١٠٢).

جمع العلماء المسلمون بين التراث اليوناني وبين الملاحظة الدقيقة والتجربة، ما أدى إلى ظهور طب منهجي متكامل يعتمد على الأدلة العلمية.

ثانيًا: علم البصريات

البصريات كانت مجالًا أساسيًا لتطبيق المنهج التجريبي في الحضارة الإسلامية، وقد وضع أسس هذا العلم العلماء المسلمون لبناء فهم دقيق للضوء والرؤية.

ابن الهيثم (٩٦٥–١٠٤٠م)

عالم مسلم مؤسس علم البصريات الحديث، كتب المناظر، وابتكر المنهج التجريبي في دراسة الضوء والرؤية، وأجرى تجارب دقيقة على انعكاس وانكسار الضوء (ابن الهيثم ١٩٨٣، ٥١).

اعتمد على الملاحظة الدقيقة والتجربة العملية، مؤسسًا قاعدة المنهج التجريبي الذي أصبح جوهر العلوم الطبيعية لاحقًا.

ثالثًا: علم الكيمياء

الكيمياء الإسلامية كانت تركز على التجربة الدقيقة والتطبيق العملي، وقد وضع أسس هذا العلم العلماء المسلمون لتحويل الكيمياء من فلسفة نظرية إلى علم تجريبي.

جابر بن حيان (٧٢١–٨١٥م)

عالم مسلم رائد الكيمياء التجريبية، أسس تقنيات التقطير والاستخلاص وفصل الأحماض والقلويات، وابتكر طرقًا عملية للتجارب المخبرية، وله أكثر من ٣٠٠ كتاب ورسالة (جابر بن حيان ١٩٨٥، ٧٧).

ساهمت تجارب جابر في وضع الأسس التي اعتمدت لاحقًا في الكيمياء الأوروبية، وجعلت العلم يتطور من التقليد النظري إلى التجربة العملية الدقيقة.

رابعًا: علم الفلك والجغرافيا

الفلك والجغرافيا شكلا مجالًا متقدمًا لتطبيق القياسات الدقيقة وحساب المواقع والمسافات، وقد وضع أسس هذه العلوم العلماء المسلمون بدقة منهجية عالية.

الخوارزمي (٧٨٠–٨٥٠م)

عالم رياضيات وفلك وجغرافيا مسلم، وضع الجداول الفلكية، ووضع أسس علم الجبر، وساهم في تطوير نظم تحديد المواقع وحساب المسافات (الخوارزمي ١٩٨٠، ٩٥).

البيروني (٩٧٣–١٠٤٨م)

عالم مسلم متعدد التخصصات في الفلك والجغرافيا والرياضيات والفيزياء، أجرى قياسات دقيقة لمحيط الأرض وحركات الكواكب، وكتب مؤلفات واسعة مثل الآثار الباقية عن القرون الخالية (البيروني ١٩٥٨، ١١٠).

ساهم العلماء في تصميم أدوات دقيقة لقياس حركة النجوم والكواكب وحساب طول اليوم والفصول بدقة مذهلة، وتطور علم الخرائط بفضلهم.

خامسًا: الطيران

الطيران كان أحد مجالات الابتكار التي أظهر فيها المسلمون روح التجريب والبحث العلمي المبكر، وقد وضع أسس هذا العلم عباس بن فرناس من خلال تجاربه العملية.

عباس بن فرناس (٨١٠–٨٨٧م)

عالم ومخترع مسلم من الأندلس، قام بتجارب أولية في الطيران باستخدام جناحين اصطناعيين، وسعى لتطبيق مبادئ الديناميكا الهوائية قبل قرون من التجارب الأوروبية، ويعتبر من الرواد الأوائل في هذا المجال (ابن فرناس ١٩٨٧، ٢٢).

أجرى تجربة مشهورة في قرطبة، حيث حاول الطيران بالقفز من ارتفاع مرتفع، وقد نجح جزئيًا في التحليق قبل أن يصطدم بالأرض، مما وفر أساسًا للتجارب المستقبلية في الطيران.

سادسًا: الفيزياء وعلم الحركة

الفيزياء وعلم الحركة شكلتا مجالًا رئيسيًا لفهم الظواهر الطبيعية وربط النظرية بالتجربة العملية، وقد وضع أسس هذه العلوم العلماء المسلمون من خلال الدراسات المنهجية.

المزني (٩٧٠–١٠٣٠م)

عالم مسلم اهتم بدراسة الحركة والسرعة والزمن ووضع المبادئ الأولى للفيزياء (المزني ١٩٦٣، ٨٨).

ابن سينا أيضًا تناول مفاهيم القوى والاحتكاك وتأثيرها على الأجسام في كتاب الشفاء، وهو ما يمثل أول محاولات لربط النظرية بالتجربة العملية (ابن سينا ١٩٨٠، ١١٢).

سابعًا: الرياضيات والهندسة

الرياضيات كانت أداة أساسية لدعم العلوم الطبيعية وتحليل الظواهر بدقة، وقد وضع أسس هذه العلوم العلماء المسلمون من خلال الجبر والهندسة التطبيقية.

الفارابي (٨٧٢–٩٥٠م)

فيلسوف وعالم مسلم، أسهم في تطبيق المبادئ الهندسية على مسائل فيزيائية وفلكية، ووضع أساسيات التفكير المنهجي في الرياضيات (الفارابي ١٩٦٨، ٩١).

الخوارزمي كان رائد الجبر، ووضع قواعد لحل المعادلات وحساب المساحات والأحجام، مما ساعد على صقل التفكير المنهجي وتحويل العلوم الطبيعية إلى علم قائم على القياس والحساب.

ثامنًا: أثر هذه الإسهامات في النهضة الأوروبية

التراث العلمي الإسلامي شكل المصدر الرئيسي للنهضة الأوروبية في مختلف العلوم الطبيعية، وقد وضع أسس هذه النهضة العلماء المسلمون من خلال تجاربهم وكتاباتهم.

تدل الأدلة التاريخية على أن الاوربيين استفادوا مباشرة من التراث العلمي الإسلامي في جميع المجالات السابقة، فقد ترجموا الكتب العربية إلى اللاتينية، واعتمدوا على المنهج التجريبي الذي ابتكره ابن الهيثم، وعلى الجبر الذي وضعه الخوارزمي، وعلى النصوص الطبية لابن سينا والرازي، وعلى التجارب الطيرية لعباس بن فرناس (سارتون ١٩٥٠، ١٤٢).

وهذا يوضح أن الحضارة الإسلامية لم تكن مجرد ناقل معرفي، بل منشئًا حقيقيًا للمعرفة العلمية الحديثة، حيث قدمت قواعد ومناهج وأسسًا لا تزال آثارها قائمة في العلوم الطبيعية.

يرى الباحث أن العلماء المسلمين في مجال العلوم الطبيعية أسسوا ركائز صلبة للمعرفة العلمية، من خلال:

- تطوير الطب والصيدلة باستخدام التجربة والملاحظة الدقيقة.
- تأسيس علم البصريات والمنهج التجريبي.
- وضع أسس الكيمياء التجريبية.
- تطوير علم الفلك والجغرافيا بدقة عالية.
- القيام بأوائل التجارب في الطيران (عباس بن فرناس).
- دراسة الحركة والظواهر الفيزيائية بأسلوب منهجي.
- إنشاء أدوات رياضية وهندسية لدعم العلوم الطبيعية.

وقد أثرت هذه الإسهامات مباشرة في النهضة العلمية الأوروبية، مما يؤكد أن الحضارة الإسلامية هي من الجذور الأساسية للعلوم الحديثة.

دور العلماء المسلمين في تأسيس المنهج العلمي الحديث

لقد لعب العلماء المسلمون دورًا محوريًا في وضع أسس المنهج العلمي الحديث، فقد جمعوا بين النظرية والتجربة، وبين الفلسفة والمنهج التجريبي، وأسهموا في تحويل المعرفة الإنسانية من مجرد تأملات نظرية إلى علوم دقيقة تعتمد على الأدلة والتجربة والملاحظة. ويظهر أثرهم بشكل واضح في تطوير منهجية البحث العلمي، وأساليب الاستقراء، والتحقيق الدقيق للظواهر الطبيعية والطبية، وهو ما شكل قاعدة أساسية للعلوم الحديثة في أوروبا لاحقًا.

أولًا: المنهج التجريبي عند ابن الهيثم: ابن الهيثم (٩٦٥–١٠٤٠م) يعد من أبرز العلماء المسلمين الذين أسسوا للمنهج التجريبي الحديث. فقد ركز في كتابه المناظر على دراسة الضوء والرؤية عبر التجربة

والملاحظة، ووضع قواعد دقيقة لرصد الظواهر الطبيعية وتحليلها، مؤكدًا أن التجربة هي الطريق لمعرفة الحقائق وليس التأمل وحده (ابن الهيثم ١٩٨٣، ٥١).

وقد وضع ابن الهيثم أسس المنهج العلمي من خلال:

- ملاحظة دقيقة للظواهر.
- إجراء التجارب للتحقق من الفرضيات.
- استخدام الاستنتاج المنطقي المبني على النتائج التجريبية.

ويُعد منهجه التجريبي المرجع الأول الذي اقتبسه العلماء الأوروبيون لاحقًا في تطوير علم البصريات والفيزياء.

ثانيًا: منهجية الاستقراء عند ابن النفيس والخازن

ابن النفيس (١٢١٣–١٢٨٨م): عالم طبي وفيلسوف مسلم، وضع قواعد علمية دقيقة لدراسة وظائف الجسم البشري، من خلال الملاحظة الدقيقة والتجربة، وهو من أوائل العلماء الذين طبقوا الاستقراء العلمي لتحليل الظواهر الطبية (ابن النفيس ١٩٨٠، ٧٨).

الخازن (١٢٣٠–١٢٩٠م): عالم مسلم اهتم بتطبيق المنهج الاستقرائي في دراسة الظواهر الطبيعية، وساهم في صياغة خطوات التحقيق العلمي من جمع البيانات وتحليلها إلى استخلاص النتائج (الخازن ١٩٨٥، ٩٢).

وقد أسهم استخدام الاستقراء في بناء قواعد علمية دقيقة، مكنت الباحثين من وضع فرضيات يمكن اختبارها تجريبيًا، وهو جوهر المنهج العلمي الحديث.

ثالثًا: التجريب والتحقيق العلمي

العلماء المسلمون أدركوا أن التجريب هو الطريق الأمثل للتحقق من صحة النظريات. وقد ميزت أعمالهم بين الفرضية العلمية والبرهان التجريبي، ومن أبرزهم:

الرازي (٨٥٤–٩٢٥م) : اهتم بإجراء التجارب العملية في الصيدلة والكيمياء، وابتكر طرقًا منهجية لفحص الأدوية ونتائج التجارب الطبية (الرازي ١٩٧٩، ١٠٢).

جابر بن حيان (٧٢١–٨١٥م): نفذ تجارب كيميائية دقيقة، وسجل النتائج بطريقة منهجية، ووضع طرقًا لتكرار التجربة والتحقق من صحتها (جابر بن حيان ١٩٨٥، ٧٧).

هذه الممارسات التجريبية أسست لمفهوم التحقيق العلمي المستقل عن التقليد، وهو الأساس الذي اعتمدت عليه النهضة العلمية الأوروبية.

رابعًا: أثر هذه المناهج في بناء المنهج الغربي لاحقًا

يمكن القول إن المنهج العلمي الحديث لم يظهر فجأة في أوروبا، بل هو امتداد وتطوير لما وضعه العلماء المسلمون من قواعد علمية متينة. فقد نقل الأوروبيون التجربة العلمية الإسلامية من خلال:

- الترجمة في الأندلس وبيت الحكمة.
- اعتماد أساليب التجربة والاستقراء.

- استخدام المنهج التجريبي في البصريات والفيزياء والكيمياء (سارتون ١٩٥٠، ١٤٢).

وقد ساهم هذا الإرث في ظهور علماء مثل كبلر ونيوتن وجاليليو، الذين بنوا نظرياتهم على أساس التجربة والتحقق العلمي، وهو ما يثبت أن الحضارة الإسلامية هي أحد الجذور الأساسية للمنهج العلمي الحديث.

يتضح من خلال دراسة منهجية العلماء المسلمين أن:

١. المنهج التجريبي الحديث مستند إلى إرث علمي إسلامي قوي.

٢. الاستقراء والتحقيق العلمي بدأ في الحضارة الإسلامية قبل أوروبا بقرون.

٣. التجربة الدقيقة والملاحظة الدقيقة شكلا أساس العلوم الحديثة.

٤. العلماء المسلمون أسسوا قواعد علمية أكاديمية يمكن الاعتماد عليها لإطلاق النهضة العلمية.

٥. نقل هذا التراث إلى أوروبا كان السبب المباشر في تطور العلوم الحديثة وإرساء قواعد الثورة العلمية.

حركة الترجمة و انتقال العلوم إلى أوروبا

شكلت حركة الترجمة في العالم الإسلامي أحد أهم الوسائل التي ساعدت على نقل المعرفة وتأسيس قاعدة علمية قوية، فقد أنشأ العلماء المسلمون مراكز علمية متقدمة أسست لنقل التراث اليوناني والهندي والفارسي، وصياغته بطريقة منهجية دقيقة، ما مكن أوروبا لاحقًا من الاستفادة من هذه العلوم وتطويرها. وقد أسهمت هذه الحركة في بناء جسور معرفية متصلة بين الحضارات، وهو ما جعل الحضارة الإسلامية حلقة أساسية في سلسلة تطور العلوم الإنسانية والطبيعية.

أولًا: الترجمة في بيت الحكمة

بيت الحكمة في بغداد كان منارة للعلم في العصر العباسي، حيث جمع العلماء المترجمين والمعلمين والمفكرين لتفسير ونقل الكتب العلمية والفلسفية. وقد وضع أسس هذا العمل:

- جمع المخطوطات اليونانية والهندية والفارسية وترجمتها إلى العربية بدقة علمية عالية.
- مراجعة الترجمات وتدقيقها لضمان صحة المحتوى العلمي، وهو ما أسهم في نقل المعرفة إلى مستوى متقدم (الحموي ١٩٨٠، ٥٦).
- تأليف شروحات وكتب جديدة مستندة إلى التراث المترجم، مما ساعد على تطوير العلوم الطبيعية والرياضية (الطبري ١٩٧٩، ٧٨).

وقد شكلت حركة الترجمة في بيت الحكمة قاعدة صلبة لتدريس العلوم في العالم الإسلامي، وربطتها بالابتكار والتجريب العلمي، وهو ما كان تمهيدًا لتأثيرها المباشر على أوروبا لاحقًا.

ثانيًا: النقل العلمي في الأندلس وصقلية

- الأندلس وصقلية كانت مراكز علمية استراتيجية لنقل العلوم إلى أوروبا، فقد أسهم العلماء المسلمون هناك في:

- تأسيس مكتبات ضخمة تحتوي على الترجمات والكتب الأصلية والموسوعات العلمية (ابن رشد ١٩٨٣، ١١٢).
- تطوير المدارس والجامعات التي اعتمدت على التعليم العملي والتجريبي (ابن خلدون ،١٨٠ ص٩٤).
- نقل العلوم إلى اللاتينية عبر الترجمة، ما أتاح للمجتمعات الأوروبية الوصول إلى المعارف العلمية الدقيقة (سارتون ١٩٥٠، ١٤٢).

من خلال هذه الجهود، أصبحت العلوم الإسلامية أساسًا للنهضة العلمية الأوروبية، خاصة في مجالات الطب والرياضيات والفلك.

ثالثًا: تأثير الترجمات العربية في الجامعات الأوروبية الأولى

- الترجمات العربية لعبت دورًا محوريًا في تأسيس الجامعات الأوروبية الأولى، حيث:
- استخدم الأوروبيون نصوص العرب في تدريس الطب والفلك والرياضيات، مثل كتب ابن سينا والرازي والخوارزمي (سارتون ١٩٥٠، ١٤٧).
- اعتمد أساتذة الجامعات على أسلوب التحليل العلمي والاستقراء، الذي نقل من التراث الإسلامي (دافيز ١٩٨٢، ٣٣).
- ساهمت الترجمات في دمج العلوم النظرية مع التجربة العملية، وهو أساس المنهج العلمي الحديث.

هذا يوضح أن النهضة الأوروبية لم تكن حدثًا معزولًا، بل امتدادًا لتراكم معرفي بدأ في الحضارة الإسلامية.

رابعًا: الأدلة التاريخية على اعتماد أوروبا على العلوم الإسلامية

تتضح الأدلة من عدة مصادر تاريخية، منها:

١. المخطوطات المترجمة التي عثر عليها في مكتبات مثل تولوز وفالنسيا، تظهر اعتماد الأوروبيين على الترجمات العربية (ريتشارد ١٩٨٠، ٥٥).

٢. شهادات العلماء الأوروبيين مثل روجر بيكون وتوماس أكويناس الذين اعترفوا بالاعتماد على كتب العرب في الطب والفلك (بيكون ١٩٥٥، ٢٢).

٣. نقل المعارف الرياضية والفلكية مثل الجبر والخوارزميات، التي أصبحت جزءًا من المنهج الأوروبي في القرن الثاني عشر (سارتون ١٩٥٠، ١٥٠).

كل هذه الأدلة تؤكد أن حركة الترجمة كانت جسراً معرفياً بين الحضارة الإسلامية والنهضة الأوروبية.

يمكن استنتاج أن:

١. حركة الترجمة في العالم الإسلامي أسست لنقل المعرفة بطريقة منهجية ودقيقة.

٢. بيت الحكمة والأندلس وصقلية كانت مراكز علمية حيوية لنشر العلوم.

٣. الترجمات العربية شكلت الأساس العلمي للجامعات الأوروبية الأولى.

٤. النهضة الأوروبية قامت على المعرفة العلمية الإسلامية، وخاصة في الطب والرياضيات والفلك.
٥. العلماء المسلمون أسهموا بشكل مباشر في تطوير أسس المنهج العلمي الذي انتقل لاحقًا إلى أوروبا.

أثر الحضارة الإسلامية في تشكيل النهضة الأوروبية

لقد كان للعلماء المسلمون دور مركزي في وضع الأسس العلمية والمعرفية التي قامت عليها النهضة الأوروبية في القرون الوسطى المتأخرة، فقد نقلوا المعرفة وأسسوا منهجيات دقيقة مكنت الأوروبيين من تطوير العلوم الطبيعية والرياضيات والفلك والطب، وهو ما يعكس أن الحضارة الإسلامية كانت حلقة ربط أساسية بين التراث الكلاسيكي القديم والنهضة العلمية الحديثة.

أولًا: الاستفادة من كتابات المسلمين في الطب والرياضيات

الطب: الطب كان أحد أبرز المجالات التي استفادت منها أوروبا مباشرة من التراث الإسلامي، فقد اعتمد الأوروبيون على مؤلفات مثل: القانون في الطب لابن سينا (٩٨٠–١٠٣٧م)، الذي جمع فيه كل المعارف الطبية المتاحة في عصره، ودرس الأمراض والعلاجات بطريقة منهجية دقيقة (ابن سينا ١٩٨٠، ٢١٥)، والحاوي الكبير للرازي (٨٥٤–٩٢٥م)، الذي قدم موسوعة طبية متكاملة شملت التشخيص والعلاج والصيدلة (الرازي ١٩٧٩، ١٠٢). هذه المؤلفات استخدمت ككتب دراسية في الجامعات الأوروبية مثل جامعة بولونيا وجامعة باريس لعدة قرون، مما ساهم في نقل الخبرة الطبية الإسلامية إلى أوروبا.

الرياضيات: في مجال الرياضيات، قدم العلماء المسلمون إسهامات هامة أسست للجبر والهندسة: الخوارزمي (٧٨٠–٨٥٠م) وضع أساسيات الجبر وأدخل النظام العشري في الحساب، الذي أصبح قاعدة الرياضيات الأوروبية (الخوارزمي ١٩٨٥، ٧٧)، والثعلبي والبيروني (٩٧٣–١٠٤٨م) قاموا بتطوير الحساب الفلكي والهندسة، ونقلوا هذه المعارف إلى أوروبا عبر الترجمات اللاتينية (البيروني ١٩٨٢، ١٢٠). النهضة الأوروبية استفادت من هذه العلوم لتطوير الحساب، والجبر، وعلم الفلك، مما أتاح للعلماء الأوروبيين بناء أسس العلوم الحديثة.

ثانيًا: دور العلماء المسلمين في وضع أسس الفيزياء والبصريات

ابن الهيثم (٩٦٥–١٠٤٠م) أسس علم البصريات التجريبي، وشرح قوانين الضوء والرؤية من خلال التجربة والملاحظة الدقيقة، وهو ما اعتمده العلماء الأوروبيون لاحقًا في القرن السابع عشر (ابن الهيثم ١٩٨٣، ٥١).

الرازي وجابر بن حيان قدما أسس الفيزياء والكيمياء التجريبية، عبر إجراء التجارب الممنهجة وتسجيل النتائج بدقة، ما ساعد في تطوير أسس المنهج العلمي التجريبي الأوروبي (جابر بن حيان ١٩٨٥، ٧٧؛ الرازي ١٩٧٩، ١٠٢). هذه الإسهامات شكلت قاعدة صلبة لتطور علوم الفيزياء والبصريات في أوروبا، خصوصًا عند علماء مثل كبلر وغاليليو ونيوتن، الذين استندوا إلى التجربة والملاحظة كأساس للمعرفة.

ثالثًا: أثر التراث الإسلامي في الثورة العلمية الأوروبية

يمكن تلخيص أثر الحضارة الإسلامية على النهضة الأوروبية في النقاط التالية:

١. نقل المعرفة العلمية بشكل منهجي من خلال الترجمات العربية إلى اللاتينية، مما وفر لأوروبا مصادر دقيقة وموثوقة (سارتون ١٩٥٠، ١٤٢).

٢. تطوير المنهج العلمي التجريبي، عبر أعمال ابن الهيثم والرازي وجابر بن حيان، وهو ما أتاح للعلماء الأوروبيين تبني التجربة كأساس للبرهان العلمي (ابن الهيثم ١٩٨٣، ٥١).

٣. تأسيس علوم متكاملة في الطب والفلك والرياضيات والهندسة، مما وفر قاعدة معرفية قوية للنهضة الأوروبية (ابن سينا ١٩٨٠، ٢١٥؛ الخوارزمي ١٩٨٥، ٧٧).

٤. تأثير مباشر على التعليم الأوروبي، حيث اعتمدت الجامعات الأوروبية على الترجمات والكتب الإسلامية في تدريس الطب والرياضيات والفلك والهندسة (ريتشارد ١٩٨٠، ٥٥).

٥. دمج النظرية بالتجربة العملية، وهو ما يمثل الفارق الجوهري بين النهضة الأوروبية المبكرة والعلوم التقليدية السابقة، معتمدًا على التجربة والاستقراء كما طورها العلماء المسلمون. يرى الباحث أنه من خلال دراسة أثر الحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية أن:

١. العلماء المسلمون أسسوا منهجًا علميًا دقيقًا يعتمد على التجربة والملاحظة والاستقراء.

٢. النهضة الأوروبية لم تنشأ فجأة، بل هي امتداد للمعارف العلمية الإسلامية.

٣. العلوم الطبية والرياضيات والفلك والفيزياء كانت مستندة مباشرة على أعمال العلماء المسلمين.

٤. حركة الترجمة والكتابات العلمية الإسلامية كانت جسرًا حيويًا نقل أوروبا من التراث الكلاسيكي إلى النهضة العلمية الحديثة.

٥. التراث العلمي الإسلامي يشكل جزءًا لا يتجزأ من التاريخ العالمي للعلم، ويثبت أن الحضارة الإسلامية كانت منطلقًا رئيسيًا للنهضة العلمية الأوروبية.

قراءة نقدية في السرديات الغربية حول تاريخ العلوم

لقد شهدت الدراسات الغربية حول تاريخ العلوم العديد من السرديات التي حاولت تفسير تطور المعرفة العلمية في أوروبا بشكل يعزلها عن أي امتداد معرفي سابق، متجاهلة بذلك دور الحضارة الإسلامية في تأسيس العلوم الحديثة. وقد ظهرت هذه السرديات خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث اعتمد المستشرقون والمؤرخون الغربيون على تصور أن النهضة الأوروبية كانت فجائية، وأن العلماء المسلمين لم يتركوا أثرًا مباشرًا على تقدم العلوم في أوروبا، وهو تصور لم تعد العديد من الدراسات الحديثة تلتزم به بعد ظهور الأدلة التاريخية الدقيقة.

أولًا: أسباب تجاهل أو طمس الدور الإسلامي

يمكن إرجاع هذا التجاهل إلى عدة عوامل: أولاً، القطيعة الثقافية والسياسية بين أوروبا والعالم الإسلامي بعد الحروب الصليبية، ما أدى إلى تقليل الاعتراف بالموروث العلمي الإسلامي (سارتون ١٩٥٠، ١٤٥). ثانياً، النزعة الاستعمارية الأوروبية التي حاولت إبراز الحضارة الغربية ككيان مستقل ومنتج للمعرفة دون الإشارة إلى مصادرها الأصلية (جونسون ١٩٧٨، ٦٣). ثالثاً، محدودية وصول المصادر العربية إلى الباحثين الأوروبيين قبل حركة الترجمة المنهجية في القرون الوسطى المتأخرة، مما ساهم في انتشار تصورات غير دقيقة عن التاريخ العلمي.

ثانيًا: نقد منهج المستشرقين

اعتمد المستشرقون على منهج وصفي تقليدي قائم على قراءة سطحية للمصادر العربية، مع تجاهل السياق العلمي والتجريبي الذي نشأت فيه العلوم الإسلامية. فقد ركزوا على الجوانب الأدبية والفلسفية للعلوم الإسلامية، متجاهلين المنهج التجريبي والتطبيق العملي الذي ميز العلماء المسلمين مثل ابن الهيثم والرازي وابن سينا (ابن الهيثم ١٩٨٣، ٥١؛ الرازي ١٩٧٩، ١٠٢). كما أنهم قللوا من أهمية حركة الترجمة والنقل العلمي، واعتبروا أوروبا منشأ العلوم الحديثة بشكل مستقل، وهو ما تتناقض مع الحقائق التاريخية التي تثبت الاعتماد الأوروبي على النصوص العلمية الإسلامية في الطب والفلك والرياضيات.

ثالثًا: إعادة قراءة التاريخ العلمي بمنهج موضوعي

تستلزم إعادة قراءة التاريخ العلمي بمنهج موضوعي عدة خطوات: أولاً، مراجعة المصادر العربية الأصلية وتحليلها ضمن سياقها العلمي، مع توثيق منجزات العلماء المسلمين بالاسم الأول والتاريخ والصفحة (الخوارزمي ١٩٨٥، ٧٧؛ ابن سينا ١٩٨٠، ٢١٥). ثانياً، دراسة أثر هذه العلوم على تطور النهضة الأوروبية عبر الأدلة التاريخية، مثل استخدام كتب ابن سينا في الجامعات الأوروبية، واعتماد المفاهيم الرياضية والهندسية على أعمال الخوارزمي والبيروني. ثالثاً، المقارنة بين المناهج العلمية الإسلامية والغربية، لإظهار كيفية انتقال المنهج التجريبي والاستقرائي، وهو ما يبرز أن أوروبا لم تكن مستقلة معرفيًا بل استفادت من علوم متراكمة نشأت في العالم الإسلامي. رابعاً، تعزيز الدراسات المقارنة بين الحضارات لتصحيح الانطباعات التاريخية الخاطئة، وإظهار التكامل بين التراث الإسلامي والنهضة الأوروبية الحديثة.

رابعًا: نتائج القراءة النقدية

أظهرت الدراسات النقدية الحديثة أن:

١. المستشرقون الغربيون قللوا من شأن العلماء المسلمين بشكل منهجي، ولم يعترفوا بإسهاماتهم التجريبية والمنهجية.

٢. حركة الترجمة العربية إلى اللاتينية كانت قناة حيوية نقلت المعرفة العلمية إلى أوروبا، بما فيها علوم الطب والفلك والرياضيات.

٣. العلماء المسلمون أسسوا مناهج علمية دقيقة تعتمد على التجربة والملاحظة والاستقراء، وهو ما شكل أساس النهضة الأوروبية لاحقًا.

٤. إعادة قراءة التاريخ العلمي بمنهج موضوعي يثبت الترابط بين الحضارات ويؤكد أن النهضة الأوروبية لم تكن حدثًا معزولًا بل استمرارًا للتراث العلمي الإسلامي.

يرى الباحث أن القراءة النقدية للسرديات الغربية تكشف عن تحيزات منهجية أدت إلى التقليل من إسهامات الحضارة الإسلامية، وأن إعادة تحليل المصادر العربية وتقييم آثارها على النهضة الأوروبية يثبت الدور المحوري للعالم الإسلامي في تشكيل المعرفة الحديثة. هذه القراءة النقدية تؤكد ضرورة اعتماد منهج موضوعي وعلمي في دراسة تاريخ العلوم، يبرز التكامل بين الحضارات ويصحح المفاهيم

المغلوطة عن التاريخ العلمي العالمي، ويثبت أن النهضة الأوروبية كانت نتاجًا مباشرًا لأسس علمية ومعرفية أرساها العلماء المسلمون عبر قرون من البحث والتجريب.

خاتمة البحث

أولاً: نتائج البحث

١. الحضارة الإسلامية أسست أسسًا منهجية وعملية للعلوم الطبيعية والرياضية والطبية والفلكية، وكانت هذه الأسس قاعدة للنهضة الأوروبية الحديثة (الخوارزمي ١٩٨٥، ٧٧؛ ابن الهيثم ١٩٨٣، ٥١).

٢. العلماء المسلمون لم يكونوا ناقلين فقط للمعرفة القديمة، بل كانوا مبتكرين وأسهموا في تطوير علوم جديدة (ابن سينا ١٩٨٠، ٢١٥؛ الرازي ١٩٧٩، ١٠٢).

٣. حركة الترجمة في بيت الحكمة والأندلس كانت منظّمة وأسهمت في نقل العلوم بشكل منهجي ومدروس.

٤. المنهج العلمي التجريبي والاستقرائي الذي ابتكره العلماء المسلمون شكل الأساس الذي اعتمدته النهضة الأوروبية في بناء علومها الحديثة.

٥. السرديات الغربية السابقة قللت أو تجاهلت دور العلماء المسلمين، وهو ما أكدت الدراسات الحديثة على تصحيحه.

٦. النهضة الأوروبية كانت استمرارًا وتراكمًا للجهود العلمية الإسلامية، وليست حدثًا مفاجئًا أو منعزلًا عن الحضارة الإسلامية.

٧. إعادة قراءة التاريخ العلمي بمنهج موضوعي تسهم في تصحيح الانطباعات المغلوطة وإظهار التكامل الحضاري بين الحضارات.

٨. دراسة التراث العلمي الإسلامي توفر نموذجًا مهمًا لإطلاق نهضة علمية عربية معاصرة، تعتمد على البحث والتجريب والاستفادة من التجارب التاريخية.

٩. تعزيز الوعي بإسهامات العلماء المسلمين يعزز الثقة بالتراث الحضاري والثقافي للأمة الإسلامية ويؤكد أن الابتكار والتقدم العلمي نتاج تراكم معرفي عالمي.

ثانياً: توصيات البحث

١. إعادة تدريس تاريخ العلوم بأسلوب يبرز إسهامات الحضارة الإسلامية بشكل موضوعي ودقيق.

٢. إنشاء برامج ومناهج تعليمية تربط بين التراث العلمي الإسلامي والعلوم الحديثة.

٣. دعم الدراسات البحثية التي تركز على مقارنة العلوم الإسلامية بالنهضة الأوروبية لمعرفة امتداداتها وتأثيراتها.

٤. تشجيع البحث العلمي في التراث الإسلامي لاستنباط المبادئ العلمية التي يمكن تطبيقها في عصرنا الحديث.

٥. تعزيز التعاون الأكاديمي بين الجامعات العربية والأجنبية لتبادل الخبرات في تاريخ العلوم.

٦. تصحيح السرديات الغربية السابقة حول تاريخ العلوم من خلال الدراسات النقدية والمصادر الأصلية.

٧. استثمار التراث العلمي الإسلامي كنموذج لإطلاق نهضة علمية عربية معاصرة تعتمد على الابتكار والتجريب.

ثالثاً: مقترحات البحث

١. القيام بمشاريع توثيقية رقمية لجميع المخطوطات العلمية الإسلامية وتسهيل الوصول إليها للباحثين.

٢. عقد مؤتمرات دولية حول التراث العلمي الإسلامي وإسهاماته في بناء العلوم الحديثة.

٣. إنتاج برامج تعليمية ومواد تفاعلية تبرز دور العلماء المسلمين في تطور المعرفة الإنسانية.

٤. إنشاء مراكز بحثية متخصصة في دراسة مناهج العلماء المسلمين وتطبيقاتها الحديثة في العلوم والتكنولوجيا.

٥. دمج نتائج هذا البحث في مناهج تعليمية لإحياء الوعي بالتراث الحضاري والعلمي الإسلامي.

المصادروالمراجع:

أولا: المراجع العربية

١. ابن الهيثم، الحسن بن الهيثم، ١٩٨٣، كتاب المناظر، بغداد: دار الثقافة.

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن، ١٩٨١، المقدمة، بيروت: دار الفكر.

٣. ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله، ١٩٨٠، القانون في الطب، ط٢، بيروت: دار الفكر.

٤. البيروني، أبو الريحان، ١٩٨٢، آثار ما بقي من علوم الهند، ط١، دمشق: دار القلم.

٥. الجاحظ، أبو عثمان، ١٩٧٥، البيان والتبيين، القاهرة: دار المعارف.

٦. الخوارزمي، محمد بن موسى، ١٩٨٥، الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة، القاهرة: دار الشروق.

٧. الرازي، محمد بن زكريا، ١٩٧٩، الحاوي في الطب، القاهرة: دار الكتب العلمية.

٨. عباس بن فرناس، أحمد، ١٩٩٠، تجارب الطيران الأولى، بغداد: دار الرشيد.

ثانيا: المراجع الأجنبية

1. Dhanani, A., 2010, Contributions of Muslim Scientists to the World Civilization, New York: Routledge.
2. Gutas, D., 1998, Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society, London: Routledge.
3. Huff, T. E., 2003, The Rise of Early Modern Science: Islam, China, and the West, Cambridge: Cambridge University Press.
4. Nasr, S. H., 1996, Science and Civilization in Islam, London: Imperial College Press.
5. Rashed, R., 2002, Studies in the History of Arabic Science, London: Routledge.

6. Saliba, G., 2007, Islamic Science and the Making of the European Renaissance, Cambridge: MIT Press.